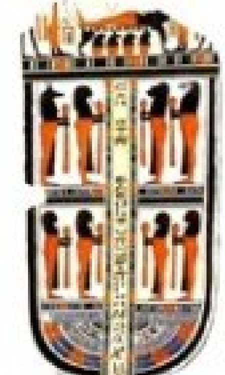


موسوعة

وصف مصر

٢٣

الجزء الثالث و العشرون



وصف آثار أبيدوس / قاو الكبير
أسيوط / الأشمونين
أنتينوبيه "الشيخ عبادة"
مصر الوسطى / الفيوم







تأليف علماء الحملة الفرنسية



مكتبة الأسرة
٢٠٠٣

وصف مصر

آثار العصور القديمة

٢٣

الجزء الثالث والعشرون

وصف مصر

وصف آثار أبيدوس - قاو الكبير - أسيوط - الأشمونين - انتينويه (الشيخ عباده) - مصر الوسطى - الفيوم

تأليف

علماء الحملة الفرنسية



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

موسوعة وصف مصر

إشراف : حسين البنهاوى

وصف مصر
الجزء الثالث والعشرون
تأليف : علماء الحملة الفرنسية

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

المقدمة

يستهل السيد/ چومار أولى دراسات هذا الجزء بوصف آثار أبيدوس التى تتبع مركز البلينا بمحافظة سوهاج وتشمل قرى العرابة المدفونة وبنى منصور والغايات، وقد عُرفت فى النصوص المصرية القديمة باسمى «آبجو وآبدو» ثم أصبحت أبيدوس فى اليونانية وكذا فى العربية.

وكانت عاصمة دينية للإقليم الثامن من أقاليم مصر العُليا والمركز الرئيسى لعبادة الثالوث : اوزوريس ـ ايزيس ـ حورس، واعتقد المصريون القدماء أن رأس معبودهم أوزوريس قد دفنت فى هذا المكان ومن ثم فقد أصبحت أبيدوس مزارًا له قدسية كبيرة.

وبسبب مركزها الدينى والسياسى حظيت باهتمام ملوك وأفراد الشعب المصرى فبُنيت بها العديد من المعابد والمقاصير والمقابر فضلاً عن اللوحات التذكارية التى تسجل زيارة الأفراد لمدينة أوزوريس المقدسة.

وفى عصر الأسرة الأولى حرص بعض الملوك على إعداد مقابر لهم فى ابيدوس وكذا فعل بعض ملوك الأسرة الثانية، وتدرجت أهمية المدينة بانتشار عقيدة الرب أوزوريس رب العالم الآخر، وكانت الأعياد والاحتفالات تقام سنويًا احتفالاً بذكرى موت وبعث معبودها، ووصل الاهتمام بالمدينة إلى ذروته فى عصر

الدولة الحديثة، واحتفظت بمكانتها فى العصور المتأخرة والعصرين اليونانى والرومانى حتى عهد الامبراطور الرومانى چستنيان الذى أمر بتدمير معابدها وقتل كهنتها.

ونتيجة انتشار المسيحية شيدت بعض الأديرة والكنائس هناك وتحولت بعض المعابد إلى أماكن لممارسة طقوس الديانة المسيحية. ومن أهم المناطق الأثرية التى تضمها أبيدوس : مقابر أم الجعاب ـ شونة الزبيب ـ كوم السلطان ـ الجبانة الجنوبية ـ معبد رمسيس الأول ـ معبد رمسيس الثانى ـ معبد سيتى الأول ويُعد من أشهر آثار المدينة، وقد شيد فى عهد الأسرة التاسعة عشرة بأمر من سيتى الأول ثم أكمله ابنه رمسيس الثانى ثم حفيده الملك مرنبتاح، ولعل هذا المعبد يعبر ـ بنقوشه ونصوصه وألوانه الزاهية ـ عن ازدهار الفن المصرى فى عصر الدولة الحديثة وإبداع المصريين فى العمارة وعقائدهم ونظمهم الإدارية والسياسية، ويتميز المعبد بأنه يضم سبع مقاصير خصصت لاوزوريس وايزيس وحورس وآمون رع وحور آختى وبتاح ولمشيد المعبد الملك سيتى الأول، وكذا بأنه يضم واحدة من أكمل قوائم الملوك وهى «قائمة أبيدوس» ويُستعان بها فى التأريخ المصرى، هذا بالإضافة إلى أنه يضم قوائم الأرباب ومناظر متكاملة لقصة موت أوزوريس وبعثه ومناظر طقوس الخدمة اليومية لتمثال الإله بالمعبد وعددًا كبيرًا من صور الأرباب والربات.

وخلف معبد سيتى الأول يقع الأوزيريون وهو إحدى المنشآت الفريدة فى العمارة المصرية، ويعنى الاسم «مقر أو ضريح أوزوريس» ويعد المبنى ضريحًا رمزيًا تجرى فيه دفنة رمزية تجمع بين الملك المتوفى وبين أوزوريس رب الأبدية والعالم الآخر، ويرجع المبنى الحالى إلى عهد سيتى الأول ومرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة.

ثم ننتقل لأخميم وآثارها، وتقع المدينة على الضفة الشرقية للنيل قبالة مدينة سوهاج، وقد اشتق اسمها من «خنت مين» ـ أى مقر الرب مين، وعُرفت باسم خمين فى القبطية وبانوبوليس فى اليونانية ثم أخميم فى العربية، وكانت عاصمة الإقليم التاسع من أقاليم مصر العُليا ومركزًا لعبادة الرب مين رب الخصوبة.

وقد لعبت أخميم دورًا هامًا طوال العصور القديمة حتى الفتح الإسلامى؛ إلا أن المدينة الحديثة بنيت فوق أطلال القديمة مما أدى إلى صعوبة الكشف الكلى عنها، ومن أهم الآثار التى اكتشفت فيها حديثًا : أجزاء من معبد رمسيس الثانى وتمثال رائع للأميرة مريت آمون ابنته وتمثال ضخم لرمسيس الثانى يصعب استخراجه لوقوعه أسفل جبانة المسلمين هذا بالاضافة إلى تماثيل ترجع للعصرين اليونانى والرومانى.

أما جبل هريدى فيقع إلى الشرق من نزلة الشيخ الهريدى على الضفة الشرقية للنيل قبالة مدينة طهطا، ويضم الجبل مجموعة من المقابر الصخرية التى ترجع لعصر الدولتين القديمة والحديثة بالإضافة إلى بعض المقاصير لاسيما التى تخص المعبودين بتاح وچحوتى، وقد استخدم الجبل كمحجر قديم.

وتحت عنوان : «وصف آثار انتيوبوليس» يتناول السيد/ چومار فى الفصل الثانى عشر آثار قاو الكبير التى كانت تقع على البر الشرقى للنيل أمام قرية قاو ثم جرفها النيل فى أواخر القرن الثامن عشر، وحلت محلها قرية الهمامية، أما اسمها فيرجع للاسم المصرى القديم «قاو» الذى يعنى «العالى» واحتفظت القرية بنفس للاسم فى القبطية والعربية، وتضم قاو الكبير جبانات للدولتين القديمة والوسطى، وأحد المعابد البطلمية الذى جرفه النهر مع القرية القديمة.

وتعد قاو الكبير إحدى قرى محافظة أسيوط موضوع الفصل الثالث عشر، وتعد هذه المدينة من أكثر المدن المصرية ثراء بالمواقع الأثرية لاسيما تلك التى تنتمى لعصور ما قبل التاريخ والدولة القديمة والانتقال الأول، وقد عرفت فى النصوص المصرية القديمة باسم «ساوت» ربما بمعنى «المحمية» ثم ليكوبوليس - أى مدينة الذئب فى اليونانية؛ حيث كان حيوان ابن آوى وهو من الفصيلة الكلبية رمز معبودها الأكبر الرب «وب واووت» أى فاتح الطرق، وكانت المدينة عاصمة الإقليم الثالث عشر من أقاليم مصر العليا.

وتقع أسيوط على رأس طريق القوافل بين وادى النيل والواحة الخارجة ودارفور غرب السودان ويشتهر بدرب الأربعين؛ ولهذا فقد تميزت بموقع

استراتيچى هام أضاف لها وشجع أهل البلاد على الاستيطان بها، واحتفظت المدينة بأهميتها حتى العصرين اليونانى والرومانى.

وبالإضافة إلى قاو الكبير تعد البدارى ودير تاسا من مراكز عصور ما قبل التاريخ، أما مواقع العصور التاريخية فمنها : مير - دير الجبراوى - أسيوط - دير ريقه - شطب - كوم اشقاو.

وتقع المقابر الصخرية بجبانة أسيوط فى الجبل الغربى، وتؤرخ معظمها بعصر الانتقال الأول والأسرة الثانية عشرة، ومن أهم وأكبر مقابرها مقبرة حب چفا حاكم أسيوط والنوبة فى عهد الملك سنوسرت الأول، وقد مات ودفن فى كرما عند الشلال الثالث؛ والواضح أنه لم يدفن بمقبرته بأسيوط. وتمدنا مقابر أسيوط الصخرية بمعلومات هامة عن فترة الانتقال الأول، بالإضافة إلى مناظر الجنود التى تعبر عن الصراع بين حكام أهناسيا وطيبة، وتحكى نصوصها حلقة من حلقات هذا الصراع، بالإضافة إلى جبانة دير ريقة التى تقع على بعد حوالى ١٠ كم إلى الجنوب من أسيوط، وهى مخصصة لدفن حكام شطب وكبار رجال الإقليم الحادى عشر من أقاليم مصر العليا فى عصر الدولتين الوسطى والحديثة.

ثم ننتقل إلى آثار الأشمونين التى تقع على بعد ٨ كم إلى الشمال الغربى من ملوى، واسمها مشتق من الكلمة المصرية القديمة «خمنو» بمعنى «ثمانية» ويرتبط هذا الرقم واسم المدينة بإحدى نظريات خلق الكون لدى المصريين القدماء، وأصبح الاسم شمون وشمنو فى القبطية والأشمونين فى العربية، وأطلق عليها اليونانيون اسم هرموبوليس بمعنى مدينة الرب هرمس الذى يمثل بالنسبة لهم ما يمثله چحوتى بالنسبة للمصرين وكان رب الحكمة والمعرفة.

ومثلت الأشمونين مركز عبادته الرئيسى، ونتيجة لثقلها الدينى فقد تمتعت المدينة باهتمام ملوك وحكام مصر حتى نهاية العصر الرومانى فأقيمت فيها المعابد والتماثيل لچحوتى ومن أبرز ما بقى فيها من آثار تمثال ضخم على هيئة قرد يرمز لرب المدينة الرئيسى وهو أكبر تمثال لقرد عثر عليه فى مصر.

وأطلال معابد من عهد الملوك امنمحات الثانى من الدولة الوسطى وامنحتب الثالث ورمسيس الثانى ومرنبتاح من الدولة الحديثة وتحت نبف من الأسرة الثلاثين، وأطلال لمعبد شيده فيليب ارهيدايوس الأخ غير الشقيق للأسكندر الأكبر؛ هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الأعمدة البطلمية والرومانية وحمامات ترجع للعصر الرومانى ومعبد لنيرون؛ إلا أن الآثار قد تأثرت كثيرًا بسبب الزحف الزراعى والعمرانى فقد بنيت حول الأطلال وفوقها ثلاث قرى هى: الأشمونين، والإدارة، وإبراهيم عوض.

أما آثار مصر الوسطى فقد تناولها العلماء الفرنسيون فى مناطق مختلفة وسنلقى الضوء هنا على أكثرها تميزًا:

بنى حسن : وتتبع مركز أبى قرقاص وهى جبانة الإقليم السادس عشر من أقاليم مصر العليا وتشتهر بمقابرها الصخرية التى يؤرخ معظمها بعصر الدولة الوسطى، وأهمها لحكام الإقليم مثل مقابر خنوم حتب الثانى وباقت الثالث وخنتى، ويبلغ عدد المقابر بوجه عام ٣٩ مقبرة، وترجع أهميتها إلى ما تحويه من مناظر تتناول جوانب الحياة اليومية والعقائدية.

اسطبل عنتر : وتقع على بعد ٣ كم جنوب بنى حسن وتضم معبدًا صغيرًا كرس للربة باخت التى تأخذ هيئة القطة واللبوءة، وقد شيد هذا المعبد فى عهد حتشبسوت وتحتمس الثالث. وسميت المنطقة باسم «كهف ارتميس» وهى ربة يونانية رُبط بينها وبين الربة باخت.

البهنسا : تتبع بنى مزار، وقد عرفت فى النصوص المصرية باسم «برمجت»، وكانت عاصمة الإقليم التاسع عشر من أقاليم مصر العُليا، وأطلق اليونانيون عليها اسم اوكسيرنخوس، وترجع شهرتها إلى العدد الكبير من البرديات اليونانية التى عُثر عليها هناك بالإضافة لأطلال معبد ست وتاورت ورننوتت.

اهناسيا : إحدى مدن محافظة بنى سويف وتقع على بحر يوسف وكانت عاصمة الإقليم ٢١ من أقاليم مصر العليا، وتعرف أيضًا باسم أهناس وأم الكيمان نظرًا لما تضمه من تلال الآثار، وقد عُرفت فى النصوص اليونانية باسم

هراقليوبوليس - أى مدينة هرقل الذى ربط اليونانيون بينه وبين المعبود المصرى «حر - حرى - شاف»، وكانت عاصمة مصر فى عصر الأسرتين التاسعة والعاشرة. وارتبطت المدينة فى الأساطير المصرية بالشمس وأوزوريس وحورس وسخمت ولذا كانت لها أهمية خاصة وشيد ملوك مصر القديمة المعابد لرب أهناسيا.

ميدوم : تقع على بعد ٢٥ كم تقريبًا من مدينة الواسطى شمال محافظة بنى سويف، وتشتهر بوجود الهرم الناقص الذى ينسب للملك حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة وأكمله الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة، وتعد المجموعة الجنائزية المرتبطة بالهرم أقدم مجموعة هرمية، كما تشتهر بلوحة أوز ميدوم تلك اللوحة الرائعة بالمتحف المصرى التى كانت جزءًا من مصطبة الأمير نفرماعت وزوجته اتت.

الفيوم : تتميز محافظة الفيوم بما تضمه من عدد كبير من الآثار الهامة التى ترجع للعصور الفرعونية واليونانية والرومانية؛ هذا بالإضافة إلى الآثار حضارات ما قبل الأسرات. والفيوم عبارة عن منخفض تبلغ مساحته ٢٥٤٩ كم وهى إحدى محافظات شمال الصعيد، وكانت المنطقة تتحول إلى بحيرة فى بدايات التاريخ الفرعونى تقوم على شواطئها عدد من القرى المصرية، وقد أطلق على هذه البحيرة اسم «مر - ور» - أى البحر العظيم، وحُرفت فى اليونانية إلى «موريس» وكان اسم المدينة بيوم فى القبطية ثم فيوم ثم الفيوم بعد إضافة أداة التعريف العربية، كما عرفت باسم ارسنوى فى العصر البطلمى نسبة إلى زوجة بطليموس الثانى، وكانت الفيوم مركز عبادة الرب «سوبك» التمساح؛ ولذا فقد حملت اسم كروكوديلوبوليس - أى مدينة التماسيح ولعبت دورًا هامًا فى تاريخ مصر القديم وحظيت باهتمام ملوكها فأقيمت بها المعابد والمسلات والسدود مثل سد اللاهون الذى أقامه سنوسرت الثانى وكذا منشآت امنمحات الثالث لتنظيم دخول المياه إلى الإقليم وحفر القنوات لرى أكبر مساحة من الأراضى. وتضم الفيوم مناطق أثرية عديدة تحوى آثار فرعونية ويونانية ورومانية وقبطية وإسلامية، ومن مناطقها الهامة:

هـوارة : التى تقع على بعد ٩ كم جنوب شـرقى المدينة وتضم هـرم امنمحات الثالث واللابيرانت أو قصـر التيه الذى تناوله كبار الكتاب والمؤرخون القدامى بالوصف وسجلوا إعجابهم به، واسم اللابيـرانت أطلقـه هيـرودوت على المعبـد ليشبهه بقصر اللابيـرانت الكريتى الشهير، وأغلب الظن أن تشييده يرجع لعهد امنمحات الثالث فى الأسرة الثانية عشرة وربما أكملته من بعده ابنته سويك نفرو آخر ملكات هذه الأسرة.

اللاهون : ربما يعنى اسمها فم البحيرة وهو محرف عن اسم «را ـ حن» ومن أهم آثار المنطقة هـرم سنوسـرت الثانى الضخم المشيد من الطوب اللبن والمنشآت الملحقة به.

أبجــيج : وتقع على بعد ٣ كم جنوب غربى الفيوم وقد عثر بها على مسلة للملك سنوسـرت الأول من الجـرانيت الوردى وتخـتلف عن المسـلات الأخـرى؛ فقمتها ليست هرمية الشكل كما هو معتاد وإنما تبدو كأنها لوحة مستطيلة وبها تجـويف ربما ثبت به رمـز أو تمثـال أو غـيـر ذلك، وقـد زُينت جـوانبـهـا بمناظر ونصوص للملك سنوسرت الأول يخلد بعضها ذكرى بدء زراعة أرض الفيوم.

كانت هذه هى المناطق الأثرية الرئيسـية التى أشار إليها العلماء الفرنسيون تحت عنوان «آثار مصر الوسطى» بالإضافة إلى مواقع أخرى تضمنها العمل مثل: محاجر جبل أبى الفدا ـ القوصية ـ التل ـ ديروط الشـريـف ـ ملوى ـ دير الأنبا بشـاى ـ مـدينة داوود ـ حـائط العـجـوز ـ زواية الميـتـين ـ سـوادة ـ المنيـا ـ طحـا العمودين ـ طهنة ـ وادى وجبل الطير ـ سمالوط ـ الفشن ـ طرشوب ـ بنى سويف ـ أطفيح ـ طرة ـ المتانية ـ منية دهشور ـ بابيلون ... وغيرها؛ وبناء عليه فإن هذا الجزء من وصف آثار العصور القديمة يتناول عددًا لا بأس به من المواقع الأثرية فى مصر.. أرجو أن يستمتع القارئ بما يقدمه من معلومات.

والله ولى التوفيق،

منى زهير الشايب

٢٠٠٣/٧/٥

الفصل الحادى عشر
وصف آثار أبيدوس
بقلم السيد:چومار

المبحث الأول: طبوغرافيا وجغرافيا مقارنة

كانت مدينة أبيدوس ـ وفقًا لما ذكره استرابون ـ ثانى مدن الصعيد، وكان يوجد بها قصر لممنون كما هى الحال فى مدينة طيبة وترجع هذه الميزة ـ بلا شك ـ إلى موقعها الطبوغرافى وإلى وجودها على أحد المنحنيات الكبرى لوادى النيل؛ وكذلك إلى العرض الكبير لضفتى النهر فى هذا الموضع. وبينما كان النيل يغمر بمياهه أغلبية المدن الأخرى كانت مدينة أبيدوس مدينة محصورة داخل البلاد متاخمة ـ تمامًا ـ للسلسلة الليبية وللأراضى الصالحة للزراعة، ودفع موقعها سكانها المهددين بزحف الرمال إلى الاهتمام بإيقاف هذا الزحف بأية وسيلة. وكانت المياه التى تروى أبيدوس تأتى من فرع معين للنيل لا نراه اليوم فى صورة فرع واحد متصل ومستمر؛ وإن كانت آثاره موجودة فى كل منطقة غربى النهر بداية من أبيدوس حتى ترعة مريوط، وهى عبارة عن عدة قنوات تتفاوت فى أهميتها وتحمل أسماء مختلفة، وسبق وأن أشرت فى حديثى عن هذا المجرى القديم فى دراسة عن بحيرة الفيوم إلى أنه كان ينبع من الصعيد العلوى ويلتقى ببحر يوسف أو قناة يوسف. وما من شك فى أن أحد الأسباب الرئيسية لاختيار هذا المكان النائى ليكون مقرًا لمدينة كبرى هو موقعه بالقرب من فرع النيل هذا، ومما يؤيد هذا الرأى بشكل ما إقامة مدينة أخرى كبيرة ـ فيما بعد ـ فى نفس

المقاطعة وإن كانت أكثر قربًا من مصب القناة، وكانت هذه المدينة تقع - وفقًا لرواية استرابون - بعد أبيدوس، أى إلى الجنوب؛ وأعنى بذلك ديوس بوليس بارفا أو (طيبة الصغرى) التى تُجمع الآراء على أنها كانت توجد فى المكان الذى يطلق عليه المصريون اليوم هوُ. وقد تَركت هاتان المدينتان الساحة خالية لمدينة أخرى هى بطوليمايس عاصمة الصعيد فى عصر البطالمة والتى لا يتردد استرابون فى مقارنتها بمنف. وفى النهاية لا تزال جرجا - الواقعة على مقربة من أبيدوس والتى سميت باسم دير قديم للقديس چورچ - حتى يومنا هذا هى مركز الصعيد(١).

من الثابت إذن أن هذه البقعة من أرض مصر أُختيرت على مر الأزمنة كموقع لمدينة رئيسية، ونرى فى الموقع الجغرافى لأبيدوس أحد الأسباب القوية لذلك؛ فقد أصبح من المعروف منذ أن تم تصحيح المعلومات الشائعة حول مجرى النيل - وفقًا لما أُجرى فى مصر من دراسات حديثة - أن هذا النهر بعد أن يجرى صوب الشمال من أسوان حتى دندرة يميل بمقدار درجتين(٢)، ثم ينعطف فجأة نحو الغرب وينساب فى هذا الاتجاه لمسافة ثمانية عشر فرسخًا وعند وصوله إلى أبيدوس يقوم بتغيير مساره مرة أخرى ويجرى إلى الشمال الغربى.

ولم تكن هذه التغيرات التى طرأت على مجرى النيل لتحول دون إقامة مدن كبرى، بما أن النهر وضفافه يمثلون وحدهم - تقريبًا - الجزء العلوى للبلاد بالكامل؛ وحيث إن الصخور والرمال تكون حاجزًا يصعب تخطيه فإن الطرق تُشق بالضرورة بشكل مواز لمجرى النهر، كما أن جميع الطرقات تتبع نفس الاتجاه. وهذه الأسباب التى قد سبقت - على ما يبدو لى - إنشاء أبيدوس هى على الأرجح نفس الأسباب التى من أجلها أقيمت دندرة عند أول أكبر منحنيات النيل بداية من أسوان .

---

(١) تقع جرجا - تقريبًا - فى موقع متوسط بين أبيدوس والمنشأة (بطوليمايس القديمة) - أى أنها تقع شمال أبيدوس بمسافة أربعة فراسخ - تقريبًا - وتقع جنوب المنشية بأربعة فراسخ - أيضًا -. وتقع هوُ على ضفة النيل على بعد ثمانية فراسخ - تقريبًا - إلى الشرق من أبيدوس.

(٢) وبزيادة ثلاث دقائق تقريبًا.

وقد كان من الممكن بناء على هذه العوامل الطبوغرافية وحدها الاستدلال على موقع أبيدوس حتى فى حالة عدم وجود مبنى كبير بهذه المدينة له طرازه المعمارى الخاص الذى لا يدع مجالاً للخطأ أو للبحث فى مكان آخر عن قصر ممنون، ولكن، حتى فى حالة عدم وجود هذه المعطيات فإن الجغرافى لن يُخطئ فى تحديد موضع أبيدوس بفضل ما معه من خرائط. وفقًا لخريطة انطونيانوس فإن ثمانية وعشرين ميلاً تفصل طيبة الصغرى عن أبيدوس؛ ولكن لو أنك مشيت - من قرية هوُ - إلى الطريق التى تتبع ضفاف النيل ووسط الوادى لمسافة أكثر من واحد وأربعين مترًا - أى ما يعادل ثمانية وعشرين ميلاً رومانيًا[١] ستصل بالتحديد إلى مكان يسمى مدفونة[٢]؛ حيث يقع المعبد موضوع الحديث.

وقد أمكننا - منذ قليل - التعرف على القناة التى يتحدث عنها استرابون، وكذلك على موقع هذه المدينة بالقرب من الجبال الليبية[٣] كما يحددها بطلميوس.

ويقدر بلينى أن المسافة بين هذه المدينة والنهر تساوى سبعة أميال ونصف الميل، ونجد اليوم أن مدفونة تبعد سبعة آلاف وخمسمائة متر عن أقرب نقطة للنيل - أى أكثر قليلاً من خمسة أميال؛ ولكن يبدو أن السهل الواسع الذى يوجد

---

(١) يعادل الميل الروماني ١٤٧٨ مترًا تقريبًا. وعلى خط مستقيم وعلى طول الصحراء تقل المسافة كثيرًا لتصبح ٢٥٠٠٠ مترًا فقط. انظر دراستي حول المقاييس المترية عند المصريين القدماء

(٢) كلمة عربية تعنى مدفونة أو مردومة .

	دائرة العرض	دائرة طول
(٣) إقليم ثينيتس وعاصمة بطوليمايس هيرميوس هيرميس	٥٠ ٦١°	١٠ ٢٧°
من البحر المتوسط إلى غرب أبيدوس	٢٠ ٦١°	٥٠ ٢٦°
إقليم ديوس بوليس من أعلى مكان وحتى عاصمة ديوس بوليس	٥٠ ٦٤°	٤٠ ٢٦°

الصغرى (بطليموس ، الجغرافيا ، الكتاب ٤ ، المقطع ٥)

تقع مدفونة - وفقًا للخريطة الحديثة - على خط عرض ١٢ ٢٦° درجة تقريبًا بدلاً من ٥٠ ٢٦° ولكن من المعروف إنه لابد من تصحيح كل خطوط العرض التى ذكرها بطليموس. انظر وصف إدفو الفصل الخامس، المبحث الأول.

على الضفة اليمنى كان فى الماضى جزءًا من الضفة اليسرى وأن النيل قد انحسر عنه من عام إلى آخر.

ولا يبدو لنا من الأهمية بمكان البحث عن عامل إضافى يساعدنا فى تحديد موقع أبيدوس ولكن علينا أن نوجه النظر إلى أن الواحة الكبرى التى تسمى اليوم بالعربية "الواحة" كانت موازية لهذه المدينة؛ إلا أن السائد الآن فى البلاد هو أن موقع ضواحى جرجا هو الأكثر قربًا من الواحة.

وعلى الرغم من كل هذه المعلومات، ظللنا طويلاً نجهل موضع أبيدوس فى مصر بسبب موقعها البعيد جدًا عن النيل. وكان الاعتقاد السائد حينذاك أن أبيدوس كانت توجد فى بربا، وهو مكان يقع على بعد نصف فرسخ من جرجا(١)، وفى الثانى والعشرين من أكتوبر ١٧٩٩ فقط عند مرورنا بجرجا حدثنا القائد الفرنسى عن أطلال مدينة كبيرة تقع على بعد ثلاثة أو أربعة فراسخ من محل إقامته؛ فما كان منا إلا أن توجهنا إلى مكان هذه الأطلال بعد أن عبرنا سهلاً فسيحًا، وبعد فحص وقياس الطريق المؤدية لها والمساحة التى تحتلها هذه الأطلال والأثر الموجود هناك لم نجد أية صعوبة فى التعرف على أبيدوس التى وصفها استرابون وبلينى وبطلميوس. وكنت أجهل - فى ذلك الحين - أن دانفيل قد سبقنى فى التعرف على هذا الموقع ذاته؛ فقد استطاع دانفيل - لكونه رحالة محيطًا بكل خصائص البلاد ومن خلال الاستعانة بخريطة ب. سيكارد وبرواية الرحالة الفطن جرانچر أن يحدد نفس الموقع لأبيدوس، وإن كان قد أغفل أهمية المعبد الذى لم يزل موجودًا بها والمساحة الرحبة للأنقاض التى تحيط به. وفى غمار نشوتنا بالتوصل لمثل هذا التطابق مع رأيه لم يكن بوسعنا أن نمنع أنفسنا من الإعجاب ببصيرته الثاقبة؛ وهذا ليس بالمثال الوحيد الذى يدل على عظمة هذا الجغرافى الماهر الذى استطاع - دائمًا - أن يستخلص الحقيقة من أكثر المعلومات تناقضا.

---

(١) بربا تعنى معبدًا. وفقًا لتقرير القائد الفرنسى، توجد على مقربة قرية تسمى أبيدو، ولست أعرف بالقرب من جرجا غير قرية بياضى؛ ولكن يوجد فى ضواحى أبيدوس وهُو العديد من المواقع التى تحمل اسم مشابه للاسم الذى يحمله المكان الذى نتناوله بالبحث. انظر ما يلى.

وقد أصابتنا الدهشة الشديدة عند وصولنا إلى موقع الأنقاض لرؤية الرمال التى تغطيها من أكثر من ناحية والتى تهدد جميع النواحى الأخرى. ولم تفلح الزراعات والقنوات وجميع الوسائل التى كانت تستخدم أيام الرخاء فى مصر لحماية أبيدوس من غزو الرمال القادمة من الصحراء الغربية فى إنقاذ هذه المدينة من مصيرها؛ فلم تتحول المدينة - فقط - إلى أنقاض ولكن هذه الأنقاض نفسها رُدمت [illegible] - وبدلاً من مدينة مزدهرة أو على الأقل مأهولة بالسكان مثل مدن مصر العليا الحديثة جرجا وإسنا وأسيوط... الخ، لم نجد فى موقعها سوى قريتين فقيرتين بهما عدد محدود من السكان، تتعرض مساكنهما المتداعية لنفس الخطر، ولا يوجد بهما ما يُكفل لهما الحماية من هذه الجبال المتحركة التى تزداد ارتفاعًا باستمرار. ومن الممكن أن تساعد أشجار النخيل التى تطوق الأنقاض فى حماية قريتى الخربة والحربا لبعض الوقت إلى أن تختفى هذه الأشجار وتلك القرى بدورها فى النهاية تحت الرمال المتراكمة.

ويرجع سبب غزارة الرمال فى هذه النقطة إلى فتحة وادٍ توافق موقع أبيدوس والتى جعلت للرمال - على مر الأزمنة - منفذًا حرًا خلال موسم الرياح الغربية والشمالية الغربية التى تعد للأسف بالنسبة للضفة اليسرى هى الرياح الغالبة فى البلاد. ولا شك فى أن قدماء المصريين قد استطاعوا فى أقاليم مماثلة التغلب على زحف الرمال سواء بإقامة أسوار أو بمزروعات على مختلف أنواعها، ولكن لابد وأن هذه الأسوار والقنوات قد اختفت مع اختفاء المنشآت القديمة ولا ترى لها أى آثار باقية؛ كما هو الحال بالنسبة لأشجار الأقنثة والسنط التى استخدمت على الأرجح لهذا الغرض(١).

وكانت الوسيلة الآمنة والسهلة تتمثل فى إقامة أسوار من الطوب اللَبن عند مصبات الأودية الصغيرة. وفعلاً، تم تطبيق هذه الوسيلة فى كثير من الأماكن ؛

---

(١) يخبرنا اثينايوس أنه كان يوجد فى أبيدوس نفسها غابة من الأشواك كانت دومًا مزدهرة وربما كان الهدف من هذه الغابة المقدسة أن تكون بمثابة حاجز ضد زحف الكثبان الرملية. انظر فى ما يلى المبحث الخامس؛ حيث تم ذكر أقوال اثينايوس بالكامل.

وهذا ما يفسر هذا الكم الهائل من الأسوار فى مداخل الصحارى الغربية، وفى بعض الأحيان فى أعماق الصحارى[1]. وفى كل مكان تحمل هذه الأسوار نفس الاسم «حائط العجوز» أى الأسوار القديمة أو "أسوار العجوز" ؛ مما يدل بصورة كافية على أصلها. ومن جهة أخرى، فإن هذه الأسوار سميكة جدًا ومبنية مثل جميع الأسوار المصرية القديمة من طوب أحمر كبير الحجم. وما من شك فى أن السور الذى يحيط بمعبد كوم أمبو على الضفة اليمنى كان مخصصًا فى الأساس لحمايتها من الرمال التى تهب فى موسم الرياح من الشرق؛ وكذلك الأمر بالنسبة للكثير من الأسوار الأخرى التى لازلنا نراها إلى اليوم.

ولست أدرى إلى أى عصر يرجع بناء حائط حَجرى ضخم جدًا يقع فى الطرف الجنوبى لأنقاض أبيدوس؛ ولكن سواء أكانت الأجزاء الباقية من هذا السور هى بقايا بناء أقامه المصريون أو كان هذا السور ينتمى لعصر أحدث عهدًا فمن المحتمل جدًا أنه أقيم لصد رمال الصحراء، وعلى الرغم من كونه مختفيًا بشكل جزئى تحت الرمال فمن المؤكد أنه لو كان قد تم إقامة سور مماثل نحو الشمال قليلاً لأمكن حماية قصر ممنون والأبنية الأخرى.

المبحث الثانى : نبذة تاريخية

يعد استرابون أقدم مَن كتب عن مدينة أبيدوس، بينما لم يشر هيرودوت ولا ديودور الصقلى إليها. ووفقًا لما ذكره استرابون، كانت أبيدوس فيما مضى مدينة كبيرة جدًا وكانت تحتل المكانة الأولى بعد طيبة ؛ أما فى عصره فلم تكن أكثر من مجرد ضيعة متواضعة.

وبما أن وصف استرابون يعد الأكثر شمولاً فيما وصلنا من العصور القديمة، ففيما يلى نصه بالكامل:

"تقع مدينة أبيدوس جنوب بطوليمايس ويوجد بها قصر لممنون مبنى بطريقة رائعة من الحجر وعلى نفس النسق المعمارى الذى وصفناه عندما تحدثنا عن

---

(١) لقد رأيت عددًا كبيرًا منها فى مصر الوسطى على مسافة ما فى الصحراء.

المتاهة ولكنه لا يحتوى على هذا الكم الهائل من التقسيمات. ويوجد فى أسفله نبع تؤدى إليه سراديب حلزونية الشكل ومنحوتة من كتلة حجر واحدة تخلب اللُب سواء لضخامتها أو لبنيانها. ويوصل إلى هذا المكان قناة متفرعة من النهر الكبير، يحيط بها غابة مقدسة من الأقنث، مهداة إلى أبوللو. ويبدو أن أبيدوس كانت مدينة كبيرة تحتل المركز الأول بعد طيبة ؛ ولكنها اليوم ليست أكثر من مجرد ضيعة. لو أن المصريين - كما يُرْوَى - أطلقوا على ممنون اسم أوسيمانداياس فإن المتاهة تعد هى أيضًا بناءًا خاصًا بممنون شيدته نفس الأيدى التى شيدت مبانى أبيدوس وطيبة حيث يوجد فى هذه الأخيرة مبان يطلق عليها المنونيا، وتقع فى مواجهة أبيدوس أولى الواحات الثلاث الموجودة فى الصحراء الليبية، وتقدر المسافة بمسيرة سبعة أيام فى الصحراء، ويكثر فى هذا المكان المياه والنبيذ وجميع أصناف المؤن[١].

وغير مسموح قط فى معبد أوزوريس - الذى يعبد فى أبيدوس - بالغناء أو بالعزف على الناى أو على القيثارة إكرامًا للمعبود كما هو معتاد بالنسبة للآلهة

---

(١) ومن أعلى مدينة أبيدوس فى المكان الذى يوجد فيه ممنونيوم المبنى الملكى الذى يعد علامة مميزة مبنى من الأحجار الصلبة، وعن طريق نفس العمال الذين بنوا وشيدوا قصر التيه، ولم يكن ذلك المبنى - فقط - بل الخزان - أيضاً - الذى أقيم على عمق كبير؛ ولهذا فعلى المرء أن يهبط إلى أسفل قبو البهو المُشيد من حجر واحد بحجم رائع، وبجودة فائقة. ويوجد قناة تتجه من هذا المكان إلى النهر العظيم، ويوجد إلى جوار القناة بستان نبات الصبار الذى كان مقدسًا للإله أبوللو. وكانت مدينة أبيدوس تبدو كمدينة عظيمة تلى طيبة من حيث الأهمية ولكنها أصبحت الآن مستعمرة صغيرة؛ ولكن لو كان ممنون يدعى اوسيمانداياس بواسطة المصريين كما يقولون فربما ينتمى قصر التيه أيضاً إلى عصر ممنون ، وشُيد أيضًا بواسطة نفس الرجال الذين شيدوا كلا من ممنونيا ابيدوس وطيبه، ولهذا يقال أيضاً أن هناك بعض مبانى ممنون فى طيبة. وفى الاتجاه المقابل لأبيدوس توجد الواحة الأولى مما ذكر فى أعلاه وهى ثلاث واحات فى الصحراء الليبية، وتستغرق الرحلة سبعة أيام وهى المسافة من مدينة أبيدوس حتى الصحراء. ويوجد - أيضاً - مستعمرة كثيرة المياه والخير، وهى قادرة على إنتاج كل الأشياء - استرابون، الكتاب ١٧ ، ص ٨١٢ .

ترجمت بهذه الكلمات ولكنه لا يحتوى على هذا الكم الهائل من التقسيمات؛ وهذا هو المعنى الذى غلب على ظنى، بينما أغفل كاسابون والمترجمون الآخرون هذا المقطع وقد افترضوا - ومعهم كل الحق - أن هناك جزءًا ناقصًا.

الأخرى. وتقع ديوسبوليس الصغرى (هُو) على مبعدة من أبيدوس، وتليها مدينة دندرة [١].

ويخبرنا بلينى أن هذه المدينة التى تشتهر بقصر ممنون وبمعبد أوزوريس كانت تبعد عن النهر بمسافة سبعة آلاف وخمسمائة قدمًا وتمتد حتى تقترب من الصحراء الليبية[٢]، ويقول سولون أيضًا ـ الذى يبدو أنه قد نقل عن بلينى ـ إن أبيدوس وهى إحدى مدن الصعيد كانت تشتهر بقصر ممنون وبمعبد أوزوريس[٣].

وهناك فقرة لبلوتارخ[٤] توضح لنا بشكل أفضل ما كانت تحظى به أبيدوس من شهرة فيقول: إنه كان من المعتاد أن يُدفن عِلْيَة القوم فى مصر فى أبيدوس التى كانت تُعرف هى ومنف بأنهما تحويان مقبرة أوزوريس الحقيقية. وهو قول غير واضح ولكن قد يكون من الممكن تفسير معناه. ومهما يكن من أمر هذه القصة الخيالية فهى دليل على المكانة العليا التى كانت تحتلها أبيدوس بين المدن المصرية.

وفيما يلى المقطع الكامل الذى يحاول فيه الكاتب أن يشرح أسطورة إيزيس وأوزيريس على غرابتها:

«هذه الأسطورة هى أحد الأسباب الظاهرة التى تحملنا على الاعتقاد بحقيقة أخرى؛ شأنها فى ذلك شأن القرابين التى يختلط فيها الحزن بالرثاء وتنظيم وتنسيق المعابد التى تكون مفتوحة فى بعض الأماكن فى شكل أجنحة كبيرة وممرات طويلة مكشوفة وتحتوى فى أماكن أخرى على سراديب مظلمة تحت الأرض تشبه ـ تمامًا المقابرالتى تُدفن فيها جثث الموتى. وعلى الرغم من أنه يقال إن جثة أوزوريس موزعة فى عدة أماكن فإن أتباع ديانة أوزوريس يعتقدون

---

(١) وفى مدينة أبيدوس حيث يُعبد الإله أوزوريس، وفى معبد أوزوريس لم يكن يسمح للغناء أو لعزف الناى أو القيثارة أن يبدأ شعائر الطقوس تكريمًا للإله؛ حيث كانت هذه هى العادة عند وجود آلهة أخرى. وبعد أبيدوس، تصل إلى مدينة دندرة (استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ٨١٤).

(٢) التاريخ الطبيعى (الكتاب الخامس، المقطع التاسع).

(٣) التاريخ العام، المقطع الخامس والثلاثين.

(٤) إيزيس وأوزوريس.

أن الجسد الحقيقى موجود فى أبيدوس وفى منف؛ مما يدفع أكثر الناس نفوذًا وأوسعهم ثراء فى مصر بأن يأمروا بدفن جثثهم فى مدينة أبيدوس حتى يتسنى لهم أن يرقدوا فى نفس المقبرة التى يرقد بها أوزوريس[١] ".

ويروى أميان مارسلان أنه كان يوجد فى أبيدوس نبؤة مشهورة باسم الإله بسا الذى كان يعبد منذ القدم ويحظى بالتبجيل فى كل البلاد المجاورة. ونلاحظ من خلال روايته أن استشارة هذا الإله كانت لا تزال مستمرة فى زمن المؤرخ أى فى عهد كونستتس[٢] .

والفقرة التى ذكرها بورفير فى رسالته الموجهة إلى آنبون لا تدع أى مجال للشك فى أن أكثر طقوس الديانة المصرية أهمية كانت تقام فى أبيدوس، وتبدأ هذه الفقرة كما يلى: "زلزل السماء، واكشف النقاب عن طقوس إيزيس، وافش الأسرار الخفية فى أبيدوس، واوقف مسيرة السفينة بريس... الخ[٣].

وعند ذكر كلمة أبيدوس يروى اتيان البيزنطى أن هذه المدينة هى مستعمرة سُميت باسم شخص يدعى أبيدوس[٤] .

وفى تعليقه على القصيدة التى كتبها دينس لوبريجيت يشير اوستات - أيضًا إلى هذه المدينة فى البيت رقم ٥١٦ حيث يتحدث شاعر الجغرافيا عن أبيدوس فيقول : " كان يوجد فى مصر مدينة أبيدوس المتاخمة للصحراء الليبية ويوجد

---

(١) نسخة أميوت صفحة ٣٢٣.

(٢) توجد مدينة أبيدوس فى جانب من الصعيد حيث يوجد - أيضًا هناك بسا حيث كانت تدعى مدينة الوحى؛ حيث انتشرت بواسطة الأقدمين، وفى الأماكن المحيطة وقُدمت على أنها جزء من العبادات المرغوبة وكانت مكتوبة وعملوا على شرحها وتبسيطها، والتعليق عليها، وأعطت هذه العبادات إجابات على الحائرين. ومن خلال معتنقيها وصلت إلى الإمبراطورية وكان عليها ميل (اميان مارسلان، الكتاب ١٩) . كان سكان ضواحى الشيخ عبادة يعبدون الإله بسا أيضًا. انظر وصف الشيخ عبادة وما يليه.

(٣) والقول أن السماء اتسعت، وأن أسرار إيزيس قد اختفت، وأجزاء أوزيريس قد جمعت، وأن تيفون (إله الشر) يتسلى أو يتسامر، وفى الشدة ينذر بالتهديد ولا تُرى الأمور، ولا توجد قدرة، هل غابت؟ يا للانحدار؟ وبدأ الخوف والهلع، هل أصبحوا كالأطفال البلهاء؟ انظروا إنه مُعلم المعبد هو الذى يكتب هذا مثل أحاديث المصريين. (عن العجائب والغرائب) .

(٤) انظر ما يلى المبحث الخامس .

بها قصر لمنون وهى تحتل المنزلة الثانية بعد طيبة. وكان فى إيطاليا - أيضًا - مدينة تدعى أبيدوس[١] ". وكان عدد سكان هذه المدينة وفقًا لإليان بعدد مَن كانوا يفزعون عند سماع صوت البوق[٢]. وأخيرًا، فقد ذكرت - أيضًا - مدينة أبيدوس عند ابيفان - تحت اسم Abydis خلال حديثه عن الطقوس الدينية التى كانت تقام فى هذه المدينة كما فى مدن بوباسطه وسايس وبيلوز[٣]. وكان الرومان يحتفظون بجنود فى هذه المدينة. ونقرأ فى ملخص عن الإمبراطورية أن الجناح الثامن لسلاح الفرسان كان يقيم فى Abydus-Abocedo[٤] .

بالإضافة إلى الفقرات التى نقلتها فيما سبق عن اثينايوس وعن بطلميوس وعن خط سير أنطونيانوس، فهذه هى المعلومات التى تمكنت من جمعها من بين ما كتب عن هذه المدينة القديمة. وهؤلاء الكتاب لم ينقلوا لنا سوى النذر اليسير من الحقائق التى توضح تاريخ هذه المدينة؛ وكذلك فعلوا فيما يتعلق بأغلب المدن المصرية، ونجد أنفسنا مضطرين لمعاينة الآثار نفسها إذا أردنا معرفة المزيد عنها.

ولا غنى عن دراسة الآثار - ولا سيما فى هذه البلاد - لمعرفتها تمام المعرفة، إذ أن مؤرخى العصور القديمة اعتادوا فى حديثهم عن المدن أن يذكروا أسماءها فقط؛ ومع ذلك فقد أغفلوا ذكر الكثير من هذه المدن التى رأينا بقايا هائلة لها.

أما فيما يختص بالرحالة المحدثين فقد عاهدنا أنفسنا - خلال كتابة هذا الوصف عن مصر - على ألا نتعرض لروايتهم التى عادة ما تكون منقوصة وتفتقر

---

(١) وكما كان يُقال أن مدينة أبيدوس مصرية ليبية ، وكانت تحت سيطرة الملك ممنون ، والثانية بعد مدينة طيبة ذات المائة باب، ويحكى أيضًا أن هناك أبيدوس إيطالية، (اوستات ، البيت ٥١٦). ومن الجدير بالملاحظة، كلمة (الليبية) التى نعت العالم المفسر لهوميروس بها أبيدوس.

(٢) وكان لديهم البوق ويعزفون به، وأن أبيدوس المصرية ومدينة ليكوبوليس (اليان ، الطبيعة الحيوانية، الكتاب ١٠ ، المقطع ٢٨) .

(٣) فى أبيدى - (فى مكان) فى أبيدو - (يقصد فى هذه الكلمات التغيير المورفولوجى للكلمة).

(٤) لم يتم قط تفسير هذا الاسم Abocedo ولكنه ناتج فى اعتقادى عن مجرد خطأ كتابى، بدلاً من كتابة كلمة أبودو (Aboudo) (ملاحظات تاريخية عن الإمبراطورية ص ٢١٤).

إلى اندقة. ويبدو أن سيكارد وجرانچر هما - فقط - اللذان شاهدا أبيدوس بوضوح[١] .

وسأختتم هذه الملاحظات الجغرافية والتاريخية بأن أقترح رأيًا حول التطبيق الفعلى الذى يجب أن نفعله - فى رأى - حيال اسم ديوس بوليس بارفا (هوُ الحالية) الذى لا يعنى شيئًا آخر غير طيبة الصغرى أو طيبة الثانية، بما أن الاسم الإغريقى الذى أطلق على طيبة هو فى الواقع ديوس بوليس ماجنا. وتبعًا لما ذكره الكتاب فإن أبيدوس كانت هى طيبة الثانية.

كيف تسنى للإغريق أن يتجاهلوا أهمية أبيدوس والمساحة التى تشغلها المدينة والآثار التى كانت تزدان بها ؟ كيف لم تصبح مثل هذه المدينة عاصمة لمقاطعة ما ولماذا فضل أن تكون هذه العاصمة فى مكان صغير يسمى اليوم هُو، لا نجد فيه سوى بضع أجزاء متناثرة؟ أليس من الأفضل أن تحظى هذه النقطة - التى كانت تتميز بكونها مرفآ على النيل - ببعض الاهتمام، عندما هجرت أبيدوس التى اجتاحتها الرمال فيما بعد ؟!

استطاع هذا الموقع الكائن على ضفة النهر أن يضلل بطلميوس نفسه الذى كان يميز أبيدوس المحصورة داخل الأراضى عن حاضرة المقاطعة وعن بطوليمايس ثم أصبحت جرجا بدورها هى العاصمة، وقد لا يعد هذا سببًا لافتراض أن عاصمة الإقليم القديمة كانت فى الأصل تقع فى هذا الموضع من ضفة النيل. وأمكن إذن أن تصبح المدينة الصغيرة القديمة الواقعة فى هو

---

(١) سأكتفى بالقول بأن جرانچر أطلق عليها اسم بربا وهو اسم نوعى يعنى معبدا، بينما يُطلق على القرية الواقعة فى الشمال اسم الخربه الذى تجاهله أو التبس عنده مع بربا، وقد يكون هذا الالتباس كافيًا لتضليل مسافر يبحث عن أطلال أبيدوس؛ لأنه يوجد بالقرب - تماما - من جرجا مكان يسمى بربا، كما أن المصريين يطلقون نفس الاسم على كل الأمكنة التى يوجد أو وجد فيها معبد. ولم يتحدث جرانچر عن القرية الجنوبية التى تسمى الخربة التى تكلم عنها - فى المقابل - ب. سيكارد دون أن يذكر القرية الشمالية. فلم يعرف كل منهما إلا إحدى القريتين. ويطلق جرانچر اسم مدفونه على المدينة بأكملها. ويصف سفارى بناء مختلف تمام الاختلاف عن معبد أبيدوس ويقع من جهة أخرى على بُعد فرسخ واحد من جرجا... الخ.

عاصمة الصعيد، بعدما هُجِرَت أبيدوس؛ لكن فى الأصل وتحت الحكم المصرى القديم فليس حقيقيًا أن مدينة أبيدوس التى يزينها قصر ممنون ومقبرة أوزوريس ويوجد بها مبان شيدتها نفس الأيدى التى شيدت طيبة والتى تستحق أخيرًا أن تكون فى الطليعة بعد هذه العاصمة الكبيرة.. أقول إن مثل هذه المدينة لم تكن حاضرة مقاطعة كما لم تكن هى التى حملت نفس لقب طيبة الصغرى الذى نقله لنا الرومان.

المبحث الثالث : الآثار الباقية فى أبيدوس

لكى نصل إلى أبيدوس ننطلق ـ كما قلت ـ من جرجا ونسلك طريقها المتجهة نحو الجنوب والجنوب الغربى.

ونجتاز ـ فى البداية ـ سهلاً خصيبًا واسعًا يبدو فى غاية الروعة تتخلله القنوات وتعبره السدود المكسوة بالطوب[1]. وتتجه هذه السدود صوب الصحراء وتختلف مواضعها بحيث تحجز مياه الفيضان داخل أراضى القرى المختلفة، ومن هنا تنتقل إلى الأراضى السُفلى من خلال قناطر صغيرة موزعة على مسافات متقاربة.

وتزدان الدروب هنا وهناك بأشجار النبق و التوت مما يذكرنا كثيرًا بضواحى افينيان. وعند نهاية السد الكبير نتبع حدود الرمال طيلة ساعة؛ لنصل بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف إلى قرية الخربة؛ وتقع هذه القرية الكثيرة السكان بعد التلال التى تمثل كل ما تبقى من المساكن القديمة. وفى هذا المكان، تبدأ أطلال أبيدوس فى الظهور ونرى عددًا كبيرًا من المبانى الحجرية المنهارة والأوانى الفخارية المهشمة وأنواعًا شتى من الأنقاض تحيط بها ـ على خلاف المعتاد ـ غابات صغيرة من أشجار النخيل[2].

وتشق التلال طريق ضيقة ومتعرجة تؤدى على بُعد ألف ومائتى متر إلى قرية ثانية تُسمى الخربة تتكون من كفرين صغيرين يوحى مظهرهما بالفقر

---

(١) انظر لوحة ٣٧، شكل ١.

(٢) انظر خريطة الأطلال، لوحة ٣٥، المجلد الرابع.

الشديد، على الرغم من أن المناطق الواقعة جهة الشرق مزروعة بشكل جيد جدًا، ويتم ريها عن طريق ترعة زرزورة[١] التى تصب فيها ترعة أخرى تسمى أبو أحمر تجرى عند سفح تلال الأنقاض. وتمر الترعة الكبيرة بقرية ساجه الواقعة على بعد ألف متر تقريبًا من هذا المكان والتى يوجد بها أنقاض بناء قديم مغمورة بالمياه. ويرتدى غالبية السكان ملابس من الصوف الأبيض مثل الأعراب، ولقد بدا لى أنهم ينتمون بالفعل إلى هؤلاء القوم؛ وأعنى بذلك أنهم ينتسبون - على ما يبدو - لعائلات عربية عريقة استقرت فى البلاد كما حدث ذلك فى كل مكان تقريبًا على حدود الصحراء الغربية[٢] .

ونجد على يمين الطريق قبل قرية الخرية بقايا باب من الجرانيت الأحمر لا تزال إحدى دعاماته قائمة، كما نجد على مبعدة أنقاضًا مكدسة وكتلاً ضخمة من الجرانيت الأحمر والأسود الذى استغله الفلاحون فى صناعة الرحى. وتدل أكوام الأحجار الموجودة فى هذا الموضع والأسطح التى لا تزال ظاهرة من بناء قد غطته الرمال تمامًا عن وجود أثر قديم، وقد تكون هذه الكتلة هى كل ما تبقى من معبد أوزوريس. ووجدنا - أيضًا - أجزاء من تمثال ضخم من الجرانيت الأحمر وكذلك الجزء السفلى من تمثال بالحجم الطبيعى لشخص جاث منحوت من الجرانيت الأسود؛ ويستحق هذا التمثال الأخير أن نشير إليه بصفة خاصة بل إنه يستحق وصفًا مفصلاً أيضًا؛ لجمال مادته ونحته ورونقه النادرين! كانت هذه القطعة الثمينة تمثل أميرًا - وفقًا لما يبدو من ردائه - وقد فقد أعلى الجسد بالكامل وكذلك الساعدان، ولو كنا نمتلك الوسائل الكافية لاستحقت هذه القطعة اليوم عناء التنقيب عنها، ونرى أن الحزام بكامله قد زُين بخطوط منكسرة ومتعرجة قد نحتت بمهارة، ولقد غُطِّىَ الفخذان برداء له تضليعات دقيقة بينما تركت الساقان والقدمان عارية، كما زخرفت قاعدة التمثال برموز هيروغليفية وكذلك الكتلة التى تفصل بين الركبتين.

---

(١) تتبع ترعة زرزوة من النيل، عند قرية المعصرة على بعد ثلاثة فراسخ.

(٢) انظر الملاحظات حول أعراب مصر الوسطى، الدولة الحديثة، الجزء الأول.

وقد عبر عن استدارة الأفخاذ على الوجه الأكمل الذى يدل على بنيان فتى فى شرخ الشباب. ولقد تفوق الفنان المصرى على نفسه ولا سيما عند نحته للساقين وللتوأمين وللعقبين ولما تبقى من أصابع القدمين. ولم نكن قد رأينا فى أى مكان آخر قطعة بهذا الجمال فى الأسلوب وبهذه العناية فى التنفيذ باستثناء رأس التمثال الضخم المصنوع من الجرانيت الوردى الذى وجد فى ممنونيم أو معبد رمسيس الثانى الموجود فى طيبة وعدة أجزاء لكتلة من الجرانيت عليها ستة أشكال وجدت فى الكرنك[١]. ويمكن أن يكون هذا التمثال الموجود فى أبيدوس هو أجمل ما صنعه الإزميل المصرى[٢].

ونرى فى وسط الأطلال ـ تمامًا كثبانًا رملية كما فى الصحراء؛ مما ينتج عنه تناقض مدهش بين لون الركام البنى الداكن واللون الأبيض الناصع لهذه الكثبان الرملية ويشبه هذا التناقض تأثير الثلج عند ذوبانه على أرض سوداء تاركًا التربة مكشوفة هنا وهناك.

ويقع المعبد الذى تغطيه الرمال ـ جزئيًا ـ إلى الجنوب من تل كبير من الأنقاض، فيما بين كفرى قرية الخربة على بعد ألف متر تقريبًا قبل الطرف الجنوبى. ويتميز هذا المعبد بلون أحجاره البيضاء. وقبل أن أتفرغ لوصفه سأنهى جولتى بين أنقاض وضواحى المدينة. يوجد صوب الطرف الجنوبى الشرقى خائط سميك من الطوب المصرى يبدو أنه وضع كسد فى مواجهة هجمة الرمال. ويوجد على مبعدة تل مرتفع وبعض الكتل الحجرية الكبيرة. وتخترق الرمال بكثرة من ناحية الغرب كل هذه المنطقة. وفى الجهة الشرقية نرى صهريجًا وضريحًا وبعض الحدائق.

وإذا ما توجهنا من الطرف الجنوبى للأنقاض صوب الشمال الغربى ندخل فى كثبان رملية تنتهى على بعد فرسخ واحد بسلسلة الجبال الليبية الوعرة. ونلحظ فى داخل الجبل فجوات هنا وهناك، لم تستطع الرمال أن تسدها تمامًا.

---

(١) انظر لوحة ٣٢، شكل ٦، المجلد الثانى، واللوحة ٣١، المجلد الثالث.

(٢) انظر لوحة ٣٧، المجلد الرابع، الأشكال من ٦ إلى ١٢.

وتمثل هذه الفتحات - على الأرجح - مدخلاً للمقابر الصخرية الخاصة بسكان أبيدوس القدماء. ونجد على الأرض - بطول تسعمائة متر - كمية كبيرة جدًا من لفائف وبقايا المومياوات، وصولاً إلى مكان فسيح يحيطه سور من الطوب اللَّبِن، الذى كان - وفقًا لما يحكيه السكان - ديرًا فى سالف الزمان؛ ولكن ليس من السهل معرفة الغرض الحقيقى منه. ينقسم هذا السور إلى جزءين: الأول أو الخارجى قليل الارتفاع ويقدر سمكه بأربعة أقدام، وعلى بعد اثنتى عشرة قدمًا يوجد الجزء الثانى الذى يبلغ سمكه اثنتى عشرة قدمًا والذى يرتفع لأكثر من اثنين وثلاثين قدمًا (أى عشرة أمتار ونصف المتر)، وتشبه المسافة الفاصلة بين هذين السورين طريق مغطاة تشرف على السهل ويحجبها السور الخارجى كما لو كان يخفيها حاجز. وتبلغ الخانة الإجمالية لهذا السور الضخم نحو ثمان وعشرين قدمًا؛ بينما تبلغ القياسات الداخلية للساحة ٣٦٠ قدمًا على ١٧٠. ويبلغ طول الطوب الأحمر الذى استخدمه البناءون ٢٥ سنتيمترًا بينما يبلغ ارتفاعه عشرة سنتيمترات[1]، ويوجد حالياً ست فتحات فى السور الثانى، ويمتلئ الداخل تمامًا كالخارج بالرمال واللفائف وعظام المومياوات. ومن اللافت للنظر، أننا لا نجد فى الجزء الداخلى المغطى بالرديم فى حقيقة الأمر أى أثر لبناء ونجدنا مضطرين للتكهن إما أن تكون المساكن المهدمة قد اختفت - تمامًا - تحت الرمال، أو من الجائز أن هذا المكان كان جبانة واسعة وأن هذا البناء الضخم السميك الذى يبلغ ٢٨ قدمًا كان يحوى أقبية أو حجرات صغيرة لتوضع فيها المومياوات التى تغطى مخلفاتها اليوم الأرض بأكملها تقريبًا؛ ولكن هذا التفسير الأخير قد لا يمكن من خلاله - أيضًا - إلقاء الضوء على حقبة البناء، بما أن المسيحيين الأوائل - كما نعرف - كانوا معتادين - أيضًا - على تحنيط أمواتهم.

ويطلق العرب والسكان على هذه الساحة اسم شونة الزبيب؛ هذا الاسم الذى - وفقاً لما ذكره جرانچر - قد أعطاه دانفيل لموقع ما يوجد على بعد ستة فراسخ داخل الصحراء، ونلحظ أن هذا المكان ينتمى بالفعل إلى أنقاض أبيدوس.

---

(١) انظر اللوحة ٣٧، المجلد الرابع، الأشكال من ٢ إلى ٥.

ولقد أكد لى المواطنون أنه لا يوجد أى موقع أو أية أنقاض فى الصحراء تحمل نفس الاسم على هذه المسافة.

وعلى بعد أكثر من مائتين وخمسين مترًا تقريبًا من ناحية الشمال توجد ساحة أخرى تسمى دير النصارى وهى مبنية - أيضًا - من الطوب ويبدو أنه قد تم ترميمها، ولا يسكن هذا الدير اليوم سوى راهبين، ويبلغ أكبر قياس بالداخل مائة وثمانين قدمًا. ويوجد فى منتصف أحد الجوانب باب واسع من الخشب يتم إغلاقه جيدًا، وفى داخل الساحة توجد بئر لخدمة الدير.

ولم أستطع معرفة ما إذا كان هؤلاء الرهبان من المسيحيين الأقباط مثل نساك بحيرات النطرون، ولم يسنح لى الوقت لزيارة الدير من الداخل، وقد لمحت - فقط - رهبانًا يطلون من إحدى النوافذ ينظرون دونما اكتراث لوجوه وملابس أوروبية لم يسبق لهم - دون شك - رؤيتها فى هذه العزلة النائية[١].

وإذا ما تقدمنا بعيدًا نحو الشمال لمسافة مائتى متر نصل إلى مبان متهدمة من الحجر توجد عند طرف الأجزاء الواقعة أقصى شمال الأنقاض[٢]. ومن هذه النقطة نرى قرية الخربة شرقًا والتى توجد عند بداية نفس هذه الأنقاض. وعند وصولى لهذه النقطة أجدنى على وشك الرحيل بعد أن أنهيت بذلك جولتى الشاملة بين بقايا أبيدوس القديمة. ولا تقل حدود المدينة الخارجية الحالية عن سبعة آلاف متر، ويبلغ أكثر الحدود طولاً والذى يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى نحو ألفين وثمانمائة متر؛ بينما يبلغ أطول الحدود عرضًا تسعمائة متر ولكن يبدو أن هذا الحد قد فقد الكثير بسبب تراكم الرمال

---

(١) ووفقًا لرواية ب. سيكارد علينا أن ننظر إلى هذا الدير على أنه الدير الذى يسمى أبو موسى أو دير القس موسى؛ هذا الناسك الشهير المولود فى البلينا، بما أن الرحالة حدد موقعه إلى الغرب من قرية الحربة أسفل جبل أفودس. انظر الملاحظات حول الجغرافية المصرية بقلم كاترمير.

(٢) ومع ذلك فعلى بعد مائتى متر لا تزال توجد أكمة مرتفعة جدًا من الجائز أنها تحتوى تحت الرمال على أنقاض أثرية؛ حيث من الممكن افتراض وجود معبد الإله بس فى هذا الموقع؛ حيث إنه كان يوجد معبد يسمى بريا إلى الشمال من دير أبو موسى وفقًا للأثر الصعيدى الذى نشره زويجا والذى ذكره اتيان كاترمير، ولكن هذا الموقع متميز - تمامًا - عن المدينة؛ حيث كان يوجد بالضرورة معبد أوزوريس نفسه.

ولاسيما فى الجزء الجنوبى من الأنقاض. وعلى الرغم من أن هذه القياسات تتم عن مدينة فى غاية الاتساع؛ لكن بما أنه ليس بوسعنا رؤية المساحة بالكامل لكونها متوارية تحت الرمال فمن الجائز أن امتداد مساحة أبيدوس كان أكثر رحابة من الأنقاض التى يمكن رؤيتها اليوم.

المبحث الرابع : معبد أبيدوس

ذكرت آنفًا أن المعبد يقع عند الطرف الجنوبى للأنقاض لكن لابد من تحديد هذا الموقع بدقة؛ نظرًا لزحف الرمال المتزايد الذى ربما يخفيه ـ تمامًا ـ ذات يوم، وحينئذ سيكون من الممكن العثور على مكانه بواسطة المقاييس الدقيقة والمسافات التى تفصل المبنى عن نقاط ثابتة؛ وبذلك ستكون نتيجة رحلة الفرنسيين إلى مصر قياس التأثير المتوالى للزمن وللظواهر المناخية على وجود وحفظ الآثار.

ويمكن اعتبار السورين الكبيرين المبنيين من الحجر والقناة التى تحيط بأنقاض المدينة نقاطًا ثابتة من شأنها القيام بالدور الذى سبق وذكرته. والحالة هذه؛ فقد وجدت من خلال الخريطة أن مسافة ٣٢٠ مترًا تفصل الرواق المقبى الواقع فى منتصف المعبد عن أقرب نقطة من قناة أبو أحمر، وأن ١٣٢٠ مترًا تفصل هذه النقطة عن الزاوية الشرقية لشونة الزبيب على خط مستقيم، وأن هناك ١٦٧٥ مترًا بينها وبين الزاوية الشرقية لدير النصارى. ويمكن أن تتراكم الرمال ذات يوم على قرية الخربة التى تنقسم إلى جزءين مثل المعبد نفسه؛ ولكن لكونها أكثر ارتفاعًا فسيمكننا الرجوع إلى مكانها للعثور على موقع الأثر. وهناك ٢٧٥ مترًا تفصل الكفر الواقع ناحية الشمال عن نفس نقطة المعبد، ومن هذا الأخير إلى منتصف الكفر الواقع نحو الجنوب الشرقى توجد مسافة ٣٤٠ مترًا. وأخيرًا، يقع الباب المصنوع من الجرانيت على بعد ٣٩٠ مترا.

وكان محور المبنى متجهًا من شمال الشمال الشرقى إلى جنوب الجنوب الغربى، ويبلغ البعد الطولى ـ أى الذى باتجاه المحور ٥٧ مترًا فى الأجزاء

الوحيدة التى اكتشفناها ؛ ولكن هذا الطول كان أكبر كثيرًا من ذلك. ويبلغ عرض الجزء الظاهر ١٠٣ أمتار تقريبًا بداية من حائط السور شرقًا وحتى آخر صفة أعمدة لا تزال باقية.

ويبدو أنه قد تم قطع جزء من مواد البناء من الجبل المجاور. ذاك الجزء من الحجر الجيرى الأبيض ذى الملمس الناعم القابل للصقل نوعًا ما؛ ولكن من ضمن ما يتفرد به هذا الأثر أن مواد بنائه تتكون من نوعين مختلفين: أولهما الحجر الرملى وثانيهما الحجر الجيرى، وأعتقد أنه المبنى الوحيد فى مصر الموجود على هذه الحالة. ويعد الجزء المبنى بالحجر الرملى هو الأكبر والأكثر اتساعًا حيث صنعت منه الأروقة وصفات الأعمدة والمبانى الواقعة فى الجنوب الشرقى. أما الجزء المبنى من الحجر الجيرى، فقد بنيت منه المبانى الجانبية[1] الواقعة فى الشمال الغربى.

ونلج داخل المعبد عن طريق السطح لا الباب، ونهبط من خلال الفتحات التى نتجت عن اقتلاع بعض البلاطات، كما يمكننا الدخول - أيضًا - عن طريق ممرات مقبية سأتحدث عنها بعد قليل.

والرديم فى الداخل أقل منه بكثير فى الخارج حتى إنه لا يعوق مرورنا من خلال الأبواب الداخلية أى عائق وإن لم يكن باستطاعتنا رؤية الأعمدة بالكامل فى أى من الأجزاء، ويقدر متوسط الرديم بالثلث على الأقل؛ أما فى الخارج فيصل الركام إلى مستوى الأسقف المزينة للمبنى، وفى الداخل يتراوح الارتفاع حاليًا بين ٢ أو ٤ أمتار و٨ أو ٩ أمتار فى رواق المدخل الكبير. ويمكننا اليوم الولوج داخل خمس عشرة قاعة تقريبًا، بينما سدت الرمال قاعات المدخل والقاعات الأخيرة؛ بحيث لم يصبح من السهل التكهن بما كان يسبق الرواق أو بما كان ينهى المبنى فى جزئه الخلفى. وباتجاه الجنوب الشرقى والجنوب الغربى لم نلحظ إلا بعض الجدران والأعتاب والأعمدة التى ردمت حتى القمة تقريبًا.

---

(١) وقد أبلغنى بذلك السيد جولوا.

وعلى الرغم من هذا الركام أو ربما بسبب هذا الركام نفسه فقد حفظ المبنى من الداخل فى حالة ممتازة؛ فالنقوش والألوان التى كانت تغطيها سليمة تقريبا، ويدهشنا البريق الساطع للون الأزرق ودرجات الألوان الأخرى التى تتكون منها الدهانات كما لو أنه قد تم الانتهاء منها توًا.. !!ومع ذلك، فتوجد أجزاء من المعبد تالفة - تمامًا - فى الجنوب الغربى وفى الجنوب الشرقى كما قلنا، حيث لا نرى سوى أجزاء منفصلة وأيضاً فى الشمال الغربى حيث لا نجد شيئًا تقريبا. ونظن أن الأبنية الموجودة فى الشمال الغربى لكونها مبنية من الحجر الجيرى قد تعرضت لاستغلال السكان المحدثين كى يصنعوا منها الجير.

ويفوق دهشتنا حيال رونق الألوان انبهارنا ببناء خاص لم نره إلا فى هذا الأثر وفى بناء صغير فى طيبة[١]..!! أتحدث عن بناء له شكل القباب الكاملة تقريبًا؛ ولكن بدون فقرات العقد ودون أى تشابه جوهرى مع القباب بمعناها الدقيق[٢]. إنها ممرات معقودة توجد فى الجزء الجنوبى الغربى للمبنى. ويبلغ عدد اللاتى يمكن رؤيتهن إلى اليوم سبعة ممرات وآخر ثامن معزول، ويبلغ عرضها ٦ أمتار و٧٠ سنتيمترًا وبمقدار ما يمكن أن يفرضه التشابه، يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار[٣] تقريباً.

وتستند هذه الممرات المعقودة إلى عضادات أو إلى أنواع من الركائز يبلغ سمكها أكثر من مترين ويصل طولها إلى ١٠ أمتار و ٧ سنتيمترًا، و تمس الخطوط المقوسة - عند بدايتها - نفس هذه العضادات. ولتصور هذه القباب الوهمية، فلنفترض قاعدتين أفقيتين يبلغ ارتفاع كل منهما مترًا أو أكثر قد تم حفر عقد دائرى فى كتلتيهما، تتكون هذه الممرات المعقودة إذن من ثلاثة أحجار أعلاها هو الأكثر طولاً إذ يبلغ ٧ أمتار، ويستند إلى الأحجار الجانبية بفواصل أفقية، وعند القمة - أى فى المكان المقابل لمفتاح العقد فى العقود العادية - يبلغ

---

(١) انظر لوحة ٣٩، المجلد الثانى ووصف طيبة بقلم جولوا وديفيلييه.

(٢) انظر لوحة ٣٦، شكل ١، المجلد الرابع.

(٣) يتحدث ب. سيكارد عن عشرين إلى ثلاثين ممرًا وقال إنه رأى عشرة كاملة.

سمك القاعدة العليا ٢٥ سنتيمترًا فقط، بينما تبلغ مترًا و٣٠ سم عند أعلى ارتفاع لها.

ولكون الأحجار سميكة للغاية ولعدم وجود أحمال فى محور العقد فمن غير المستغرب أن تظل هذه العقود كاملة حتى الآن، ونرى أن هذا النوع من البناء غير المألوف ليس مجرد تقليد سيئ للقباب بمعناها الصحيح الذى يبدو أن الرومان هم مبتكروها الحقيقيون، كما أنه ليس محاولة أفضت إلى هذا التقليد. إن الرغبة فى التنوع التى كانت عادة ما تحدو الفنانين المصريين فى كل أعمالهم كما تشهد بذلك المقابر التى كانت هى المحرك الأول للبنائين؛ وتبرز هذه المقابر نفسها الاستخدام المتكرر لرؤوس البناء نصف الدائرية، ولا يمكننا أن نستخلص من ذلك ما إذا كان المصريون على غير علم بمبدأ القباب أو بأنهم من خلال هذه المحاولات غير المكتملة قد حاولوا تدريجيًا الوصول إليه. ولو كان باستطاعتنا فى خضم هذه الشكوك تغليب ظن ما، لكنا أميل للاعتقاد بأن المصريين وإن عرفوا القباب بالفعل فإنهم رفضوا استخدامها لمعرفتهم أنها لا تمثل قط صورة بناء يكتب له البقاء وفقًا لأفكارهم المفضلة؛ فهذه الكتل المعلقة فى الهواء التى تبدو بلا قاعدة تفتقر بالفعل إلى ما يوحى بالصلابة والثبات، ولا وجود لأية قباب إلا من خلال الدفع المستمر لأجزائها بعضها لبعض.

وهذه الحركة تؤدى فى نهاية الأمر إلى سقوطها بحيث يمكننا القول إن القباب تحمل بداخلها أسباب انهيارها. ومن ناحية أخرى كان المصريون يستطيعون ويعرفون كيفية تلافى النقص الناتج عن هذه المزية التى لا نجدها سوى فى القباب وهى عمل أبواب ذات فتحات أكبر حجمًا؛ وذلك باستخدام عتبات علوية بفتحات[1] واسعة.

وفضلاً عن ذلك، فكر المصريون فى نوع من القباب الأفقية - أى يكون الدفع فيها أفقيًا، وقد تكون هذه القباب أكثر ابتكارًا من الأخرى على الرغم من كونها

---

(١) نعلم أن المصريين أكثروا من استخدام الأحجار كعتبات علوية، وكان طول هذه الحجارة أكثر من ٣٠ ديسيمترا أما عرضها وثخانتها فكانت تتراوح ما بين ٤، ٦ ديسيمترا كما كانت تزن كل واحدة منها ٨٦ ألف.

لا تتطلب الكثير من الفن ونرى بعضها اليوم فى فيلة والفنتين، وهى عبارة عن حوائط مقامة على شاطئ النهر تظهر تقعرها للنهر وتدعم الضغط الكبير للأراضى(١).

لقد تم ترتيب الأحجار فى مبنى أبيدوس بشكل جيد جدًا سواء من حيث نحت الأحجار ذات الشكل نصف الدائرى، أو فى جميع أجزاء هذا الأثر الكبير الأخرى. ولا يبدو أن ثمة عمودًا أو عضادة قد أصابها الوهن؛ فالوصلات دقيقة للغاية ولا نلحظ أنه قد تم وضع ملاط عليها إلا بقدر ضئيل للغاية؛ وبذلك تتناغم عناية التشييد مع ضخامة مواد البناء واتساع المبنى وعدد التقسيمات وثراء الحليات.

وبسبب تكدس الرمال لا يمكننا اليوم اكتشاف مصدر إضاءة هذا المبنى، وكانت الممرات المعقودة تسهم بلا شك فى إنارة رواق المدخل الكبير؛ بينما كانت القاعات الداخلية تتم إضاءتها من خلال فتحات علوية لم يتسن لنا رؤيتها.

وليس من السهل أن يُكون المرء فكرة صحيحة عن حالة المعبد وعن مجمل التخطيط للسبب الذى ذكرته أعلاه ـ أى انهيار جزء من المبنى وازدحام الآخر. وحتى مع وجود تخطيط بحوزتنا ومع التكميل المنظم للأجزاء التى اختفت تحت الرمال لازلنا نجد مشقة فى تمييز الأماكن التى كانت توجد بها مختلف منافذ المبنى وفى معرفة فيم كانت تستخدم الأبنية الخلفية والجانبية. وبقدر ما نستطيع أن نتخيل وفقًا لما تبقى فإن الممرات المعقودة التى وصفتها أعلاه يبدو أنها كانت موجودة عند ثلث طول المعبد، وكنا نصل إليها بعدما نعبر رواقين يحتوى أحدهما على أربعة وعشرين عمودا؛ بينما يحتوى الآخر على ستة وثلاثين عمودا؛ ويمثل هذا الأخير بصورة جيدة قاعة الكرنك المعمدة وقد كان بلا شك مخصصًا لنفس الغرض، وكانت هذه الأروقة الفسيحة والممرات المعقودة المتعددة تضفى على الأثر الكثير من البهاء والمظهر الملكى الجدير بالفعل بمحل إقامة

---

(١) انظر وصف فيلة، وصف آثار العصور القديمة، الفصل الأول المبحث الثالث وكذلك وصف الفنتين الفصل الثالث المبحث الرابع.

ممنون. وكانت المسافات بين أعمدة رواقى المدخل تناظر الأبواب المقبية، ومما يتفرد به هذا المبنى - أيضًا - أن المسافات بين الأعمدة كانت غير متساوية تكبر وتصغر بالتناوب وكانت أكبرها على الإطلاق تلك الواقعة على محور البناء.

يزيد ارتفاع سقف الرواق المحتوى على أربعة وعشرين عمودًا عن سقف الرواق الآخر، ويرتفع هذا الأخير بدوره عن الممرات المقبية؛ وهذا هو السبب الذى يدفعنا للاعتقاد بأن مدخل المعبد كان من ناحية الرواق الأول ومما يؤيد هذا الرأى - أيضًا - أن هذا الجانب يطل على النيل، وكما نعرف فإن الآثار المصرية تتوجه فى الأغلب الأعم ناحية النيل وفى بعض الأحيان توازى مجراه. ومن ناحية أخرى، يوجد خلف القباب حائط قريب للغاية يجعل من المستبعد إمكانية وجود مدخل فى هذا الجزء؛ هذا إذا لم يكن هذا الحائط ذو النقوش الهيروغليفية ينتمى لحقبة أحدث كما نميل للاعتقاد.

وقياسًا على ذلك، لا تسمح التقسيمات الخاصة بهذا الأثر باستكماله على التخطيط وفقًا للتشابه، كما قد يمكننا أن نفعل لأى أثر مصرى آخر. ويكشف التخطيط - على سبيل المثال - عن ممرات ضيقة للغاية لا يمكن تقريبًا مواصلة خطوطها دون خشية التيه؛ كما أنه من غير السهل تحديد الغرض من هذه الممرات، وينطبق نفس الوضع على عدة أجزاء أخرى من التى ذكرتها؛ ومع ذلك فيمكن أن نفترض أن هذه الأنواع من الممرات الضيقة كانت مخصصة لخدمة سكان المعبد مثل الممرات الضيقة التى نراها فى قصورنا. ومن اللافت للنظر أن الحوائط التى تتكون منها هذه الممرات أقل سمكًا مقارنة بالأسوار العريضة التى تميز المبانى المصرية.

ولا يمكن يقينًا اعتبار الحائط الموازى للمحور الذى تم اكتشافه على بعد ثمانية وأربعين مترًا وثلاثة أرباع المتر من آخر الممرات المقبية فى الجنوب الشرقى هو الحد الأقصى الذى كان ينهى المبنى من هذه الناحية؛ ولكن المسافة الفاصلة بينه وبين المحور تعطى فكرة جيدة جدًا عن طول المعبد وعن عرضه - أيضًا - الذى كان على الأقل ضخمًا جدًا، وبمضاعفة هذه المسافة نجد ما لا يقل عن ١٥١ مترًا. والحالة هذه، أؤكد أنه ليس هناك ما يدل على أن هذا كان حد المبنى.

ويدل ما لاحظناه فى هذا الجزء الجنوبى الشرقى وكذلك فى الجزء الجنوبى الغربى على وجود قاعات فسيحة تدعمها الأعمدة[١]. وكان هذا العدد الكبير من الأعمدة يضفى جلالاً يليق بطيبة وبخاصة بأثر أوسيمانديا س على وجه خاص، ونلاحظ أن هذا الاسم يشبه اسم اسمندس - أى ممنون وفقًا لما ذكره استرابون - ويعد ذلك إذن رابطة إضافية بين المدينتين قال استرابون: "يوجد فى أبيدوس وفى طيبة بنايات شيدتها نفس الأيادى" (انظر الفقرة المذكورة أعلاه).

ولم أحص الفجوات العديدة المستطيلة الشكل التى حدثت فى السطح بطريقة موازية للمحور والتى تعلو - تمامًا - العضادات أو ركائز الممرات المقبية؛ إذ يبلغ عمق هذه الفجوات مترًا وثلاثين سنتيمترًا، أما عرضها فيبلغ مترًا وعشرة سنتيمترات. وتوجد فجوات مماثلة على السطح الجنوبى الشرقى، ويمكن أن نطلق عدة تكهنات حول الأغراض التى تم من أجلها عمل هذه الفجوات ولكنى سأمتنع عن ذكر أى منها.

ومن جهة الزخارف، تعد الزخرفة الفريدة المتميزة بثراء ألوانها غاية فى البساطة. ولا نجد سوى القليل من الاختلاف فى الأعمدة وفى تيجانها وأفاريزها. وفى كل مكان آخر، يوجد بين مختلف القوالب المعمارية تنوع ما للأبعاد ذات الطابع والفخامة المطلقة مما يخلق نوعًا من التضاد والتوازن فى مختلف قاعات المبنى مع تناغم يقل أو يكثر دون أن يؤثر ذلك على التناسق فى الترتيب، فالتناسق وحده هو الذى يسود ويبدو أن المهندس المعمارى قد أراد عَمْدًا تبسيط الزخارف لكى يبرز بصورة أفضل والنقوش البارزة والرسومات الجدارية التى تغطى الحوائط والأسقف.

وكما هو الحال فى الكثير من مبانى طيبة والفنتين فقد شكلت تيجان أعمدة رواقى المعبد بنتوءات، ويبلغ ارتفاعها الافتراضى - قياسًا على الأعمدة من نفس النوع (حيث إنه كان من المستحيل التنقيب حتى نهاية العمود) - حوالى مترين ونصف المتر تقريبًا فى الرواق الكبير؛ بينما يبلغ ارتفاع جذع العمود وقاعدته

---

(١) انظر لوحة ٣٥، شكل ١، عند النقاط I, P, O، المجلد الرابع.

سبعة أمتار وعشرة سنتيمترات؛ وفى الرواق الصغير، ويرتفع جذع العمود إلى خمسة أمتار و أربعين سنتيمترًا وفقًا لنفس الافتراض دائما.

وتزين سطح الأعمدة النقوش الهيروغليفية التى لا تزال إلى اليوم فى حالة جيدة من الحفظ والتى تتناول موضوعات مشابهة لتلك التى تزخرف أعمدة معابد طيبة. وتمثل العديد من الأسقف سماء صافية رسمت عليها نجوم باللون الأصفر الداكن، ومن المحتمل أن هذه السماء المرصعة بالنجوم كانت تحتوى على مناظر فلكية، ومما يستحق الندم بالفعل أن الوقت لم يسمح ببحث هذه المناظر الفلكية ورسمها. وتوجد على سطح الممرات المقبية شرائط أفقية لهيروغليفيات بالتبادل مع خطوط من النجوم.

ويعتبر نظام النقوش البارزة هو نفسه المستخدم فى المبانى المصرية الأخرى. إنها عبارة عن لوحات كبيرة محاطة بأطر تصور شخصين أو ثلاثة أو أربعة مصحوبين بالأعمدة وبالخراطيش؛ ومع ذلك، فهناك ما يدعو للاعتقاد أن هذا المبنى ذو الطراز الخاص كان يجب أن يحتوى على أشياء نادرة وعلى مشاهد تتناسب مع الغرض الذى بنى من أجله. وكانت فترة إقامتنا فى أبيدوس أقصر من أن تمنح لنا الوقت لرسمها، وذات يوم سيقوم رحالة ما برسم هذه النقوش البارزة وبإكمال أعمالنا، مستفيدًا من المعلومات التى جمعناها حول أبيدوس وحول الوسائل المؤدية إليها إلا إذا تمكن الزحف المتواصل للرمال من سد المنافذ الموصلة إلى هذا المعبد.

وسأنهى هذا الوصف الوجيز للزخارف بذكر أمر رصده السيد لوچنتى هو: أننا نلحظ تحت إحدى الأسقف المقبية مربعات مرسومة باللون الأحمر فى غاية الجلاء، وأشكال لم يتم نقش ملامحها بعد. ووفقًا لما يرويه هذا الرحالة يوجد - أيضًا - واجهة سور مجردة - تمامًا - من أية زخارف.

ولا يدع الوصف السابق ولا الفقرات التى ذكرها الأقدمون ولا حجم الركام مجالاً للشك فى السبب والغاية التى كان هذا البناء مكرسًا لهما، فنتعرف دون أى التباس على أثر لممنون التى كانت تزين طيبة الثانية. وكان لمقر إقامة ممنون

شهرة كبيرة فى مصر القديمة؛ ويرجع هذا الصيت للأمير نفسه الذى كان يحمل - أيضًا - اسم اسمندس. وممنون هذا ليس هو - بلا شك - الذى أماته هوميروس أمام طروادة ؛ لكن كانت له أصول حبشية - تمامًا - مثل ممنون الإغريق الذى كان يسمى بابن الفجر؛ وبذلك يختلف هذا الأثر تمام الاختلاف عن كل الآثار الأخرى من حيث هيئته الخاصة وترتيبه ومن حيث الأمير الذى تم تشييد هذا الأثر لتكريمه.

وبالنسبة لمعبد أوزوريس - الذى لم يكن أقل صيتًا - ليس بمقدورى أن أرد موقعه إلى أى مكان آخر غير الذى حددته فى المبحثين الثالث والرابع - أى على بعد ٣٩٠ مترًا من المعبد، وهناك حيث رأيت شرفة مبنى كبير تتكدس عليه الرمال حتى السقف وليس من المنتظر أن نستطيع استكشافه من الداخل، وسيكون على الأقل من الشاق جدًا تفريغ وحمل كم كبير من الرمال كتلك التى تسربت إلى المعبد وسدته ربما - تمامًا - أو لعل المنافذ - فقط - هى التى قد سُدت.

ومما يدعو للندم أيضاً عدم استطاعتنا رؤية هذا النبع العميق الذى تحدث عنه استرابون، والذى يتم النزول إليه من خلال سراديب ملتوية حلزونية الشكل كانت موجودة فى داخل المعبد، وكانت جدرانها مصنوعة من أحجار ضخمة ومبنية بطريقة يقول عنها إنها رائعة. ولقد حرمنا اجتياح الرمال - ربما للأبد - من معرفة ما كانت تحتويه طيبة الثانية من عجائب..!!

المبحث الخامس: نتائج وخاتمة

تستحق الفقرة التى ذكرها أثينايوس بخصوص الأقنث أو الأشواك التى كانت تنمو فى أبيدوس أن أنقل منها هنا جزءًا أطول مما ذكرته فى المبحث الأول قال اثينايوس : "ويتحدث هيلانيكوس فى مؤلفه مصريات عن الأكاليل المزهرة التى نراها - دائمًا - فى مصر. تقع مدينة تنديوم على ضفة النهر، وهى مكان احتشاد للاحتفالات الكبرى. ويوجد فى وسط المدينة معبد كبير وله قدسية مبنى بالحجارة وبه أروقة مشيدة بنفس الطريقة، وفى الخارج تنمو أشواك سوداء وبيضاء يوضع عليها أكاليل مصنوعة من زهور الأقنث والرمان والكرم؛

ولذلك فإن هذه الأشواك تكون مزهرة بصفة دائمة ". ويحكى نفس الكاتب أن الآلهة انتزعت تيجانها عند علمهم بانتصار بابيس اوتيفون. ويذكر ديمتريوس فى كتابه الخاص بالأشياء المصرية أنه توجد أشواك من هذا النوع حول مدينة أبيدوس، وهذه الأشواك هى نوع من الشجر ينمو فى المناطق المنخفضة وله فروع مستديرة وفاكهة ذات شكل دائرى ويزدهر عندما يأتى موسمه؛ ولكن لون أزهاره باهت وغير لامع، ويروى المصريون هذه الأسطورة التى تقول إن أهل الحبشة الذين بعثهم تيثون إلى طروادة قد ألقوا بتيجانهم فى نفس هذا المكان على الأشواك عند علمهم بوفاة ممنون، ومن هنا شُبهت هذه الفروع من الأقنث بالأكاليل المزهرة[١] . وتبين هذه الحكايات الممزوجة بالأساطير أن أبيدوس كانت

---

(١) ووفقًا لرواية الإغريق عن المصريين فإن الأكاليل الخالدة فى مصر كانت توجد فى مدينة النهر التى كانت تدعى تنديوم، مقر الآلهة المقدسة العظيمة المباركة، وفى وسط المدينة حيث كان يوجد الأحجار المقدسة وكذلك نبات الشوك المقدس وزهوره البيضاء، وتوضع أكاليل الغار أعلى نبات الشوك حيث الزهور، وهى تمثل الخلود الدائم. وقد ساعدت الآلهة فى مصر الملك بابيس الذى كان حليفا للإله تيفون (إله الشر)، إلا أن ديمتريوس فضل الذهاب إلى مصر من أجل مدينة بيلون التى يقال أنها كانت مقر نبات الشوك. وكان يوجد فى الجزء الأسفل من المدينة أشجار التين الشوكى (أشجار نبات الشوك) حيث كانت تُجلب ثماره المستديرة وتُحمل أزهاره وتُجمع حتى يحين الوقت المحدد لها ويُحتفظ بألوانه. ووفقاً لبعض الأساطير المصرية أن أهل الحبشة الذين أرسلوا إلى طروادة بواسطة تيتونوس قد سمعوا أن ممنون هو الذى جلب هذا النبات إلى هذه المنطقة وفى هذا المكان بالضبط وأنشأ مستعمرات من الزهور والأكاليل . إن مدينة أبيلوس مجهولة فى مصر، وما من شك فى أن كلمة ابيلوس قد اندست بدلاً من أبيدوس عن طريق الخطأ.

وكذلك الحال بالنسبة لمدينة تنديوم؛ فهى غريبة على الجغرافيا المصرية، ويبدو جلياً أن هذه الكلمة محرفة . ويقترح زويجا أن تُقرأ ثين كما كانوا يسمونها بسبب مدينة ثيس التى قد انتمت على ما يبدو لنفس المقاطعة حيث كانت توجد أبيدوس. ولم نعرف اسم إلا عن طريق ايتان البيزنطى الذى يحدد موضع هذه المدينة بالقرب من أبيدوس؛ بينما تحدث بطلميوس عن إقليم ثيتس التى كانت بطلمية عاصمته، ويوجد هنا تشابه فى الاسم كما فى الموقع؛ مما يجعل اقتراح زويجا محتملاً جداً.

وقد يستحق نص أثينايوس أن يتم توضيحه فى أكثر من موضع، ولكن مثل هذا البحث يبدو فى غير موضعه هنا. ولقد اكتفيت بإعطاء ترجمة خالية من عدة أخطاء اشتملت عليها النسخة اللاتينية. فبدلاً من (ليكون داخل المكان المقدس) يجب كتابة (خارج)، كما أجاز ذلك الكثير من المترجمين؛ ولكن لا ندرى لم ترجموا الجملة قبل الأخيرة بهذه الكلمات (vere flos exit nitidus)، والذى هو على النقيض من المعنى تماما. وقد كان يجب ـ بالنسبة لهذه النسخة ــ أن يوجد فى النص (ولا تخرج). ولا يزال يوجد فى الحدائق التى تحيط بأبيدوس أشواك مثل التى تحدث عنها =

تحتوى على غابات الأقنث وتؤيد ما أقيم سابقًا من صلة بين هذه المدينة وشخصية ممنون. ويبدو لى أيضًا أن نصر تيفون هذا وسقوط أكاليل الأشواك المزهرة يعد رمزًا لاجتياح الرمال الذى تسبب فى اختفاء غابات الأقنث من أبيدوس ومن جميع الأماكن المعرضة لنفس الآفة. ولست أريد التكلم بإسهاب عن هذه المقارنات التى قد يكون من السهل المبالغة فيها وسأنتقل إلى مسألة أكثر أهمية.

ويمكننا أن نتساءل عن مدى قدم معبد ممنون مقارنة بآثار مصر القديمة الأخرى، ويتوقف حل هذه المسألة على دراسة يغلب عليها - فى حقيقة الأمر - التخمين لأصل أبيدوس نفسها. ومع ذلك، فهناك ظروف إن لم يكن من شأنها تبديد الظلمات حول هذه المسألة الغامضة تمامًا فبوسعها على الأقل أن تمنح القارئ وسيلة لتكوين رأى خاص به.

إن الأسباب الطوبوغرافية التى تم عرضها فى بداية هذا الوصف تعد - على ما يبدو لى - تفسيرًا جيدًا لتفضيل اختيار هذا الموضع لكى يكون مقرًا لمدينة كبيرة؛ ولكن كيف خصصت هذه المدينة لممنون ؟

وتعتبر أبيدوس التى كانت تقع قديماً على بعد فرسخين ونصف من النيل هى المدينة الوحيدة الموجودة فى أعلى البلاد على مثل هذا البعد من النهر؛ إذا ما استثنينا مدينة الفيوم القديمة، وهى تتاخم الصحراء الليبية وتقع عند الموضع الأكثر قربًا من الواحة الكبرى، وبالتالى من طريق الحبشة العليا. عندما كانت مصر تخضع لحكم أسرة مالكة حبشية (ليس تلك التى يطلق عليها علم الأحداث التاريخية الدارج الأسرة الخامسة والعشرين والتى يحدد زمانها بعام ٧٤٠ قبل الميلاد تقريبًا؛ ولكن أسرة أخرى[1] أكثر قدمًا)، ألم يكن على ملوك هذه الأسرة إقامة منشآت ؟ وأظن أن ممنون - وهو أحد الأمراء القدامى - أنشأ مدينة أبيدوس

= هيلانيكوس ديميتريوس - أى أشجار السنط ذات الزهور الصفراء الباهتة بالفعل. فلنقدر الآن ثقة بعض المفسرين الذين غالبًا ما يحرفون النص، ويدعون أنهم يصوبونه ويسوقون الكذب على لسان كاتبهم فى غمار حماسهم لمجده.

(١) أريد الحديث عن الثمانية عشر ملكًا حبشيًا الذين حكموا مصر بين مينا وموريس. وفقاً لهيرودوت (التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ١٠٠). وسنستشعر بسهولة هنا لماذا لم أدخل فى أية تفاصيل.

فى مكان يعد أول نقطة يوصل إليها عند القدوم من الحبشة وعند الخروج من الصحراء. وتتخذ اليوم القوافل القادمة من الحبشة طريقًا أكثر طولاً وتدخل مصر عند جنوب أسيوط؛ ولكن ذلك بسبب أن مدينة أبيدوس أصبحت مهجورة.

ولنلحظ هنا كم كانت هذه المدينة تحتل موقعًا إيجابيًا بالنسبة للتجارة الحبشية، وبوقوعها عند أقرب مسافة من الواحة الكبرى ومن مصر فى نهاية المنحنى الكبير للنيل المتجه صوب الغرب، كانت هى المستودع الطبيعى بل والضرورى لجميع البضائع القادمة من داخل إفريقيا، وندرك بلا عناء كم أضافت مثل هذه المزية الكبيرة لازدهار هذه المدينة. واستطاعت أبيدوس أن تكون بالنسبة للتجارة الإفريقية ما كانت عليه قفط بالنسبة لتجارة الهند والجزيرة العربية.

وأصل اسم هذه المدينة ـ الذى سأسوقه كافتراض محض ـ يأتى ليؤكد ظنى؛ فنحن نعلم أن مدينة أبيدوس كانت تمارس فيها تجارة عبيد الحبشة، تلك التجارة التى توجد منذ غابر الزمان. ويعنى الجذر العربى للفعل (عبد) أى خدم كمملوك، وكلمة (عبيد) هى جمع لكلمة (عبد) أى مملوك، ويطلق هذا الاسم على الخدم السود ـ فقط ـ وليس على الخدم الآخرين؛ لكن إضافة إلى ذلك، فإن كلمة (عبد) لها نفس المعنى فى اللغات العبرية والكلدانية والسريانية. ويمكننا أن نضيف ـ أيضًا ـ أن كلمة (بيد) أو (بيدا) التى تكونت منها كلمة (بدوى) تعنى صحراء وفى اللغة الحبشية تعنى كلمة badou الصحراء[1] أيضًا.

ومن الجدير بالملاحظة أن ضواحى أبيدوس وهوُ التى ذكرت فى البداية قد خلفت هذه المدينة، وتحتوى على خمس قرى تحمل اسمًا مقاربًا للغاية لهذا الاسم القديم والذى أعتقد أنه ما تبقى من اسم مصرى قديم، على الرغم من اعتبارنا باستمرار أنه من أصل إغريقى وهذه القرى هى:

---

(١) وأمام الاعتراض القائل بأن أهل الحبشة لا يمكن أن يكون لهم سوق للعبيد المأخوذين من بلادهم، فالإجابة سهلة وهي أنه فى أيامنا هذه تجلب القوافل الحبشية سنويًا إلى مصر عبيدًا حبشيين. وتعد عادة جمع الأطفال والفتيان من الجبال لبيعهم للأسيويين عادة متبعة فى هذا القطر منذ الزمن السحيق.

١ ـ العبدية وكفر العبدية، شمال شرق أبيدوس على ضفة النيل اليمنى.

٢ ـ العبيده، على بعد عشرة آلاف مترًا من هوُ، على ضفة النيل.

٣ ـ العباديه، الواقعة على بعد ٤٠٠٠ مترًا إلى الجنوب من القرية السابقة.

٤ ـ كفر عباديه، الواقع بين القريتين.

وتتم كتابة جميع هذه الأسماء بنفس طريقة كتابة كلمة (عبد) أو (عبيد)، ولا يمكن أن تحمل كل هذه المواقع المجاورة ـ بالمصادفة ـ اسمًا يشبه هكذا الاسم المعروف للمدينة القديمة، وأعتقد ـ أيضًا ـ فى النهاية أن كلمة أبيدوس هى الاسم القديم لهذه المدينة الكبيرة.

وللعلم فإن الجبل الواقع إلى الجنوب من بسوى، وهو اسم قبطى لبطوليمايس، كان يحمل اسم إيبوت، وفقًا لما لاحظه عالم أكاديمى ـ بناء على مقطع صعيدى[١]. ومن المحتمل ـ وفقًا لما يرويه هذا العالم ـ أن الإغريق قد اشتقوا كلمة أبيدوس من كلمة ايبوت، وبالنسبة لزويجا فكان يعتبر أن اسم أبيدوس يأتى من الكلمة القبطية abât أو abêt التى تعنى ـ وفقًا له ـ الدير.

ويخبرنا سيكارد فى أحد مؤلفاته التى بقيت مخطوطة أن أنقاض أبيدوس توجد عند سفح جبل من الرمال يطلق عليه الأقباط Afud أو Afod أو Afodos، وهذا لا يخالف الاسم القديم إلا فى حرف ب (b) بدلاً من حرف ف (f)[٢].

ونحن نجهل معنى اسم جبل ايبوت باللغة المصرية ولا يسعنا أن نستنتج من خلاله أى شىء حول أصل أبيدوس[٣] نفسها.

---

(١) بيان المخطوطات القبطية لكاردين بورجيا ، الذي نشرة زويجا ، صفحة ٥٥١ .
انظر ملاحظات حول بعض نقاط الجغرافية المصرية، بقلم كاترمير .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تقع أبيدوس على بعد أكثر من ثمانية فراسخ في جنوب المنشية ـ أي بطلمية القديمة؛ بحيث أن جبل ايبوت كان يجب أن يكون بعيدًا جدًا عن أبيدوس. ويبدو أن أبوتيس المدينة التي ذكرها ايتان وفقا لهيكاينوس والتي لا يُعرف موقعها كانت قريبة من بطلمية بما أن اسمها قريب جدًا من جبل ايبوت، فيجب البحث بالقرب من المنشية عن هذه المدينة أو تلك.

ولكن، مهما يكن هذا المعنى، فلا يمكن أن يناقض الفكرة التى ذكرناها آنفًا، القائلة بأن وجود ابيدوس كان له علاقة ما بالحبشة بلاد العبيد. وأخيرًا فإن الطابع الخاص بعمارة المعبد الذى يحمل بالتأكيد هيئة مميزة ـ على الرغم من أن الفخامة المصرية لا تزال تتلألأ هناك بكامل رونقها ـ تعد سببًا إضافيًا للاعتقاد بأن المدينة كان لها أصل أجنبى.

ويشتق اتيان البيزنطى اسم المدينة من اسم شخص ما يُدعى أبيدوس وليس من اسم جبل؛ لكنه لا يذكر من كان أبيدوس هذا وإلى أى البلاد كان ينتمى(١). ووفقًا لظنى، فإن مؤسس هذه المدينة كان أميرًا يدعى ممنون واسمه قد يكون كلمة مصرية نقلت إلى الإغريقية. ومن الجدير بالملاحظة أنه إذا ما طرحنا المقطع الأول من الكلمة والذى يعتبر أداة صدارة، سيتبقى جذر له نفس المعنى فى العديد من اللغات ـ أى: يتذكر من جديد، هو مثابر وهو وفى بوعده. وتبدو كلمة مينا وهو اسم الملك المصرى الأول هى نفس الكلمة دون المقطع النهائى الإغريقى؛ وبذلك قد يعنى اسم ممنون الذى يتذكر من جديد أو الوفى(٢).

ولا يمكننى أن أحذف هنا فقرة لديودور الصقلى بخصوص ممنون، بعد أن حكى ـ نقلاً عن ستسياس ـ إن ممنون ابن تيتون بعث لنجدة طروادة من قبل الآشوريين ومعه عشرة آلاف حبشى وعشرة آلاف رجل من بلاد السوس ومائتا مركبة حربية، أضاف المؤرخ أن الأحباش المتاخمين لمصر يرتابون فى هذه

---

(١) وينسب اتيان بناء أبيدوس إلى مستعمرة من ملسيان، وقد يستحق مثل هذا الرأي بالكاد أن يذكر؛ إذا لم يكن من شأنه أن يقيم الدليل على فكرة المستعمرة الأجنبية نفسها. وبالنسبة لاسم ملسيان لقد تم استبداله بلا شك بآخر، وعلى الأرجح لتحريف النص، ودونما أن يؤاخذ اتيان على خطأ كبير كهذا؛ وفيما يلي تفسيره لذلك: كانت مساكن أهل أبيدوس قريبة طبقاً للمنازل المصرية.
ويأتي اللبس من كون أبيدوس هلسبونت قد تم تأسيسها بالفعل على يد مستعمرة ملسيان (استرابون ، الجغرافيا، الكتاب ١٣، ص ٤٩٠ ..) وربما تم أيضًا استبدالهم ب (أهل أثيوبيا)؛ ولكنى لا أسوق هذه الفكرة إلا على سبيل الظن.

(٢) عنى فى اللغة العبرية، وفى، ومنها Amnan وهو اسم علم؛ وكذلك فى العربية، امن وامين ومامون وهى أسماء أعلام، وفى اليونانية (λνχω) بمعنى يتذكر من جديد.

الحكاية ويدعون أن ممنون هو أحد مواطنيهم ويقدمون لتأييد ذلك قصورًا قديمة لا تزال تسمى بالممنونيات[١]. وعندما نولى عناية بحى ممنوينوم الكبير فى طيبة وبمعبد ممنون أو اسمندس فى أبيدوس وبأبنية المتاهة المنسوية لاسماندس التى سماها استرابون بإيجابية بالممنونيات، والتى تتميز مثلها مثل أبنية أبيدوس بأجزاء مقبية، عندما نرى أن كل هذه الآثار تقع بالضبط عند مدخل الصحراء الليبية؛ يدفعنا ذلك إلى التعرف على الأبنية التى كان أحباش مصر يذكرون أنها بنيت إكرامًا لممنون لكى يسوقوا الأدلة على موطنه. ولا يوجد فى الحقيقة قاسم مشترك بين هذا الممنون أو إسمندس بالنسبة لهذه الحقبة وبين ممنون الذى استطاع أن يشارك فى حصار طروادة. كان الأحباش الذين تحدث عنهم ديودور يريدون أن يعبروا عن أنه كان لديهم أمير يسمى ممنون قد سبق ممنون الذى كان الإغريق يتحدثون عنه بزمن، وهو على الأرجح المصدر الذى أقتبس منه هوميروس بطله. كان هذا الأمير مشهورًا بوسامته، فماذا يمنعنا من الاعتقاد بأن تمثال البطل الذى تحدثنا عنه[٢] واللافت للنظر بروعة أسلوبه هو تمثال ممنون نفسه؟ ولقد عبر الفنان فى عمله عن كل مظاهر عنفوان وجمال الشباب. وإذا أُخذت كل ملاحظة من هذه الملاحظات على حدة قد لا يكون لها إلا قدر ضئيل من القوة؛ ولكن، يبدو لى أنها فى مجملها تبعث على الثقة وأعتقد أننى أرى فيها على الأقل أسبابًا قوية لافتراض أن كلمة أبيدوس كان لها أصل خاص وهو على الأرجح حبشى.

وقد لا يمنعنى هذا الرأى من الاعتقاد بأن أبيدوس تنحدر من أزمنة ضاربة فى القدم؛ فمن خلال حالة حفظه ولون حجارته يبين المعبد بصورة واضحة أنه لا ينتمى لعصر معبد اسنا ولا لأقدم أبنية طيبة؛ ولكن يمكن أن يكون سابقًا لمعابد دندرة دندرة ولكثير من معابد البلاد السفلى الأخرى.

---

(١) تاريخ المكتبة، الكتاب الثانى، ص ٧٧.

(٢) انظر أعلاه .

واستنتج من كل ما سبق أن الأنقاض التى لا تزال موجودة على بعد ثلاثة فراسخ ونصف فرسخ جنوب غرب جرجا على حدود الصحراء هى بالفعل أنقاض مدينة أبيدوس الشهيرة وأن الأثر المسمى مدفونة هو ما تبقى من قصر ممنون وأن هذه المدينة يمكن أن تكون قد أقيمت على يد أمير يدعى ممنون - من أحد ملوك الحبشة الذين حكموا مصر - وأخيرًا فإن اللقب (طيبة الثانية) الذى كانت تحمله أبيدوس يبدو لى أنه جاء من كون الأحباش عند إقامتهم فى هذه المدينة التى زينوها بالمبانى الرائعة قد أرادوا بطريقة ما منافسة مؤسسى طيبة؛ أقدم عاصمة فى البلاد منذ قديم الزمان. ولو قدر لهذه الفكرة مزيد من اليقين لألقت بالتأكيد الضوء على تاريخ الكثير من آثار مصر التى يختلف أسلوبها قليلاً عما هو سائد عامة والتى يبدو أنها تنتمى لحقبة معينة.

الملحق الأول للفصل الحادى عشر

نبذة

عن

بقايا مدينة بانوبوليس القديمة المعروفة اليوم باسم أخميم وضواحيها

بقلم السيد: سان - چينى

كبير مهندسى الطرق والكبارى

المبحث الأول: مدينة أخميم

عندما نهبط بمحاذاة نهر النيل من جرجا إلى أخميم الواقعة على الضفة اليمنى من النهر فإننا نسير بمحاذاة سلسلة الجبال العربية التى يقترب سفحها من شاطئ النهر. ونرى عند منحدر الجبل عدة كهوف منحوتة جيدًا تدل كالعادة على وجود مدينة عريقة فى الجوار. وقبل أن نصل إلى أخميم نقوم بالدوران لمسافة كبيرة عبر قناة يصعب عبورها مع هبوب رياح الشمال القوية؛ هنا أوشك قاربنا عدة مرات على الانقلاب.

وتقع المدينة على بعد نحو فرسخ (كيلومتر واحد) من النيل على ارتفاع صغير مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه المدينة قد تم إنشاؤها خصيصًا بحيث تكون فى مستوى أعلى من الفيضان كما هو الحال بالنسبة لجميع مدن مصر الحديثة؛ ولكن الواقع أن هذا الارتفاع ينتج من أن موقع المدينة القديمة كان مأهولاً بالسكان لفترة طويلة[١]. وهناك قناة جميلة تروى المساحة الصغيرة التى تفصلها عن النهر وينحدر بعد ذلك فى اتجاه الشمال حتى إنه عند امتلائها تصبح المدينة محاطة بأكملها بالمياه.

---

(١) كانت مدن مصر القديمة تنشأ - كما هو الحال بالنسبة للمدن الحالية - فى مستوى أعلى من منسوب الفيضان. وعندما كانت هذه المدن تهجر لفترة طويلة كان مستوى سهل النهر يرتفع بفعل ترسبات النهر إلى أن يقترب من موقع هذه المدن ولكن عندما كانت هذه المدن تظل مأهولة بالسكان فإن أرضها كانت تظل أعلى من مستوى الوادى بفعل الرديم الذى كان يتراكم بها.

وعندما وصلنا للمدينة لم يكن النيل قد وصل إليها بعد ولكنه لم يكن يبعد عنها كثيرًا(١). وكانت ضواحى المدينة مغطاة بقصب السكر وهو نبات يتطلب الكثير من الرى فى مصر، ويُزرع عامة فى مصر العليا بجوار النهر أو عند انحدارات مجارى النهر.

وتبدو مدينة أخميم الصغيرة للوهلة الأولى محكمة البناء بالطوب الأحمر ومزدانة بمساجد جميلة وقادرة على استيعاب نحو ثلاثة أو أربعة آلاف من السكان. وما إن غادرنا السفينة حتى هرول إلينا نفر كبير من السكان لكى يقودونا إلى الأطلال التى كانوا يعلمون مدى شغفنا بزيارتها؛ ويعود هذا التهافت من جانبهم وروح الألفة الواضحة والصريحة إلى أن أغلب السكان من المسيحيين أصدقائنا الطبيعيين.

الموضوع الأول: وصف آثار المدينة

توجد بقايا الآثار خارج وحول المدينة من الشمال الغربى إلى الشمال الشرقى. وتقع العين أولاً على نحو ست أو ثمانى كتل من الحجر الجيرى المتماسك ضخمة الأبعاد؛ وذلك داخل منخفض من الأرض يُعتقد أنهم قاموا بجلب أحجار المعبد الأخرى منه، وإحدى هذه القطع الموضوعة فى وضع مائل يقع جزء منها تحت إحدى البنايات الحديثة وهى تخرج من الأرض لنحو ثمانى عشرة قدمًا من الطول وثلاث أقدام للسمك، وهى مغطاة بنقوش إغريقية من ستة أسطر قام السيد جومار بترجمتها وتقديم شرح لها فى مبحثه حول النقوش الإغريقية، وهو يرى أن هذه النقوش تاريخها لاحق لتاريخ بناء المعبد المصرى، ويدل على ذلك الموضوع والخطوط المستخدمة وموقعها على واجهة الكتلة المواجهة للكتلة التى تحمل نقوشًا مصرية وتشكل جزءًا من الزخرفة الداخلية

---

(٢) ٣٠ أغسطس ١٧٩٩.

للمعبد[١]. والواقع أن الجزء السفلى من الحجر مزخرف بكتابة هيروغليفية على شكل أربع دوائر متحدة المركز تشكل أربع حلقات تتقسم الحلقتان الوسطيان منهما إلى اثنتى عشرة خانة. وقد طمس ـ تمامًا ـ الشكل الموجود فى الدائرة الوسطى كما طمست ـ إلى حدٍ ما ـ الأشكال الموجودة فى الخانات حتى أصبحت غير واضحة. وأكبر هذه الدوائر يبلغ محيطها ثلاث أقدام ويحيط بها مربع ويوجد داخل كل من الزوايا الواقعة بين الدائرة والزخارف رسوم شبه ممحاة، أما أصغر هذه الدوائر فتحتوى على أشكال منقوشة وملونة لا نستطيع أن نتبين شكلها، أما المساحات التالية الأخرى فتتقسم إلى اثنى عشر جزءًا؛ فنلاحظ فى الجزء الأصغر اثنى عشر شكلاً لطيور ونرى فى الجزء الآخر اثنتى عشرة صورة مطموسة حتى إنه لا يمكن تحديد شكلها، ونرى أخيرًا فى الحلقة الأخيرة غير المقسمة أربعة وعشرين شكلاً آدميًا وإن كانت هذه الأشكال قد أصبحت اليوم ممحاة.

وعلى الواجهة المقابلة من الحجر يوجد قرص مجنح نرى على جانبيه ثعبانين منتفخى العنق، أما الأجنحة فكبيرة ممتدة ومقسمة إلى ثلاثة أجزاء، والطرفان مطليان باللون الأزرق والجزء الأوسط باللون الأحمر المائل للاصفرار، أما باقى الشكل فمغطى باللون الأبيض غير اللامع الذى يشوه كل شىء بما فى ذلك النقوش ذاتها وأعتقد أنه تمت إضافته فى العصور الحديثة. ويبدو هناك وجه شبه بين هذه الأشكال والدوائر متحدة المركز وشكل البروج أو المنظر الخاص بمسيرة الشمس خاصة بسبب تقسيم الدوائر إلى أثنى عشر قسمًا متساويًا، وهذا الحجر خاص بالجزء العلوى من أحد الأبواب، وهكذا يبدو أن موقع هذه اللوحة الفلكية هو السقف كما هو معتاد فى معابد مصر العليا، ولرؤية هذا النقش لابد أن ندلف بصعوبة شديدة وأن نستلقى على ظهرنا فى

(١) يبدو أن المعبد قد طُمر حتى السقف مثل معابد كثيرة أخرى وأن ما نراه منه هو السقف الذى تم بعد ذلك حفر النقوش على جانبه.

حفرة أعدت خصيصًا لهذا الغرض تحت مستوى الردم، ولا يسمح هذا الوضع المؤلم برؤية الصور الموجودة على الحجر. وقد وُجد بالقرب من هذه الأطلال وفى وسط الأنقاض الحديثة بقايا مومياوين بلفائفهما، هذا هو كل ما تبقى من المعبد الأول الذى يُعتقد أنه المدخل القديم الموجه فى اتجاه الشمال الغربى. وقد استخدم السكان بعض مواد البناء هذه فى بناء منازلهم واستخدموا الفائض فى عمل الجير، ويبدو أن هذه الأحجار الأخيرة لم ينقذها سوى ثقل وزنها وصلابتها فقد تم قطع أعمدة هذا البناء لعمل رحى.

وإذا اتجهنا صوب الجنوب الغربى نجد معبدًا آخر يسميه السكان البريا وهو الاسم الذى يطلقونه عامة على هذه الآثار القديمة؛ ولكن لم يبق منه شىء على حاله؛ فالأحجار وإن كانت أكبر من سابقتها إلا أنها قلبت وهى كلها من الحشاد الجيرى الأبيض المزخرف بنقوش هيروغليفية وبأشكال منقوشة؛ ويمثل أحد هذه الأحجار عقابًا بنقش بارز داخل التجويف وله أجنحة كبيرة جدًا ويمسك فى كل مخلب بشىء يبدو وكأنه ورقة . وهناك حجر آخر يبدو أنه كان جزءًا من السقف يزدان بنجوم بارزة على خلفية زرقاء؛ هذه النجوم لونها أبيض أما قلبها فأحمر اللون وهى متلاصقة الواحدة بالأخرى، وتوجد هذه الأحجار فى إحدى الحفر التى يبلغ عمقها عدة أقدام والتى تم حفرها بغرض استخراج الأحجار الأكثر مرونة وتقطيع الأحجار الأخرى .

ويبدو أن مدخل هذا المعبد الثانى قد توجه فى اتجاه الجنوب الشرقى ولم يتم قياس حجم أطلاله ولكن كل شىء يدل على أنه كان كبيرًا جدًا.

ويوجد فى ميدان صغير فى المدينة داخل أحد الجوامع عدد كبير من الأعمدة من جرانيت أسوان وردى اللون ومن الحجر الجيرى أُخذت كلها من المعابد القديمة. ونرى عند مدخل أحد المساجد الأخرى كتلة من الجرانيت الرمادى تبلغ مساحتها نحو عشر أقدام ومغطاة بنقوش إغريقية بأحرف كبيرة وإن كانت مطموسة تمامًا.

الموضوع الثانى : وصف أخميم أو بانوبوليس وفقا لروايات الكتاب القدامى

عندما قمنا بالبحث عما كان عليه المعبدان الأول والثانى جمعنا الكثير من المعلومات الشائقة عن المدينة القديمة ودياناتها الخاصة وعاداتها... يقول هيرودوت فى الكتاب الثانى: "نلاحظ فى جميع أنحاء مصر النفور من العادات الغربية فيها عدا أخميم مدينة الصعيد العظيمة الواقعة بالقرب من نيابوليس حيث يوجد معبد بيرسيه ابن دانابيه (أ)[١]. هذا المعبد مربع الشكل ومحاط بالنخيل والرواق رحب ومبنى بالحجارة ويلاحظ فى أعلاه وجود تمثالين[٢] ضخمين من الحجر أيضًا. ويوجد المعبد داخل الحرم المقدس[٣] حيث يوجد تمثال بيرسيه، ويقول أهل أخميم إن هذا البطل كثيرًا ما يظهر فى البلاد وفى المعبد حيث يجدون أحيانًا أحد نعليه الذى يبلغ طوله ذراعين (ب) وأنه بعد ظهوره يعم الرخاء والخصوبة أنحاء مصر كلها (ت). وهم يحتفلون إكرامًا له وعلى طريقة الإغريق بالألعاب الرياضية وهى الأفضل من بين الألعاب جميعها، أما الجائزة التى تمنح فهى ماشية، ومعاطف، وجلود وفراء (ث).

«ولقد سألتهم يومًا لماذا يختصهم بيرسيه وحدهم بالظهور، ولماذا يتميزون عن باقى المصريين بالاحتفال بالألعاب الرياضية!؟ فأجابونى بأن هذا هو مسقط رأس بيرسيه وأن دانوس ولينسيه اللذين أبحرا إلى بلاد اليونان قد ولدا - أيضًا - بأخميم (ج) ثم قاموا بعد ذلك بعرض سلسلة نسب دانوس ولينسيه حتى وصلوا إلى بيرسيه (ح)، وأضافوا: إن هذا الأخير عند قدومه إلى مصر ليأخذ من ليبيا كما يقول الإغريق رأس جورجون (خ) مر بمدينتهم (د) حيث تعرف بكل أهله حتى

---

(١) انظر الإيضاحات الموجودة بعد هذا الملخص؛ وكذلك بالنسبة للحروف من ب إلى ر .

(٢) انظر فيما يتعلق بهذه التماثيل الضخمة الملاحظة ب .

(٣) هو النطاق العام لكل الأبنية الدينية والذى يحتوى على المعبد بمعناه الصحيح وهو يبنى عاده من الطوب اللَبِن بأبواب كبيرة مصنوعة من أحجار مقطوعة ومزخرفة بنقوش كثيرة، أنظر فى وصف أطلال الكاب بعض المعلومات العامة حول مختلف أشكال الأسوار لدى قدماء المصريين.

أنه لدى وصوله إلى مصر كان قد عرف من والدته اسم أخميم ، وأخيرًا فإنه بناءً على أمره قاموا بالاحتفال على شرفه بالألعاب الرياضية وقد أحضَرَت بنات دانوس من مصر أسرار سيريس الخفية التى أطلق عليها الإغريق «تيسموفورى» أى المشرَعَات (ذ) .

وأتساءل: كيف إن هيرودوت الذى يبدو أنه قد زار أخميم بما أنه قد وصف المعبد الثانى ـ معبد بيرسيه ـ جيدًا وطرح أسئلة على السكان ولم يصف المعبد الأول؟ وأجدنى مضطرًا أمام قلة المعلومات المتوافرة عن هذين المعبدين أن أستنتج من صمت هذا المؤرخ ما يلى ١) ـ أن معبد بيرسيه كان الأكثر لفتًا للنظر فى المدينة نظرًا لمساحته وجماله وخصوصيته؛ حيث إنه شُيد فى مصر لبطل صغير قادم من اليونان وإن كانت أصوله مصرية، وتبدو هذه الشروط أكثر تطابقًا مع ما أسميناه «الأطلال الثانية» وهى أكثر اتساعًا وعناصر بنائها أقوى ورسمها الهندسى أكثر وضوحًا. ٢) إذا كان المعبد الأول مهدى للشمس تحت اسم أوزوريس أو أى اسم آخر، إذا كانت هذه العبادة إجبارية بشكل ما ومنتشرة فى كل مدن مصر، وإذا كان هذا المعبد شديد القدم وأصغر بكثير من سابقه ومتوسط الجمال؛ لما استحق إشارة صريحة من هيرودوت الذى رأى فى أماكن أخرى وخاصة طيبة معابد مذهلة مخصصة أيضًا لعبادة الإله الأول "الشمس".

وتنطبق هذه الاعتبارات أكثر على الأطلال الأولى من حيث إنها أكثر اتساعًا ومكونة من كتل ضخمة أكثر تهدمًا وتشكل ركامًا قد يبدو للنظر كما لو كان نتوءات زخرفية مماثلة للرسم البروجى الذى يبدو فى بعض المعابد المخصصة لعبادة الشمس أيًا كان المسمى أو الرمز أو الكتابة التى تعبد بها. ويخبرنا[١] ديودور الصقلى أن أوزوريس قد سُمى سيرابيس وديونيسوس وبان. والمعروف أن سيرابيس هو نفسه أوزوريس أو الشمس السفلى ـ أى فى مدار الشمس الشتائى، ويؤيد بلوتارخ أن إيزيس وأوزوريس هما ذاتهما سيريس وباخوس[٢] أو

(١) تاريخ المكتبة (الكتاب الأول، المقطع الأول).

(٢) يتفق هيرودوت مع بلوتارخ حول شخصية أوزوريس وباخوس.

الديونيسيات وأن أعياد الإله ديونيسوس الإغريقية هى ذاتها أعياد باميلى المصرية(١) ونجد فى روايات غزوات أوزوريس وبان وباخوس إلى الشرق إشارة إلى تداخل الأفكار الأسطورية والدينية بين الإغريق والمصريين. وأعتقد أن المعبد الأول كان مخصصًا لعبادة هذه الإلهة التى كثيرًا ما ورد عنها الحديث بمناسبة أخميم والتى أعطت اسمها لهذه المدينة.

ووفقًا لديودور(٢) فإنه "عندما قام أوزوريس بحشد جيش كبير بهدف السعى فى الأرض لعرض اكتشافاته خاصة استخدام القمح والنبيذ؛ فقد اصطحب معه بان الذى كان صاحب هيبة كبيرة فى البلاد ليس - فقط - لأن المصريين كانوا منذ هذا الزمن ينصبون تمثالاً له فى كل معابدهم ولكن - أيضًا - لأنهم شيدوا فى الصعيد مدينة أسموها أخميم أو خمو(٣) وهو ما يعنى فى اللغة المصرية مدينة بان(٤) .

يقول بلوتارخ: «كان عبدة بان واستير(*) الذين يعيشون بالقرب من خيميس أول من أُخطروا بالحدث (وفاة أوزوريس) وقاموا بنشر الخبر؛ ومن هنا عُرفت حالات الذعر المفاجئ التى تنتاب جمعًا من الناس باسم "الذعر البانى" .

وإذا ما ولينا البحث عن طبيعة الإله بان وما يتعلق بالتشابه بينه وبين الشمس أو أوزوريس بما يثبت أن المعبد الأول كان مقامًا من أجل عبادته(٥) .

---

(١) تشبه أعياد باميلي أعياد فالوفوريس الخاصة بنا (بلوتارخ) ووفقاً لجابلونسكى فإن باميلى كانت أعياد أوزوريس أو الشمس.

(٢) بيبليوجرافيا تاريخية، الكتاب الأول، المقطع الأول.

(٣) هذا الاسم يتشابه كثيرًا مع خم - نو أو شم - نو مدينة أو بلد سام بن نوح الذى استقر في مصر وتمت عبادته تحت اسم جوبيتر أو الشمس فى برج الحمل.

(٤) يبدو أن خيميس نهاية إغريقية أضيفت إلى الاسم المصري خمو، وهى نفس المدينة التي يطلق عليها استرابون اسم بانوبوليس وفقاً لما قاله ديودور. وهكذا نرى كيف إن الإغريق الذين كانوا يطلقون في لغتهم على إله الشمس بان قد أعطوا لهذه المدينة اسمًا إغريقيًا تمامًا بكلمة بانوبوليس.

(*) كائن خرافى نصفه العلوى لانسان والسفلي لماعز . (المراجع).

(٥) سأترك جانبًا التفسيرات النحوية والميتافيزيقية الخاصة بكور وجيبلان وآخرين حول بان الذى يعنى الكل، والطبيعة، والريف، والمراعى والغابات ... الخ .

يقـول هـيـرودوت[١] "ينظـر الإغـريق إلـى هـرقل وبـاخـوس وبان بوصـفـهم أحـدث الآلهـة؛ بينمـا يعـد بان لـدى المصـريين من الآلهـة القـديمـة جـدًا فـهو يوضع فى مصـاف أول ثمـانية آلهـة..." ويذكـر فى موضـوع آخـر: "ويدعى المنـدسيون (عـبـدة الإله بـان) أن هذه الآلهـة الثـمـانيـة عـشـرة كـانت مـوجـودة قـبل الاثنـى عـشـر إلهًا... والتيس والإله بان يطلق عليهمـا مندس فى اللغـة المصرية". وأيًا كـان رأى جـابلوسنكى حـول صـحـة هذه الدلالـة فمن المحقق أيضًـا ـ كمـا يعـترف بذلك هو نفـسـه ـ أن منـدس والتـيس وبان رمـوز لنفس الإله لدى المصـريين وأن الإغـريق يقـتربون كثيرًا من هـذا فى عبـادتهم وأفكارهم حـول الإله بان[٢] . ومن المعروف ـ أيضًا ـ أن الإله بان المصـرى كان يرمـز إلى قـوة الطبيعة[٣] الخالقـة والمنتجة كمـا هو الحـال بالنسبـة إلـى عضـو الذكورة المُخَصِب للتـيس (والبـريـاب لدى الإغـريق وفقًا لدويـدور) فكانا يرمـزان إلى الشىء ذاته أو بالأحـرى وبشكل أكثـر مـادية إلى الشمس التى تهب الخصوصية والبقاء[٤] لكل شىء... ألا يشترك أوزوريس نفسه ومندس وبان أخميم[٥] فى رمز عضو الذكورة ؟

ونخلص من ذلك إلى أن المعبد الأول كان فى الغالب معبد بان كما يشير إلى ذلك الحجـر الذى يحمـل الرمـوز الاثنـى عشـر للشـمس ـ المعرفـة أو الاثنـى عشـر إلهًا الذين استعـار الإغـريق أسمـاءهم من هـذا الشـعب ومن بينهم الإله بان الذى كان له فى الشعائر المصرية والإغريقية مكانة متميزة، أو شهور العام الاثنى عشـر مع الفصـول الأربعـة فى زوايا اللوحـة، أو أى رمـز آخـر له شكل رباعى وله عـلاقة بالطبيعة ككل أو بعنصرها الخلاق الذى يمثله بان أيضًا.

---

(١) التاريخ ، الكتاب الثانى، المبحثين ٤٦ و ١٤٥ .

(٢) كل الاختلافات حول أصل وطبيعة بان لدى الإغريق يرجع تفسيرها إلى عدد الآلهة الذين يحملون هذا الاسم والذى يصل إلى اثني عشر، وهذا يسمح بحرية كبيرة فى عقد هذه المقارنة.

(٣) أو إلى الطبيعة فى مجملها أم كل شىء.

(٤) انظر قول ديودور الأول.

(٥) إن هذا الشكل العظيم في هذا المكان يظهر الشجاعة الحقيقية، ويرفع السوط بيده اليمنى إلى القمر (وهو ما ذكره اتيان البيزنطى فى مقالة بانوسبوليس).

كل شىء يشير أو على الأقل يسمح لى بأن أستنتج أن شعائر عبادة بان بوصفه الصحيح - أى بان أخميم وليس مندس من إقليم منديس قد بدأت فى أخميم، فشمو (ز) الذى صاحب أوزوريس قد أخذت المدينة عنه الاسم أو أخذه هو عنها كما قلت فى ملاحظة سابقة لكلمات بان وبانوبوليس.

ويظل من المؤكد أنها مدينة ضاربة فى القدم ذات شهرة واسعة وإحدى أكبر وأجمل مدن مصر. ويستدل على شهرتها وعراقتها من رواية ديودور التى يرجع أصولها - تقريبًا - إلى عصر أوزوريس ومن الصفة الخاصة التى ينعت بها استرابون بانوبوليس، كما أن وصف كبيرة وضخمة الذى يستخدمه هيرودوت كذلك يتوافق بوجه خاص مع امتداد الركام الهائل وبهاء الزخارف الموجودة على مواد بناء هذه الآثار كل هذا يدل على مدى جمال هذه المدينة.

ويخبرنا هيرودوت أن أخميم كانت مركز إحدى المقاطعات المخصصة لإقامة الهيرموتيبين إحدى فيلقى الجيش الشعبى الذى أقامه سيزوستريس واللذين شكلا معًا إحدى الطبقات السبع للمواطنين، ولم يكن أى من رجال هذه الطبقة المكرسين - فقط - لمهنة السلاح يقوم بممارسة أى فن يدوى، ولكن يبدو أن سكان المقاطعة الإغريق وسكان مدينة شمو كانوا شغوفين بالعمل حتى أنهم إلى جانب الزراعة التى لابد وأنها كانت جيدة جدًا كما تدل على ذلك خصوبة الأرض التى يغطيها اليوم قصب السكر كان لهم صناعة خاصة. يقول استرابون فى الكتاب السابع عشر «بانوبوليس» هى المقر القديم للحرفيين الذين كانوا يعملون فى نسج الكتان وتصنيع الأحجار". وسواء أراد أن يشير بهذه الكلمات الأخيرة إلى الحفر على الأحجار المشذبة التى وجد منها فى مصر العليا عينات مكتملة، أو أن يشير إلى صناعة هذه الكمية الكبيرة من التماثيل الحجرية من كل شكل وكل حجم أو أخيرًا تشذيب ونحت كل مواد بناء المعابد التى نرى آثارها الجميلة فى أخميم نفسها، وهكذا نرى أن صناعة أهل شمو / خمو هى صناعة هامة جدًا فى بلد مثل مصر؛ وكذلك كان الحال بالنسبة لزراعة الكتان ونسجه كانت استخداماته كبيرة، وكان يعد فى مصر كما هو

الحال اليوم الزى المعتاد لطبقة كبيرة من السكان والنساء وكذلك الزى الرسمى لرجال الدين[١].

وكان النساجون يجدون ـ بلا شك ـ نفس شعور الازدراء للعادات الأجنبية وهو هذا الشعور الذى كان يختلف عنهم فيه ـ وفقًا لأقوال هيرودوت ـ أهل بانوبوليس فيما يتعلق بالرياضة فقط ، ويقول: "كان نساء المصريين يذهبن إلى السوق ويباشرن التجارة بينما يظل الرجال قابعين فى المنازل لغزل النسيج. وكان المصريون يغزلون بجذب الخيط إلى أسفل[٢] بخلاف الأمم الأخرى التى كانت تقوم بجذب الخيط إلى أعلى".

الموضوع الثالث
وضع أخميم فى ظل حكم العرب وفى عصرنا هذا

احتفظت مدينة وآثارأخميم لوقت طويل بما كانتا تتمتعان به من أهمية تحت حكم العرب؛ ولكن أى من معبديها ذلك الذى كان يقصده الإدريسى[٣] وهو يدرج أبنية أخميم القديمة ضمن البرابى[٤] أو آثار مصر الأكثر جمالاً ؟ أم إنه كان يعنى بحديثه الاثنين معًا؟ أمن المحتمل أن يكون المعبد الثانى ـ والذى بقى منه الكثير من الركام ومواد البناء الضخمة ـ هو نفس المعبد الذى قال عنه أبوالفدا منذ ما يقرب من أربعمائة عام: "يوجد فى أخميم معبد يثير الإعجاب وهو يماثل أكثر الآثار القديمة شهرة؛ فقد شيد من حجارة ذات ضخامة مدهشة نقشت

---

(١) كان رجال الدين يحرصون دائمًا على ارتداء ملابس من الكتان تم غسلها حديثًا. وقد أرسل أحمس إلى اليونان العديد من العطايا (من بينها) أنه أرسل مينيرف من مدينة ليند . (هيرودوت، الكتاب الثانى) لمزيد من التفاصيل انظر بلينى الكتاب التاسع عشر المقطع الأول. وكان المصريون يطرزون أيضاً بالإبر رسومات جميلة. انظر هيرودوت، الكتاب الثالث ، المبحث ٤٧.

(٢) التاريخ. الكتاب الثانى، المبحث ٣٥.

(٣) وُلد الإدريسى فى عام ١٠٩٩ وتوفى ما بين عامى ١١٧٥. ١١٨٦، وقد أنهى كتابه الجغرافى فى عام ١١٥٠.

(٤) تجمع الكلمات العربية بصفة عامة عن طريق إضافة حرف علة؛ فكلمة براباه (برابى) هى جمع لكلمة بربيا، وهذه الملاحظة تحسم كون الجزء الأكبر من المعبدين باقيا حتى أواسط القرن الثانى عشر.

عليها أشكال لا حصر لها". وعلى الرغم من أن أمير الأدباء هذا قد استفاد من أعمال الإدريسى - أمير الجغرافيين - فإنه يبدو وكأنه قد رأى بنفسه أماكن الآثار خلال رحلاته الاستكشافية المتعددة كما أن ما يقوله ينطبق فى الغالب على المعبد الثانى.

أما عن العرب فقد ذهبوا أبعد من ذلك فى أبحاثهم عن أخميم حيث نرى أن ليون الأفريقى يسمى أخميم بالمدينة الأكثر قدمًا فى مصر كلها، ويدعى أن إشميم بن مصرايم هو من شيدها؛ كما تحدث - أيضًا - كل من المقريزى ومرتضى وجلال الدين عن ابن مِصرايم هذا الذى ورث عن والده أحد أقاليم مصر العليا؛ وهو نفسه الإقليم الذى تعتبر مدينة أخميم عاصمة له، ثم أصبحت المدينة محل إقامة الملك الجديد. غير أننا نعلم أن مِصرايم هذا أو مِصراييم الخاص بالشرقيين وبالكتابة هو حفيد نوح من ولده سام ، وهو - أيضًا - من أقام بمصر[١]. ويرى المؤرخون اليونانيون أن مِصرايم هذا هو نفسه مينا أول ملك للبلاد؛ ومع ذلك فمن المحتمل ألا نكون قد تعرفنا على الاسم القديم شميس المشتق من إشميم أو أخميم بسبب الطريقة المبهمة والمتغيرة التى ينطق بها العرب الكلمات و - أيضًا - بسبب وضعهم لحروف العلة القصيرة ضمن الحروف الساكنة لجذور الكلمات فى لغتهم.

وبعد أن تحدث أبوالفدا عن المعبد الذى مازال بحالة جيدة منذ بنائه، أوضح لنا الحالة التى كانت عليها المدينة قائلا: " تعد أخميم، - التى تقع على الضفة الشرقية لنهر النيل - واحدة من أكبر مدن مصر العليا؛ ولكن على الرغم من امتدادها وموقعها المتميز جدًا على اللسان الذى تغمره ماء النيل فقد فقدت هذه المدينة الكثير من أرضها فى وقتنا الحاضر حيث تقع الأطلال القديمة خارج حدودها الحالية.

---

(٢) وتبعا لذلك يدعى المصريون أن مصر - بفتح الميم أو كسرها - قد سميت هكذا نسبة إلى مِصرايم . ونحن نعلم أن فى لغة المصريين تتنوع الحركات بكثرة.

كما أن أسلوب بناء هذه المدينة شديد الإتقان؛ فقد بنيت زوايا المنازل من الطوب اللَبِن، أما باقى الجدران فقد بنيت من الطوب المجفف بالشمس. كما يوجد بها مآذن عالية، ولها نفس شكل مدن الصعيد الأخرى؛ غير أن شوارعها أكثر اتساعًا وأكثر جمالاً وأقل اتساخًا.

ونجد أن التجارة والزراعة مزدهرة فى هذه المدينة؛ غير أن مصانع القطن التى يفتقد أسلوب بنائها للذوق الرفيع قد حلت محل المصانع القديمة والجميلة الخاصة بصناعة الكتان، كما استبدلت الأعمال التى شيدت من أحجار ثابتة ومن فخار قابل للكسر؛ فى حين نجد أن هذه المصنوعات الفخارية تجوب جميع أنحاء مصر. ويوجد كذلك فى المدينة دير خاص بمجمع التبشير[١] وبعض الأقباط الكاثوليك بالإضافة إلى ما يقرب من ألفى مسيحى من قاطنى المدينة والضواحى، كما يوجد العديد من الرومان الذين يدينون بالمذهب الكاثوليكى؛ غير أننا نجد أن الديانة السائدة على الأقل فى الحكومة هى الدين الإسلامى؛ وذلك على الرغم من أن العديد من الأمراء أو الحكام أو الشيوخ الذين تتابعوا على حكم أخميم كانوا يهتمون - دائماً - بحماية المسيحيين وكانوا يتزوجون - أحيانًا - من الإماء المسيحيات دون أن يمنعوهن من ممارسة طقوس دينهن بشكل سرى؛ حتى إن حكومة القاهرة طاردتهم أكثر من مرة كمتهمين بالتواطؤ مع المسيحية. أما عن العرب القادمين من موريتانيا والذين أقاموا فى جزء من الأراضى المصرية يضم عددًا من الأقباط أكثر من الموجود فى منطقة الدلتا فقد كانوا أقل تشدداً من الأتراك؛ ويرجع ذلك لحاجتهم لكسب ود سكان البلاد الأصليين من أجل إنجاح مشروعاتهم، والتصدى - إذا لزم الأمر - للسلطة المسلمة التى تحكم فى القاهرة. وهؤلاء هم أحفاد العرب الذين قاموا بطرد الإغريق من ساحل أفريقيا، ثم انتشروا بعد ذلك فى مصر العليا حيث تخلوا تدريجيًا عن حياة الترحال سواء بوصفهم غزاة أو بدوًا رحلا. وقد استقروا - تمامًا - فى هذه البقاع وأصبحوا صناعًا ومزارعين وهم يملكون حاليًا فى هذا الإقليم بعض

---

(١) دخل الفرانسيسكان فى البلاد بصفة أطباء، وقد تم تسكينهم بصفة مبدئية فى منزل الحاكم نفسه.

القرى وبعض المدن الصغيرة بأكملها - تقريبًا - بالإضافة إلى أن رؤساءهم من أصحاب النفوذ يتولون الحكم أحياناً.

أما عن باقى السكان - وبصفة خاصة العديد من أقباط أخميم - فقد احتفظوا بالطابع العام لهيئتهم؛ فالأنف مستقيم وذو أرنبة مقطوعة بدقة والعيون مستطيلة والشفاه غليظة، أما الملامح الأخرى فقد اختلطت فى تكوينها مع ملامح الشعوب التى تسكن أفريقيا، وأخيرًا تلك البشرة البرونزية التى نجدها، بالإضافة إلى جميع الصفات السابقة فى النقوش الملونة فى مصر العليا والتى لم يتسن لنا سوى رؤية بعض الأطلال الباقية منها فى أخميم؛ فى حين أن أبا الفدا قد رأى أعداد كبيرة منها فى أخميم، وعندما نتصدى بعناية لدراسة سكان وآثار الصعيد فلا يمكننا أن نغفل الأمة التى شيدت هذه الآثار.

المبحث الثانى: ضواحى أخميم

لقد ذكرت فى بداية هذا الملحق كلمة عن أخميم وذلك أثناء وصفى لضواحيها؛ ولكن على - أيضًا - أن أشير إلى أن القناة الرائعة والقديمة قدم المدينة والتى تطل على النيل وتمر بجواره هى كل ما تبقى من نظام الرى المبتكر الذى تركه قدماء المصريين للمحدثين كمثال يحتذى به؛ فهذا النظام ملائم بشدة لمجرى مياه النهر ولطبيعة الوادى، وتعتمد فكرته بصفة أساسية على أخذ كميات قليلة وسريعة من المياه من أعلى مجرى النهر، ثم على توصيل هذه المياه إلى البقاع التى يغمرها النهر بصعوبة أو تلك المعرضة لاجتياح رمال الصحراء كتلك الأجزاء التى تقع عند سفح الجبل ومن ثم توسيع الرقعة الزراعية؛ لذا فقد ساهمت هذه القناة كثيرًا فى زيادة أهمية زراعة تربة مدينة أخميم القديمة كما أنها ساهمت بفاعلية فى الحفاظ على البقية الباقية من الرقى الذى رأيناه فى مدينة أخميم الحديثة .

وإذا ما سرنا بمحاذاة الجهة اليمنى من القناة فيمكننا الوصول إلى الدير الملقب بالشهداء، ونلاحظ خلال طريقنا إلى هذا الدير أن السطح الذى قامت

فوقه هذه المدينة متكئ على الجبل، ونلاحظ ـ أيضًا ـ أن السهل الذى يفصل بين الجبل والنيل ضيق للغاية؛ فى حين أن السلسلة الجبلية تتراجع وتُكون فى جهة الشرق ـ حيث يتسع السهل غير بعيد عن هذه النقطة ـ مضيقًا عميقًا شديد الانحدار يصعد من جديد فى اتجاه الجنوب الشرقى، ونجد عند سفح هذا الجبل بعض الكهوف العتيقة التابعة لجبل أخميم، ويذكر أن هذه الكهوف قد استخدمت ملاذًا للمسيحيين أثناء اضطهاد دقلديانوس .

وبمواصلة السير فى الوادى نلاحظ أن هناك العديد من الحفر، كما نجد أيضًا ـ دير أقباط يسمى «معدود» وما هو فى الواقع إلا سلسلة من الكهوف المحفورة فى الأحجار فيما عدا محراب الكنيسة الذى شُيد من الطوب الأحمر، وتقع إحدى هذه الحفر عند منتصف المنحدر بحيث يستحيل دخولها تقريبًا، كما لم تستخدم إلا كمدافن مصرية قديمة ولم يسكنها فيما بعد سوى بعض النساك من أصحاب الشجاعة. والواقع أنه لا يمكن وصف هول الوحدة الموحشة التى يوحى بها هذا الوادى؛ حيث لا يوجد حول الكهوف سوى بعض المساكن الصغيرة التى شيدها الرهبان والنساك الذين بنوا ـ أيضًا ـ الجدران التى أُغلقت بها فتحات الكهوف العتيقة جاعلين منها صوامع الدير الخاص بهم.

وفى طريق العودة من الوادى إلى القناة غير بعيد عن القرية نستطيع أن نرى عدة طوابق من الكهوف التى تستخدم كمقابر وتحتل كل ارتفاع سلسلة الأحجار تقريبًا، كما نلاحظ أن بعض طوابق هذه الكهوف لها تكوين بسيط وسقف منحوت على هيئة نصف قوس وهو نفس ما نراه فى الكاب. كما أن بعض الكهوف الأخرى قد جمعت كل طابقين أو ثلاثة طوابق معًا. ونجد فى جميع الطوابق ـ تقريبًا ثلاث كوات فى الحائط يبلغ عمق كل منها مترًا وترتفع بنفس المقدار عن سطح نهاية الكهف، وتستخدم هذه الكوات فى وضع المومياوات من خلال فتحة علوية يمكن رؤيتها ـ أيضًا ـ أما عن الأسقف الخاصة بالعديد من هذه المقابر فقد تم توحيد لونها مع إضافة أو عدم إضافة أشكال منقوشة وهو ما نراه مماثلاً لما فى مدينة الكاب، كما نلاحظ أن بعض المداخل الأخرى قد

ملأتها الأنقاض وتبدو أنها كانت فيما مضى مدفونة تحت الأرض غير أنها قد نُهبت، ونلاحظ وجود عدد كبير من المومياوات إلى جوارها.

وأخيرًا، فعند النقطة التى تختفى فيها القناة داخل السهل وبالتحديد عند سفح الجبل نرى المقبرة الجبلية الخاصة بالوَلى المشهور المعروف باسم الشيخ الهريدى، ونجد هناك أحد المشعوذين المعاصرين الذى يقوم بعرض الثعبان الذى ينسب له كل من المصريين القدماء والمسلمين والمسيحيين ـ كل حسب معتقداته - قوة متناهية والذى يمثل لكل منهم رمزًا مختلفًا[١] تمامًا، وهو نفسه الثعبان هريدى الذى حكى عنه سافارى الكثير من الأساطير الشعبية.

وعند صعودنا مرة أخرى فى اتجاه أخميم نلاحظ ـ أيضًا ـ بعض الكهوف المشابهة لتلك التى رأيناها ناحية الشمال؛ حيث يحتوى كل كهف على مقبرتين محفورتين فى الصخور فى نهاية كل منهما ممر ويؤدى إلى نوع من الكوات، وغير بعيد عن هذه النقطة تقع مقبرة جبلية أخرى ذات اتساع يفوق الأخريات، ويدعم سقفها أربع ركائز مزخرفة بالنقوش الهيروغليفية، ونرى فى منتصفها شكلين كبيرين قليلى البروز لرجلين وآخرين لامرأتين، كما زخرف سقف المقبرة المقسم إلى خانات بأشكال بشرية مختلفة ذات ألوان لا تزال محتفظة بزهائها، ويقع حول هذه المقبرة الكبيرة ثمانى مقابر صغيرة. ونجد أخيرًا على بعد ربع فرسخ من سفح نفس سلسلة الجبال أنقاض أحد المعابد.

إن الركام الموجود فى ضواحى مدينة أخميم والقناة العتيقة والمقابر الصخرية المتعددة... الخ؛ كل ذلك من شأنه أن يساعد على رسم صورة واضحة لضواحى مدينة فى عراقة مدينة أخميم .

---

(١) لقد كان الثعبان ـ وفقًا لعلم الأساطير المصرى ـ رمزًا للإله سنيف أو القدوة الحسنة. ويدعى أن الأقباط المسيحيين يعتبرون الثعبان هريدى الشيطان اسمودى. أما المسلمون فهم يعتقدون أن روح الشيخ الذى يحبونه قد انتقلت إلى جسد هذا الثعبان. انظر الملحق الثانى.

ملاحظات وإيضاحات

(أ) توضح لنا هذه الفقرة أنه تم إقامة معبد لشخص لم يؤلهه أحد أبدًا، لشخص لم يصل فى بطولته لمستوى هرقل؛ غير أنه سبق ثيسيه بما يقرب من قرن من الزمان، وهذا يفسر لنا أصول عدد كبير من الآلهة المصرية واليونانية وآلهة روما؛ فقد لعب الزمن دورًا كبيرًا فى التسلسل المعقد لهذه المعبودات المتعددة.

(ب) كثيرًا ما أعطى القدماء واليونانيون - مثلهم مثل المصريين - قوة كبيرة وهيئة ضخمة لأبطالهم؛ وما هذا إلا نتيجة طبيعية لميل النفس البشرية إلى كل ما هو عجيب؛ فقد أوجدت القوة والأعمال الخارقة الاختلافات الأولى بين الأمم فى بداياتها، انظر إلى هرقل، وبيرسيه، وثيسيه... الخ لدى اليونانيين؛ وكذلك إلى التماثيل الضخمة لسيزوستريس وللمنتصرين بصفة عامة أو للمعبودات المنقوشة على كل آثار مصر العليا.

أما عن التمثالين المنحوتين من الحجر والظاهرين أعلى البهو - تبعًا لهيرودوت - فأنا أعتقد أنهما كانا تمثالين ضخمين يشبهان تلك التماثيل التى نراها أمام جميع الصروح المصرية فى الساحات المقدسة أو عند المداخل الخاصة بالمبانى الأثرية.

(ت) نلاحظ هنا - أيضًا - أن شعب أخميم يرجع كل شىء للظواهر الفيزيقية لنهرهم ولزراعتهم؛ مثلهم فى ذلك مثل باقى المصريين.

(ث) ترتبط الجلود والأنعام بوضوح بعبادة الإله بان وعادات الستير أو الفلاحين من أصل مدينة بانوبوليس، أما المعاطف فلها علاقة بالصناعة الأساسية لسكان أخميم وهى الحياكة.

(جـ) بإمكاننا القول: إن اليونان ابنة لمصر؛ حيث إن أصل حضارة اليونان قد وجدت فى الرواية القصيرة والموثوق بها لبعض الجاليات المهاجرة التى نزلت فى هذا البلد، ومن ضمن هذه الروايات أن اينافوس المعرف باسم الفينيقى قد استقر فى آرجوس عام ١٨٥٦ قبل الميلاد، كما أن سيكروب قاد جالية مصرية أخرى فى منطقة اتيكا عام ١٥٥٦ قبل الميلاد. أما كادموس فقد بنى مدينة طيبة عام ١٤٩٣ قبل الميلاد على غرار مدينة طيبة المصرية. صحيح أن الفينيقى كان مماثلاً لاينافوس؛ فى حين يقال إنه نقل إلى اليونان غالبية آلهة مصر وفينيقيا بالإضافة إلى الحروف الأبجدية. أما فيما يخص دانوس فقد جلب على سواحل اليونان فى عام ١٤٨٥ قبل الميلاد أول سفينة شاهدناها هناك. وقد حملت هذه السفينة بناته البالغ عددهن خمسين فتاة، كما أن لينسيه الذى تآمر ضد أخيه رمسيس أو ايجبتوس أو ـ أيضًا ـ سيزوستريس والذى لم يلبث أن عاد من انتصاراته فى مصر كان قد أُجبر على أن يلجأ إلى مدينة بيلوبوناس واستحوذ على مملكة آرجوس؛ ومن هنا نبعت رواية الدانوسيات ـ فتيات دانوس ـ اللائى أُجبرن على الزواج من أبناء ايجبتوس الخمسين، واللائى قمن بذبح أزواجهن فى أول ليلة عرس لهم فيما عدا لينسيه الذى تحدث عنه هيرودوت
والذى عفا عنه إيبرمينيستر. وقد وقعت بديهيًا هذه الحادثة فى مصر حيث كان سيزوستريس يحكم طيبة التى تبعد قليلاً عن مدينة أخميم. وقد اقتسم دانوس بنفسه الحكم مع أخيه لمدة تسع سنوات، وكانت مدينة أخميم على ما يبدو المقر الخاص لحكمه وكذلك مسرح الجريمة. أما عن باقى أسطورة البرميل المثقوب والتى أصدر فيها جوبيتر حكمه على الدانوسيات بملء البرميل مدى الحياة فقد اختلقها اليونانيون. وهكذا نكون قد عرضنا لثالث

أقدم الجاليات المهاجرة من مصر إلى اليونان والتى كانت نقطة انطلاقها من مدينة أخميم، وقد كانت هذه الجالية من أكثر الجاليات تأثيرًا على حضارة سكان اليونان الأوائل - البلازيين - وهذا ما أردنا إثباته من خلال هذه الملاحظة.

(حـ) هذه الملاحظة ليست طويلة جدًا، وهى تخص كلاً من دانوس، ولينسيه، وأباس، وبروتس، وأكريسيوس، ودانابيه الذى يحمل اسم جده الأول، وأخيرًا بيرسيه الذى حكم عام ١٣١٣ قبل الميلاد.

وأكريسيوس الذى أعاده حفيده بيرسيه إلى الحكم بعد أن قام أخوه بروتس بعزله قد لقى مصرعه على يد بيرسيه سهوًا أثناء ممارسة هذا الأخير للعبة رمى القرص، أو أنه قد قام بتحويله إلى حجارة بتقديم رأس ميدوسا له. ومن جهة أخرى فقد أظهر بروتس خلال معاركه عشقه إلى دانابيه ابنة أخت ميدوسا وأصبح فيما بعد والد بيرسيه، ويقال إنه جوبيتر الذى تحول إلى أمطار ذهبية.

(خـ) ميدوسا : لقد أسكن القدماء فى جميع العصور قارة أفريقيا بجميع أنواع الحيوانات الأسطورية والرجال والنساء المتوحشين الذين أوحوا للناس فيما بعد بأسطورة الجورجون الرمزية وقام اثينايوس بعد ذلك بزمن بعيد بإبادة العديد من جنود ماريوس خلال الحرب مع جوجورتا وذلك بواسطة نظرات وحوش مشابهة. وكان يوجد - أيضًا - بصحبة أحد أوائل الجيوش الرومانية التى نزلت بقارة أفريقيا حيوان تعد مقاومته من العجائب. وقد أخذ كل من بلينى وديودور الصقلى على عاتقيهما عبء توضيح طبيعة بعض هذه الحيوانات المزعومة، وتقديم تفسيرات لأسطورة الوحوش الثلاثة أو الجورجون وغزوة بيرسيه. وقد تم فى الوقت المعاصر - أيضًا - صياغة رواية خيالية لمعركة دارت بالقدس بين أحد فرسان القديس يوحنا المعروف وبين تنين هائل من ليبيا.

وفى الوقت الحاضر يدعى بعض المصريين السذج والذين احتفظوا دون شك بجزء من المعتقدات الخرافية الخاصة بالعصور القديمة عن وحوش أفريقيا؛ أنه يوجد على الطريق من أخميم إلى الواحة الكبرى وإلى واحة جوبيتر آمون مخلوقات غير حية تتحول ببطء إلى حيوانات وتنجب أنواعًا غريبة ومتداخلة فيما بينها من الكائنات ذات الأعضاء، وقد تحولت بشكل متتالٍ إلى الكائنات التى نراها اليوم على الأرض؛ غير أن بعض الأنواع الأخرى قد انقرضت ولا نرى منها سوى هياكل عظمية لا يمكن تصنيفها ضمن أية فصيلة.

(د) كانت غزوات بيرسيه كما رأينا مركزة كلها فى أفريقيا وحول مصر. وقد انتصر على وحوش الجورجون، وعلى أطلس، وعلى ملك موريتانيا الذى حوله إلى حجارة، وانتزع التفاح الذهبى من حديقة إيسبريديس وحرر أندروميد فى الحبشة. وفى اليونان استطاع أن يوحد مملكة آرجوس مع مملكة ميسانيس وقد شيد له شعبا المملكتين صرحًا بطوليًا ردًا على صنيعه، كما حظى بتكريم أعظم فى إحدى جزر سيكلاديس حيث رست سفينته؛ وكذلك فى أثينا حيث كان له معبد هناك مثل المقام له فى أخميم دون أن يعد إلهًا.

(ذ) ها هى إحدى آثار تلك العادات التى أدخلها شعب أخميم فى اليونان والتى سبق أن أشرت إليها. وقد كانت الإلهة سيريس هى نفسها ـ تقريبًا ـ إيزيس التى سنت للناس القوانين الأولى؛ ومن هنا جاء اللقب تيسموفور ـ أى "المشرعة" والذى منحه اليونانيون لها.

(ر) يجب عدم الخلط بين أخميم هذه وبين الملك الذى يتحدث عنه ديودور الصقلى عندما يقول: " لقد كان خيميس (خوفو) هو الوريث الثامن لنيلوس ـ نيلوس هذا هو اجيبتوس القديم جدًا والذى كان موضع الحديث ـ وقد حكم لمدة خمس سنوات وكان هو من أمر بتشييد أكبر الأهرامات الثلاثة... وقد خلف خوفو أخوه خفرع... ثم منكاورع ثم خنتكاوس.

الملحق الثانى للفصل الحادى عشر
نبذة
عن الآثار القديمة الموجودة فى الشيخ الهريدى
بقلم السيد : چومار

نزلة الهريدى هو اسم قرية صغيرة فى منطقة أسيوط، تقع هذه القرية على الضفة اليمنى لنهر النيل جنوب مدينة قاو الكبير أو أنتيوبوليس بنحو أربعة فراسخ أمام مدينة طهطا، فى هذه القرية الصغيرة يقع الجبل بالقرب من النيل حيث لا يفصل بينهما سوى حقل صغير مزروع، كما أنه فى كل هذه المنطقة من الوادى تقع السلسلة الجبلية على مقربة شديدة من نهر النيل؛ فما من مرة نرى فيها من مساحة واسعة بين هذه السلسلة والنهر إلا ونرى بعض الزراعات وبعض المنازل الصغيرة[(١)].

عند بداية هذا الجبل يوجد منحدر بزاوية خمس وأربعين درجة يرتفع بعد ذلك عموديًا لأكثر من أربعمائة وخمسين قدمًا فوق مستوى سطح النهر، وعلى

---

(١) هذا المكان يطلق عليه - أيضًا - شيخ ونزلة الهريدى نسبةً لاسم الشيخ الذى يوجد ضريحه فى الجبل (انظر اللوحة ٦٢ . المجلد الرابع)، كما أنه فى الشمال على بُعد سبعة آلاف متر من أخميم توجد قرية أخرى يطلق عليها الشيخ الهريدى.

طول هذه المسافة تقع المقابر الصخرية والمحاجر، وأكبر هذه المقابر على الإطلاق هى مقبرة هائلة لها ست عشرة ركيزة وتحتوى على بعض الآبار بين مسافة وأخرى، ويبلغ طولها نحو واحد وثمانين مترًا - أى مائتى وخمسين قدمًا؛ بينما يبلغ عمقها نحو ستة عشر مترًا - أى خمسين قدمًا. وإضافة إلى هذه المقابر توجد بقايا فجوات مومياوات لبعض الحيوانات بالقرب من المقابر القديمة. ويوجد على منحدر هذا الجبل الكثير من الطوب الأحمر والفخار المهشم الذى ينم عن وجود بقايا مدينة أو ضيعة قديمة. أما حواق هذا الجبل فهى مليئة بالتعريجات الوعرة كما لو كانت ممزقة من جميع الاتجاهات. إضافةً لما سبق فيمكننا - أيضًا - أن نجد بعض الثنايا الجبلية والكهوف القديمة على بعد ألفى متر تحت نزلة هريدى وقد يكون أبعد من ذلك؛ وكذلك من ناحية الريَّانة.

وقد رأيت عند سفح الجبل بقايا تمثال ضخم منحوت فى جزء صخرى، هذا التمثال من الحجر الجيرى السميك وهو قريب الشبه ببعض تماثيل معبد الكرنك، يوجد هذا التمثال على ارتفاع مساو للسهل ويفصله حجر يبرز هو نفسه عن سطح الأرض، ويمثل شخصًا جالسًا ويشكل مع قاعدته كتلة واحدة[١]، وإذا كنا لا نستطيع أن نرى رأس هذا التمثال أو ساقيه ومقدمة فخذيه فإنه يمكننا أن نُميز بوضوح أنه يضع على كتفيه ثوبًا رومانى الذوق، ونجد بصفة عامة أن نحت هذا التمثال يفتقر إلى الإتقان والتفصيل كما لو كان صانعه قد أراد تشذيبه فى وقت لاحق، ومما لا شك فيه أن هذا العمل يُعد غريبًا على المصريين؛ فارتفاع التمثال الجالس إذا أضفنا إليه القاعدة يصل إلى مترين وسبعة سنتيمترات دون حساب ارتفاع الرأس، وقد يصل طوله إلى ثلاثة أمتار وسبعة سنتيمترات إذا تخيَّلناه واقفًا. وقد أراد الأتراك استغلال هذه القطعة الفنية لتجزئتها كما يريدون؛ لذا فإننا نرى أسفل ظهر التمثال خمسة تجويفات تم حفرها لإدخال بعض الأوتاد بها حتى يتسنى لهم تفجيره وتقطيعه إلى عدة أجزاء.

---

(١) انظر اللوحة ٦٢، والشكلين ٧، ٨ .

إن الجغرافيا المقارنة لا تتمكن من تحديد الموقع القديم الذى وجد فى هذا المكان بالضبط؛ فقد ذكر بطلميوس أن مدينة باسالوس تقع جنوب انتيوبوليس (فاو الكبير) إلا أن بيان رحلة انطونيانوس أكد أن مدينة بسِّله تقع شمال انتيوبوليس مع مراعاة التشابه الكبير بين اسم بسِّله وباسالوس كما لاحظ دانفيل. ومن ناحية أخرى فإن بيان رحلة أنطونيانوس يحدد موقع مدينة سلينون جنوب انتيوبوليس وقبل أخميم - أى فى المكان الحالى لقرية الشيخ الهريدى.

لكن من المؤكد وجود بعض المقابر الجبلية التى تم استغلالها من قبل المصريين القدماء فى هذا المكان. وهناك ما يدعو إلى الظن أن أحجار معبد انتيوبوليس الكبير قد تم استخراجها من محاجر جبل الشيخ الهريدى؛ ويرجع ذلك إلى هذا التشابه الكبير بين طبيعة أحجار الشيخ الهريدى وبين الأحجار المصنوع منها التمثال الذى وجدناه فى هذا المكان[1] فالجبل مُكوَّن من حجر جيرى يشبه إلى حد كبير نوع الحجر الذى وصفناه آنفًا. كما أننا نجد بعض الأجزاء الصوَّانية وخاصةً بعض البللور السميك المكون من المعادن الجيرية المعينية الشكل والشديدة الجمال؛ إلا أننا لا نجد هذا البللور على خط واحد أو على شكل طبقات ولكن على هيئة كتل متفرقة وبارزة على سطح الأحجار، بعض هذا البللور حجمه كبير إذ يبلغ سمكه من اثنتين إلى ثلاثة أقدام بينما يغطى بعض البللور جدران الآبار الطبيعية[2].

اسم الجبل هو جبل هريدى نسبة لاسم القرية الصغيرة التى ترقد عند سفحه، وهذا المكان مشهور بأنه مأوى للعديد من اللصوص الذين - غالبًا ما -

---

(١) انظر وصف انتيوبوليس الفصل الثانى عشر من وصف آثار العصور القديمة.

(٢) بعض هذه الكُتل مُبلورة بشكل غير واضح ولها لون أبيض غير لامع ناصع والبعض الآخر له لون أكسيد الحديد الأصفر وذو أشكال غريبة. أما عن الطبقات السفلية فهى موضوعة بشكل أفقى، وتُكون بالتالى طبقات من الأكسيد النقى ومن المعادن المتبلرة . ويوجد بعض البللور الذى يتميز بدرجة كبيرة من الجمال والنقاء ضمن البللور الجيد، والبعض منها له حواف مدببة مثل البلور الصخرى، والبعض الأخر له شكل طولى كالجبس، وفى كل الأجزاء نجد - دائمًا - الهيئة الأولية للمعين. وكان هذا البللور يصنف على طريق الخطأ كحجر القمر (حجر ذو بريق فضى) أو كنوع آخر من المعادن الثقيلة المتبلرة.

يتسكعون على ضفاف النيل، مما يجعل هذه المناطق على درجة عالية من الخطورة بالنسبة للسائحين الذين لا يأخذون حذرهم[١].

وبالقرب من هذه القرية الصغيرة المبنية من البوص يوجد ضريح الشيخ الهريدى الذى يُزعَم أنه بيت الثعبان والذى ساهمت سذاجة السائحين فى شهرته، وفى محاولةٍ منا للكشف عن سر هذا الضريح الذى فتح المجال للعديد من التخمينات قمنا باستدعاء بعض الفلاحين المجتمعين على ضفاف النهر وأخبرناهم بنيتنا فى زيارة ضريح الشيخ؛ وما إن أخبرناهم بنيتنا حتى قام بعضهم بنشر الخبر فى أنحاء الجبل وسرعان ما رأينا عدة رجال ينزلون من الجبل حاملين بعض الأعلام الحمراء والبيضاء فى مظاهرة حب وترحيب بنا، وما إن نزلوا حتى توسطناهم نحن وجميع مرافقينا، فى هذا المكان كان الجبل مفتوحًا نوعًا ما وكان يشكل شعبًا ضيقًا به بعض المنحنيات المتعرجة، ويبدو أن هذا المنظر النادر جدًا فى مصر كان كفيلاً بإثارة المشاعر الدينية لدى الزوَّار. وها نحن قد وصلنا بعد أن سرنا مقرية نصف ساعة وها نحن نستمر فى الصعود فوق ساحة ذات ارتفاع متوسط حيث يوجد ضريح الشيخ الهريدى، هذا الضريح ما هو إلا مسجد عربى صغير بناؤه ردىء ولا شىء يَنُم فى هذا المكان عن وجود أية مبان قديمة، وبجانب هذا الضريح يوجد سلم منحوت فى الصخر ومُكوَّن من اثنتى عشرة درجة[٢]. قيل لنا إن عددًا كبيرًا من المسلمين سكان القرى المجاورة يأتون سنويًا للصلاة فى هذا الضريح وينسبون لهذه الزيارة الدينية نتائج مدهشة وشفاءً أكيدًا لكل الأمراض. ولقد علمنا - أيضًا - أنه للحفاظ على هذه الزيارات التى يخصص لها العابدون الكثير من العطايا والتبرعات فإن القائمين على المُصلَّى يقومون بعرض ثعبان للزوار ويقنعونهم أنه خالد لا يموت حتى يُحيى ذكرى الشيخ فى أذهان المصلين.

---

(١) يتمتع هؤلاء اللصوص بقدر عال من الجسارة. فعندما كنا نستعد لمغادرة قرية الشيخ الهريدى مساء ليلة مقمرة تسلل أحد اللصوص إلى قاربنا وقام بسرقة عِمامة قائد المركب بينما كان هذا الأخير يمسك بالدفة ثم قام اللص بالقفز فى الماء بسرعة عجيبة، وقد صوبنا إليه طلقة من المسدس إلا أنه سرعان ما غطس فى الماء ولم يرفع رأسه فوق سطح الماء إلا بعد أن ابتعد عنا بمسافة طويلة!!

(٢) وفقًا لما رواه أحد السائحين مؤخرًا - يقود هذا السلم إلى داخل المسجد عن طريق ممر خفى وأوضح السائح أيضاً وجود حفرة كبيرة جداً فى أعلى قمة بالجبل وأكد أنه يمكننا الوصول إليها عبر طريق وعرة؛ إلا أننا لم نستطع التأكد من هذا الكلام.

ولقد تعجلنا من قام بإدخالنا حتى يشبع فضولنا ويرينا هذا الثعبان إلا أنه كرر لنا أكثر من مرة بعد أن أقسم بكل ما استحلفناه به - أن هذا الثعبان لا وجود له على الإطلاق وأن روايات السائحين بهذا الصدد ليست صحيحة، كما أكد لنا هذا الرجل أن أفواج المصلين الذين يتوافدون على هذا الضريح لا يدفعهم لذلك سوى عادات المسلمين وأن من يقوم على خدمة هذا المصلًى يتلقى القليل من العطايا التى تكاد تكفيه قوت يومه، وأضاف الرجل أنه كان من عادة أحد القائمين على الضريح _ عندما يكون هناك عدد كبير من المصلين _ أن يقوم باللعب مع الثعابين لتسلية الزوَّار ثم يقوم بتسريحهم فى الجبل بعد ذلك. وما إن طلبنا منهم أن يمتعونا بهذا العرض حتى قام أحدهم وابتعد وغاب قليلاً ثم عاد وفى يده ثعبان يحركه بثقة ومهارة شديدة حتى أنه جعلنا نلمسه أيضًا. وبعد أن حرَّك عدة مرات الأعلام فوق رؤوسنا وقام بترديد بعض الأدعية التى يبتهل فيها اسم الشيخ قام الرجل بلَف الثعبان عدة مرات حول أعناقنا مؤكدًا أن ذلك سيجعلنا بمنأى عن الأمراض والحوادث بإذن الله، ولقد قدَّمنا له جزيل الشكر على هذا الفأل الحسن وبالرغم من أن الهدية التى قدَّمناها لهم كانت بسيطة فقد أثارت إعجابهم وعرفانهم. ولقد رأينا عند مدخل الكهف كمية من الأحجار السوداء أضرمت فيها النيران كما أننا لاحظنا أن الأرض كانت مُلطَّخة بالدماء وعندما سألنا عن السبب قالوا لنا إن من عادة بعض المسلمين الذين يزورون الضريح أن يُضحُّوا بالخراف والجاموس وأن يقوموا بإهداء اللحم لخدُام المسجد. وقبل أن نترك المكان، أردنا أن نحصل على الثعبان الذى رأيناه مقابل مبلغ من المال ولقد أعطيناهم مائة مدينى وأخذناه، وهذا الثعبان صغير الحجم رمادىّ اللون وبه بقع حمراء، وقام السيد جيوفروا بإلحاق هذا الثعبان بمجموعة الزواحف التى يقتنيها حيث إن هذا النوع من الثعابين لم يكن قد تم وصفه قبل ذلك من قبل علماء الطبيعية. أما بالنسبة للقائمين على ضريح الشيخ الهريدى فلم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا ثعبانًا آخر ليحل محله فالجبل يحتوى على عدد كبير من هذا النوع[1].

ولقد قام البعض بإرجاع عادة زيارة المصريين لضريح وثعبان الشيخ الهريدى إلى سبب مُناف للعقل؛ فلقد اعتقدوا أن هذا التقليد يجد جذوره فى عادة عبادة

---

(١) تم الحصول على معظم الحقائق الواردة فى هذا الجزء الأخير من مذكرات السيد فورييه الذى زرت معه مصر العليا.

الثعابين القديمة.. كل هذه الأفكار أوروبية وربما يكون من الطريف أن نعرف رأى أهل هذا البلد - وفقًا لتقليد قديم لاحظه أحد السائحين مؤخرًا على أرض الواقع - فإنه كان يوجد فى هذا المكان منذ عدة قرون شيخ مشهور بطهارته وتدينه، وبعد وفاة هذا الشيخ لوحظ وجود ثعبان بجوار منزله حتى إن أحدهم أشاع أن روح الشيخ قد تقمصت هذا الثعبان، وسرعان ما اكتسب هذا الثعبان شهرة واسعة فى مجال شفاء الأمراض المزمنة ومنح القدرة على الإنجاب لكل عاقر[١]. ومع مُضِىّ الوقت، أصبح يُنظَّم حج سنوى لهذا المكان فى موسم الفيضانات، واعتقد الكثير من المرضى أنه قد تم شفاؤهم بالفعل وأصبحت النساء العقيمات قادرات على الإنجاب؛ كل هذه الأعمال الخارقة التى نُسِبَت إلى الثعبان والتى تم المبالغة فيها عن طريق الشائعات خدعت السائحين السذج!

ومن السهل علينا أن نسرد تفاصيل أكثر عن هذه الخرافة ولكن بما أننا نعتقد أن مثل هذه الخرافات ليس لها أية علاقة بالآثار المصرية القديمة فليس هناك مجال إذن للاستفاضة فى الحديث عنها. وبالإضافة إلى ذلك، يبدو لى أن مثل هذا النوع من الحكايات لا يستحق أن يحوز اهتمام القارئ الذكى؛ اللهم إن لم يكن من منظور فن المصريين المحدثين الذى نجد به آثار تلك الصناعة كالتى ذاع بها صيت الحواة القدماء؛ فقد حكى لنا استرابون واليان وغيرهم من الكُتَّاب الكثير عن عالم المشعوذين كما رَووا لنا الكثير من الأشياء الغريبة والتى تزداد غرابةً إذا ما قارنَّاها بما يحدث فى هذه الأيام... على أية حال، فإنه يتعين على علماء الطبيعة التعامل مع هذه المسألة من خلال عادات الحيوانات ووسائل تربيتهم. أما بالنسبة لخرافة ثعبان الشيخ الهريدى فسأكتفى بإضافة أنه فى إحدى المقالات اللاذعة التى تم نشرها بجريدة «العشارية المصرية»[٢] قام السيد لانكريه برواية بعض القصص المنافية للعقل والتى يروِّجها السائحون فى أوروبا فى الفترة الأخيرة عن مثل هذه الخرافات.

---

(١) روى لى السائح الذى تحدثت عنه منذ قليل أنه رأى داخل المسجد مائدة مربعة صغيرة تعلوها سجادة قيل له إن الثعبان يجلس فوقها كل يوم حتى يلمسه المرضى والمصابون، كما روى لى أن هذه القاعة تحتوى - أيضًا - على نموذج لقارب وعلى قرون تيس مُعلقّة على عارضة خشبية.

(٢) العدد ٨٣ من جريدة تصدر بالقاهرة.

الفصل الثانى عشر
وصف آثار قاو الكبير
بقلم السيد: چومار

المبحث الأول: ملاحظات عامة

عندما نتجه نحو أعالى نهر النيل لزيارة الصعيد فإن آثار مدينة قاو هى أول ما يطالعنا على ضفاف النهر لتعطينا فكرة رائعة عن أسلوب وعظمة فنون مصر القديمة. سيصاب جميع السائحين بالدهشة كما حدث لنا عندما يطالعون من قواربهم هذه الأعمدة الرائعة بتيجانها الجميلة التى تبدو من خلفها أوراق النخيل كما لو كانت تطل برؤوسها علينا عبر مجموعات من النخيل المتناسق الحجم والمتداخل مع الأشجار من حوله. فلو أن فنانًا مصريًا كان بيننا الآن وأراد أن يكشف لنا عن سر هذا الفن المعمارى الرائع وأن يجسد لنا بريشته لوحة تدعو للمحاكاة فإنه بكل تأكيد لن يجد أفضل من لوحة رواق قاو والتى أسبغت عليها الصدفة الحسنة المزيد من السحر بأن تشابك النخيل الخلاب مع أعمدتها متوجًا إياها بتيجان غاية فى الأناقة والبهاء..!! على أية حال، لن أستطيع أبدًا التعبير عن مشاعر الدهشة التى سيطرت علىّ برؤية مدينة قاو الجميلة، فهناك من الأحاسيس ما يصعب على الإنسان وصفها..!! فمهما استفضت فى الحديث لن أستطيع أن أعبر عن مدى السحر الذى يبعثه هذا المنظر الخلاب فى النفس والعقل والمخيِّلة؛ لقد كان منظرًا خلابًا، منظرًا يفوق كل وصف؛ فالنخيل فى مصر منتشر فى كل مكان ولعل رشاقة ساقه وبساطتها وغزارة جريده وتناسقه هى التى أسبغت عليه نوعًا من الهيبة والفيض والعطاء، ولم تسترع هذه الصفات انتباهنا من قبل لأنها المرة الأولى التى نرى فيها النخيل من منظور الفنان؛ فالنخل عند المصريين هو نوع من أنواع العناية الإلهية بهم فهو العائل الأساسى

لكل طبقات المجتمع وهو مصدر الخير والثراء للجميع كما أنه يصلح لآلاف الأغراض الأخرى، وقد ساهمت كل هذه السمات فى أن أصبح للنخيل مكانة خاصة عند المصريين؛ فقد اكتشف المصريون القدماء من قديم الأزل استخدامًا جديدًا للنخيل دون أن يؤثر ذلك على كم الثمار التى يحصدونها منه؛ فالحواف المستقيمة الأسطوانية الشكل لساق النخلة هى التى ألهمتهم فكرة جذع العمود كما أن الجريد المتكدس فوق قمة النخلة هو الذى أوحى لهم بفكرة تاج العمود.

وقد جسد الفنانون المصريون بريشتهم جمال هذه الطبيعة الساحرة؛ جريد النخيل الكبير الذى يقارب الأغصان فى أحجامها[1]، اللحاء وتفاصيله الدقيقة وأخيرًا وصف الثمار نفسها؛ كل ذلك تم نقله بطريقة ذكية ومعتدلة تبعث السرور فى النفس والعين..!! تلك هى الأحاسيس الجميلة التى راودتنى عند إبحارى فى مدينة قاو أو أنتيوبوليس القديمة.

المبحث الثانى: ملاحظات جغرافية وتاريخية

على الرغم من أن الاسم الأصلى لهذه القرية هو قاو فإن هذا الاسم طالما صاحبه العديد من الصفات التى أطلقها الكُتَّاب العرب والباحثون عن هذه القرية؛ فلقد أطلق عليها اسم «الخراب » لما كانت تحتويه من أنقاض وتلال متهالكة كما أطلق عليها اسم "الشرقية "على نقيض قرية قاو الغربية التى تقع عند نهاية نهر النيل، ومن بين هذه الأسماء ـ أيضًا ـ اسم "الكبيرة" حتى يمكن تمييزها عن اسم القرية نفسها والتى تعد أصغر بكثير من تلك التى تحتوى على العديد من الآثار. أما بالنسبة لطريقة كتابة Gau أو Kau فلا تزال غير دقيقة على الإطلاق.

ولا يجدر بنا أن نبحث عن الاسم الحقيقى الذى حمله هذا المكان فى العصور القديمة من خلال الاسم الإغريقى انتيوبوليس أو مدينة أنتى؛ لأنه نادراً ما كان الإغريق يحتفظون بأسماء المدن المصرية القديمة أو حتى يترجمونها،

---

(١) لقد قمت بقياس بعض النخيل فى مصر السفلى ووجدت أن أطواله قد بلغت عشرة أمتار بالإضافة إلى ضخامته الملحوظة.

وعلى هذا الأساس قد تكون المصطلحات العربية المتوفرة بين أيدينا اليوم هى سبيلنا الوحيد للوصول لأصل هذه الأسماء؛ ولعل خير دليل على ذلك هو المكان الذى نتواجد فيه الآن، فاسمه الحالى ـ كما قلنا ـ قاو يضاف إليه صفة الكبيرة لتمييزها عن قرية أخرى تحمل نفس الاسم وإن كانت أصغر نوعًا ما. فإننا نجد فى المخطوطات القبطية الموجودة بمكتبة الملك وفى بعض فقرات كتب زويجا[١] أن مدينة انتيوبوليس هى على الأرجح تكو Tkôou أى كو Kôou مع إضافة الأداة، كما أنه كان يوجد ـ أيضًا ـ جبل يطلق عليه اسم بكو Pkôou[٢] يقع فى الناحية الشرقية وهذا هو على الأرجح نفس الاسم ولكن مع إضافة أداة التذكير، وهو الاسم المذكر الذى يعنى بالقبطية الجبل[٣]. وقد قمنا بزيارة جبل شهير فى شرق قاو ويستمد هذا الجبل شهرته من المقابر والمحاجر الكبيرة التى يحتوى عليها فضلاً عن كونه ملاذًا للعابدين، وسأتعرض لوصف هذا الجبل فى وقت لاحق.

إذن فإن الاسم القبطى لتكو يكاد يكون فى نظرى هو نفسه قاو التى كانت تكتب غالبًا كاو فإن كان هذا الاسم يحمل مدلولاً وصفيًا فينبغى أن نبحث هنا عن أصل وتاريخ هذه المدينة. ـ وفقًا لأسطورة إغريقية قديمة ـ كان أنتى عملاقاً يطلق عليه ابن الأرض وقد نجح هرقل فى القضاء عليه بعد جهد جهيد ففى كل مرة كان يلمس أنتيه الأرض بيديه كان يستعيد قواه ليقاتل عدوّه الشرس ولم يستطع هرقل التغلب عليه إلا حينما رفعه فى الهواء وقام بخنقه بعنف شديد، وقد تخفى هذه القصة نوعًا من الاستعارة التى تعبر عن فكرة الارتباط بالأرض، وسأقترح تصورًا ما عن أصل هذه الأسطورة فى نهاية هذا الفصل.

يبدو لنا الآن من غير الضرورى أن نبحث عن طريق الجغرافيا المقارنة، إن كان الرواق القديم وهذه الأطلال المحيطة بنا من كل جانب هى بقايا مدينة انتيوبوليس؛ فقد حرص الإغريق على أن ينقشوا بأنفسهم اسم أنتى فى الرواق إلا أن هذا النقش قد تحطم للأسف إلى ستة أجزاء وأصبح من الصعب إعادته

---

(١) انظر إلى كتاب ملاحظات حول الجغرافيا فى مصر للسيد كاترمير وإلى كتاب جغرافية مصر للعالم شامبليون.

(٢) وفقًا لنفس المواضع التى ذكرها كاترمير.

(٣) جبل، أو بلد جبلى. ومن المحتمل أن أصل اسم أنتو يرجع إلى هذه الكلمة والتى حذف منها الإغريق أداة التعريف .

إلى صورته الأصلية؛ إلا أننا قد علمنا عن طريق هذا النقش الأثرى - الذى حفر باسم ملوك مصر - أنه قد تم تكريم أنتى قبل وفاته فى هذا المعبد الرائع. وعلى أية حال فلن استفيض الآن فى الحديث عن هذا النقش حيث أنى سأفرد له فقرة منفصلة فيما بعد ولكنى سأجزم فى عبارات قليلة أن كل علماء الجغرافيا أجمعوا على أن مدينة أنتيوبوليس وجدت بالفعل فى هذا المكان. فمن العجيب إذن أن بوكوك وغيره من الكتّاب لا يزال يراودهم الشك إزاء ذلك!

- وفقًا لبيان رحلة أنطونيانوس - فقدكان يفصل بين بانوبوليس وسيلينو ستة عشر ميلاً كما أن نفس هذه المسافة كانت تفصل بين سيلينو وأنتو - أى أن المسافة فى مجملها تبلغ اثنين وثلاثين ميلاً، وتدخل هذه المسافة ضمن سبعة وأربعين ميلاً وخمسمائة مترًا تفصل قاو عن أخميم، وتحتوى هذه المدينة الأخيرة على بقايا مدينة بانوبوليس القديمة وكان يطلق عليها - أيضًا - بقايا خمو وهو الاسم القديم لمدينة بان وفقًا لديودور الصقلى .

ولقد أكد بطلميوس أن أنتيوبوليس[1] مدينة تقع على البحر المتوسط وليس على ضفاف النيل. وقد تكرر ما حدث فى كوم أمبو وغيرها بحذافيره فى قاو : فقد اندفع النهر بسرعة نحو الشرق عن طريق منحدر مستمر فى الازدياد لكن بما أن المجال لا يتسع الآن لعرض كل هذه الأمثلة وبما أن هذا لا يهم سوى علماء الجغرافيا فسأكتفى بذكر مثال واحد بهذا الصدد تاركًا هذا البحث العام لعمل منفرد؛ فلقد هجرت مياه النيل مدينة ملوى بكل ضواحيها بينما كانت تغمر أسوارها منذ قديم الأزل، فبعد أن كانت ملوى أشهر ميناء لتصدير البذور المتجهة إلى مكة ابتعدت اليوم لتصبح على بعد ألفين وثلاثمائة متر غرب النيل واحتلت مكانها مدينة المنيا، أما من ناحية الجنوب فقد اقترب النهر أكثر وأكثر من جبال السلسلة العربية. ومن الجدير بالذكر أن حركة النهر نحو الشرق لم تكن فجائية بل جاء زحفه تدريجيا؛ ففى البداية أحاط النيل بذراعيه الجزر الصغيرة التى سرعان ما زادت مع الوقت ثم انقسمت إلى عدة جزر أدت إلى

---

(١) وُصفت هذه المدينة فى مذكرة خاصة للسيد سان جينى، وملحقة بالفصل الحادى عشر تحت عنوان الملحق الأول.

ميلاد مجموعة من السهول الواسعة بينما واصل النهر زحفه التدريجى نحو الشرق. ومما لاشك فيه أن الجزر الحالية ستختفى يومًا ما حين يصل النيل إلى أسفل السلسلة العربية أو على الأقل إلى اسفل نقطة فى هذا المسطح المائل. بناءً على ما سبق فان الجزيرة الكبيرة الواقعة أمام قاو الكبير قد تكونت نتيجة للسبب الذى ذكرته؛ ألا وهو تلاشى الضفة اليمنى للنيل والسهل الذى يفصلها عن مدينة أنتيوبوليس فى الأزمنة البعيدة،؛ حيث كان هذا المكان هو "البحر المتوسط" كما اسماه بطلميوس[١]. وبهذا الشكل تصبح اليوم كل الآثار البعيدة عن النيل عرضة للدمار من قبل مياه النهر التى سرعان ما سوف تغمر سفح الأعمدة[٢]. فمنذ عشرين عامًا - أى فى وقت الغزو الفرنسى تقريبًا - كانت الجزيرة الكبيرة جزءًا من القارة إذا ما صدقنا روايات أهل هذا البلد.

ولم يذكر كل من هيرودوت واسترابون وبومبونيوس ميلا كلمة واحدة عن مدينة أنتى، ولزم كل هؤلاء الصمت إزاء هذه المدينة القديمة بينما اكتفى بلينى بتسميتها انتيوبوليت مؤكدًا أنها إحدى مدن الصعيد. وعلى الرغم من صمت هؤلاء المؤرخين فإن استرابون وبومبونيوس وسولان تحدثوا عن وجود ملك يسمى أنتيه هزمه هرقل فى موريتانيا كما تحدثوا عن مدينة تحمل نفس الاسم فى هذا المكان من أفريقيا؛ ولكن يبدو أنه قد حدث نوع من أنواع الخلط بين هذا الأنتى وأنتى المصرى؛ فقد تحدث المؤرخ ديودور عن أنتى المصرى فى ثلاثة مواضع من كتابه "المكتبة". إلا أننى لن استفيض الآن فى هذا الحديث لأنى سأتعرض له بعد قليل.

وبالرغم من أن هيرودوت لم يتكلم عن أنتى فإنه قد تحدث بوضوح فى عدة مواضع عن هرقل المصرى الذى سبق ابن السَّمَان[٣]. - ووفقًا لما رواه هيرودوت -

---

(١) من الجزء الشرقى للنهر فى إقليم انتيوبوليس وحتى انتيه العاصمة على البحر المتوسط . خط طول٢٠ ٦٢° خط عرض ٤٠ ٢٧° .

(٢) نتجت الجزر عن هذه الحركة التقدمية للنيل نحو الشرق ولقد عرقلت القنوات الضيقة إبحارنا عند مغادرتنا لقاو .فلقد ظل قاربنا مغموسًا فى الرمال لمدة ثلاث ساعات من المساء وطوال الليل - أيضًا - بالرغم من محاولتنا المضنية لانتشاله وسط عواصف شديدة ورياح عاتية ولم يتم إنقاذنا إلا فى اليوم التالى حين قام عدد كبير من الرجال بمعاونة البحار لرفع المركب ودفعه نحو المياه.

(٣) هيرودوت. التاريخ، الفصول ٤٤ و ٥٥ و ١٤٥.

فإن هرقل هو واحد من اقدم اثنى عشر إلهًا عبدها المصريون بعد الثمانية آلهة الأولى، ويرى هيرودوت أنه بينما يعد بان وهرقل وباخوس آلهة جديدة بالنسبة للإغريق فإنها آلهة قديمة جدًا عند المصريين. ويقول ماكروب ـ أيضًا ـ: إن المصريين يقدسون هرقل ويكنون له الكثير من التوقير والاحترام بالرغم من أنهم لم يعرفوا أصله قط.

ولم تكن مدينة أنتى فى عداد المدن التى يحتفظ فيها الرومان بقواتهم إلا أنه فى موتيس وعلى بعد عدة أميال من هذا المكان كانت هناك كتيبة جند رومانية تعمل على حماية أحد المواقع(١)، وبالرغم من ذلك فقد ظلت مدينة أنتى عاصمةً لإحدى المقاطعات تحت السيطرة الرومانية. إن اسم انتيوبوليت منقوش على جميع الميداليات حتى عصر الإمبراطور تراجان فيمكننا أن نقرأ بوضوح على ظهر إحدى الميداليات المسكوكة لهذه المقاطعة ANTAILIΓ أما وجه الميدالية فمنقوش عليها: AI. TPAIAN CΘBΓΘPM Δ"(٢).

أما اليوم فلم تعد قاو سوى قرية صغيرة تابعة لمركز جرجا بيوتها من الطوب اللَبِن والمقابر الموجودة عند مداخلها تحمل أشكالاً مميزة لعل أكثرها تميزًا هى هذه المقبرة المرسوم على زواياها الأربع بعض الأذان مما يجعلها شديدة الشبه بالمقابر الإغريقية والرومانية، ولا تحتوى هذه القرية على أية صناعة متميزة كما بدا لى سكانها وكأنهم قد تركوا أنفسهم فريسة للكسل والبطالة أكثر من غيرهم فى القرى الأخرى. والواقع أنه فى كل مكان كنا نذهب إليه كان ما نجريه من أبحاث ورصد يثير الفضول فى هذا الجمع من الناس حتى إنهم كانوا يمضون ساعات طويلة فى التحديق فينا دون أى عمل آخر..! وقد أذهلنى حقًا كم الكسل الذى يتمتع به الفلاحون فى قاو..! فالبلدة ليست غنية على الإطلاق كما أن زراعتها فقيرة للغاية ويضاف إحساس آخر على إحساس التبلد واللامبالاة الذى

---

(١) ملاحظات مع السلطة . موتيس تبعاً لرحلة البحث، موتيوس تبعًا للنبذة . ولا تشير قائمة بوتينييه على الإطلاق إلى مدينة انتيوبوليس.

(٢) انظر لوحة أسماء مصر، المجلد الخامس من العصور القديمة، اللوحة ٥٨، وانظر كذلك الدراسة حول الاسماء والخريطة القديمة لمصر.

يتمتع به الفلاحون فى هذا المكان ألا وهو سوء النية والمعاداة لما نقوم به من عمل..! وقد تبادر إلى ذهنى العديد من الأسئلة: لماذا لم نواجه أية صعوبة عند دخولنا هذه القرية للحصول على بعض المؤن، ولماذا لم يمنعنا أحد من الصعود للجبل الذى تحدثت عنه آنفًا؟ لقد فروا جميعًا من أمامنا ومر وقت طويل حتى عاد إلينا البعض يعتلى وجهه علامات الغضب والريبة بينما يرتسم على وجه البعض الآخر علامات التهديد والوعيد..! أما فى جميع أنحاء القرية فلا نكاد نلمح سوى البرود والتبلد وسوء النية فى أعين الجميع..! هكذا كان استقبال سكان قاو لنا، وعلى عكس ما حظينا به من استقبال حافل فى المناطق الأكثر ثراءً حيث المحاصيل الوافرة والصناعة المزدهرة؛ فلم نجد فى هذه المناطق سوى ترحيب وثقة؛ تلك الصفتان اللتان غالبًا ما تلازمان إحساس الترف والرفاهية.

وقد رأيت فى قاو أنواعًا كبيرة جدًا من الجعارين كان يعثر عليها الفلاحون بين أكوام القمامة. وقبل أن أنهى هذا الفصل ينبغى أن أشير هنا إلى شىء فريد لم أره من قبل؛ فقد رأيت فى قاو نخلة كبيرة ينقسم ساقها عند ثلثيه - تقريبًا - إلى قسمين متساويين، كل قسم يفوق حجمه حجم الجذع نفسه كما يحمل كل ساق رأسًا كبيرًا مُحملاً بالجريد، ويبدو أن جذع هذه النخلة عند القمة كان أكبر بكثير منه عند القاع مما ينذر بإصابة هذه النخلة بمرض وشيك..! فلم أر فى حياتى مثل هذه النخلة الفريدة[١] لا فى مصر ولا فى أية بقعة من بقاع الأرض كما أنى لم أسمع - قط - أن أحدًا رأى مثلها فى أى مكان!!

المبحث الثالث: الآثار الباقية فى قاو وضواحيها

يتألف ما تبقى من مدينة انتيوبوليس القديمة من معبد رئيسى تحيط به تلال من الأنقاض وساحة كبيرة يقع على غربها مبنى تزينه بعض الأعمدة وحوائط رصيف غمرته مياه النيل. ويمكن أن نضيف إلى ما سبق المحجر ومقابر الجبل العربى باعتبارها ملحقة بالمدينة.

---

(١) رسم السيد سيسيل هذه النخلة فى لوحة عن الرواق. انظر اللوحة ٤٠، المجلد الرابع.

وقد خصصنا لوصف هذا المعبد الكبير الفقرة التالية وسوف أقدم أولاً وصفًا للأطلال التى تحيط به.

تتقسم قرية قاو إلى جزءين: يقع الجزء الأول منهما على ضفاف النيل وتوجد تلال أنقاض شرقى الجزء الأول، ويقع الجزء الثانى فى جهة الشمال الشرقى وكانت الساحة المستطيلة التى تضم الآثار تمتد دون شك حتى هذا الجزء من المدينة وكانت ملحقة فيما يبدو بحائط كبير لرصيف موجود على أقصى الطرف الغربى للأنقاض؛ ووفقًا لهذا الافتراض تبلغ أبعاده أربعمائة وخمسة وعشرين مترًا فوق مائة وخمسة أمتار تقريبًا، وعلى الرغم من أن هذه المساحة واسعة فأنا لا أعتقد أن ذلك السور يحيط بالمدينة كلها. ونحو ثلث هذه المساحة قد اختفى كل أثر له تقريبًا اليوم ولا نرى منها سوى الجانبين الشمالى والشرقى وقد جرفت مياه النيل الجانب الجنوبى منها أو ذلك المطل على النيل؛ حيث يبدو أن التلال المصفوفة على ضفة النهر ليست ما تبقى من هذا السياج. كما يبدو - أيضًا - أن الساحة قد تم بناؤها من الطوب المحروق بفعل الشمس. أما عن مدخل المعبد الكبير فهو يقع فى منتصف امتداد المعبد، ويوجد فى محوره وبالتحديد عند السور منفذ مفتوح لا يزال واضحًا حتى وقتنا هذا.

ولم يتم التنقيب فى التلال الواقعة شرق وغرب المساحة التى كان المعبد موجودًا بها؛ ولكنى لا أشك أن بعض أعمال التنقيب المنظمة جدًا قد أسفرت عن العثور على بعض القطع القيمة الخاصة بالعصور القديمة وذلك نظرًا لوجود حطام الفخار القديم والأجزاء المنتشرة فى كل مكان فوق السطح.

كما يوجد على امتداد مائة وثلاثين مترًا من الأعمدة الثلاثة الواقعة أقصى جنوب الرواق كتلة كبيرة مربعة ذات بناء عتيق وتشبه - تمامًا - قاعدة تمثال ويصعب معرفة الطابع الفنى[1] الذى كانت تحمله، ولا يمكن أن يكون لهذا الأثر

---

(١) يبدو أنه كان يوجد العديد من قواعد التماثيل المشابهة لهذه القاعدة، وأجهل ما إذا كانت تحمل فوقها تماثيل لكنى عثرت فى الشيخ الهريدى. وهى قرية تقع على بعد ثلاثة فراسخ ونصف فى جهة الجنوب، حيث بعض الأطلال. على تمثال رومانى ضخم يتفق مع تلك القاعدة .ارجع إلى اللوحة ٦٢، الشكلين ٦ ، ٧ ، والملاحظة التى تمثل الملحق الثانى للفصل الحادى عشر.

أية علاقة بالمعبد، كما لا يبدو - أيضًا - أن هذه الكتلة متصلة بالمبنى من الجهة الشرقية؛ لاسيما وأن الواجهات مائلة مقارنة بصف الأعمدة الخاص بذلك المبنى، وبما أن المياه قد غمرته - تمامًا - اليوم فنحن نعتقد أن من الممكن اعتباره نقطة ارتكاز للرصيف المبنى من الاحجار والذى كان يهدف إلى حماية المعابد، وقد جرفت المياه جزءًا كبيرًا من الرصيف الذى شيد خلال عصور مختلفة، وقد تم بناء هذا الرصيف الذى سوف نتحدث عنه بعد قليل قريبًا من المعبد؛ وما يثبت ذلك هو ما تبقى من السور الذى يقع فى الغرب بالقرب من الأحجار الكثيرة الذى تغمره مياه النيل اليوم تمامًا؛ غير أن النهر الذى يجرى - دائمًا - نحو الشمال قد دمر جزءًا كبيرًا من الأبنية، ووصل إلى أساس الباب الذى كان موجودًا فى هذا الاتجاه وبالتحديد فى محور المعبد الكبير[١].

ويبدو لنا أن الهدف من بناء الرصيف الحالى هو وضع حد لما يسببه النهر من أضرار - وأيضًا - لحماية ما تبقى من آثار؛ ولهذين السببين فنحن نشك أن بناءه قد تلا بناء المعبد الكبير. ولم تتغير طبيعة نهر النيل فى عصر نوردن عن وقتنا هذا؛ فقد لوحظ وجود قناة فى شمال قاو ويحيط بها سد من الأحجار التى جرفتها مياه النهر.

ويقع غرب تلك الكتلة بما يقل عن عشرين مترًا صفان من الأعمدة الموازية للنهر ويحتوى كل صف على سبعة أعمدة وستائر حجرية وهو الشىء الوحيد الذى يتبقى إلى الآن من المبنى الغربى[٢]. ويبلغ قطر كل عمود من هذه الأعمدة مترًا، أما المسافات بين الأعمدة من محور لآخر فتبلغ مترين وتسعة وسبعين سنتمتراً. وقد دمرت فيضانات النيل جزءًا من هذا المبنى الصغير كما حجبت الأنقاض المبنى الآخر، ويتميز هذا المبنى بأسلوب بناء بسيط حيث إنه مشيد من حجر جيرى، كما يصعب عمل الرسم الهندسى الخاص به، و - وفقًا للأبعاد

---

(١) تابع ما سيلى.

(٢) انظر الخريطة العامة ، اللوحة ٣٩ ، الشكل ١، المجلد الرابع.

المتبقية ـ يمكن الافتراض بأن طوله لا يتجاوز عشرين أو ثلاثين مترًا. ويدل وجود الستائر الحجرية وأشياء أخرى على أن هذا المبنى مصرى، وهو يختلف عن المعابد الصغيرة المعروفة باسم بيت الولادة بصفوف الأعمدة وبموقعه بالنسبة إلى المعبد الرئيسى. وقد حجبت اللوحات رؤية المسافات الواقعة بين الأعمدة.

ويوجد جزء من رصيف هائل عند أقصى غرب الأطلال، وبدلاً من أن يكون الرصيف على هيئة مهماز؛ فهو يشكل على العكس مثلثًا حادًا يبلغ طول أحد ضلعيه أكثر من عشرين مترًا والآخر أكثر من خمسة عشر مترًا. وقد شيد هيكل البناء من حجارة كبيرة مشذبة، ويبدو أن بناءه متين؛ ولكننا نجهل ما آل إليه باقى المبنى. ومع ارتفاع قاع النيل الذى يزيد منسوب الماء به باستمرار ستغمر مياه الفيضان هذه الأرصفة حتى أطرافها إلى أن ينتهى الأمر باختفاء هذه الأرصفة تمامًا، وسيكون على سكان هذه القرية أن يقوموا بتعلية الأرصفة حتى يستطيعوا حمايتها من فيض المياه؛ وإلا سينتهى الحال بالمعبد وما تبقى من المدينة القديمة بأن يصبحا ضحايا للنهر فلا شىء يحميهم من الفيضانات.

ويوجد فى مواجهة أطلال مدينة انتيوبوليس جزيرة ذات اتساع قليل وقناة يبلغ طولها مائة وخمسين متراً فقط، بينما يبلغ طول القناة الكبيرة أكثر من ألف متر. وإذا ما أخذنا فى الحسبان أن فيضان النيل يتراوح ما بين اثنى عشر إلى خمسة عشر مترًا وأن هذا الكم الضخم من الماء يرتطم بصفوف الأعمدة، وإذا ما أضفنا إلى هذا الضغط الشديد انحدار ماء النيل من جهة الشرق فسوف ندرك بسهولة مدى صعوبة أن يصمد الرواق المدخل يومًا ما أمام هذا العامل الذى أفضى إلى تدمير باقى الآثار.

وتقع السلسلة العربية على بعد فرسخ شمال هذه البقعة. وقد حفر المصريون فى جدران إحدى المغارات العميقة بعض التجويفات التى استخرجوا منها المواد اللازمة لبناء مدنهم ويبلغ اتساع أحد هذه المحاجر حدًا لا يصدق؛ فقد قمنا بقياس بعديه الرئيسين فوجدناهما بارتفاع ستمائة قدم على أربعمائة قدم (أى ما يعادل مائتى متر على مائة وثلاثين مترًا)، كما نلاحظ على السقف

وجود رسم مساقط كالذى عثر عليه فى جبل أبى فضة الذى سوف أتحدث عنه فى الفصل السادس عشر، ونجد فى مختلف المحاجر محاولات مشابهة خاصة بفن تقطيع أحجار البناء.

أما أكثر ما أثار دهشتنا فى تلك المحاجر فهو وجود نقوش من حروف مشابهة لتلك التى نجدها على البرديات. وعلى المسافرين الذين سوف يزورون هذه الأماكن أن يقوموا بنسخ النقوش المختصرة المرسومة على ركائز المحجر.

ونجد فى الشمال مقابر مختلفة يتميز سقفها بتصميم له شكل نصف أسطوانى، كما أن تصميم القاعات مشابه لتصميم مقابر طيبة وأسيوط، وفى النهاية توجد بعض الحجرات التى تحتوى على رسومات لأصحاب المقبرة، كما نجد - أيضًا - بعض الآبار والممرات التى تتصل بالقاعات العلوية وعلى غرار المحاجر التى تحدثت عنها نلاحظ أن العديد من هذه المدافن تحتوى على رموز مختصرة بالإضافة إلى النقوش الهيروغليفية.

ويمتلئ هذا الجزء من الجبل العربى بكوات مشابهة، وعند أعلى قرية قاو تقترب الحجارة من مجرى النهر، وقد لاحظنا أن الأبواب قد حفر لها بشكل متناسق. وتوجد أربع فتحات كبيرة تقع بالقرب من الريان، وقد تم النحت فى الجبل حيث نجد فى أعلاه مساكن رحبة؛ فهذا الجبل يتكون بطبيعته من أحجار جيرية ذات حبيبات صلبة وقابلة للتشذيب.

المبحث الرابع: معبد انتيوبوليس الكبير

سبق وأن ذكرنا أن معبد انتيوبوليس كان فى الأصل يقع عند محور الحرم، وأن النهر قد اقترب بشكل كبير من الجانب الجنوبى للمعبد حيث لم يعد يفصله عنه اليوم سوى خمسة عشر أو ستة عشر مترًا. ومن المحتمل أن يستمر اقتراب النهر من المعبد، وأن ينتهى الأمر بأن تغمر المياه الرواق إذا ما ارتفع منسوب المياه فى النهر بشكل كاف؛ بل إننا لا نشك فى حدوث ذلك بالفعل فى أوقات

الفيضانات الكبرى وإن كان السكان لم يخبرونا بذلك؛ ولكننا نرتكز فى هذه النظرية على كون الجزء السفلى من الأعمدة قد أصابه التلف بشكل واضح حتى ارتفاع متر أو أكثر من المتر، ويبدو أن الملح الذى تحتويه التربة فى أرضية المعبد حاليًا يذوب فى مياه النهر ويصيب الحجارة بالتلف. وقد وجدنا فوق جذع الأعمدة ـ على ارتفاع أكثر من متر عن سطح الأرض ـ أجزاءً تغطيها آثار ملح بحرى، وطبقات الدهان فى هذه الأجزاء تنفصل بسهولة عن الحجر رغم أنها عادة ما تكون غاية فى الصلابة.

ثانيًا إذا لاحظنا أن الرواق الأول هو الجزء الوحيد الباقى من هذا المعبد الذى كان فيما سبق متين البنيان، وأن الرواق التالى الذى أعتقد أنه كان لابد موجودًا، وكذلك جميع قاعات المعبد الأخرى قد تهدمت كلها وأحجارها اليوم رابضة على الأرض؛ فإن كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الدمار هو من فعل مياه النيل التى تسببت فى تآكل الأساسات شيئاً فشيئاً حتى انهارت الحوائط.

وقد شيد هذا المعبد من حجر يشبه فى طبيعته حجر الجبل العربى؛ وهو نوع من الحجر الجيرى السميك ذو حبيبات دقيقة جدًا، يأخذ شكل المحار ولونه ضارب إلى الرمادى، وتفوح منه رائحة كريهة عند الاحتكاك؛ وهذا الحجر عندما يصقل يشبه الرخام فى بريقه ولمعانه، وجدير بالذكر أن الجبل المسمى «بجبل هريدى» فى جنوب قاو يتكون ـ أيضًا ـ من هذا الحجر.

وكان باب المعبد يفتح باتجاه غرب الجنوب الغربى موازيًا تقريبًا لاتجاه النيل فى هذه المنطقة، وليس ممكناً اليوم معرفة ارتفاع المعبد على وجه التحديد وإن كان من الممكن معرفة ذلك بشكل تقريبى؛ وذلك من خلال موقع مقصورة ضخمة أحادية الحجر تحتل اليوم محور الرواق، وقد كانت بلا شك تقع فيما سبق فى نهاية قدس الأقداس كما هو الحال بالنسبة بنشتى الصقور فى معبد فيلة العظيم، ولا يزال هذا الأثر الأحادى الحجر رابضًا فى مكانه الأصلى على ما يبدو، وذلك رغم أن جزءًا منه مطمور تحت الأرض، وتبلغ المسافة من مركزه حتى رواق المدخل تسعة وخمسين مترًا، ويجب أن تضاف إليها حوالى عشرة أمتار

للجزء الخلفى من الهيكل المقدس فى عملية الترميم التى نقترحها[١]. وهكذا فإن طول المعبد كان يبلغ تسعة وستين مترًا على الأقل؛ وإن كان من المحتمل أنه كان أكبر من ذلك بكثير، أما عرضه عند الرواق فكان يبلغ خمسة وأربعين مترًا، وحسب أقرب تصور لما كانت عليه أعمدة الزوايا البارزة والتى توجد اليوم ملقاة على الأرض فإن عمق الرواق كان يبلغ ستة عشر مترًا.

وارتفاع المعبد كان يبلغ إذن ١٥,٠٦ مترًا أو ثلث عرضه تقريبًا، وهذه الأبعاد تم حسابها بشكل مؤكد بفضل الأجزاء المتبقية من الكورنيش[٢] وكذلك الحفائر التى تمت أسفل العمود. ويبلغ قطر العمود من أسفل ٢,٣٢ مترًا، وارتفاعه ١١,٥٠ مترًا أو ما يعادل خمسة أضعاف القطر؛ وهذا الارتفاع يشمل القاعدة والتاج، وارتفاع التاج ٢,٥٠ مترًا والقاعدة ٠,٦ متر، ويتوج قمة العمود عتب بارتفاع ٤٣٣,٠ متر، والمسافة بين كل عمودين تبلغ ثلاثة أمتار فيما عدا عند منتصفها حيث تبلغ ٥,٤٠ أمتار، ويبلغ ارتفاع ركام الأعمدة حوالى مترين ونصف متر (سبع أقدام ونصف قدم). أما أنقاض الجزء الخلفى من المعبد فارتفاعها أكبر من ذلك بكثير؛ فتشاهد هنالك أحجارًا ضخمة، كانت قطعًا من الأسقف فيما مضى بارزة من الأرض هنا وهناك بداية من الرواق وحتى المقصورة الكبيرة؛ ولكن الجزء الأكبر من الأنقاض مغطى بالركام وأكوام من الأتربة وتحجبه ـ تمامًا ـ غابات من النخيل؛ ويبلغ طول أحد هذه الأحجار ٦,٥ أمتار فى ١,٢٠[٣] فى الاتجاهين الآخرين، وهناك أحجار أخرى كثيرة يبلغ طولها ستة أمتار ونصف متر بل إننا قسنا بنفسنا أحدها فوجدناه يصل إلى ٧,٦٠ أمتار فى أكثر من ثلاثة أمتار.

أما الرواق نفسه ـ فكما سبق أن ذكرنا فى بداية هذا الوصف ـ تحيط به أشجار النخيل[٤]؛ بل وتحتل جزءًا منه مما يعطى له شكلاً متميزًا. وقد كان

---

(١) انظر الخريطة شكل ١ لوحة ٤١ ولوحة ٤٢.

(٢) انظر لوحة ٤٠.

(٣) فى يومياتنا هذا الرقم ٤,٢٠ أمتار ولكن من المحتمل أن يكون هذا خطأ .

(٤) انظر اللوحتين ٣٩، ٤٠ .

الرواق يضم ثمانية عشر من الأعمدة المتراصة فى ثلاثة صفوف لا يزال الأول والثانى منها كاملين بينما صف الواجهة لم يعد موجودًا منه سوى ثلاثة أعمدة بدلاً من ستة؛ وهى عمودا الوسط والعمود الذى يليهما من ناحية اليمين، وقد أدى سقوط الأعمدة الثلاثة إلى سقوط الأعتاب والأسقف التى كانت تحملها[١]، وهذا يفسر وجود أجزاء كبيرة من التكنة والإفريز والكورنيش ملقاة على الأرض؛ بينما لا يزال باقى الرواق مغطى بسقفه.

وفى خلال حديثنا عن مختلف الأجزاء المتبقية من المعبد ذكرنا تقريبًا كل ما يمكن أن يقال عن وضع المعبد. وإذا استرشدنا بالمعابد الأخرى المماثلة من نفس الطراز فإن ذلك سيحملنا على الاعتقاد بأن الرواق الأول ذا الثمانية عشر عمودًا كان يليه رواق ثان يضم اثنى عشر عمودًا أصغر وأقصر، ثم قاعتان مستطيلتان ومتعامدتان على المحور، ويليهما قدس الأقداس، وغرفتان جانبيتان، وأخيرًا هناك رواق لعزل قدس الأقداس يؤدى إلى قاعات قائمة على يمين ويسار المعبد، ولكن كان هناك بناءٌ آخر ملحق بالتخطيط العام للأثر، وينبغى أن نشير إليه قبل الدخول فى الوصف التفصيلى، لاشك أن هذا البناء كان عبارة عن باب يماثل ذلك الذى يتقدم معبد دندرة ومعبد الكرنك العتيق. على محور الرواق وعلى مسافة ٨٠٠ متر تقريبًا نجد أحجارًا ضخمة على الأرض يبلغ طول أحدها ٩,٨٧ أمتار وعرضه ١,٦٠ متر وارتفاعه ١,٤٥ متر، وهناك أحجار أخرى ذات أحجام غير عادية وإن لم تصل إلى حجم هذا الحجر وهذه الكتل العملاقة أكبر حتى من تلك التى استخدمت فى طيبة[٢]. والواقع أن طبيعة الحجر الذى وصفته ملائمة ـ تمامًا ـ وأكثر بكثير من الحجارة المأخوذة من جبل طيبة لحجم وحمل الأساسات الضخمة، وجدير بالذكر أن وزن أحد هذه الأحجار كان يعادل تقريبًا ١٨٦ ألف رطل. وإننا نترك لغيرنا مهمة البحث عن الطرق التى كان يتم بها حمل

---

(١) يبدو أنه فى عهد بوكوك عام ١٧٤٠ تقريبًا كانت الأعمدة الثمانية عشرة قائمة.

(٢) سجل أحد الزملاء فى يومياته وجود حجر أكبر بكثير طوله ثلاثون قدمًا وعرضه ثمانية أقدام وسمكه خمسة أقدام، أما بوكوك فقد ذكر حجرًا طوله واحد وعشرون قدمًا وعرضه ثمانية أقدام وسمكه أيضًا خمسة أقدام، وحجرًا طوله ثلاثون قدمًا وسمكه خمسة أقدام.

أحجار بمثل هذه الأطوال والأوزان وبصفة خاصة عن كيفية رفعها لأماكنها، ونكتفى بالإشارة إلى أن أكبر حجر فى كوبرى "نويلى" يبلغ طوله ٣٤ قدمًا و٦ بوصات وكل من عرضه وارتفاعه قدمان وست بوصات - أى ١١,٢١ مترًا فى ٨١,٠مترًا (١). كما أن حجرى الواجهة فى متحف اللوفر المشهورين بسبب ضخامتهما يبلغ حجم كل منهما ٥٢ قدمًا فى ٨ أقدام للعرض وقدم واحدة وبوصتان للارتفاع، وهكذا فإن حجر الكوبرى يزن ٣٤ ألف رطل ونصف وحجرى متحف اللوفر يزن كل منهما أكثر من ٧٧ ألف رطل - أى أن وزن الأول أقل من وزن أحجار معبد "قاو" باثنين وخمسين رطلاً، أما وزن كل من حجرى اللوفر فأقل منها بتسعة آلاف؛ إلا أننا مع ذلك لا نجرؤ على الجزم بأن هذه الأحجار التى رأيناها ملقاة على الأرض كانت قد رفعت بالفعل ووضعت فى مكانها لتغطى الباب الذى تصورنا أنه كان موجودًا فى هذا المكان؛ لأنه إذا كان هذا صحيحًا فكيف يمكن لأحجار بهذا الطول أن تقع من مكانها دون أن تتحطم ؟

وكانت واجهة الرواق تزينها ستائر حجرية؛ ولكن ما كان يميزها عن غيرها هى أن كل هذه الحوائط تفتح على لوحات؛ وذلك على عكس المعابد الأخرى التى تغلق فيها الحوائط على لوحات؛ بحيث أن كل الفواصل بين الأعمدة كانت تشكل أبوابًا كلها تشبه باب الوسط وإن كانت أقل منه ارتفاعًا(٢). وللوهلة الأولى من الممكن تصور أن هذه المخارج المتعددة تنتهك نظام العمارة؛ بل وحتى الديانة المصرية التى كانت تمنع دخول المعابد بأعداد كبيرة، وبالتالى من الممكن تصور أن هذه الأبواب قد أضيفت إلى البناء الأصلى للمعبد فى وقت لاحق؛ ولكن ما يدحض ذلك أولاً: أن وضع هذه الأبواب التى تغلق فى الحوائط الفاصلة بين الأعمدة الجانبية من البداية كان يسيرًا بنفس قدر سهولة تركيب باب الوسط،

(١) كانت العربة التى نقل فوقها هذا الحجر تزن أحد عشر رطلاً، وكان عدد الأحصنة التى تشد إليها يتراوح بين ستة وثلاثين وثمانية وأربعين حصانًا حسب وعورة الطريق، وقد جلبت هذه العربة من «مولان» على بعد أحد عشر فرسخًا من باريس.

(٢) انظر اللوحة ٤١ شكل ٢، المجلد الرابع. ويبدو أن بوكوك أراد أن ينقل أنه رأى لوحات فى المسافات بين الأعمدة ولكنه بلا شك أساء التعبير.

وثانيًا: فإن شكل هذه الأبواب وطرازها وزخارفها كل ذلك يتفق ـ تمامًا ـ مع طبيعة العمارة المصرية، فهذه إذن ميزة خاصة أراد المهندس المعمارى الذى صمم معبد قاو أن يدخلها فى تصميمه؛ وعلى ذلك يجب أن نضيف هذا المثال الجديد إلى ما نعرفه بالفعل عن التنوع فى الآثار المصرية وذلك على عكس الاعتقاد السائد بتشابهها.

ونصل الآن إلى وصف المقصورة أحادية الحجر الفريدة القائمة على بعد ٥٩ مترًا من الواجهة فى محور رواق المدخل، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند النظر إلى هذه الكتلة التى تعتبر الأثر الوحيد الباقى من المعبد منتصبًا وبحالة جيدة؛ هى أن السبب فى بقائه بهذه الحالة هو أنه يتكون من كتلة حجرية واحدة. وإذا ما تذكرنا المقاصير الموجودة فى فيَلَة والمنحوتة فى الجرانيت، و ـ أيضًا ـ تلك التى كانت موجودة فى "قوص" و"بوتس" و"سايس" وفى أماكن أخرى كثيرة لتأكدنا ـ تمامًا ـ أن المصريينِ إنما كانوا يهدفون من بناء هذه الحجرات ذات الكتلة الحجرية الواحدة إلى إعطائها صلابة أكبر من باقى الآثار وضمان بقائها مدة أطول منها، وهذه الكتلة الموجودة فى معبد قاو لها شكل يميزها عن غيرها؛ فالقمة عبارة عن هرم رباعى الأضلاع ذى زاوية شديدة الحدة، وجسم الأثر نفسه مستطيل الشكل غير متساوى الأضلاع فهو لا يكون منشورًا قائمًا؛ ولكن الجوانب تميل إلى الانحناء قليلاً، والتجويف المحفور داخله يأخذ شكل المنشور، والواجهة الأمامية يزينها شريط وإفريز كورنيش هو فى الوقت نفسه قاعدة الهرم من هذا الجانب. وهذا الأثر مدفون، والجزء الظاهر منه فوق الأرض ارتفاعه ثلاثة أمتار بالإضافة إلى ارتفاع الهرم الذى يبلغ ١,٤٠ متر عموديًا، أى أن الارتفاع الكلى فوق الأرض خمسة أمتار، وهذه هى الأبعاد الرئيسية التى قمنا بقياسها بمنتهى الدقة:

- طول الواجهة الشمالية حتى قاعدة الهرم ٢,٦٩ متر
- الواجهة الشرقية أو الغربية ٢,١٣ متر
- طول الضلع العمودى ١,٩٨ متر

- طول ضلع التجويف أو العمق ١,٥٨ متر
- العرض ١,١٣ متر

ورغم أننا لم نتمكن من القيام بالحفر أسفل هذا الأثر فإنه يمكن تصور أن ارتفاعه كان يبلغ على الأقل خمسة أمتار. أما الحجر الذى استخدم فى بنائه فهو نفس الحجر الجيرىّ اللامع ذى الحبيبات الدقيقة الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى استخرج من محجر جبل «هريدى».

وجدير بالذكر أن هذا الحجر كان يلائم فى الوقت نفسه أعمال النحت بالغة الدقة؛ لذا فإن الزخارف التى تزين الأثر فى غاية الرقة، وكل النقوش بارزة وهذا البروز شديد النعومة من الخارج، كما تجدر الإشارة إلى أن الواجهة ـ فقط تزينها هذه النقوش بينما الجوانب الثلاثة الأخرى ناعمة ومصقولة، ويزين الكورنيش قرص مجنح، والإفريز أسفله يحمل أسطوانة مشابهة، وكل جانب تزينه نقوش هيروغليفية موزعة على ثلاثة صفوف رأسية. والتجويف الداخلى تزينه نقوش لموضوعات متنوعة سنجد أنفسنا بالطبع شغوفين بدراستها على أمل إلقاء الضوء على الهدف من إقامة المعبد أو العقيدة التى أقيم من أجلها؛ ولكن كما رأينا فى المقاصير الأخرى فإن الموضوعات المنقوشة على جوانب التجويف لا تصور أية شخصية أو أى رمز خاص؛ وإنما امتزجت فيها الكائنات الماثلة فى الأساطير المصرية بشكل غامض ستعجز الأبحاث ـ بلا شك ـ عن كشف غموضه إلا بعد فترة طويلة من الزمن، ومن هذه الكائنات يبدو أن الصقر والحيوان المعروف بابن آوى يلعبان الدور الرئيسى، وفى إحدى الأفاريز التى تزين قمة التجويف صور الجعران مفرود الجناحين وتكرر بهذا الشكل على مسافات متساوية، وفى الداخل وأسفل هذا الإفريز نجد صقرًا مستديرًا ناحية اليسار وبجانبه اثنان من أبناء آوى متجهان ناحية اليمين، وعلى واجهة التجويف نجد أيضًا صقرًا وابن آوى يعطى كل منهما ظهره للآخر، وشخصًا لا يبدو أنه ينتمى إلى طائفة الكهنة يقدم لهذين الإلهين قربانًا عبارة عن آنيتين فخاريتين.

فهل نستخلص من ذلك أن الصقر وابن آوى أو كليهما كانا يُعبدان فى هذا المعبد؟ كلا بلا شك. إن النقوش الهيروغيلفية التى تصاحب هذه اللوحات من الممكن أن تسهم يومًا ما فى حل هذا اللغز وإننا نأسف لأننا لم نستطع نقل هذه النقوش. وفضلاً عن ذلك فإن جزءًا كبيرًا من هذه الحروف قد محى والوجوه ذاتها فى الجزء الأسفل قد تلفت - تمامًا - ربما للسبب الذى ذكرناه من قبل وهو المياه التى يبدو أنها السبب فى تآكل الجزء الأسفل من الأعمدة.

ولقد رأينا مقاصيرًا كثيرة أحادية الحجر تنتهى بهرم منفرج مثل تلك التى وجدناها فى ملوى والتى توجد فى قوص ومقاصير أخرى كثيرة؛ ولكن الوحيدة التى تتوجها قمة حادة تأخذ شكل المسلة، فضلاً عن أن لها أبعاد المسلة هى المقصورة الموجودة فى قاو، وقد كان المصريون فى الواقع يصنعون تجاويفًا صغيرة من الخشب لها نفس هذا الشكل وقد رأيت أحد هذه الأعمال غريب الشكل إلى حد ما فى أحد مخازن الآثار(١).

وهكذا يكون القارئ قد أخذ فكرة عامة عن زخارف الرواق فى معبد قاو لاسيما إذا لاحظ فى بداية هذا الوصف التشابه الذى أبرزناه بين الأعمدة والنخيل، والتى تبدو اليوم متداخلة وتعطى بتداخلها هذا منظرًا فريدًا رائعًا، وهذا الأمر هو - أيضًا - أكثر ما يثير الدهشة عند محاولة دراسة المنهج الذى أتبعه المهندس المعمارى فيما يتعلق بالزخارف..!! فجذع العمود يميل قليلاً إلى الشكل المخروط وكذلك جذع النخلة، وتاج العمود يتكون من تسع سعفات طوال تنتهى فى أعلاها بانحناءات رشيقة، ورؤوس الأوراق تجتمع فى كتلة واحدة مقسمة إلى تسعة أجزاء تقابل السعفات التسع وهى موزعة حول الجزء المربع الذى يحمل التاج بغير ترتيب؛ وهذا الشكل غير المنتظم ظاهريًا يرجع إلى أن عدد السعفات فردى وهو ما لا نجده إلا فى هذا الأثر فى قاو، وهذه الخاصية تجعل الشكل العام يبدو كالتالى: تيجان الأعمدة تظهر عند واجهتها الأمامية

---

(١) هذه القطعة التى نتحدث عنها موجودة فى مكتبة الملك، والتجويف الموجود بها لا يتعدى طوله سبع بوصات تقريبًا، وهو يرتكز على قاعدة تحمل - أيضًا - ثلاثة وجوه من الخشب قائمة أمام فتحة التجويف.

ورقة واحدة وفى الطرف المقابل تظهر زاوية تصنعها حدود ورقتين أخريين[١]. بالإضافة إلى ذلك فإن نحت الواجهات والزوايا وانحناءات التاج كل ذلك منفذ بشكل بالغ الدقة والكمال!! كما أن هناك سمة أخرى تتفرد بها هذه التيجان وهى أن أضلاع السعفات ـ فقط ـ هى المصورة بينما الوريقات غير ظاهرة.

وتقسم جذع العمود دوائر أفقية تزينها نقوش هيروغليفية، وكل قطاع من القطاعات الأفقية بين هذه الدوائر مقسم عن طريق خطوط رأسية تفصل بدورها بين لوحات مختلفة، وهكذا فإن كل عمود مقسم إلى اثنى عشر قسمًا كل منها يزينه تصوير لقربان أو تضحية أو أى مَشهد آخر منقوش نقشًا بارزًا وفى هذه المشاهد يكون الإله جالسًا والكاهن رافعًا ذراعيه ممسكًا فى يديه قربانًا يتكرر تصويره فوق المذبح... وكل هذه المشاهد منقوشة فى غاية الدقة!!

وأسفل التاج تزين جذع العمود خمسة شرائط وثعابين كوبرا بهيئتها المعتادة، والثعابين مصورة بعضها فوق بعض كما لو كانت مجدولة ويتوجها قرص مستدير وتكون بتداخلها هذا زخرفًا بديعًا، وبين الثعابين ومن الناحية الخارجية توجد زخرفة مستديرة الشكل ومن نوع خاص وهى تبدو كنتوء زائد من الشرائط، وفوق كل ذلك صف رأسى من النقوش الهيروغليفية تمتد حتى أسفل جذع العمود وكل الخطوط التى تشكل هذه الزخارف قد نفذت بمنتهى الدقة؛ بحيث تعكس الاهتمام البالغ الذى ساد فى عملية بناء الأثر كله؛ وقد زينت كذلك كتلة الباب الرئيسى ببعض اللوحات الجذابة؛ فنرى فى إحداها شكلاً لأبى الهول فوق مذبح حاملاً إناء فخاريًا يتوجه رأس صقر، وهو بصدد تقديم هذا الإناء إلى أوزوريس وله نفس الرأس. وفى لوحة أخرى تصوير لوجه بطل يركع برشاقة أمام أوزوريس ومن خلفه تظهر إيزيس، وخلف الشخصية يظهر رمز الإله وهو علامة الحياة الذى يتكرر أربع مرات، وهذا التكرار لم نره أبدًا من قبل إلا فى هذا المكان، والخوذة والحزام اللذان يرتديهما هذا الشخص لا يدعان مجالاً للشك فى أنه بطل محارب.

---

(١) انظر اللوحة ٤١ شكلى ٤ ، ٥، المجلد الرابع.

أمـا أغـرب الموضـوعـات فـهـو ذلك الذى نقش على الجـزء الأسـفل من كل الأعمدة وهو عبارة عن رسم طائر رمزى يقف فوق كأس وتسبقه نجمة وهو شبيه ـ تمامًـا ـ بالأشكال التى نراها فى مـعـابد "فيلة" و" إدفو"، وفى دراسـة لنا حول هذه المدينـة أطلقنا على هـذا الطائر الغـامض الذى يحـمل أجنحة ومنقار صـقـر وفى نفس الوقت له قنبرة فوق رأسـه اسم "العنقـاء" وعـرضنا فى بحثنا الأسـبـاب التى تعـضـد رأينا[1]؛ لذا فإننا سنكتفـى هنا بالإحالة إلى هذا البحث. ونضيف بأنه ربما كان رمزًا لطائر العنقاء هنا مثلما هو فى معبد إدفو إعلانًا بأن هذا الأثر قـد أقيم إحيـاء لذكرى تجـديد عـصـر البطالمة والكأس التى تحـمل طائر العنقاء هنا تبدو وكأنها تخرج من وسط أزهار اللوتس التى تخرج بدورها من بين أوراق متداخلة كما فى المعابد التى ذكرناها فيما سبق. أما بالنسبـة للقاعدة التى ترتكز عليها الأعمدة فهى أسطوانية مجردة من أية زخارف.

وكان يتوج الرواق عتب لم يعد موجودًا منه إلا بضعة أجزاء، ويبلغ ارتفاع الإفريز مع الشريط الذى يزينه ١,٧٩ ـ أى نفس ارتفاع الكورنيش وتقريبًا نفس قطر التاج.

وكان يزين الإفـريز شـريطان أفقـيان من النقـوش الهيـروغليفـيـة فى وسطها قرص مـجنح، وكان الكورنيش يأخذ شكل مـجرى بارز بديع الشكل وعند منتصفه ـ أيضًـا ـ كـان هنـاك قـرص مـجنح كـبـيـر، أمـا البـاقى فكانت تزينه تضليـعـات وخراطيش هيروغليفية.

ولا يزال هنـاك جـزء من سـقف الرواق مـوجـودًا وتشـاهـد عليـه نقـوش هيـروغليـفـيـة. وسـوف نخـتـتم هذا الوصـف الموجـز لمعـبـد قـاو، مع إضـافـة أن الزخارف المصـرية التى كـانت تزين منتـصـف إفريز الواجـهـة لم تعد مـوجـود؛ إذ تمت إزالتهـا لنقش حـروف إغـريقـية مكانهـا، وسـوف نخـصص الجـزء التـالى من دراستنا لتناول هذه الكتـابة الإغـريقـيـة الغـريبـة من منظور تكوينها ومـن المنظور الأهم وهو عـلاقتهـا بتاريخ الآثار المصـرية؛ ولكن قـبل أن نفعل ذلك سـوف نشـيـر إلى العلاقة النسبية البسيطة بين الأبعاد الرئيسية لهذا البناء.

---

(١) انظر اللوحة ٤١ شكل ٣ واللوحة ٣٨ شكل ٩ ، ووصف إدفو الفصل الخامس.

إذا قسمنا ارتفاع العمود إلى عشرة أجزاء بما فيها القاعدة الطبلية فسوف يتضح لنا أن:

خرجة السطح تتضمن	ثلاثة من هذه الأجزاء
القطر يتضمن	جزءين
ارتفاع الباب الرئيسى........................	٦ أجزاء
التاج	٢
الكورنيش	١,٥
العتب مع الشريط	١,٥
ارتفاع المداميك	٠,٥
الارتفاع الكلى	١٣,٣

وهذا الجزء الذى يعادل ١ على ١٠ من ارتفاع العمود هو بالتحديد مقياس التناسب فى البناء أو ما يعادل نصف قطر العمود من أسفل.

فإذا حاولنا تصور ما كان عليه المعبد تبعًا للقواعد الطبيعية فإن الواجهة كانت تعادل أربعين مقياسًا من مقاييس البناء هذه - أى ثلاثة أضعاف الارتفاع أو أخيرًا مائة ذراع، وكان ارتفاع العمود خمسًا وعشرين ذراعًا والتاج خمس أذرع وارتفاع الباب خمس عشرة، أما القطر العمود فخمس أذرع (انظر البحث الخاص بنا حول نظم القياس عند المصريين القدماء، الفصل الرابع).

ونود أن نشير هنا - أيضًا - فى كلمات موجزة إلى الصفات الخاصة التى ينفرد بها معبد قاو؛ وأولها تتمثل فى هذا الأثر أحادى الحجر الذى يكاد بأبعاده وشكل قمته الهرمية أن يتطابق - تمامًا - مع شكل المسلة، والصفة الثانية التى ينفرد بها هذا المعبد هى العدد الفردى لأوراق النخيل التى تزين تيجان الأعمدة، أما الصفة الثالثة فتتمثل فى المسافات بين أعمدة الواجهة التى تزينها أبواب تشبه باب الوسط الذى عادة ما يكون الباب الوحيد المفتوح فى المعابد الأخرى.

وجدير بالذكر أن هناك أمتين شهيرتين قد حفرتا كتابات على هذا المعبد؛ فقد أراد كل من الإغريق والرومان التفاخر بأنهم رمموا بعض أجزاء من المعبد؛ ولكن اليوم، وبعد كل هذه القرون لا تزال النفوش الهيروغليفية والزخارف وجميع الكتابات باللغة المقدسة كلها سليمة ومحتفظة برونقها بينما الحروف الإغريقية والرومانية التى حفرت بعدها متناثرة فوق الأطلال وتكاد تكون غير مقروءة!!

المبحث الخامس : النقش الإغريقى فوق إفريز المعبد

لقد كانت ملاحظة بقايا الحروف المصرية المنقوشة التى لا تزال ظاهرة بين الحروف الإغريقية فى الكتابات التى أمر البطالمة والأباطرة بحفرها على إفريز قاو؛ كان فرصة جيدة وكشفًا مفيدًا لتحديد مدى قدم الآثار المشيدة فى مصر لذا فإننا سنحرص على تسجيل كل تفاصيل هذه الملاحظة بمنتهى العناية، وتجدر الإشارة إلى أننا سبق وعرضنا هذه الملاحظات فى دراسة لنا حول الكتابات الأثرية[1]. إذا كانت النقوش المصرية قد اختفت تحت الكتابة الإغريقية فإن هذه الكتابة بدورها قد دمرت بما أنها مقسمة إلى ستة أجزاء لم يعد باقيًا منها فى مكانه سوى جزءين بينما نجد بالكاد ثلاثة أجزاء أخرى ملقاة على الأرض؛ ومع ذلك فإننا لو اعتمدنا على الأبعاد التى تعطيها لنا مقاييس الإفريز لتجميع هذه الأجزاء لتوصلنا إلى إعادة الكتابة إلى ما كانت عليه وقراءتها بل والحصول على الدليل على أنها قد حلت محل رمز للديانة المصرية، وهكذا فإن الذين حاولوا تجريد المصريين من شرف بناء معبد قاو (إذا كانت هذه هى بالفعل نيتهم) قد أخطأوا فى حساباتهم بوضع كتابة إغريقية على المعبد لتمجيد ملوكهم المحدثين.

ومعبد قاو ليس المعبد الوحيد الذى حفر الإغريق والرومان كتاباتهم عليه ولكنه الوحيد الذى استخدم فيه الإفريز لهذا الغرض؛ وبالتالى هو الوحيد الذى

---

(١) انظر الدراسة حول النقوش القديمة التى جمعناها من مصر ـ الجزء الأول.

اجتُرِئ فيه على نزع الكتابة الهيروغليفية وهو ما يدل على أن الكتابة التى حلت محلها هى من عصر الرومان وليس البطالمة لأن هؤلاء كما نعلم كانوا حماة الديانة المصرية. أما فى سائر المعابد الأخرى فإن الكتابات من عصر البطالمة بل وحتى من عصر أباطرة الرومان قد سطرت على النتوء البارز من الكورنيش الذى كان يوفر فى الواقع مساحة متصلة ومصقولة؛ ولكن هذه المساحة حتمًا ضيقة جدًا؛ بحيث لم تكن تستوعب سوى سطرين أو ثلاثة من الكتابة فإذا ما كان يراد كتابته نصاً أطول من ذلك كان لزامًا استخدام جزء آخر أو بمعنى آخر نزع النقوش الهيروغليفية نفسها للكتابة مكانها.

وقد كان إفريز معبد قاو ملائماً ـ تمامًا ـ لهذا الغرض؛ فى حين أنه بالنسبة لغالبية المعابد كان الإفريز مزخرفًا بين طرفيه بنقوش هيروغيليفة غائرة فى منتصفه، كما أن فى معبد " ادفو " قرص مجنح ضخم بارز فى نفس مستوى بروز الكورنيش وينتهى مثله عند عمودى الوسط، وكان طول هذا القرص أكثر من ستة أمتار وارتفاعه متر ونصف متر تقريباً؛ وهذا القرص هو الذى تم كشطه ولكن بعض ريشات من الجناح الأيمن تركت آثارًا نسى المزورون أن يمحوها، وهذه الآثار هى التى جعلتنا نكتشف التزوير بعد فحص دقيق، وقد لاحظنا هذا ودونا هذه الملاحظة فى يومياتنا كما أن ثلاثة من الزملاء دونوا نفس الملاحظة كما لاحظ شهود آخرون نفس الشىء.

وقد كان تنفيذ هذا المخطط سيكون أصعب لو أن كل الإفريز كان يحوى نقوشًا هيروغليفية؛ ففى هذه الحالة كان المزورون سيضطرون إلى الحفر فى الحجارة على عمق عدة بوصات ثم حفر كتابتهم على هذا المستوى؛ ولكن اختلاف المستويات لاسيما فى مساحة ممتدة وكذلك الجزء الغائر كانا سيكشفان حتمًا هذا التزوير.

والوضع اليوم كالتالى: الجزء الأكبر من خرجة السطح قد أنهار، ومع سقوط ثلاثة من الأعمدة انهارت الأعتاب بدعاماتها وانكسرت القواعد التى كانت ترتكز على عمودى المنتصف مما أدى إلى أن الكتابة الإغريقية والقرص المجنح وكذلك الكورنيش العلوى أصبحت جميعها اليوم مقسمة إلى عدة أجزاء.

ولا يزال يرى فوق الكورنيش من ناحية الشمال (بالنظر إلى الرواق) قطعة من الإفريز فى مكانها ويمكن تمييز الأسطر الأربعة التالية عليها، ويبلغ ارتفاع الحروف فيها ٢ ديسيمترا (الكتلة رقم٢):

ΣΙΙΤΟΛΕΜΑ

ΙΛΙΣΣΑΚΛ

ΛΟΝΑΝΤΑΙΩ

ΣΣΕΡ ΣΤΟ

وهذه الأجزاء كان يسبقها سبعة أحرف كما نستنتج من شكل الناحية اليمنى والنقطة التى كانت الكتابة تبدأ حتمًا منها.

وعلى بعد ٥,٧ أمتار من هنا نجد قطعة أخرى من الإفريز مقابلة لما سبق ونستطيع تمييز الحروف التالية عليها.

ΕΙΧΑΙ ΙΣΤΩΝ

ΜΗΤΟΡΕΣ

ΟΙΑΝΤΩΝΙΝΟΣ

ΝΙΕ

هذا هو كل ما بقى فى مكانه، وفوق هذه الأجزاء من خرجة السطح توجد ـ أيضًا ـ أجزاء من الكورنيش.

وقد وجدنا على الأرض حجرين كبيرين يحملان حروفًا إغريقية ويحتلان المسافة بين أعمدة الوسط ـ أى أنهما تحت الأجزاء المقابلة من خرجة السطح؛ ولكن أحدهما يبدو مشطورًا إلى جزءين لا يظهر منهما إلا جزء واحد ولا يمكن تمييز إلا الحروف السفلى عليه؛ والسطور المكتوبة عليه بالطبع تكمل بعضها البعض كما أنها تكملة لتلك السطور التى سقناها من قبل، وهذه الأحجار تأخذ أوضاعاً مختلفة على الأرض فهى إما قائمة أو مقلوبة ويصعب قراءة الكتابات عليها إلى حد ما.

وعلى سبيل المثال هذه هى الحروف التى نجدها على الكتلة الأولى (رقمى ٣ و٤):

AI IOIΣΣιNNAC
ENEΩΣANT

وعلى الكتلة الثانية (رقم ٥) :

ΠΑΤΡΑΣΘΕΩΝΕΓΙΦΑΝΩΝΚ
/ΕΩΣΑΛΕΛΦΗΘΕΟΙΦΙΛ
ΚΙ^ΤΟ..Σ..ΣΑΡΕΣΛiΡΗ
...ΔΑ..Ο...Ε......

وإذا وضعنا هذين الجزءين بين الجزءين اللذين مازالا فى مكانهما وملأنا الفراغ فى رقم ٣ فإن المساحة تمتلئ ولا يتبقى إلا العثور على بداية الكتابة، وتتمثل فى سبعة أحرف لكل سطر كما سبق أن قلنا، وبوجود هذه الأحرف السبعة فإن بداية الكتابة تقع عموديًا أسفل عتب عمود اليسار كما أن آخر الكتابة يقع عموديًا أسفل عتب عمود اليمين وبذلك يكون كل شىء متناسقاً تمامًا.

ولكن قبل دراسة هذه الكتابة ومحاولة إعادتها لما كانت عليه فإننا سنتناول بعض الملابسات الأخرى التى أحاطت بالجهد الذى بذل من أجل كتابتها وإذا بدا هذا الوصف مفصلاً أكثر من اللازم ليكن هذا دافعًا إلى التفكير فى النتائج التى يمكن أن تترتب على مثل هذه الملابسات وبالتالى إدراك أهمية أدق هذه التفاصيل.

والشىء الذى لاحظه - أيضًا - كل الزملاء هو أن المستوى الذى نقشت عليه الكتابة هو نفس مستوى باقى الإفريز وكذلك بالنسبة للنقوش الهيروغليفية المجاورة للحروف الأخيرة من الكتابة الإغريقية (كتلة رقم ٥) فقد نقشت على نفس المستوى.

وقد دون السيد "فورييه" فى يومياته التى كان يقرؤها يومًا بيوم على زملائه "إن الحروف الإغريقية لم تحفر على مستوى غائر عن مستوى النقوش الهيروغليفية وإنما على ذات المستوى "ومن هنا استنتج أن الكتابة الإغريقية حلت

محل النقوش الهيروغليفية التى كانت موجودة من قبل والتى لا يزال بعضها موجودًا من ناحية وأخرى بجوار الكتابة الهيروغليفية.

أما السيد "جولوا" فقد سجل فى يومياته "إن الكتابة الإغريقية قد حلت محل قرص مجنح كان يزين الإفريز".

وفى يومياتنا الخاصة التى ضمناها وصفًا للمعبد الذى لاحظناه وقمنا بقياسه بأدق التفاصيل مع السيد " شابرول" دونا العبارات التالية وعلى إفريز الواجهة؛ حيث كان هناك فيما يبدو زخرفة بارزة على شكل قرص مجنح، تشاهد بقايا كتابة إغريقية يبدو أنها نقشت على الإفريز بعد نزع الزخرفة البارزة من عليه؛ وذلك لأن الكتابة الإغريقية على نفس مستوى النقوش الهيروغليفية المجاورة لها".

وقد اعترف السيد " كورابوف" أنه كان هناك فى هذا المكان على اليمين آثار لحروف مصرية تدل بوضوح على أن الكتابة الإغريقية حفرت فى وقت لاحق - أى أنه تم كشط الكتابة الهيروغليفية لحفر الحروف الإغريقية، وأخيرًا فقد لاحظ السيد "ريبو" نفس الشىء.

ولو كان منتصف الإفريز يحمل نقوشًا هيروغليفية غائرة كتلك الموجودة على اليمين واليسار لما أمكن حفر كتابة إغريقية مكانها إلا إذا كان ذلك على مستوى أقل؛ إذن فالجزء الذى أزيل لم يكن نقوشًا غائرة وإنما كان زخارف بارزة على شكل قرص مجنح.

وهناك دليل آخر على أن الزخرفة المصرية التى انتزعت كانت ذات طبيعة تختلف عن النقوش الهيروغليفية على الإفريز؛ وهو أن هذه النقوش فى المواضع التى تلاصق فيها الحروف الإغريقية تكون خاتمة مألوفة جدًا فى الكتابات الهيروغليفية[1].

---

(١) انظر الجدول الخاص بنا للحروف الهيروغليفية، المجلد الخامس والملاحظات حول الكتابة الهيروغليفية.

وقد لاحظ أحد المسافرين أن نفس الحروف لم تكن كلها متماثلة - تمامًا - بل تختلف بين طرفى الكتابة؛ ولكننا لم نسجل هذه الملاحظة رغم أنها لم تكن لتفوتنا عندما نقلنا الحروف مكبرة وبمنتهى العناية؛ بل إننا لاحظنا أن الحروف ليست - فقط - بنفس الارتفاع وإنما هناك حروف مثل الـ Ω، Σ جاءت بنفس الشكل فى الأسطر الأربعة باستثناء ال Π الذى اختلف فى السطر الأول. والواقع أن الكتابة تتضمن أسماء حكام مختلفين كلية فى السطور الأولى والأخيرة.

ولكن الأمر الذى يصعب فهمه هو كيف أن القدماء - وقد كان لديهم كل ارتفاع الإفريز - اكتفوا بالكتابة على ثلاثة أسطر بدلاً من أربعة تاركين هكذا فراغًا ظاهرًا وفجًا؟!

إن الاحتمال الأقرب إلى الواقع هو أن الحدث الذى سجل فى السطرين الأولين ونصف السطر الثالث والذى يعود إلى عصر البطالمة كان معروفًا لدى من قاموا بالكتابة وقت أن حفروا كتابتهم، وأنهم اعتقدوا أنه يتعين عليهم أن يشيروا إليه فى بداية كتابتهم؛ وهذه الفكرة تبدو أقرب إلى اليقين إذا تذكرنا أنه فى عهد البطالمة لم يكن أحد ليجرؤ على إزالة الرموز المصرية؛ بل إن تقليد كتابة أسماء هؤلاء الملوك على الجزء البارز من الكورنيش[1] لم يحدث إلا فى عهد الحاكم السادس.

والسؤال الذى يُطرح هنا: لماذا يشير الرومان الذين حفروا هذه الكتابة إلى عصر البطالمة؟ والإجابة عليه أنه ربما كان الحدث منقوشًا على نتوء بارز من كورنيش المعبد وانتهى الأمر بأن زالت الكتابة بمرور الزمن[2]، وأن الكورنيش قد أنهار؛ ولذلك أعاد الرومان هذه الكتابة فى مكان ظاهر أكثر. والأمر المؤكد أن هذا النتوء من الكورنيش يوفر مساحة تتناسب - تمامًا - مع السطرين ونصف السطر بكتابتهما على سطرين - فقط - كما فى "قوص" و"كوم امبو". ونحن لم نر أية آثار لهذه الكتابة القديمة ولكننا أيضًا لم نبحث عنها؛ وفضلاً عن ذلك

---

(١) انظر دراستى عن النقوش القديمة.

(٢) لفترة ثلاثمائة عام تقريبًا.

فإنه لم يكن من السهل اكتشافها نظرًا لأن كل هذا الجزء من الكورنيش قد اختفى تحت الأنقاض.

وقد يكون من الملائم أن نناقش هنا كل أجزاء الكتابة الموجودة فى معبد قاو لإعادة الحروف التى زالت وملء الثغرات؛ ولكننا نعتقد أنه يجب أن نحيل هذه المناقشة إلى بحثنا الذى سبق أن تحدثنا عنه، ونكتفى هنا بأن نعطى التصور الأقرب إلى الواقع لما كانت عليه هذه الكتابة. فى الجزء الأول نعرف أن "بطلميوس فيلوميتور "وزوجته "كليوباترا "قد خصصا رواق المدخل "لأنتى" وللإلهين المعبودين فى نفس المعبد، وفى الجزء الثانى نعرف أن الإمبراطورين "انطونيوس" و"فيروس" قد أصلحا المدخل (وربما السقف) على شرف الإله "بان" فى العام الرابع من حكمهما.

"الملك بطليموس بن الملك بطليموس وكليوباترا الإلهان الواضحان الفطيمان، وكليوباترا أخت الملك بطليموس الإلهان المحبان لأمهما، وبروبيليوس أنطينوس، وواحدة من الآلهة المبجلة لإمبراطور أنطونيوس قيصر أوريليوس. وفيروس أغسطس الذى أيد بناء مدخل المعبد فى العام الرابع للإله بان[1] ".

المبحث السادس: افتراضات حول أصل المدينة واسم أنتيوبوليس

يعد "ديودور" الكاتب الوحيد الذى يستطيع أن يضعنا على الطريق الصحيحة لاكتشاف أصل المعبد الذى كان موجودًا بمدينة قاو القديمة، وإذا ما رجعنا ـ فقط ـ إلى أسطورة أنتى و"هرقل" الشائعة فلن نستوعب أبدًا كيف يمكن للمصريين أن يشيدوا معبدًا تمجيدًا لشخصية إغريقية تنتمى. كما كان يقال ـ لبلد بعيد جدًا عن مصر، مع أن هذا المكان كان بلا أدنى شك " مدينة أنتيه" وذلك نقلاً عن "بلوتارخ"؛ بينما كان يسمى نقلاً عن "ديودور "بلدة أنتى " الواقعة ناحية الجزيرة العربية، وأخيرًا فكلمة ANTAIΩ المحفورة اليوم على الرواق

---

(١) أعادوا تجديد كلا من المبنى والمدخل .

لاتدع مجالاً للشك حول هذا الاسم. ويحكى ديودور أن "تيفون" وهو رجل قاس ملحد كان قد قتل أخاه "أوزوريس" الذى كان حاكمًا حكيمًا وقطع جسمه إلى عدة أجزاء، وأرادت إيزيس بمعاونة "حورس" الثأر لزوجها فهاجمت "تيفون"، وفى هذا المكان دارت المعركة التى هلك فيها تيفون مع كل أتباعه؛ ويضيف الكاتب أن المكان يحمل اسم "أنتيه" الذى قتله "هرقل" فى عهد " أوزوريس"[١]، وكان هذا الأخير فى الفترة التى غادر فيها مصر للقيام بجولة حول العالم قد وزع على وزرائه مهام الحكم فى البلاد؛ فعهد إلى "أنتى" بحكم ليبيا والحبشة وإلى بوزيريس بالجزء البحرى والجزء الملاصق لفينيقيا كما عهد إلى "هرقل" بحكم الإمبراطورية كلها.

وأخيراً يقص ديودور فى موضع آخر أعمال هرقل قائلاً: إنه بعد أن طهر هرقل جزيرة "كريت" من الوحوش التى كانت تغزوها ذهب إلى نيبيا حيث تحدى "أنتيه" فى صراع منفرد، وقد كان "أنتى" هذا مشهوراً بقوته وبمهارته فى القتال، وكان من عادته تحدى الغرباء ومحاربتهم وقتلهم، وبعد موت أنتيه عاد هرقل إلى مصر حيث قتل "بوزيريس" الذى كان معروفًا عنه ـ أيضًا ـ أنه كان يغمس يديه فى دماء ضيوفه، ثم بنى هرقل بعد ذلك "المدينة ذات المائة باب "[٢].

---

(١) وقيل أن أوزيريس عندما كان يحكم مصر فإن أخيه تيفون سخط عليه، وبطريقة غير مبجلة استطاع قتل أوزيريس وقطع جسده إلى ٢٦ جزءًا وقسم كل جزء إلى ١٠٠ قطعة من أجل الا يتمكن من العودة إلى الحياة مرة أخرى؛ ولكن إيزيس الأخت وزوجة أوزيريس قد نجحت فى تجميع أجزاءه، وعاشت مع أوزيريس وأنجبا ابنهما حورس الذى استطاع أن يعاقب تيفون على أفعاله، وحكم مصر ونشبت المعركة على جانب النهر بالقرب من القرية التى تدعى الآن انطيوس، وكما كان يقول عنها قريبة من أرض العرب، وكانت تدعى .. أيضًا ـ بواسطة هيرقل اكليس وأمضى أوزيريس عمره هناك فى هذه المدينة (ديودور الصقلى، تاريخ المكتبة، الكتاب الأول، ص ٢٤، طبعة امستردام ١٧٤٦).

(٢) وقد حاول الخروج من التابوت ولكن لم يفلح حيث أغلقه عليه وأحكم إغلاقه وقتله ... وبعد موت أنطيوس تولى الحكم بوزيريس الذى لم ينس أن هؤلاء مازالت أيديهم ملطخة وملوثة بالدماء؛ لذا فقد أرسلهم إلى ليبيا؛ ولكن أصبح يدافع عن المملكة بمفرده، وكبرت مدينتهم هناك حتى وصلت إلى المدينة ذات المائة بوابة (هيكاتوم بيلى) التى ظلت على مر الزمن مدينة الآلهة حتى يومنا هذا. (ديودور الصقلى ، تاريخ المكتبة ، الكتاب الرابع ، ص ٢٦٣).

وهكذا فإن مملكة هذا المدعو أنتى لم تكن فى مصر وإنما فى ليبيا، وكان موته سابقًا لموت أوزوريس وكذلك لهزيمة تيفون، وأخيرًا فالمكان موضوع جدلنا كان بالفعل معروفاً باسم "أنتى" قبل أن يكون مسرحًا للصراع الذى هلك فيه تيفون؛ ولكن السؤال المطروح هو: كيف يتأتى أن يعطى ملك ليبيا اسمه لمدينة مصرية، وأن يحصل شخص غريب من أحد الطغاة على شرف بناء معبد باسمه؟ كيف يمكن تفسير هذه الأوضاع الغريبة باللجوء إلى الأساطير المصرية ؟ إننا نعترف بأنه يبدو مستحيلاً التوفيق بين كل هذه الأشياء إلا إذا افترضنا حدوث خطأ من جانب الإغريق؛ فقد كان الاسم القديم الحقيقى لهذا المكان كما يعتقد "جابلونسكى" مشابهًا لاسم "أنتى"[1] ومن ثم فقد أطلقوا على المكان "بلدة أنتى" بدون وجود أى دافع آخر إلا هذا التشابه وشهرة منافس هرقل، وهذا الخلط كان أقل غرابة بسبب الصلة بين "أنتى" و"أوزوريس" و"هرقل" آلهة مصر، وقد رأينا فى كل العصور كيف يشوه الغرباء أسماء البلاد الأصلية بنسبها إلى أسماء قريبة منها لأشخاص قريبين منهم.

ومن ناحية أخرى فإن مدينة قاو التى تعتبر مقرًا للصراع بين إيزيس وتيفون تثير تساؤلاً جديرًا بالبحث؛ لنفرض أن هذه الأسطورة المصرية قد أعطت لهذا المكان شهرة كبيرة وأن تشييد هذا المعبد البديع كان بسبب التقليد القديم؛ ولكننا سنحاول تفسير الحدث بشكل أخر ونحن لا ندعى بالطبع أن تفسيرنا هو الأقرب للواقع من التفسير الآخر.

وطبقًا لمفهومنا عن الرموز المصرية ـ يبدو لنا أن ما قام به تيفون يعنى غزوًا كبيرًا من الرمال صادفه فى نفس الوقت فيضان ضعيف جدًا؛ فكانت النتيجة أن زحفت الرمال فى هذا المكان حتى ضفة "النهر" (أوزوريس) وتغلغلت حتى مجرى النهر وقسمته إلى العديد من الأجزاء، وبعد ذلك ببضع سنوات جاء فيضان كبير

---

(١) ليس لأننى أستعير أصل الكلمة التى استخدمها هذا العالم الذى يخلط مدينتين ومقاطعتين لا تمتان بأية صلة بمدينة أو بمقاطعة انتيوبوليس وبانوبوليس؛ فى حين أن كلمة "رجل دين أنتاس" والذى يدعى مانيتون أن إيزاب ذكره كاسم ملك مصرى، تبدو أنها تعلن عن وجود إله أنتيس، وهو ما يفترضه ـ أيضًا ـ جابلونسكى.

غطى هذه الرمال بطبقة كثيفة من الطمى والتربة حيث ظهرت بعد ذلك محاصيل وفيرة (الرمزان إيزيس وحورس).

ولتجنب حدوث هذه المآسى مرة أخرى والحفاظ على خصوبة التربة تم حفر قناة عريضة (هى اليوم مجرى النهر نفسه)، واستفادت المدينة رغم بعدها من مياه النهر، وقد جلبت هذه المياه معها التماسيح، ومن المعروف نقلاً عن "أوزاب"[١] أن هذه الفصيلة من الحيوانات كانت رمزًا للمياه العذبة؛ ولكن بلوتارخ يخبرنا أن التمساح كان يمجد فى مدينة أنتى[٢]، ومن هنا فإن قاو تنضم إلى قائمة " الفيوم" و" كوم امبو" وسائر المدن التى تحمل اسم كروكوديلوبوليس[٣] (مدينة التماسيح) وموقع المدينة المتوسط يتفق ـ تمامًا ـ مع هذا التفسير.

والدلالة على صحة هذه الفكرة بالنظر إلى طبيعة الأرض مسرح الصراع الذى هلك فيه تيفون، ويجب أن نوضح أن "قاو" تقع فى مقدمة مضيق طويل وعميق من المقطم أو السلسلة العربية، وتدخل رمال الصحراء التى تجلبها رياح عاتية فى هذا المضيق متخذه شكل زوابع وأعاصير وهى ظاهرة ليست نادرة فى المنطقة التى تفصل بين النيل والبحر الأحمر؛ فلو أعطينا لهذه الأعاصير الرملية اسم "تيفون "والنيل اسم "أوزوريس "وللأرض الخصبة اسم "إيزيس "ولإنتاج هذه الأرض اسم "حورس "لأعدنا تكوين الأسطورة المصرية.

إننا لا نجهل أن هناك أكثر من مكان يذكر كمسرح لهزيمة تيفون وكذلك بالنسبة للمكان الذى ذكر أن أوزوريس قد قتل فيه؛ ولكن هذه الروايات المتنوعة إنما تؤيد التفسير الذى تفترضه لهذه الأساطير القديمة إذ إن مثل هذه الظواهر

---

(١) الكتاب الثالث ، المقطع الحادى عشر .

(٢) وهذا هو نص المقطع الذى يقول فيه بلوتارخ ذلك :إن فيلينوس الورع قد أقام فى مصر، وقد تاه فيه لكى يرى أنطيوس ومدينة التماسيح، ولكى يبارك هذه المنطقة والعالم (بلوتارخ ، الكتاب العاشر ، ص ٦٣ ، طبعة ريسكى ١٧٧٨) إننى لا أشك فى أن هذا المدعو فيلينوس قصد الحديث عن زخرفة بارزة تمثل تمساحًا راقدًا على مذبح يشبه تقريبًا الموجود فى رواق إسنا ـ انظر المجلد الأول اللوحة ٨٢ شكل ٢ ولوحة ٩٧ شكل ٢، كما لا شك أن بلوتارخ قد أخذ أو أراد أن يأخذ مشهدًا منقوشاً على معبد أنتى كواقعة حديثه.

(٣) انظر وصف كوم امبو، الفصل الرابع.

فى الواقع لابد وأنها تكررت فى جميع المواقع المماثلة. فكون أوزوريس قد قتل فى "منف" أو "أبيدوس"، فهذا يبدو لنا تصويرًا لانحسار النيل الذى كان قبل ذلك يجرى عند سفح السلسلة الليبية والذى ساهمت الرمال فى تراجعه ناحية الشرق، وإذا كان تيفون الذى هُزم من إيزيس وحورس قد قتل بدوره سواء عند بحيرة "سيربون" أو فى " قاو" أو فى أى مكان آخر، فهذا ليس إلا رمزًا لفيضان غير عادى على الأراضى الرملية وانتصار للخصوبة والنماء على قفر الصحراء.

ورغم أننا لم نعط أى تفسير لاسم "أنتى" أو أى اسم مشابه كان يطلق على هذا المكان فى الأزمنة القديمة[١]، ورغم أنه للوهلة الأولى يبدو أن ليس هناك أى شىء مشترك بين الأسطورة الإغريقية والأسطورة المصرية خاصة بسبب موقع أنتى على حدود الصحراء الليبية؛ إلا أن هناك مع ذلك فى الأسطورة الإغريقية بعض التفاصيل التى يبدو أن الإغريق قد اقتبسوها من الأسطورة المصرية؛ فقد ذكر شعراء الإغريق أن "أنتيه" كان ابنًا عملاقًا "لنبتون" و"الأرض" ومن المحتمل أن أنتى هنا كان رمزًا لرمال ليبيا المتاخمة لمصر، كما كان تيفون رمزًا لرمال المنطقة العربية، وأننا نتصور أن الرمال الليبية ذات أصل مزدوج كما لو كانت تكونت من الصخور الجيرية اللينة التى تغمرها مياه البحر وتنحرها بدون توقف حتى تتحول إلى حصى ورمال ثم تأتى الرياح الشمالية الغربية إلى داخل الأراضى الليبية[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن عبارة "العملاق" تنطبق على "أنتى" كما تنطبق على الكثبان الرملية المتحركة التى تجوب الصحراء والتى غالبًا ما تكون عملاقة،

---

(١) يومياتنا ص ٧٨ الملحوظة ٣ من الممكن البحث عن وجه للشبه بين معنى الكلمة القبطية.Apollodor بمعنى الجبال واسم أنتو Anteu الذى أطلق على سلسلة الجبال الليبية .

(٢) فليسمح لنا القارئ أن ننقل إليه صورة مما شاهدناه مرات عديدة فى مصر على شاطئ البحر حيث كان من عادتنا الذهاب إلى الشاطئ بالقرب من ثغر رشيد بالإسكندرية؛ وذلك لجمع الحصى وقطع الرخام الثمين والجرانيت الذى تلقيه الأمواج ، وكان شكل هذه البقايا والحجارة التى كان حجمها يزداد ويأخذ شكلاً حاداً لما ابتعدنا عن الشاطئ وتوغلنا فى المياه يشد انتباهنا كل مرة ، وكثيراً ما كنا نمكث ساعة كاملة للتأمل فى ظاهرة تكون الرمال وأصلها وحركتها وبدون شك لم يكن الخيال فى هذا الشاطئ المنعزل يتوقف بنا عن التأمل الرتيب؛ وإنما كان شكل البحر والسفن التى كنا نراها على البعد تجوب المياه فى حرية تحملنا بدون توقف إلى التفكير فى الوطن الذى كنا نعتقد أننا انفصلنا عنه للأبد؛ ولكن هذه الفكرة كانت لا تلبث أن تجعلنا نتعلق أكثر بمنظر الشاطئ؛=

ترتفع وتنخفض مكونة جبالاً تتحرك تبعًا لحركة الرياح حاملة معها الجدب والموت، وكان أنتى يقتل المسافرين فى الصحراء، وكان قد أعرب عن رغبته فى أن يبنى معبدًا لأبيه من "العظام الآدمية ". وكلنا نعلم جيدًا المخاطر التى يتعرض لها هؤلاء الذين يعبرون الصحراء الغربية، وكم من الضحايا قد هلكوا، قبل أن يبدأ استخدام القوافل فى هذه الأسفار المهلكة كمرض الطاعون والحروب. "وقد صارع هرقل هذا العملاق وطرحه عدة مرات؛ ولكن أمه الأرض كانت تمنحه قوى جديدة؛ لذا كان على البطل أن يرفع عدوه فى الهواء ثم يجهز عليه بخنقه"، ويرى "ماكروب" أن هرقل هو رمز الشمس؛ ولكن ليس هرقل القريب الذى تحدث عن مادة الشمس، وأمورها ولا شمس هيرقل ولا ضيائها، فإنهم قد جاءوا إلى المنطقة المضحية جدًا المبجلة جدًا فى مصر، وكانوا يعبدونها عند المدخل، هكذا كان يعتقد العمالقة أنفسهم[1]. وكان الإله ـ نقلاً عن ماكروب[2] أيضًا ـ رمزاً لقوة هذا النجم، ونحن لا نفهم التأثير الذى يمكن أن يكون للشمس على زحف

= لقد جذبنا هذا المنظر بشدة حتى طغى على ما عداه من الصور، كما نرى الموجة تنكسر عند أقدامنا وتجلب معها خيطاً صغيرًا لا يكاد يرى من الرمال الناعمة، ثم تأتى موجة أخرى محملة كالموجة السابقة فيدفع الخيط الجديد من الرمال الخيط الأول قليلاً فلا يلبث بعد أن يبعد عن مرمى المياه أن يجف تحت وطأة الشمس الحارقة ، ثم تأتى الرياح وتحمل هذه الرمال فى الهواء، أما أجزاء الحصى فلم تكن لثقلها تصل بعيدًا كالرمال؛ ولكن بتعرضها لحركة الأمواج المتتابعة كانت تتفتت وتتحول شيئاً فشيئاً إلى رمال ناعمة ، أما الزلط الذى يلقيه الموج والأجزاء الصخرية الحادة بكل أشكالها فكانت الأمواج تحملها لمسافات ليست بعيدة بسبب ثقلها وكثيراً ما بحثنا عن السبب فى هذه الكمية الهائلة من الرمال التى تصل إلى الدلتا والمستمرة فى الزيادة؛ ففى الواقع ليس للدلتا أى اتصال بليبيا أو الجزيرة العربية التى يفصلها عن كل منهما النيل، فالرمال لا تستطيع عبور هذه الفروع العريضة ، وبدراسة هذه الظاهرة التى وصفناها لتونا عرفنا أنها أصل الرمال التى تصل إلى الدلتا ـ أى أن السبب فى تكوينها هو البحر والأرض التى يغمرها بمياهه مثلها فى ذلك مثل رمال ليبيا نفسها.

(١) زحل ، الكتاب الأول ، ص ٢٤٤ .

(٢) اشتَق ماكروب كلمة هراكليس من المجد ومن الهواء .ويمكن أن نلاحظ دون اللجوء لترجمة ماكروب الخاصة بكلمة "الشمس المضيئة" أن فى معركته مع أنتى أظهر هرقل قوته فى منتصف الهواء؛ وهذه القوة التى يمارسها هرقل على الهواء تبدو أن لها شعار يختص بالتأثير الشافى لفيضان النيل لتنقية الهواء من الروائح الكريهة.

الرمال؛ ولكن لنعتبر أن "أوزوريس" كان رمزًا مشتركًا للشمس والنيل؛ ولكننا رأينا أن هرقل القديم كان أحد وزراء أوزوريس، وكلمة "وزراء" تعنى بالنسبة لنا تفرعات النهر التى تشعر بتأثيره وتوصل خيراته إلى كل مكان؛ ونستند فى ذلك إلى هذا المقطع "لشيشرون" الذى يطلق فيه على هرقل المصرى اسم " مخلوق النيل[1] ".

وعندما لاحظ المصريون تعدى الرمال على وادى النيل حاولوا بلا شك التخلص منها بشتى الطرق، ولم تثبت الكثير من هذه الطرق جدواها أمام هذا الخطر الرهيب! ومن المحتمل أنهم حاولوا فى بعض الأماكن هدم هذه الجبال الرملية التى اعتبرنا "أنتى" رمزاً لها؛ ولكن كل المجهودات المضنية لهدم التلال الرملية وطرح "العملاق" أرضًا كانت بلا طائل؛ فالرمال كانت بمجرد أن تعود إلى الأرض القاحلة (أو أنتى بمجرد أن يلامس أمه الأرض) لا تلبث أن تستعيد كل قواها - أى أن رياح الصحراء الغربية اللافحة كانت تحمل هذه الرمال من جديد إلى أرض الوادى الخصبة؛ ولكن كيف انهزم أنتى فى هذا الصراع ؟ لقد حدث ذلك - حسب ما يتراءى لنا، عن طريق حفر قنوات عريضة، أو أذرع للنيل عند سفح السلسلة الليبية. وهكذا كان هجوم الرمال ينكسر عند شاطئها، فلم تكن الرمال فى الواقع تستطيع عبور هذه الفروع العريضة والعميقة؛ إذ لم تكن الرمال قوية مثل التلال؛ لذلك كانت تسقط تحت وطأة ثقلها فى المياه الجارية، إذن فقد كان المدعو "عملاقًا" ينتهى بأن يهلك فى الهواء بعد أن تلتف حوله "أذرع البطل لتخنقه".

---

(١) لقد كان أوزيريس رمزاً للشمس وللنيل؛ غير أنه كان يمثل بالنسبة للمصريين العديد من الهيئات والصفات، وقد ضاعف الإغريق عدد تلك الهيئات والصفات. وأخذ جابلونسكى على عاتقه توضيحها؛ حيث كانت للتأثيرات المختلفة لأوزيريس. الشمس هيئات تتماثل وتلك الخاصة بأوزيريس-النهر .ونحن نعتقد أن هرقل كان من ضمن هذه الهيئات المُخصصة، وتعتبر تشعبات النيل الرمز المحسوس والواقعى؛ فعندما نروى أن هرقل قام بضم النيل إلى فراشه (ديودور، تاريخ المكتبة ، المجلد الأول) يجب أن نفهم تباعًا إن جزءًا من مصر قد غمرته مياه النيل بفعل الفيضان الزائد؛ لذا تم حفر قنوات نجحت فى تخليص البلاد-من المياه الزائدة.

وإنه لمن الضرورى مشاهدة الضفة الغربية لبحر يوسف للحكم على هذه الأفكار وعما إذا كان لها فى الواقع أى أساس من الصحة. فهذه الضفة المقفرة فى أغلب مواضعها عبارة عن منحدر مرتفع شبه عمودى يتكون من رمال ناعمة ودقيقة؛ بينما الضفة الشرقية مستوية ـ تمامًا ـ يغطيها الطمى الصافى لا تخالطه أية رمال، وتزرع فيها أخصب المحاصيل ولكن فى كل المواضع التى ردمت فيها القناة أو كانت جافة بلا مياه استطاعت الرمال عبورها ومازالت تتقدم شيئًا فشيئًا حتى إنها تهدد ضفاف النهر الكبير ذاته، ولن نذكر هنا مثال الضفة الغربية لفرع رشيد لأنه أكثر شهرة؛ ولكن من المستحيل مشاهدة تلال أبى مندور العالية حيث ردمت الرمال بالفعل أجزاء من فرع رشيد نفسه، والضفة كلها الممتدة من بداية القناة التى تصب فى بحيرة "مريوط "حتى "قردان"، وأخيرًا مشاهده حقول الدلتا والزاهية، ومن المستحيل مشاهدة هذا كله دون أن نتساءل عما إذا كانت هذه الجبال العملاقة ـ إذا ما غير النيل اتجاهه ـ ستندفع عما قريب ناحية الضفة المقابلة.

ومن هذه السلسلة من الاستقراءات المبنية على ظواهر حقيقية ـ تمامًا ـ نجد أنها قد توصلنا إلى أن أسطورة أنتى وهرقل يعود أصلها إلى الصراع بين رمال ليبيا ومياه النيل وإلى انتصار القنوات (أو ربما بعض القنوات الكبيرة مثل ترعة "البحيرة" أو غيرها) على زحف الكثبان الرملية، وإذا كان الإغريق قد جعلوا مملكة أنتى عند أطراف ليبيا؛ فهذا ليس ـ فقط ـ لأنهم أرادوا إخفاء أصلها المصرى؛ ولكن ـ أيضًا ـ لأن هذه الجبال الرملية قد تكونت لنفس الأسباب على طول الساحل الشمالى لأفريقيا وبالتالى فهى كلها أبناء "نبتون والأرض"، والواقع أننا نرى أنه فى مصر ـ فقط ـ كانت هناك أعمال جديرة باسم هرقل لمقاومة هذه الظاهرة؛ إلا أن مصر تجاور ليبيا وقد ظل الجزء الشرقى من ليبيا لفترة طويلة تحت سيطرة سادة النيل.

إن الأسماء الجغرافية لكثير من المناطق فى مصر جديرة بالدراسة، وهى تؤكد فى نفس الوقت استنتاجاتنا؛ فعلى سبيل المثال كانت القناة التى تفصل ليبيا عن الوادى فى مصر وهى نفس القناة التى تحدثنا عنها فيما سبق كسبب فى

وقف زحف الرمال تسمى "هركوليان". وكان الثغر الكانوبى ـ "النوكراتيكى" سابقًا ـ يسمى ـ أيضًا ـ "هيراكليوتيك"، وكان يجاور مدينة تقع على شاطئ البحر وتسمى "هيراكليوم"، كما كان هناك مدينة يطلق عليها "هيراكليوبوليس ماجنا "تقع بالقرب من الفيوم ـ أى من بحر يوسف وهو فرع النيل الذى كان بمثابة حاجز أمام الرمال الآتية من ليبيا، وأخيراً كان هناك فى الشرق وبالقرب من الفرع " البيلوزى " مدينة تسمى "هيراكليوبوليس "(إهناسيا المدينة) الصغيرة أو "ستروم"، وكانت بيلوزيوم وفروعها قادرة ـ أيضًا ـ على وقف الرمال المتحركة الآتية من الجزيرة العربية، فكيف يكون بعد كل ذلك لقب هرقل الذى تردد كثيرًا فى مصر وفى تراث البلاد هو نفسه لقب البطل الذى ألهه الإغريق ؟ فى الواقع يتعين علينا التعرف على لقب هرقل ومغزاه المحدد فى مصر للحكم على التفسير الذى قدمناه للأسطورة المصرية، وهذا الكشف ربما نتوصل إليه فيما بعد بدراسة آثار الأدب المصرى.

إننا لا نعلق أهمية كبيرة على هذه الأفكار التى طرحناها توًا، وفضلاً عن ذلك فنحن نتفق على أن التفسير الجزئى ليس مقنعًا بدرجة كافية، وأنه يجب الإلمام بمجموعة الأساطير كلها للوصول إلى التفسير المثالى، وهدفنا الوحيد الآن هو تجميع الأحداث والوقائع التى سوف تيسر يومًا ما تفسير الأساطير المصرية. وانطلاقًا من اقتناعنا بأن الظواهر الجوية والظروف المحلية ودراسة الكائنات والأجسام الطبيعية هى الأساس والقاعدة الأولى لهذه الأساطير، وأن خيال المصريين الجامح قد انطلق من هذا الأساس الواقعى تمامًا؛ فقد رأينا أنه قد يكون من المفيد أن نعقد مقارنات وإن كان بها شىء من الجرأة، كما رأينا تجريد هذه الحكايات الخيالية من الخوارق حتى يتسنى لنا فهم معناها الحقيقى والإيجابى؛ ومنهجنا هذا هو بالضبط عكس منهج الإغريق الذين أساءوا ـ كلهم تقريبًا ـ فهم الأساطير المصرية، وأخذوها بالمعنى الحرفى بل واقتبسوها مع المبالغة فى الخوارق والأهوال فيها.

وهكذا نجد فى هذه المحاولة للتفسير أن أسطورة أنتى وهرقل ترتبط بأسطورة تيفون وأوزوريس بما لا يدع لدينا أى مجال للشك خاصة بعد دراسة

هرقل المصرى لدى كل من "هيرودوت" و"ماكروب" و"ديودور"؛ وكذلك بعد التيقن من أن اسم أنتى قد مُنح لشخص ولمكان ما فى مصر؛ وذلك عن طريق المقطع الخاص ببلوتارخ و- أيضًا - الرواية العجيبة التى ندين بها لديودور الصقلى(١).

---

(١) يأخذ بلوتارخ على هيرودوت كونه افترض بأن هرقل البيوتونى لا يمت بأية صلة لبلاد الإغريق؛ ويرجع فى نقض ذلك إلى روايات كل من هوميروس، وإيسيود وبيندار وكذلك جميع الشعراء؛ إلا أن بلوتارخ نفسه يتفق مثله مثل هيرودوت والإغريق على أن المصريين يعتبرون هرقل إلهًا قديمًا وليس نصف إله قابل للفناء (بلوتارخ، فى عتاب هيرودوت).

الفصل الثالث عشر

وصف أسـيوط
والآثار التى تنتمى ـ على ما يبدو ـ
لمدينة ليكوبوليس القديمة

بقلم: جولوا و ديفيليه

مهندسى الطرق والكبارى

الفارسين بالفرقة الملكية وعضوى جوقة الشرق

المبحث الأول: ملاحظات عامة عن مدينة ومقاطعة أسيوط

تعد آثار أسيوط أقل أهمية من تلك الخاصة بطيبة ودندرة؛ ومع ذلك فقد أوليناها اهتمامنا؛ إذ لا يمكن أن ننسى أنها أول ما رأيناه فى مصر العليا، ونحن ندين لها بأول ما شكلناه من مفاهيم سديدة عن فنون قدماء المصريين، كما أننا لا نستطيع أن ننسى أننا قمنا فى أسيوط بنسخ أول صفحات كاملة من الكتابة الهيروغليفية، وبجمع بقايا أول مومياوات فى محيط هذه المدينة. إننا نقدر بشدة هذه الثمار الأولى لأبحاثنا وأعمالنا أكثر من تقديرنا القيمة الحقيقية لتلك الآثار، ويسعدنا أن نعود إلى عصر لم يترك لنا سوى ذكريات مؤثرة.

لقد غادرنا الجيزة فى مساء التاسع عشر من مارس عام ١٧٩٩، ووصلنا أسيوط فى نهاية يوم الثامن والعشرين. وقد أبحرنا فى النيل على متن قارب كبير ذى شراع مثلث، وكانت السعادة تغمرنا ونحن نمر برؤية مجموعات العرب والمماليك والأعراب دون حتى أن نهاجم. نحن لن نتكلم عن حوادث الإبحار؛ لا لأنها ليست واقعية ـ تمامًا، ولكن لأنها حوادث عامة إلى أقصى درجة وقد رواها جميع المسافرين.

وعلى الرغم من أن هدفنا الأساسى هو تعريف آثار مدينة ليكوبوليس فإننا سنخوض فى بعض التفاصيل الخاصة بالوضع الحالى لمدينة ومقاطعة أسيوط، وقد تم تجميع هذه التفاصيل التى لم نستطع وضعها فى مكان آخر بعناية كبيرة.

تضم مقاطعة أسيوط أربعين ألف أسرة - تقريبًا - مكونة كل منها فى المتوسط من خمسة أفراد، ويفوق عدد النساء فيها عدد الرجال، وتدفع هذه القرى ثلاثمائة وسبعين ألف فرنك فضة ضرائب، ومائتين وستة عشر إردبًا غلة بما يعادل، إذا ما قدر الإردب بثلاثة فرنكات - ستمائة وثمانية وأربعين ألف فرنك؛ وبهذا يبلغ إجمالى الضرائب أكثر من مليون، وإجمالى عدد السكان مائتا ألف نسمة[١].

ويضيق الوادى أقل بفعل الجبال عند أسيوط عن باقى امتداده بدءًا من بنى سويف ومن جبل لآخر - أى من قمة السلسلة العربية حتى إحدى مقابر أسيوط والتى يرى مدخلها فى اللوحة الثالثة والأربعين ٢ - ٢، قمنا بقياس تسعة عشر ألفًا، وسبعمائة وتسعة وثمانين مترًا بواسطة عمليات حساب المثلثات.

يبلغ اتساع النيل فى الجزء المنحسر أمام أسيوط مائتين وثلاثين مترًا، وتبعًا للمسح الذى أجريناه يوم الحادى والثلاثين من مارس عام ١٧٩٩؛ فقد بلغ القطاع المنحسر خمسمائة وستين مترًا، كما بلغ متوسط سرعة الانحسار أربعين مترًا فى الدقيقة، ونحن لا نعطى هنا سوى قياسات تقريبية؛ وفى مذكراته عن الزراعة والتجارة فى مصر العليا تطرق السيد جيرار لأدق التفاصيل فى هذا الموضوع.

وتبعًا لملاحظات السيد نويه، فإن مدينة أسيوط تقع تحت خط طول ٢٠"، ٥٣َ ، ٢٨°؛ وخط عرض شمالى ١٤" ١٠َ ٢٧°، كما أنها تقع على ارتفاع ألف أو ألف ومائتى مترًا فوق سطح النيل على ضفته الغربية، كما تقع بالقرب من النيل قرية صغيرة تسمى الحمراء؛ وتعتبر هذه القرية بمثابة الميناء لمدينة أسيوط والذى يرتبط بدوره بتلك المدينة عن طريق سد مرتفع عن الفيضانات العالية جدًا. وهذا الجزء من الطريق الملتوية يلزم لاجتيازه - سيرًا على الأقدام - ما يقرب من خمس عشرة دقيقة، وفى نهاية هذه الطريق - والقريبة جدًا للمدينة - يقع جسر يعطى من أسفله حرية الجريان لمياه الفيضان التى يهدف السد إلى رفعها للجزء العلوى من القرية.

---

(١) هذه المعلومات منقولة من يوميات رحلة السيد فورييه.

وفى مدخل المدينة نرى أعمدة من الجرانيت والرخام التى ضُلع العديد منها. وتعد أسيوط من أكبر مدن مصر العليا؛ حيث تتميز بموقع رائع بين النهر والجبل. ويمكن - أيضًا - رؤية سوق كبيرة وعدة منازل جميلة. وقد تم البناء بقوالب من الطوب اللَبِن، أما الزوايا وبعض الدعامات فهى مبنية من الطوب الطينى. وتستخدم بعض قطاعات الأعمدة التى شيدت من الرخام السماقى ومن الجرانيت ومن الرخامِ كمداخل للعديد من الأبواب الكبيرة. ويلاحظ على بعض منها وجود أضلاع معقوفة.

والتجارة الأساسية فى أسيوط هى أقمشة الكتان، والمصنوعات الفخارية، وملح النطرون والمخدرات. كما تصل قافلة دارفور عادة إلى بنى عدى الواقعة على بعد اثنين أو ثلاثة فراسخ شمال أسيوط. وبعد ظهور روح المقاومة لدى سكان هذه البلدة مع وصول تلك القافلة ببضعة أيام تم إرسال فيلق من الجيوش الفرنسية لاحتواء تمردهم، وتصدى هؤلاء السكان - بمعاونة جيش المماليك والعرب - بمقاومة باسلة، وخلال المواجهات قُتل قائد اللواء بينو وكذلك العديد من الجنود؛ ولكن تم اقتحام البلدة وسرقتها؛ فقد جنى بعض الجنود غنيمة ضخمة، واستولى البعض الآخر على أموال سائلة تقدر بثلاثة أو أربعة آلاف فرنك من الفضة، كما يقال إن أحد هؤلاء الجنود استولى على أربعة وعشرين ألف فرنك من الذهب. وفى اليوم التالى قام الجنود ببيع العبيد السود من الجنسين الذين جلبوهم وذلك مقابل عشرين وثلاثين وأربعين بارة[١].

ومن جهة أخرى، يوجد فى أسيوط عشرة مصانع لإنتاج الزيوت، وقد قمنا بتعريف هذا النوع من الصناعة عن طريق وصف اللوحة الخاصة بصانع الزيت (انظر اللوحة الأولى، الدولة الحديثة، الفنون والحرف)، ولن نكرر ما قد ذكرناه فى هذا الوصف. أما عن أجر العامل فى أسيوط فيتراوح فى اليوم ما بين خمس إلى اثنتى عشرة باره طبقًا لقوة وذكاء الفرد.

---

(١) تعادل الباره حوالى ثلاثة فلسات فرنسية - أى أقل قليلاً من أربعة سنتيم.

وتحظى الزراعة باهتمام بالغ فى الريف كله، وخاصة فى أطراف المدينة حيث تكثر زراعة التبن؛ كذلك الحال بالنسبة للشعير، والذرة، والكتان، والفول، ولمختلف أنواع الغلة؛ كما يزرع - أيضًا - الخشخاش الذى تستخرج منه المخدرات. أما عن ضواحى المدينة وخاصة فى الشمال فهى عبارة عن حدائق غناء من أشجار المشمش، والتين، والرمان، والنخيل، والنبق، والبرتقال والليمون كما نرى هناك - أيضًا - بعض شجيرات الجميز؛ وتعود هذه الحدائق فى الواقع بدخل وافر كما يتم تأجيرها بثمن باهظ.

كما يوجد حول المدينة عدد كبير من الأحواض ذات البناء المميز، وتتكون هذه المبانى الصغيرة من خزان مغطى على هيئة متوازى مستطيلات على كل من ضلعيه الكبيرين يوجد ثلاثة نوافذ، أما عن الضلعين الآخرين فيوجد بكل واحد منهما نافذة واحدة فقط وتبعد هذه النوافذ عن سطح الأرض بمقدار متر واحد، كما يبلغ ارتفاعها مترًا وثلث المتر تقريبًا، وهى على هيئة قباب ذات أقواس قوطية الشكل.

وفى أحد أطراف المبنى يوجد بركة نصف مستديرة بنفس عرض الخزان، ولها ضفة علوية ترتفع بمقدار متر عن الأرض. أما عن الطرف الأخر فيوجد به آبار[١] يأخذ منها الماء بواسطة رافعة ودلو لصب الماء فى الخزان، وتتميز هذه الأبنية معًا بطراز عربى أصيل كما تتميز بالأناقة أيضًا. ومن جهة أخرى يوجد عند بعض القنوات وبالتحديد على أطراف أسيوط العديد من الجسور ذات البناء المتين؛ فقد تم بناؤها أعلى كتل من الحجارة، أما عن معمار تلك الجسور فهو غير لطيف بالمرة ففى أغلب الأحيان نجد أن الجسور والدعامات ليست ذات أبعاد متساوية.

---

(١) أثناء قيامنا بالتنقيب فى ضواحى أسيوط وجدنا مترًا ونصف المتر أو مترين من الطمى، ثم وجدنا طبقة من الطمى المختلط برمال تتزايد نسبتها كلما تعمقنا أكثر، ومن ثَم نصل إلى رمال خالصة إلى أقصى درجة، وأخيرًا نكتشف الماء؛ ولقد قمنا بالتنقيب فى العديد من الاتجاهات وعلى خط عمودى فى اتجاه الوادى، ولاحظنا أن سبب ارتفاع المياه فى الآبار هو بعدها عن النهر، وهذا بالطبع ما يجب أن يحدث عندما ينخفض مستوى النيل كما هو الحال الآن ويحدث العكس فى حالة ارتفاع مياه النيل. انظر دراسة السيد/ جيرار عن الزراعة والتجارة فى مصر العليا.

وإذا خرجنا من المدينة إلى جانب الجبل سوف نجد أنفسنا فوق تلال من الأنقاض تتشابه مع تلك التى تحيط بكل المدينة تقريبًا، ومن جهة اليسار نلاحظ فى الشارع القادم من السوق عمودًا يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار وخمسة وستين سنتيمترًا ويقع على محيط ثلاثة أمتار وواحد وعشرين سنتيمترًا، ويمكن - أيضًا - ملاحظة أن نصف هذا العمود تقريبًا مدفون وسط الأنقاض: فقد تم إرساء هذا العمود فوق قاعدة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرين سنتيمترًا، كما تم تثبيته بواسطة الجبس، وتبلغ كثافة ركيزة هذا العمود خمسة وأربعين سنتيمترًا، كما يبلغ البروز ثلاثة عشرة سنتيمترا؛ فبإسقاط الارتفاع الكلى للعمود والذى يبلغ تسعة أمتار وخمسة وستين سنتيمترًا - كما سبق وأن أشرنا من قبل - وكذلك ارتفاع القاعدة والركيزة فيبقى ثمانية أمتار وثمانية وثمانون سنتيمترًا، ويشبه هذا العمود ذلك الموجود فى ديوان يوسف فى القاهرة[1]؛ ويقع هذا العمود تحت متوسط مستوى سطح الأرض الزراعية فى السهل بمقدار تسعمائة وستة وثلاثين مترًا، وقد برهن السيد / جيرار (دراسة عن مقياس النيل فى ألفنتين) أن ارتفاع النيل كل مائة عام يبلغ مائة واثنين وثلاثين مليمترًا؛ وتبعًا لحسابها نجد أنه منذ سبعة أو ثمانية قرون كانت قاعدة العمود فى مستوى السهل، وعلينا أن نفترض أن تلك القاعدة كانت فى الأصل موضوعة فوق مستوى أعلى من الفيضانات بمقدار متر على الأقل بحيث إنها ترجع إلى القرون الأولى من العصر المسيحى. ومن جهة أخرى يوجد بين أسيوط والجبل منازل المماليك؛ حيث تم بناء الحى العام لمقاطعة ديزيه، ومن الجدير بالذكر أن هذه المنازل تغزو المدينة؛ فقد تم تزويدها بالفتحات ثم وُضعت بعض القطع الصغيرة من المدافع فى النقاط الأكثر ارتفاعًا ويقع هذا النوع من القلاع على يسار الطريق التى تؤدى إلى الجبال، أما السهل الرحب الذى يغطيه النيل فى وقت الفيضان فيقع على يمين هذه الطريق؛ فهذا هو المكان الذى كنا قد أقمنا فيه معسكرنا تحت خيام وأكواخ من الحصير حتى تكون على مقربة من الآثار التى زرناها و - أيضًا - لأنه غير مسموح بالإقامة فى

---

(١) انظر اللوحتين ٧١، ٧٢، الدولة الحديثة، المجلد الثانى.

المدينة حيث يطيق سكانها بالكاد سيطرتنا، وفى خلال إقامتنا تلك فى الثالث والرابع من إبريل سنة ١٧٩٩ كانت العيون جميعًا تقريبًا تهاجمنا بشراسة وفى وقت واحد، وفى ذلك الوقت كانت رياح الجنوب تسود، وكنا نجد عزائنا حين كانت الرياح تمر من الشمال.

ومن جهة أخرى يمكننا الوصول سريعًا لحدود الأرض المزروعة حيث توجد المقابر الحديثة وذلك بسلوك الطريق التى تربط بين أسيوط والجبل، وهذه المقابر الخاصة بالمسلمين لا تبعث على الحزن؛ فهى ذات طابع مبهج يفوق ذلك السائد داخل المدن. ومن الجدير بالذكر أن هذه المدن يمكن الوصول إليها بواسطة طريق مزروعة بأشجار السنط والنبق والجميز. أما عن المقابر الرئيسية فهى تتميز بفن معمارى بسيط، وبألوان مختلفة كما أنها محاطة بالأشجار. وقد تم بناء بعض جدران السور على شكل درجات مرتدة إلى الداخل بحيث تشكل دخلات، ونستطيع أن نتبين فوق الجدران وبين زخرف الرسوم - أو بالأحرى التموجات - رسوم أزهار وأشجار وأشياء أخرى لها صلة بمهنة المتوفى. وفوق مقبرة شيخ البحر أو شيخ المركب نقشت رسوم تفتقر إلى الجمال (قوارب نيلية)؛ ولكن أليست تلك الرسوم من تقاليد الكتابة الهيروغليفية ؟ ومن جهة أخرى ثُقب السور الذى يحيط بالمقبرة، أما الضريح نفسه فهو على هيئة مربع أو هرم ومطلى باللون الأبيض.

وغير بعيد من تلك المدافن يقع سفح السلسلة الليبية والتى نرى بداخلها عددًا كبيرًا من المقابر موزعة على شكل أدوار حتى قمة الجبل، وتنقسم هذه المغارات إلى ثلاثة أنواع؛ فأكبرها وأكثرها أهمية تلك التى قام قدماء المصريين بحفرها لخدمة الموتى، ونستدل عليها مما يزينها من نقوش هيروغليفية ومن الفن فى التنفيذ، أما عن جدرانها فقد أُحسن تشييدها تبعًا لانحدار منتظم. وقد استخدمت بعض الكهوف الأخرى ملاذًا للمسيحيين الأوائل فى هذه البقاع، ونرى فوق بعض الجدران صورًا ورسوم رديئة الذوق لبعض القدسيين، وقد أقام هؤلاء الأشخاص فى بعض المقابر القديمة؛ ولهذا الغرض قاموا بتكبير وكشط وترميم

هذه المقابر بهدف إخفاء جميع آثار الديانة القديمة للبلاد. وفى بعض الأحيان احتفظت النقوش الهيروغليفية بشكلها وإن غطتها بعض الرسوم الغريبة. وإلى جانب نوعى الكهوف اللذين ذكرناهما الآن يوجد - أيضًا - محاجر قديمة؛ فعند سفح الجبال تمر قناة كبيرة استُخدِمت فى عملية نقل الحجارة؛ فهذه القناة ترتبط ببحر يوسف كما تتصل بالنيل عن طريق تشعب مستقيم يقع شمال مدينة أسيوط بنحو مائتين وثلاثمائة ألف قدم.

المبحث الثانى: مقابر جبل أسيوط

لقد قمنا بدراسة كل الكهوف القديمة والتى سوف نطلق عليها اسم المقابر حتى نلتزم بالملاحظات التى وردت فى الكتابات السابقة، وسوف نقدم وصفًا تفصيليًا عنها الآن.

ترتفع المقبرة الرئيسية - والتى تقع أمام الطريق الرابطة بين المدينة والجبل - قليلاً عن سطح السهل، وتتميز هذه المقبرة بكبر حجمها وبتناسق تصميمها وخاصة بالكم الهائل من الأشكال المنقوشة التى تغطى جدرانها. صحيح أننا حتى هذا الوقت لم نكن قد عرفنا مقابر ملوك طيبة.

ولا يقع مدخل المقبرة الجبلية على سطح الجبل مباشرة؛ فقد تم إزالة طبقة الأحجار الأولى حتى عمق محدد وذلك بهدف الوصول إلى الحجر المتجانس، ثم بعد ذلك تم رفع هذا الحجر فوق عرض يقدر ما بين اثنى عشر إلى خمسة عشر مترًا وارتفاع يبلغ حوالى سبعة أو ثمانية أمتار؛ وذلك بإعطائه انحدارًا يقدر بثلاثة سنتيمترات لكل متر؛ وفى هذا السطح تم فتح مدخل المقبرة الجبلية الذى يتميز بالفعل بالضخامة والفخامة. نمر أولاً فى جزء من بهو مستطيل بجدران جانبية تميل بمقدار ثلاثة سنتيمترات لكل متر، وقد تم نحت سقف هذا البهو وأسقف جميع قاعات المقبرة تقريبًا على هيئة جزء من قوس دائرة منخفضة الوسط. ونرى غير بعيد عن الواجهة قضيبًا بارزًا مشابهًا لتلك القضبان التى نجدها دائمًا على الكرانيش المصرية. وقد ازدان السقف بنجوم منثورة بلون

أصفر على خلفية زرقاء. أما فى القاعات الأخرى فنرى نوعًا آخر من الزخارف التى تتميز بألوان ثابتة تقريبًا، كما نشاهد فيها أيضًا زخارف على شكل الأرابيسك على هيئة مربعات ومتوازى مستطيلات ومتشابكة بواسطة زهور متنوعة.

ويوجد فى منتصف نهاية البهو باب أنيق فى تناسبه؛ فهو محاط بطوق زخرفى بارز على الأرض يبلغ عرضه مترًا ونصف متر عند كل جانب. فى حين يبلغ هذا العرض مترين واثنين وأربعين سنتيمترًا فى المنطقة العليا، كما نلاحظ أن هذا الإطار مزخرف بالحروف الهيروغليفية التى تم توزيعها على أربعة خطوط رأسية على الجوانب وسبعة خطوط أفقية فوق الباب. أما الواجهة التى تقع على يسار البهو فمغطاة بالرموز الهيروغليفية المتدرجة، وفى آخر القاعة نرى تمثالاً بالحجم الطبيعى لرجل يقف ممسكًا بعصا فى يده، كما يوجد عند فتحة الباب عشرة خطوط رأسية من الرموز الهيروغليفية، وحول الباب من الداخل يوجد تجويف دوره تثبيت مصراعى الباب، كما نرى - أيضًا - أعلى وأسفل زوايا ذلك التجويف الكوات التى كانت تثبت بها مفصلات الباب، وقد أوضحنا ذلك فى الرسم[١]. وعلى الرغم من أننا لم نرسم سوى مصراع واحد فنحن نميل للاعتقاد بوجود مصراعين للباب؛ إذ إن وجود مصراع واحد يكون من عيوبه تجاوز الباب، ونجد أن عدم التنسيق هذا قليل الاحتمال، وبعد البهو مباشرة قاعة رحبة جدًا يبلغ عرضها ضعف حجم عمقها، وتبلغ مساحة هذه القاعة مائتى متر، وهى ليست مزدحمة - تمامًا - بما يمنعنا من رؤية الأرض. وعلى الجهة اليمنى نستطيع رؤية اثنين وأربعين خطًا من الكتابة الهيروغليفية بعرض أربعة عشرة سنتيمترًا لكل خط وبارتفاع أربعة أمتار وخمسة وسبعين سنتيمترًا، وعلى اليسار، نجد أن الواجهة الجانبية قد غطتها بالكامل كتابة هيروغليفية ممحوة تمامًا؛ فهذه الكتابة لم يتم نقشها بعناية كبيرة حيث إن الخطوط ليست رأسية - تمامًا - والحروف غير واضحة. ونرى فى آخر القاعة تمثالاً بحجم أكبر من الطبيعى به آثار زخرفة ويمسك فى يده عصا.

---

(١) انظر المجلد الرابع، اللوحة ٤٤، الشكل ١.

ويوجد ثلاثة أبواب فى نهاية القاعة يقع أكبرها فى الوسط أما الآخران المتشابهان - تمامًا - فيقعان على بعد متساو من الأول، وحول هذه الأبواب يوجد اطار مزخرف بخطوط رأسية وأفقية من الكتابة الهيروغليفية، ويوجد عدد ستة صفوف أفقية من هذه الرموز وأربعة صفوف رأسية على كل جانب وذلك أسفل الباب الموجود فى الوسط. كما يوجد عند التجويف على اليمين تسعة خطوط عليها كتابة هيروغليفية كبيرة الحجم، ونلاحظ - أيضًا - الشقوق التى كانت تثبت عليها المفصلات السفلية والعلوية. أما التجويف الموجود على اليسار فمزخرف بنقوش لرجل ممسك بعصا وبصفين من الرموز الهيروغليفية؛ ولكننا لا نرى من هذا النقش سوى رأسه والباقى منه غير واضح. وفيما يخص فتحات الأبواب الصغيرة فنجد عليها صفوفًا أفقية من الكتابة الهيروغليفية ونلاحظ فيها أطراف رماح، وفى الجوار نشاهد رجلاً يرتدى ثوبًا طويلاً ممسكًا فى إحدى يديه صولجانًا وفى الأخرى عصا. ويقود البابان الجانبيان إلى قاعتين صغيرتين طولهما خمسه أمتار وستون سنتيمترًا وعرضهما ثلاثة أمتار وستون سنتيمترًا وهما غير متصلتين بباقى المقبرة عن طريق أى باب آخر.

ومن جهة أخرى، يؤدى الباب الواقع فى الوسط إلى نوع السراديب الذى يبلغ طوله نصف عرضه تقريبًا. أما القاطع الجانبى الذى يقع على اليسار والذى يفصل بين هذا السرداب وواحدة من القاعات الصغيرة التى أشرنا إليها فقد هُدم وتم الربط بين الجزءين. ويؤدى الممر الأول إلى آخر على هيئة حدوة حصان تحيط من ثلاث جهات بقاعة صغيرة مربعة يمكننا اعتبارها حجرة الدفن؛ إذ يبدو لنا أنه قد تمت إزالة بعض التماثيل. أما الجدران فمغطاة بنقوش لاتزال بحالة جيدة؛ وهذا بالتأكيد لأنة كان من الصعب رؤيتها فنحن لم نتمكن من رؤيتها إلا على ضوء المشاعل، وهذه النقوش تمثل أشكال قرابين. أما النقوش البارزة والتى تقع على يمين ويسار الأبواب من الداخل وحتى الجدران الجانبية فقد لونت وهى موضحة فى اللوحة الخامسة والأربعين، المجلد الرابع.

ففى أول النقوش البارزة هذه - الشكل الأول - نرى أربعة أشخاص منهمكين فى ذبح أضحية تبدو أنها ثور، ونلاحظ أن أرجل الحيوان الأربع قد أُحكم وثاقها

معًا بواسطة حبل يقبض عليه أحد هؤلاء الأشخاص بين يديه وفى نفس الوقت يضغط بإحدى قدميه فوق العقدة، كما نرى - أيضًا - شخصًا آخر منحنيًا يسند ركبته فوق رأس الأضحية المقلوب؛ حيث يمرر يده اليسرى تحت رقبة الأضحية بصورة تجبرها على إبراز حلقها ويمسك بيده اليسرى سكينًا ينوى به انتزاع روحها، أما الشخص الثالث والذى يحتل منطقة الوسط فنراه ممسكًا بسكين ويبدو مستعدًا لسلخ أو تقطيع الثور؛ وهذا ما يوضحه النقش البارز التالى. والشخص الرابع نراه يحمل بحرص إناء به - بالتأكيد - ماء لغسل الأضحية.

فيما يخص النقش البارز الثانى - الشكل الثالث - فنلاحظ أنه تم ضرب الأضحية وإن كانت لاتزال مقيدة بينما حُل وثاق أحد أكتافها.

وفى النقش الثالث - الشكل الرابع _ قام الشخص الممسك بالحيوان بفصل قدميه من أسفل عقدة الحبل المربوطتين به، ويسهل علينا أن ندرك أن الحيوان جثة هامدة فهذا الشخص لا يبذل أى مجهود كما أن إحدى الأقدام الأمامية للحيوان قد تم فصلها - تمامًا - وقام أحد الأشخاص بحملها فوق كتفه، ويبدو شخص آخر منهمكًا فى سكب الماء الموجود فى إناء يحمله بحرص على الأضحية.

أما النقش الرابع - الشكل الثانى - فنجد أن نصف الحيوان قد سلخ، وقد انهمك الكاهنان فى تقسيمه، كما يمسك أحد الأشخاص الآخرين بالأرجل الخلفية للحيوان، ويحمل الرابع القدم الأمامية الثانية وجزءًا من الأضحية.

وفى النقش الخامس نجد أن فخذ الأضحية قد فصلت وتم حملها؛ فى حين يواصل الكاهنان تقسيم هذه الأضحية، كما يحمل الشخص الرابع كرة أو إناءً مستديرًا تحت الجزء الخلفى للحيوان.

أما عن باقى النقوش - الأشكال السادس والسابع والثامن - فتتعلق جميعها بأضحية ثانية ينشغل بها ثلاثة أشخاص فقط: وإن كنا لا نرى تتابع خطوات الذبح كما كان الحال فى الأضحية الأولى. ويشبه الحيوان الذى يتم التضحية به ذلك الموجود فى النقش الأول؛ وإن كان يبدو أسهل فى السيطرة حيث لا يمسك

أحد بالحبل الذى يقيد أرجل الحيوان. وقد لاحظنا أنه لم يصور سوى نصف هذا الحيوان على أحد النقوش، وعلى الثلاثة الأخرى رأينا أنه تم نزع أحد أعضاء الحيوان التى وُجدت محمولة فى نقش آخر، ثم اختفى العضو من على الثانى وأخيرًا رأينا أنه قد أُعيد تصويره فى النقش الثالث، ويبدو أحد الأشخاص الذى يظهر فى الرسوم الثلاثة ممسكًا بإناء فوق الأضحية ويقوم بسكب ما يحتويه عليها.

وقد دفعتنا هذه الصور للاعتقاد بأن القاعة التى نقشت بها هذه الصور كانت جزءًا من محراب وبأن المقبرة الجبلية كانت هى - أيضًا - معبدًا، أما الجدران الخاصة بمدخل المحراب فقد محيت ألوانها - تمامًا. بحيث لم يعد ممكنًا رؤية الرموز الهيروغليفية، كما أن الباب الذى يغلق المدخل كان له - بالتأكيد - مصراعان؛ حيث إننا نرى فى كل جانب من أسفل وأعلى آثار الشق، ويمكن - أيضًا- ملاحظة أن الجزء السفلى للتجويف مدمرًا؛ كذلك جميع الكوات وهو الشىء الذى نتج عن إزالة المفصلات المعدنية التى تحرك الأبواب. أما الجدار الجانبى الواقع على يسار الرواق الذى يحيط بالمحراب فيمكننا ملاحظة أن فتحة الممر المائل يبلغ طولها عدة أمتار، وتقع بعده بئر رأسية بعمق أربعة أو خمسة أمتار، ونجد أسفل هذه البئر ممرًا مائلاً آخر يبلغ طوله خمسة أو ستة أمتار، ويمر هذا الممر إلى أسفل المحراب كما أن ثلاثة أرباع النهاية السفلية له قد سدتها أكوام الأنقاض. وهناك نجد على ارتفاعات مختلفة ثلاث قاعات بارتفاع ثلاثة أمتار على مساحة خمسة أمتار من بينها قاعتان متوازيتان وتقعان على نفس ارتفاع نهاية الممر المائل الذى تشكل إحداهما امتدادًا له: بينما تقع الأخرى على اليسار. أما القاعة الثالثة والواقعة عموديًا فوق الاثنتين الآخريين فهى ذات انحدار أشد وتمتد أكثر إلى اليمين، كما نلاحظ فيها الفتحات الخاصة بالممرين المائلين واللذين يمتدان أسفل السرداب الأول، وهما مسدودان - تمامًا - حتى إن عبورنا كان مستحيلاً وفى الطرف الأيسر أو الغربى من القبو يوجد سرداب يبدو أنه صدع طبيعى فى الأحجار وليس من صنع البشر وقد دخلناه زحفًا على البطون ولكن دون أن نستطيع الوصول إلى نهايته؛ لأنه يزداد ضيقًا كلما تقدمنا

كما أنه ممتلئ بالأنقاض مما دفعنا للافتراض بأنه قد استُخدِم فى نقل جزء من الأنقاض التى نتجت عن حفر القاعات السفلية للمقبرة الجبلية. ومن المحتمل أن تكون الأعمال الأولية لفتح سرداب مماثل لذلك الذى نراه فى قاعة سفلية لمقبرة جبلية أخرى فى أسيوط والتى عرضت فى اللوحة السابعة والأربعين، الأشكال من الرابع حتى السابع.

ويعتبر تعقد الترتيبات الخاصة بمختلف أجزاء تلك الطرقات ليس ـ فقط ـ صعب الوصف ولكن ـ أيضًا ـ صعب التقديم عن طريق الرسم؛ وعلى الرغم من ذلك فيمكن القول بأننا لم نر سوى جزء صغير من هذه المقبرة حيث إننا لا نعلم إلى أين يؤدى هذان السردابان المسدودان ـ تمامًا ـ واللذان سبق وأن رأيناهما فى السرداب الأكثر عمقًا والذى تمكنا من الدخول فيه. والجدير بالذكر أن أجساد الأشخاص لا يتم وضعها فى تلك الحجرات الخفية التى يصعب الدخول إليها. فالرغبة فى وضع أجساد الأموات بعيدًا عن سبابات ونظرات الأحياء هو ما دفع إلى حفر المقابر التى نجدها فى كل جانب فى جبال مصر العليا، وهو ـ أيضًا ـ نفس الحافز الذى أدى إلى حفر المقابر الرائعة لملوك طيبة وكذلك بناء أهرامات مصر الوسطى.

ومن جهة أخرى فقد أشرنا من قبل إلى أن تصميم تلك المقابر التى أعطينا لها وللنقوش البارزة وصفًا تفصيليًا؛ أعطى لها طابع المعبد ومع ذلك فيجب الأخذ فى الاعتبار أن هذه الحقيقة لا تعنى أن الأجزاء السفلية منه لم تكن مخصصة للمقابر كما هو الحال فى جميع مقابر أسيوط حيث نرى عددًا كبيرًا من المقابر التى نقرت فى الصخر.

هكذا وقد قمنا برسم جميع الكتابات الهيروغليفية التى تُزين القاعة الأولى للمقبرة الجبلية وقمنا بعرضها فى اللوحة التاسعة والأربعين، الشكلين الثانى والرابع؛ فقد كانت تلك الصفحات الأولى المطولة لهذه الكتابة الرمزية التى سبق واكتشفناها تمثل لنا أهمية كبيرة. ونظرًا لاحتجازنا بأسيوط بسبب بعض الإجراءات العسكرية، كان لدينا الوقت الكافى لنسخ هذه المخطوطات بدقة متناهية، وهنا نسمح لأنفسنا بالاعتراف بأننا شرعنا فى بادئ الأمر فى جمع كل ما يقابلنا من رسوم هيروغليفية

خلال سفرنا من ضمن القليل الذى تبقى من الأعمال المصرية الضخمة، ولكن عند رؤيتنا لمعبد دندرة الذى يعد أول ما زرناه فى مصر العليا أخذتنا الدهشة سريعًا وأدركنا أن إتمام هذا العمل يعد دربًا من المستحيل.

واللوحات الهيروغليفية التى وضعناها منسوخة بدقة وإن كانت لا توحى بشىء مميز أكثر مما نراه فى اللوحات التى وجدناها بكثرة خلال عملنا كله. ومن الملاحظ أن الأشخاص الذين يتم تصويرهم إلى جانب هذه الرموز الهيروغليفية هم أنفسهم الأشخاص الذين نقشت صورهم على الأبواب سواء على الواجهة الخارجية بحيث تنظر وجوههم إلى جهة الممر أو على فتحة النافذة وفى هذه الحالة نجدهم ينظرون فى اتجاه الخارج، و يمكن - أيضًا - ملاحظة أن هؤلاء الأشخاص يتسلحون بعصا وبصولجان يبدو أنهم يوقفون بهما منتهكى المقدسات ويهددونهم.

ونلفت الانتباه إلى النقش البارز فى اللوحة التاسعة والأربعين - الشكل العاشر - حيث نرى شخصًا جالسًا وقد وضعت أمامه العديد من القرابين المكونة من الزهور والفاكهة والحيوانات من جميع الأنواع، ونجد من ضمن هذه القرابين فخذًا ورأسًا لحيوان مشابه للذى شاهدناه فى الأضحية من خلال النقش البارز فى اللوحة الخامسة والأربعين.

وقد نسخنا - أيضًا - صورة لتيس وظبى كان قد تم نقشهما بكثير من الواقعية، وتقدم لنا اللوحة التاسعة والأربعون - الشكلان الحادى عشر والثانى عشر - عرضًا لصورهما.

كما يمكن الوصول إلى أربعة مقابر أخرى متجاورة؛ وذلك عن طريق التسلق فوق المقبرة الجبلية الرئيسية وبالتحديد على يمينها قليلاً وحتى ثلثى ارتفاع الجبل، كما يلاحَظ أن هذه المقابر لها نفس مستوى الارتفاع و يتصل ثلاثة منها ببعض عن طريق ممرات بُنيت بدون دقة على الإطلاق، وقد تم عمل هذه الممرات بالتأكيد فى العصور الحديثة لخدمة سكان هذه المساكن الموحشة وذلك بعد تخلصهم من مومياوات قدماء المصريين. ويُذكر أن اللوحة الثامنة والأربعين

الشكل التاسع قد عرضت إحدى تلك المقابر، وفيه نرى أن الأطار الزخرفى الخاص بكل جانب من جوانب الباب مُكون من خطين رأسيين من الكتابة الهيروغليفية، ومكون من الأعلى من ثلاثة خطوط أفقية؛ فى حين أننا لم نذكر فى الشكل العاشر سوى خطين - فقط - عن طريق الخطأ. والضلع الذى يبلغ طوله ثلاثة وستين سنتيمترًا يحتوى على ثلاثة خطوط، والواقع أن هذا الضلع قد نُقل بشكل يجانبه الصواب ويمكن التحقق من ذلك بالرجوع إلى القياس. ويقدم الشكل الحادى عشر عرضًا للخطوط الثلاثة الهيروغليفية. وأسفل العمودين الرأسيين على جانبى الباب نجد شكلين لإيزيس وهى جالسة تُرضع حورس لم يكتمل نقشهما، ونلاحظ أن هذين الشكلين المتقابلين يشكلان من الواجهتين لوحة صغيرة بارتفاع متر وعشرين سنتيمترًا وعرض خمسين سنتيمترًا، وضع الأشخاص أنيق وهيئة المقاعد فى غاية الجمال. وقد نقش بجوار كوة الباب شكل لشخص يمسك بين يديه عصا وصولجان وتحيط به الرموز الهيروغليفية؛ ويعد هذا الشخص واحدًا من ضمن الذين قدمناهم فى اللوحة التاسع والأربعين، الشكلين الثامن والتاسع، ويُذكر أن هذه المقبرة الجبلية منقسمة إلى قاعتين بواسطة ركائز وذلك لدعم وسط السقف. وعند زاوية الوصلات بين القاعتين يوجد دعامتان متقابلتان مع الركائز وتقعان على نفس الخط معها. ويذكر أن الجزء الأول من المقبرة الجبلية له هيئة مربعة، أما الجزء الثانى فيتميز باتساع يفوق الأول ولكنه أقل طولاً منه؛ حيث ينتهى الجزء الثانى فى النهاية عند سطح مقوس حُفر فيه تجويفان وسردابًا ملتو يتصل من جهة اليسار مع المقبرة الجبلية المجاورة، ونرى لدى دخولنا القاعة الأولى من جهة اليمين سردابًا مماثلاً يتصل بالمقبرة الجبلية التى سنصفها بعد هذه المقبرة.

وتم حفر ثلاثة مدافن مختلفة الأحجام فى تربة هذه المقبرة الجبلية ومن المحتمل أن تكون تلك المدافن قد أخفتها أغطية من الجرانيت مماثلة لتلك التى رأيناها فى أحد مقابر طيبة المعروضة على اللوحة السابعة والتسعين الشكل الرابع عشر المجلد الثانى، وليس هناك أى مجال للشك فى الغرض من هذه المقبرة الجبلية فهى تستخدم بالتأكيد كمدافن.

أما المقبرة التى تقع على يمين تلك التى قدمنا وصفها الآن فقد تم عرضها فى اللوحة السابعة والأربعين الشكلين الثامن والتاسع وقد أصابها التلف الشديد. ويحيط الإطار الزخرفى المزين بالرموز الهيروغليفية ببابها، كما نقش على كوة الباب ـ كما هو المعتاد ـ أشخاص كبيرة محاطة بكتابات هيروغليفية مسلحة بعصىّ وصولجانات وينظرون إلى الخارج. وتعرض اللوحة التاسعة والأربعون هذه النقوش فى الشكلين السادس والسابع، أما عن المقبرة الجبلية من الداخل فهى عبارة عن قاعة على هيئة سداسى الأضلاع (معين) غير منتظم الشكل، وهى ذات سقف تدعمه ركيزتان مثبتتان فى الأحجار وقد أصاب التلف الشديد مرتكزهما حتى إنه لا يُرى منهما سوى أحد طرفيهما فى الأرض والآخر فى السقف. وعلى يمين إحدى الواجهات فى الأسفل يمكن ملاحظة مساحات كبيرة من الرموز الهيروغليفية المنقوشة نقشًا بارزًا داخل تجويف وقد تم تلوينها باللون الأزرق السماوى. كما يوجد وسط الواجهة التى تقع فى الداخل جحر يبلغ طوله مترين وعرضه مترًا واحدًا أما عمقه فيبلغ ستين سنتمترًا. ويمكن رؤية تجويفين حديثين على اليسار يشكل أحدهما غرفة صغيرة مستقلة والآخر ممر يؤدى إلى القاعة الأولى التى تقع فى المقبرة الجبلية المجاورة والتى سبق أن تناولناها بالتفصيل.

وعلى يسار المقبرة الجبلية الأولى والتى تم عرضها على اللوحة السابعة والأربعين ـ الشكل الثانى ـ يقع باب كبير محاطًا بالرموز الهيروغليفية ونُقش على يسار الباب ـ أيضًا ـ بعض الرموز الهيروغليفية بالإضافة إلى شخص يبلغ حجمه سبعة أمتار تقريبًا ويمسك بين يديه صولجانًا وعصا، وقد أغفلنا توضيحه فى الرسم فى اللوحة السابعة والأربعين ـ الشكل الأول ـ ويُذكر أن نقوش الجانب الأيمن قد دُمرت بسبب انهيار جزء من الحجارة. وتُقدم اللوحة السادسة والأربعون عرضًا لهيئة الباب فى الشكل العاشر. ونرى ـ أيضًا ـ فى تجويف الباب أشخاصًا ضخمة البنيان تتسلح بعصىّ وتحيط بها الكتابات الهيروغليفية، والجدير بالذكر أن التصميم الداخلى لهذه المقبرة الجبلية منسق للغاية؛ فهى قاعة مربعة، ويرتكز سقفها على أربعة ركائز متساوية وموضوعة ومتناظرة، كما

يوجد بوسط القاعة حجر نصف مستدير، ونرى حجرًا مماثلا له على اليسار، ومن جهة اليمين يقع سرداب ملتوٍ يتصل بالمقبرة الجبلية الأولى التى سبق أن تحدثنا عنها.

أما عن المقبرة الجبلية الرابعة والتى تقع فى هذا الطابق من الجبل فهى منفصلة قليلاً عن الأخريات، وقد عرضنا تصميمها فى الشكل السادس فى اللوحة الثامنة والأربعين حيث نجد عند مدخلها أن الجبل مقطوع رأسيًا على امتداد كبير جدًا. كما أن الإطار الزخرفى للباب مزين بالرموز الهيروغليفية بشكل أفقى عند المنطقة العليا ورأسى فى كل جانب. ويوجد بالإضافة إلى هذا الإطار خطوط رأسية أخرى من الرموز الهيروغليفية التى عُرض عند طرفها حارسان مسلحان بعصا وصولجان - اللوحة الثامنة والأربعين الشكلين الرابع والخامس - كما نرى عند تجويف الباب شخصين متشابهين - اللوحة التاسعة والأربعين الشكلين الأول والثالث - وفيما يخص المقبرة الجبلية من الداخل فهى عبارة عن قاعة منظمة إلى حد كبير على هيئة مربع طويل وذات سقف يدعمه أربع ركائز وُضعت بشكل متناسق. الركيزتان الموجودتان فى آخر القاعة أكبر حجمًا من ركيزتى المقدمة كما لو كان المقصود بذلك هو تناسب قوتهما مع كتلة الحجارة التى يقومان برفعها، ونرى فى آخر الجانب الأيسر مدخل ممر تم حفره حديثًا.

ولا يمكن أن نغفل التشابه بين رسوم المقبرة الجبلية التى قمنا توًا بوصفها وتلك الرسوم الخاصة بزميلنا السيد جومار (انظر اللوحة ٤٦، الأشكال من ١ : ٨) فهذا التشابه يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرسوم تخص نفس المقبرة الجبلية؛ فقد زُين المدخل بنفس الطريقة، كما أن الرموز الهيروغليفية التى نقلها السيد جومار والتى تقع أعلى الشخص الموجود فى الشكل الخامس فى اللوحة السادسة والأربعين تحتل مكانًا مماثلاً على الرسم الكامل الذى قدمناه فى اللوحة الثامنة والأربعين بالشكل الخامس كما أنه نفس الشخص، أما عن الرسوم الداخلية فلم يختلف سوى بعض النقاط التى يسهل الخطأ فيها: أول تلك النقاط هى أن عمق المقبرة الجبلية المعروضة فى اللوحة السادسة والأربعين أقل من تلك المعروضة

فى اللوحة الثامنة والأربعين وبإمكاننا شرح سبب ذلك الاختلاف عن طريق الافتراض بأنه تم اعتبار الضلع الجزئى للقسم الثانى للقاعة ضلعًا كليًا، أما عن النقطة الثانية فهى تتعلق بحدود الرسم الذى يقع فى الجهة اليمنى والمعروض فى اللوحة السادسة والأربعين؛ حيث إن هذا الرسم تطابق مع حدود الرسم للجهة اليمنى فى حين أننا نلاحظ بعض الاختلافات فى اللوحة الثامنة والأربعين مما يوحى بأن صاحب الرسم الموجود فى اللوحة السادسة والأربعين لم يرفع سوى جانب واحد وافترض أن الآخر مماثل له، وأخيرًا فإن صاحب ذلك الرسم الأخير جعل جميع أعمدة الركائز بشكل متساو وذلك لأنه لم يقم بقياس سوى ركيزة واحدة فى حين أنها ليست متساوية طبقًا للوحة الثامنة والأربعين، أما عن التشابه بين هاتين المقبرتين الجبليتين فيكمن فى عرض المشاهد العسكرية المتماثلة فى المقبرتين. لقد سبق وأن أشرنا إلى وجود ثلاثة صفوف من المحاربين الذين يحملون تروسًا ذات هيئة خاصة وذلك فى المقبرة الجبلية المعروضة فى اللوحة الثامنة والأربعين وكذلك الشكل الرابع من اللوحة السادسة والأربعين، كما ذكرنا - أيضًا - أن كل صف من صفوف الجنود فى هذه المسيرة العسكرية يتكون من أربعة عشر محاربًا؛ وبالإضافة إلى كل ذلك فقد استخلصنا الملاحظة الآتية من يوميات رحلة أحد أصدقائنا السيد بلزاك وبالتحديد من الدراسة الخاصة بمقابر أسيوط ونصها كالتالى: "لقد لاحظنا وجود نقوش بارزة تغطى جانب قاعة يبلغ عرضها عشرين قدمًا وارتفاعها ثمانى عشرة قدمًا، وتتكون هذه النقوش من سبعة أو ثمانية صفوف من الجنود المنقوشين بهيئة أفقية بنفس الطريقة، وقد تم عرض صورهم جميعًا وهم فى وضع جانبى وكل منهم مسلح بخوذة ورمح وترس. والجدير بالذكر أن النقوش التى تُقدر بعشرين قدمًا تتناسب مع طول الجزء الأول للمقبرتين المعروضتين فى اللوحتين السادسة والأربعين فى الشكل الأول، والثامنة والأربعين فى الشكل الثالث، فى حين أن الارتفاع الذى قُدر بثمانى عشرة قدمًا يفوق كثيرًا الارتفاع السليم فى المقبرتين الجبليتين. ومن المحتمل أن الصحيح هو أن نقرأ ثمانى أقدام وهكذا تتماثل الارتفاعات تمامًا. وبتقليل عدد الصفوف الخاصة بالجنود بنفس النسبة سيتبقى ثلاثة صفوف - فقط - بدلاً من

سبعة أو ثمانية صفوف وهو العدد الذى يبدو أن السيد بلزاك قد ذكره غيبًا وهو نفسه ما يطابق من جهة الدليل الأول الذى سبق وأن أشرنا إليه ومن جهة أخرى رسم السيد جومار الذى وضع أكثر من أربعة عشر جنديًا فى كل صف، كما أعطى للنقوش البارزة طولاً يفوق العشرين قدمًا.

ويذكر أن الاختلافات التى لاحظناها هى ما دفعت السيد جومار إلى الاعتقاد بأن المقبرة الجبلية التى عرضها فى اللوحة السادسة والأربعين ليست هى نفسها التى رسمناها فى اللوحة الثامنة والأربعين؛ لكننا فى الحقيقة لسنا متفقين معه لأننا لا نستوعب كيف. وقد أمضينا كل هذا الوقت فى التنقيب عن آثار أسيوط. لم نلاحظ وجود هذه المقبرة الجبلية الثانية؛ فى حين أنها مجاورة جدًا للمقابر التى قمنا بزيارتها أكثر من مرة، وقد لاحظنا ـ أيضًا ـ فى هذه المقبرة وجود الكثير من النقوش الهيروغليفية موزعة على خطوط رأسية يبلغ ارتفاع كل منها مترين وسبعة وأربعين سنتيمترًا وعرضها ستة عشر سنتيمترًا، أما الخطوط الفاصلة فيبلغ عرضها سنتمترًا واحدًا.

ونلاحظ وجود ثلاث مقابر متجاورة جدًا تقع مباشرة أسفل المقبرة الجبلية الرئيسية ولها نفس ارتفاع السابقات تقريبًا (انظر اللوحة ٤٦ ـ الشكل ٣-٣) وقد تم تقديم عرض المقابر الثلاثة فى اللوحة السابعة والأربعين. الشكل الثالث ـ وعلى اللوحة ٤٨ ـ الشكلين ١، ٦). والمقبرة الجبلية الأولى تم الحفر فيها وفقًا لتصميم أكثر انتظامًا وأكثر غنى من المقابر التى سبق أن تحدثنا عنها؛ ففى الخارج ندخل إلى بهو ذى تصميم مربع طويل ويبلغ عرضه الذى يفوق عمقه تسعة أمتار وأربعة وسبعين سنتيمترًا، فى حين يُقدر عمقه بثمانية أمتار فقط، كما يوجد أمام باب المقبرة الجبلية عند نهاية البهو باب آخر يؤدى إلى قاعة بنفس أبعاد البهو وذلك عن طريق ممر يتراوح طوله ما بين خمسة عشر إلى ستة عشر مترًا، ويقع فى نهاية هذه القاعة ثلاث كوات استطعنا تخيُل موقعها بسهولة وذلك عن طريق الرسوم البيانية والمقاطع الخاصة باللوحة السابعة والأربعين ـ الشكلين ٣، ٥، أما عن سقف المقبرة الجبلية فهو شديد التلف، ومن المحتمل أن

تلك الأسقف كانت مغطاة بالرسوم الهيروغليفية، وقد أشرنا فى الرسم البيانى لهذه المقبرة الجبلية فى الشكل السادس وبالتحديد على الجهة اليمنى للممر ـ إلى مدخل الممر المنحنى والذى يقع طبقًا لمذكراتنا فى البهو، ويبلغ طول هذا الممر ما يقرُب من ثمانية أمتار، أما عن القاعة الصغيرة التى تقع فى طرفه ـ الأشكال الرابع والسادس والسابع ـ والتى تم الحفر فيها على عمق اثنتى عشرة قدمًا من نصف مساحتها فهى ذات تصميم مربع، ومن جهة أخرى يمكن ملاحظة وجود ثلاثة ممرات أخرى متشابهة تملؤها الأنقاض يمتد أحدها إلى داخل الجبل أما الاثنان الآخران فيمتد اتجاههما حتى أسفل المقبرة الجبلية.

وفيما يخص المقبرة الجبلية الثانية التى قدمناها على اللوحة الثامنة والأربعين فى الشكل السادس والتى تقع على يمين المقبرة الجبلية الأولى؛ فهى تتميز بتصميمها الذى يتشابه كثيرًا مع تصميم الأولى؛ غير أنها ليست بنفس الاتساع؛ حيث إن البهو له نفس العرض ولكنه أقل فى العمق كما أن الممر يتميز بقصر طوله، أما عن القاعة السفلية لهذه المقبرة الجبلية فنجد أن عرضها أقل من عرض البهو، ويوجد على الجهة اليمنى واليسرى ـ بشكل متقابل إلى حدٍ ما وبالتحديد فى نهاية الممر تقريبًا ـ ممران أفقيان يؤديان إلى قبوين صغيرين كانت المومياوات توضع فيهما بالتأكيد. وسوف نرى من خلال القطاع المعروض فى الشكل السابع فى اللوحة الثامنة والأربعين أن سقف البهو أكثر ارتفاعًا من سقف الممر وسقف الممر يرتفع بدوره عن سقف القاعة التالية، كما أن الممرين يقعان على نفس ارتفاع نهاية الممر، وقد زينت الزخارف المرسومة سقف البهو حيث يشكل إطارًا من النجوم الحافة الأولى، أما الباقى فقد ملأته الرسوم على غرار لوحة الشطرنج وطبقًا للفن الإغريقى والأترورى والعربى، كما أن جميع أسقف هذه المقبرة الجبلية قد غطتها النقوش الهيروغليفية الملونة بالأزرق السماوى؛ كذلك الحال بالنسبة للكوة الخاصة بالباب الأول التى غطتها الكتابات الهيروغليفية، أما عن الإطار الزخرفى للباب الثانى فقد زين جانبيه صفان من الرموز الهيروغليفية وزُين أسفله بواسطة ثلاثة صفوف فقط، كما تحت سقف

الممر بهيئة نصف دائرية (انظر الشكل الثامن، اللوحة الثامنة والأربعين)، ومن الجدير بالذكر أن هذه المقبرة الجبلية تتميز دون جميع المقابر التى رأيناها فى جبل أسيوط بزخارفها الفنية الدقيقة.

أما فيما يخص المقبرة الجبلية الثالثة المعروضة فى اللوحة الثامنة والأربعين الشكل الأول والمجاورة للمقبرتين الجبليتين السابقتين فهى صغيرة جدًا وهى أشبه بقبو صغير كان فيما مضى متصلاً بمقبرة جبلية يبدو أنها هُدمت بسبب انهيار جزء من الحجارة.

وقد لاحظنا على الجانب الأيسر للجبل وجود أشكال مصرية واقفة منقوشة نقشًا مجسما (انظر اللوحة السادسة والأربعين - الشكل التاسع) وتوجد خمسة أشكال فى جانب وأربعة فى الجوانب الأخرى ومن ضمنها شكل يقل فى الحجم بنحو النصف ويبدو أنه يمثل طفلاً، وقد أصاب التشويه الشديد هذه الأشكال التى يبلغ ارتفاعها نحو متر وثلاثين سنتيمترًا، ويبدو أنها تصور نساء. وفى اعتقادنا أن هذه الأشكال المنحوتة كانت خاصة بإحدى المقابر من الداخل وأن الجزء الأمامى لهذه المقبرة الجبلية قد هدم على أثر الانهيار الجزئى للجبل، كما نجد فى قلب النقوش البارزة تجويفًا غير منتظم.

وقد لاحظ العديد من زملائنا - من بينهم السيد فورييه - فى أثناء هبوطهم من أعلى جبل أسيوط الجزء الأعلى لباب مدفون - تمامًا - وتمكنوا بصعوبة شديدة أن يزلفوا إلى الداخل عن طريق الفتحة الباقية ووجدوا أنفسهم داخل معبد مصرى صغير يشبه المعابد الموجودة فى المنيا (انظر اللوحة الرابعة والستين، المجلد الرابع)؛ إلا أن أسلوب بناء هذا المعبد أقل إتقانًا فبدلاً من الأعمدة بشكلها المعتاد هناك ركائز مربعة الشكل تدعم السقف. أما عن الرموز الهيروغليفية والرسوم فهى لا تزال محفوظة جيدًا، وهى تصور موكبًا من أربعة عشر كاهنًا يحملون القرابين لأحد الآلهة. وقد اقتصرنا فى وصفنا على ذكر الحقائق المدونة فى يوميات السيد فورييه؛ وذلك نظرًا لأننا لم نقم بأنفسنا بزيارة هذه المقبرة الجبلية.

ويخيل إلينا أن جميع مقابر أسيوط لم تكن منذ عدة سنوات بهذه الحالة من التلف، وقد أوضح لنا رجل من البلاد كان مرشدًا لنا أنه قد رأى تلك المقابر فى حالة جيدة جدًا وأن الرسوم كانت أكثر زهاء وأكثر احتفاظًا برونقها وأن قوائم الأبواب والأسقف لم تكن مهشمة أبدًا كما هو حالها فى الوقت الحاضر، وطبقًا لأقواله فقد علمنا أن البكوات والمماليك هم من قاموا حديثًا بتخريب هذه المقابر وذلك بإطلاق رصاص البنادق عليها؛ حيث نرى فى الواقع آثار تلك الطلقات فى مواضع عديدة؛ فى حين أن ذلك الرجل لم يستطع أن يحدد لنا بدقة فى أى وقت وعلى يد مَن من المماليك قد حدثت هذه التلفيات.

أما عن انهيار الآثار المنحوتة فى الصخر فله أسباب خاصة بطبيعة الآثار؛ فقد أثرت التصدعات الطبيعية للأحجار وكذلك التجانس الضعيف بين أجزائها على الأسقف التى لا توحى بصلابة تماثل تلك الخاصة بمبنى مشيد من مواد مختارة، كما أن الركائز التى كانت قد شُيدت بفن قد هُدم أغلبها أو قَلت كثافتها إلى النصف، وقد أصاب الانهيار جميع الأجزاء الوسطى من الأسقف تقريبًا فى حين ظلت الزوايا بحالة جيدة.

ويُذكر أن المقابر المنحوتة داخل جبل أسيوط ذات تكوين جيرى حيث إن أحجارها شديدة الصلابة وتشتعل نارًا إذا ما اقتربت منها قدّاحة، ونجد ـ أيضًا ـ فى هذا الجبل الكثير من بلورات الكربون الحرارى ذات الهيئات المختلفة بالإضافة إلى الأصداف وكم كبير من كتل الصّوان المستديرة، ونرى أسفل الجبل طبقة من هذا النوع من الحجارة؛ حيث انحسرت الحجارة الجيرية التى كانت تغطى هذه الأحجار وذلك بفعل الماء أو لسبب آخر؛ وفى حين أننا لم نلاحظ أن الأمطار الشديدة الندرة فى هذه البقاع قد تركت آثارًا ملموسة ويغطى الحجر الصّوان ليس ـ فقط ـ هضبة الجبل ولكن ـ أيضًا ـ المُنحدر وذلك فى الأجزاء التى انحسرت عنها ـ أيضًا ـ الأحجار الجيرية. ويبدو أن عملية انهيار الأحجار مستمرة حيث إننا قد أشرنا إلى اختفاء الأجزاء الخارجية من العديد من المقابر التى لم يتبق منها سوى الأجزاء الخلفية.

ومن المؤكد أن الحجر الصّوان الموجود فى كتل الأحجار قد عاق بشدة العمال الذين قاموا بنحت جدران المقابر ونجد فى بعض المناطق أن هذا الحجر قد تُرك مكانه وواصل العمال النحت ولكن من أسفله، وفى هذه الحالة نلاحظ أن أحجار الصّوان تلك تُشكل فى الجدار بروزًا غير مقبولة للعين؛ غير أنه فى مدينة طيبة حيث تَقدم الفن بصورة أكبر نجد أن النحاتين قد أزالوا أحجار الصّوان ووضعوا مكانها أجزاء موشاة لا يمكن ملاحظة وصلاتها (انظر وصف طيبة، الفصل التاسع، القسم العاشر١٨).

ويبدو أن العديد من مقابر أسيوط لم ينته العمل بها وذلك على الرغم من وجود بعض الألوان فيها، وقد سنحت لنا الفرصة لمعرفة أن الرسامين لم يكونوا ينتظرون انتهاء النحاتين - تمامًا - من زخرفة المبنى من أجل أن يضيفوا الألوان على الأجزاء التى انتهى العمل فيها، كما رأينا فى جميع مقابر أسيوط عددًا كبيرًا من التجويفات حيث كانت توضع بداخلها فيما مضى المومياوات حتى إننا وجدنا فى العديد من هذه التجويفات بعض أجزاء من المومياوات الخاصة بالثعالب وبأبناء آوى[1] وبالقطط الصغيرة بالإضافة إلى بعض الجوارح التى لاتزال محتفظة بريشها.

وعقب قيامنا بجميع الأبحاث الممكنة بأنفسنا من أجل العثور على بعض المومياوات المحفوظة جيدًا، توجهنا إلى واحد من هؤلاء الرجال الذين يمارسون مهنة التنقيب فى المقابر بهدف إيجاد بعض التمائم التى يقومون ببيعها بأسعار باهظة أحيانًا، وقد بدا هذا الرجل على علم تام بالجبل ولكنه يفضل الاحتفاظ بالأسرار التى يعرفها؛ فقد قال لنا يومًا إنه تم العثور منذ عامين أو ثلاثة أعوام ماضية فى هذا الجبل على كلاب مغطاة بقماش قطنى وتبدو أنها محفوظة منذ زمن بعيد، وأضاف أن هذه الكلاب تم دفنها بعناية فائقة منذ قديم الزمان

(١) لقد حملنا بعض العظام المأخوذة من المومياوات الخاصة بأبناء آوى، ووجدنا هذه الأجزاء مغطاة بأوراق ذهبية محفوظة جيداً. انظر اللوحة الثانية، الشكلين السابع والثالث عشر، المجلد الثالث، وشرح هذه اللوحة، وقد وُضعت هذه الأشياء فى أحد اللوحات الخاصة بطيبة عن طريق الخطأ.

ويرجع ذلك إلى اعتقاد الشعب فى ذلك الوقت أن هذه الحيوانات ما هى إلا آلهة؛ لذا فقد لاحظنا أن هذا الرجل لديه بعض المعلومات عن تاريخ بلاده القديم، وأنه من غير المحتمل أن يكون قد ألم بهذه المعلومات عن طريق المعتقدات؛ بل نعتقد أنها وصلت إليه عن طريق بعض المسافرين الأوربيين، ولقد وعدنا مرشدنا بمكافأة كبيرة إذا استطاع أن يدلنا على هذه المومياوات، فقام ببعض الاستفسارات وأخبرنا بعد عدة أيام بأنه وجد تلك المومياوات، ثم اصطحبنا إلى أسفل الجبل فى مكان كان قد قام بعمل فجوة بالأنقاض المكومة به كى نتمكن من خلالها من رؤية عدد كبير من مومياوات الحيوانات، ولاحظنا أن جميع هذه المومياوات - تقريبًا - مهشمة ومنظمة على هيئة طبقات أفقية بينها حُصر، وقد جلبنا بعضًا منها ومن ضمنها مومياوات لبعض الجوارح والقطط ويُحتمل - أيضًا - لبعض القرود؛ ولكن أغلبها كانت لأبناء آوى والثعالب، كذلك عثرنا من بين هذه الأنقاض على مومياء بشرية محفوظة بشكل جيد إلى حد ما؛ حيث نلاحظ أن شعرها لم يتجعد وهى غير محنطة بعناية كبيرة كما أن الشرائط غير منسقة بإتقان؛ ومع ذلك فقد رأينا من بين المومياوات الموجودة فى المقابر فى طيبة ما يقل من حيث جودة التحنيط عن هذه المومياوات، أما عن التربة فى هذه الطريق فهى مغطاة ببعض قطع الأقمشة القديمة وبالريش وبمناقير العصافير وببعض عظام حيوانات مختلفة، ومن المؤكد أن كل هذه الأنقاض قد تم إخراجها من المقابر؛ فقد ألقى بها - بامتعاض - المسيحيون الذين أقاموا فى هذه المساكن المظلمة والذين لم يتركوا بدون شك أى قبو سليم؛ وبذلك فقد عدلنا عن فكرة العثور على مومياوات فى مقابر أسيوط، ولن يكون من الممكن اكتشاف مومياوات محفوظة بصورة جيدة إلا باستمرار البحث وسط أكوام الأنقاض التى سبق الحديث عنها والتى تبدو وكأنها وضعت بعناية حيث تم الفصل بين الطبقات بواسطة الحُصر. وقد ألححنا ذات يوم على مرشدنا كى يصطحبنا إلى المقابر التى يكون من الممكن أن نجد بها بعض المومياوات البشرية الكاملة، وبعد أن فكر بعض الوقت أعطانا وعدًا ولكن قال لنا إنه يجب التوغل فى الجبل أكثر من ذلك، ولم تكن هذه الرحلة خالية من المخاطر ومع ذلك فقد

رحلنا بدون حراسة[1] وقد جذبتنا وعود مرشدنا وملأنا الأمل بزيارة مقابر فى حالة جيدة، وكان رحيلنا بدون حراسة لأن فرق الجيش فى أسيوط كانت قليلة العدد كثيرة الانشغال بحيث لم يكن من الممكن توفير أحدها لحراستنا، كما حرصنا على أن يظل أمر هذه الرحلة فى طى الكتمان حتى لا يعارض قائد المنطقة مشاريعنا حرصًا على سلامتنا، وقد جعلنا مرشدنا نتسلق السلسلة الليبية ثم هبطنا من الجهة الأخرى حيث وادى ضيق ظللنا نسير بمحاذاته خلال ساعة صعدنا بعدها إلى عدة تلال وعبرنا بعض الأخوار المتتالية المجردة من كل أنواع النباتات؛ حيث كانت الحرارة مرتفعة بصورة شديدة بفعل انعكاس أشعة الشمس على الأرض البيضاء، وأخيرًا وبعد مسيرة استمرت قرابة الساعتين أشار مرشدنا إلى آثار بقايا لمبنى قديم يوجد بالقرب من بعض القباب المرتفعة قليلاً عن الأرض قائلاً إن هذا هو المكان الذى توجد به المومياوات الآدمية؛ ولكننا أدركنا بسهولة أننا لا نقف فوق أطلال خاصة بمصر القديمة بل فوق أطلال مسيحية؛ أنقاض لمساكن متواضعة خاصة ببعض النساك الذين لجأوا فى السنوات الأولى من هذا العصر إلى صحراء الصعيد - وأثناء انشغالنا فى مشاهدة ما تبقى من الأديرة المقدسة انهمك مرشدنا فى التنقيب أسفل إحدى القباب الصغيرة ثم استدعانا سريعًا كى يُرينا تابوتًا مصنوعًا من خشب الجميز لم يلبث أن أخرجه من هذه القبة ووجدنا داخل هذا التابوت رجلاً أبيض حُفظت كل من أجزائه العضلية والجلد والأسنان، والأظافر واللحية الخاصة به وكذلك القماش الذى غطى جسده بصورة جيدة تمامًا؛ فى حين أننا لم نلاحظ أى أثر لتحنيط مما جعلنا نفترض أن هذا الحفظ الرائع يرجع إلى تربة جافة لا تبتل بفعل مياه الأمطار أو الأنهار على الإطلاق من جهة ومن جهة أخرى جو جاف وشمس حارقة، وعدنا بعد ذلك من رحلتنا الاستكشافية القصيرة وقد اعترانا الخجل من نتيجتها وظللنا ننهر مرشدنا الذى لم يدرك سبب عدم رضائنا.

---

(١) أُخذت هذه الرواية من يوميات السيد دو بوا -إيميه الذى قمنا معه بهذه الرحلة القصيرة والذى تركنا له الساحة هنا كى يرويها.

وفى طريق العودة إلى أسيوط عبرنا فوق هضبة تعلو الجبل تم حفر بعض المقابر بداخلها، ويذكر أن هذه الهضبة تشرف من جهة على كل وادى النيل وتمتد من جهة أخرى. إذا اتجهنا ببصرنا بعيدًا - حتى الصحراء الغربية، ونلاحظ أن سطح هذه الهضبة مغطى بحطام أوان فخارية حتى إننا اعتقدنا أنه كان يوجد بها بقايا خزانات وقنوات للماء، كما عثرنا - أيضًا - على كثير من حطام مبان شيدت من الطوب الأحمر، وتشير كل هذه الأنقاض بالإضافة إلى المدافن وأجزاء الأعمدة التى رأيناها فى أسيوط أو فى الجوار إلى وجود مدينة قديمة. وقد تم تحديد موقع أسيوط بصورة نهائية على خريطة مصر التى وُضعت فى أثناء مسيرة الحملة الفرنسية وبهذا - فقط - تم تصحيح أخطاء المسافرين الأوائل والجغرافيين[١]، ومن جهة أخرى فكل خرائط الرحلات القديمة تتفق على وضع المدينة التى كانت تحمل فى عهد بطلميوس اسم ليكوبوليس محل مدينة أسيوط وقد كانت الثعالب وأبناء آوى مقدسة فى ذلك الوقت مما يفسر لنا سبب وجود هذا الكم الهائل من بقايا مومياوات هذه الحيوانات بالتحديد؛ ومع ذلك لا توجد على الإطلاق فى ضواحى أسيوط أطلال يمكن مماثلتها بالأطلال التى وجدناها فى أسيوط نفسها. وهكذا فإنه من المؤكد - تقريبًا - أن مدينة ليكوبوليس كانت تحتل مكان أسيوط بين النيل والجبل، وأن المقابر الخاصة بدفن الموتى فى هذه المدينة كانت موجودة فى الجبل المجاور، وأن القلعة الملحقة بمدينة ليكوبوليس كانت موجودة فوق الهضبة التى تشرف على جميع البلاد. وتدفع بعض المعتقدات القديمة والتى دونها ديودور الصقلى[١] إلى الاعتقاد بأن مدينة ليكوبوليس كانت موقعًا عسكريًا شديد الأهمية.

---

(١) انظر دانفيل ، مذكرات عن مصر، ص ١٨١.

ديودور الصقلى ، تاريخ المكتبة، الكتاب الأول ، ص ٩٩.

الفصل الرابع عشر

وصف أطلال الأشمونين
أو
هرموبوليس ماجنا

بقلم السيد: چومار

المبحث الأول : ملاحظات عامة

أطلق اسم هيرموبوليس على عدة مدن مصرية، ولقد تم تمجيد الإله المصرى هيرمس أو تحوت فى عدة أماكن من هذه البقعة للأعمال الطيبة التى لا تحصى والتى تنسب إليه، فالفضل يرجع له فى ابتكار مبادئ الفنون الجميلة والموسيقى والكتابة والقواعد والبلاغة والاستدلال والحساب واكتشاف المقاييس ومعظم العلوم(١).

وهذه الشخصية الرمزية كان لها معبد فى هيرموبوليس ماجنا فى مصر الوسطى وفى هيرموبوليس بارفا فى الجزء الغربى من الوجه البحرى. ونستطيع أن نعتبر مدينة أرمنت فى أعلى الصعيد هى المدينة المخلدة لهذه الشخصية، وتعبر كنية لفظ ماجنا التى أطلقت على أولى هذه المدن عن سيادتها على المدن الأخرى وهذا ما تؤكده الأطلال الحالية لها؛ فامتداد هذه الأطلال يدل على أنها تفوقت على أكبر المدن التى عثرنا على أنقاضها باستثناء طيبة والإسكندرية.

وكانت مدينة هيرموبوليس ماجنا تطل على البحر المتوسط - أى أنها كانت تقع وسط البلاد وفى أكبر السهول المصرية، وكانت تصب بها عدة فروع من النيل وهذا ما تؤكدة القنوات التى لا تزال موجودة وتروى السهل المصرى فهى لم تكن - فقط - عاصمة المقاطعة التى كان يطلق عليها مقاطعة هرموبوليت و لكنها كانت المركز الأساسى - دون شك - لإقليم مصر الوسطى وقد قطنها عدد كبير من

---

(١) بلوتارخ ، ايريس وأوزوريس - أفلاطون، ديودور ... الخ.

السكان حتى العصر الذى شيد فيه الإمبراطور هادريان الضفة اليمنى من النيل فى مواجهة هرموبوليس تلك المدينة الجديدة التى انتشرت فيها كل العظمة الرومانية والتى بدأ فى عصرها تقوض المدينة المصرية[١].

ولقد تركت الأجيال المتعاقبة على أرض مصر المعالم التى تعبر عن مختلف العصور التى شاهدت ازدهارها؛ فإلى جانب المنشآت المصرية كانت هناك الأعمال الإغريقية وأطلال العمارة الرومانية، وقد تهدمت المساكن الواحد تلو الآخر حتى أصبحت أنقاضها ـ تقريبًا ـ تشكل جبالاً حقيقية، وأصبحت بقية هذه الارتفاعات تشكل حزامًا ممتدًا وبارزًا ومرتفعًا أعلى السهل.

وفى المنخفضات والفراغات التى توجد بينها وعلى محور الأنقاض نحو الشرق يقع رواق المدينة المصرية وبقايا معبد هائل المساحة والأبعاد، وفى الطرف الآخر تقع قرية الأشمونين الحالية إحدى القرى الهامة لمحافظة المنيا.

المبحث الثانى: ملاحظات تاريخية وجغرافية

قد يصبح من المستحيل علينا أن نرجع إلى أصل مدينه هرموبوليس؛ فالإغريق الذين تعرفنا من خلالهم على هذه المدينة لم يحتفظوا بأى اسم قديم لها إلا إذا كانوا يريدون الاحتفاظ بهيرمس كتسمية قديمة لمصر[٢].

و يقول هيرودوت[٣] إن العرف السائد كان بنقل الطيور المحنطة مثل الصقور إلى مدينة بوتو (تل الفراعين). ولم يذكر ـ قط ـ ديودور الصقلى هذه المدينة على الرغم من أنها كانت من أهم المدن المصرية فى عصره؛ فى حين أن بلينى أشار ـ فقط ـ إلى مقاطعة هرموبوليت، ويخبرنا استرابون أن أهل هرموبوليت كانوا يمجدون فصيلة من القرود تم نذرها للإله المصرى وفقًا لهورابولون.

---

(١) انظر فيما يلى .

(٢) يرى زويجا أن هذه التسميه تأتى من أبى العلوم.

(٣) هيرودوت التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ٦٧.

و فى عهد الإمبراطور تراچان وفى مدينة هرموبوليس أو ربما فى العاصمة المصرية تم صك ميداليات تحمل اسم مقاطعة هرموبوليت وطائر "أبو منجل" المصكوك على الميدالية كان رمزًا معروفًا لهيرمس؛ وكذلك الحال بالنسبة للصقر و تم نذرهما له[١] وفى عهد هادريان تم صك ميدالية عن مقاطعة هرموبوليتان نقشت عليها صورة الصقر جالسا[٢]. و لقد نقلت عن إحدى مبانى الأشمونين نقشًا إغريقيًا يكرم بعض أتباع انطونيوس، وهذا النقش أثرى ويثبت أن هذا المكان كانت له أهمية خاصة فى عهد ماركوس اوريليوس[٣].

وفى عهد أميان مارسلان كانت هرموبوليس إحدى أشهر مدن الصعيد[٤] وفى تاريخ الامبراطورية نجد أنه كانت هناك درجة فارس، وقد قام أحد أتباع هيرمس المولود فى هرموبوليس. وقد ذكره بلوتارخ فى كتابه عن ايزيس - واوزوريس بتأليف كتاب شعرى عن هذه المدينة تكريمًا لها.

وفى عهد الإمبراطورية البيزانطية تم بناء أسقفية وكانت تتبعها الأديرة المحيطة بها، وهكذا فإننا نستطيع أن نؤكد أن هذا المكان كان من أقدم المدن المصريه بل ومن أقدم المدن على مر الزمان؛ فموقعها فى وسط الوادى بين النهر وفرعه الكبير المعروف ببحر يوسف، وكذلك وجودها فى واحد من أكبر سهول إقليم بنى حسن بل وكل الصعيد كان سببًا كافيًا لكى تصبح مقرًا لمقاطعة كبيرة تظل محتفظة بتلك الميزة لعدة قرون متتابعة، ولم تبدأ فى التقوض إلا بعد الشروع فى بناء الشيخ عبادة وهذا أمر لا شك فيه.

---

(١) هواريبولون، هيروغليفيات، التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ص٥١ " ايزيس واوزوريس " لبلوتارخ. افلاطون فى " فيدرا ". ارجع إلى التاريخ الطبيعى و الأسطورى لأبى منجل بقلم سافينى.

(٢) انظر لوحة مقاطعات مصر فى لوحات العصور القديمة، المجلد ٥، اللوحة ٥٨. و هناك عدة ميداليات عن هذه المقاطعة و هى معبرة للغاية.

(٣) انظر فيما بعد المبحث الثالث.

(٤) الأشمونين، قفط، الشيخ عبادة هى الثلاث مدن التى ذكرها أميان مارسلان كمدن أساسية؛ ولكن يبدو أن الأشمونين، قد بدأت فى الانهيار مع ازدهار الشيخ عبادة (اميان مارسلان، الكتاب ٢٢، ص٢٢٣.

وبعد السيطرة الرومانية ظهر عامل آخر ساعد على تقويض ازدهارها؛ الا وهو الانخفاض المتتابع لمستوى المياه الذى كان مصدره الفرع المسمى قناة يوسف، وهو المصدر الذى كان فيما مضى يعتمد عليه السكان فى رى أراضيهم. وعندما توقفت هذه القناة عن امداد المدينة بالمياة اللازمة لكى تروى عطش نسبة كبيرة من السكان ومن الأراضى بدأت نسبة كبيرة منهم تقترب شيئًا فشيئًا من النيل حتى قامت مدينة ملوى بدلاً من هرموبوليس.

وتقع مدينة ملوى العريش على بعد فرسخين تقريبًا من جنوب الأشمونين، وكانت تقع فيما مضى على نهر النيل (حتى عام ١٧٢٠) وأصبحت عاصمة المحافظة الجديدة، وكان ميناؤها مستودعًا للحبوب المصدرة إلى مكة والمنتجات القادمة من الجزيرة العربية، وانهارت بعد ذلك المنشآت على ضفتى النيل وظهرت مدينة جديدة بدورها بدلاً من العاصمتين القديمتين، وأصبحت المنيا الآن هى المدينة الرئيسية للمحافظة التى لا تزال تحمل اسم الأشمونين؛ ولاية الأشمونين أو إقليم الأشمونين.

ويبقى لى التعريف بأن الجغرافيا المقارنة تؤكد على أن هرموبوليس ماجنا هى الأشمونين؛ على الرغم من أن هذا الموقع متعارف عليه بصفة أكيدة إلا انه فى هذا الوصف لا يسمتى إلا أن أسوق الدليل الهندسى؛ إذا ما كان مباحًا لى استخدام هذا المصطلح؛ فخريطة أنطونيانوس حددت مسار الطريق بالنقاط الآتية البهنسا ٣٠ ، الأشمونين ٢٤ ، قوص ٢٤ ، أسيوط ٣٥ ومن خلال هذا المسار يتضح لنا أن المسافة بين هرموبوليس وليكوبوليس تبلغ تسعة وخمسين الف ميلاً رومانيًا وكل ميل رومانى يوازى ١٤٧٨ مترًا[١] مما يعادل ٨٧٢٠٢ مترً لإجمالى المسافة؛ غير أننا على الخريطة الحديثة نجد أن المسافة بين الأشمونين وأسيوط التى تقع فى نفس موقع ليكوبوليس تبلغ ٨٧٥٠٠ مترا [٢].

---

(١) انظر دراستي عن نظم القياس عند قدماء المصريين.

(٢) انظر وصف أسيوط بقلم: جولوا وديفيلييه، الفصل ١٣. هذا المسار لا يمثل الا اربعة وخمسين ميلا بين البهنسا وهرموبوليس. وتوضح الخريطة لن هناك أكثر من ٦٨ ميلا (١٠١,٠٠٠ متر) بين البهنسا والأشمونين وإذا كانت البهنسا هى فعلاً بقلها مدينة أوكسيرنخوس علينا إذن ان نكتب البهنسا ٣٤ والأشمونين ٣٤ .

وخط العرض الذى حدده بطليموس لهرموبوليس. وفقًا لأبى الفدا هو ٢٧° ٤٠َ ووفقًا للملاحظات الفلكية الأخيرة وجدنا أنه ٤٥ ٢٧ ° حسب خط عرض المنيا ومحتوى الخريطة، وتصبح المقاييس هنا أكثر دقة من خطوط العرض الأخرى لهذا الجغرافى.

ونظرًا لافتقارنا للوثائق الجغرافية والامتداد الهائل الذى تشغله أنقاض الأشمونين فقد كان البحث عن موقع آخر لهذه المدينة الرئيسية فى تلك المنطقة صعبًا للغاية، ولا أستطيع أن أتجاهل فكرة أن المحافظة التى تضم المنيا هى نفسها محافظة الأشمونين؛ وهو الأمر الذى يؤكد أن هذا المكان أعطى ـ دائمًا ـ اسمه لهذه البقعة وأصبح بالتالى هو العاصمة[١].

المبحث الثالث: طبوغرافيا أنقاض الأشمونين

عندما نصل إلى الشيخ عبادة و نرغب فى مشاهدة أطلال أشمونين علينا عبور النيل والهبوط إلى قرية البياضية. قرية لا يقنطها إلا المسيحيون[٢] ثم نتجه من بعدها إلى الجنوب الغربى نحو دير النصارى حيث نعبر قناة عريضة وغير عميقة تسمى ترعة السباخ. وهى أصلا المنخفض المعروف باسم باطن، ونتوجه بعد ذلك إلى الغرب وعلى بعد ساعة وربع الساعة من الدير نصل إلى أنقاض الأشمونين، ويظل الجبل الليبى بعيدًا جدًا فى الغرب، ويبلغ العرض الكلى للمنخفض أكثر من ثلاثة فراسخ وربع[٣]، والزراعة هناك كثيفة للغاية؛ إذ نادرًا ما نجد بقعة أوفر منها حظًا فى الحصول على مياه النيل ففى الشرق تصب فيها

---

(١) مدينة هليوبوليس التى تكون مدينة طيبة وتقع على البحيرة الفارسية حيث مصراعى البوابة والمكان الذى يعالج فيه المرضى، ويبجل فيه المسيح فى مصر عند هرويه وظله الظل هناك على أرض مصر باريس ١٦٤٧ ص٢٥٢.

(٢) هؤلاء السكان المسيحيين هم سلالة أهل هرموبوليس فى عهد الإمبراطورية البيزانطية الذين أجبروا على الهرب من هذا الجزء من مصر و تركزوا فى البياضية وعلى الضفة الأخرى من النيل . انظر وصف الشيخ عبادة الفصل ١٥ .

(٣) أكثر من ٩٠٠٠ قامة. ما يقرب من ١٨٠٠٠ متر .

القنوات وفى الغرب وعند سطح السلسلة الليبية تساهم قناة يوسف - التى تقع أعلى من مستوى النيل - بحصة فى رى هذه الأراضى، ويمر فى وسط هذا السهل عدة قنوات حتى وإن كانت غير صالحة للملاحة كما هو الحال فى الماضى إلا أنها توزع وتخزن مياه الفيضانات على مدار العام بواسطة السدود. ولقد مكثت بضعة أيام فى الأشمونين وسافرت إليها ثلاث مرات و فى كل مرة كنت أتعجب من الخضرة الكثيفة. والأشمونين قرية غنية و كثيرة السكان، أراضيها شاسعة وأهلها يمتلكون الخيول والمواشى وهم مسلحون ولا يخشون بأس الأعراب، والمجال هنا لا يتسع لكى نناقش وضع البلاد الحالى وسوف أرفق ملاحظاتى فى هذا الصدد فى بحث خاص عن قناة يوسف.

ويعتبر عرض القناة جسر أساسى يطلق عليه جسر سلطانى أو جسر الأشمونين ويرتكز من جهة الشرق على الأنقاض التى تنتهى عندها الطريق التى كنت قد حددتها من قبل. وعلى الناحية الأخرى من الأنقاض - فى الغرب - يمتد هذا الجسر ويرتكز على قناة يوسف فى مواجهة تونة أى تانيس القديمة، وعند بلوغنا الأنقاض علينا أن نعبر مرة أخرى قناة صغيرة تلتف حول هذه الأنقاض.

ومما يجذب الأنظار - عند وصولنا إلى مشارف هذه البقعة هو الامتداد الكبير للأطلال وارتفاعها ولونها الداكن المقارب للسواد، ونستطيع أن نرى بوضوح كل الموقع من أعلى هذه الارتفاعات؛ فنرى من جهة الشمال رواق المدينة العظيم الذى يقع على محورالأنقاض وفى الجنوب نجد القرية التى تعج بالقنوات التى تروى المنخفضات المنتشرة هنا وهناك، وفى كل مكان نجد بقايا الأحجار والعمارة اليونانية والرومانية، ومسطح الأنقاض يشكل مستطيلاً يصل طوله إلى أكثر من ٢٢٠٠م وعرضه حوالى ١٦٥٠م ومحيطه الكلى حوالى ٦٣٠٠م ويمتد مع محور المعبد الكبير الموازى لخط الزوال المغناطيسى.

وعند ابتعادنا عن النقطة التى ينتهى فيها السد متجهين ناحية الشمال نجد قواعد تماثيل وأعمدة من الحجر الجيرى ربما تكون لمبانى تهدمت واندثرت معالمها، وتناثرت هنا وهناك أنقاض تم نقلها من مكان آخر إلى هذا الموقع، ومن بين هذه الأطلال نجد أعمدة من الجرانيت وقاعدة من الحجر الجيرى المنقوش

لإحدى الآثار الإغريقية التى لا تزال تحتفظ بشكلها حتى الآن، وكتل الأنقاض الكائنة فى هذه البقعة أخفت معظم أجزاء تلك الآثار تحت الثرى إلا أن الأجزاء الأقل تهدمًا لا تزال قائمة حتى اليوم.

وإذا ما اتجهنا نحو الغرب فإننا نعبر الطريق الكبيرة المتجة من الشمال إلى الجنوب والمؤدية إلى القرية، ويبدو أنها الطريق القديمة التى كانت تمتدت بطول القرية والموازية لمحور المعبد، وهناك أنقاض من الطوب الأحمر متناثرة هنا وهناك. ويقع المعبد نفسه على بعد ستمائة وخمسين مترًا تقريبًا من الطرف الشمالى للأنقاض، وسوف نقدم وصفًا خاصًا لها فى الفقرة التالية. وعند اتجاهنا إلى الجنوب نجد منخفضًا يحتفظ بمياه القناة الصغيرة التى تعبر الأنقاض وعدة أعمدة من الجرانيت مهدمة، وعلى مقربة منها وعلى أحد الارتفاعات نجد أنقاض أفران كان يتم فيها تحويل مواد بناء تلك الآثار إلى جير، وإذا ما ابتعدنا قليلاً نجد كتلاً من الأحجار ترجع إلى آثار العصور القديمة. وفى الطرف الجنوبى نجد القرية التى حلت محل هذه المدينة الكبيرة، ويبلغ طولها أكثر من ثلاثمائة متر ويصل تعداد سكانها إلى خمسمائة نسمه واسمها هو "الأشمونين" وفى وسط الارتفاعات التى تشكل هذه الأنقاض هناك بعض المنخفضات الملحية التى يستغلها السكان لاستخراج ملح البارود لأنهم على دراية بطرق تنقية المنخفض والأراضى، وتصنيع البارود فى قرية ملوى الصغيرة. وتحولت تجويفات الحفائر إلى مأوى للكلاب الضآلة والثعالب، أما المستنقعات فهى مليئة بالأوز والبط، ونجد داخل هذه التجويفات الكثير من الأوانى القديمة بعضها عبارة عن قوارير كان المسيحيون - وفقًا لأقوال السكان - يحتفظون فيها بالخمر، ويصل ارتفاع كمية هذه الأوانى إلى نصف متر أو ثمانى عشرة بوصة. والجزء الأكبر منها محطم ويرقد فى قاعها سائل كحولى تتصاعد رائحته عند حرقها. ونجد - أيضًا - بعض الأوانى الحمراء الأترورية مصنوعة من الطين النقى، وبعض أجزاء من أكواب مختلفة الألوان وكثير من الميداليات الرومانية.

وفى الشرق على مقربة من القرية هناك بعض الأعمدة الجرانيتية التى يصل قطرها إلى ثلاث أقدام وبعض الأحجار المزخرفة بيضاوية الشكل وعدة

قطع يونانية وأجزاء من أعتاب وبقايا خرجات سطح[1]، وفى الشمال هناك أنقاض مسجد كبير مهدم كانت تزينه أعمدة جميلة لا يزال بعض منها قائمًا حتى الآن، وأخيرًا فى الوسط توجد أعمدة من الجرانيت.

وعندما نتجه من القرية نحو الشمال نجد أنقاض العمارة الإغريقية والرومانية وثلاثة أعمدة أخرى من الجرانيت اندثر ثلثيها تقريبا.

وعلى المحور وعلى بعد أربعمائة متر من جنوب المعبد الكبير هناك مبنى من الحجر الجيرى اندثرت معظم أجزائه ولا يكاد يراه العابر؛ ولكننا نرى على سطح الأرض حوالى ستة أو ثمانية أحجار كبيرة ملتحمة مع بعضها عن طريق المداميك، وبعد إجراء بعض الحفائر وجدت على بعض منها نقوشًا إغريقية تحمل أسماء "انطونيو" ولها نفس شكل العمارة الأثرية فى الشيخ عبادة؛ وهذا هو ما استطعت أن أنقله عنها.

"فى الذكرى الطيبة لأباطرة القياصرة: ماركوس، اوريليوس، أنطونيوس.. الخ"

ولم أستطع استكمال تدوين النقوش أو الحفائر التى لو كنت بدأتها أو استكملتها لربما كانت تؤكد لى أن هذا الأثر هو لبيت الولادة الموجود فى معظم المدن القديمة إلى جانب المعابد الكبيرة، وأعترف أننى لا أستطيع تأكيد طبيعة هذا الأثر ولا نمط عمارته؛ لأن الأنقاض تتراكم عليه بحيث لا أستطيع أن أكتشف ما إذا كان مصريًا أم إغريقيًا أم رومانيا؛ فالنقوش وحدها لا تكفى لكى أؤكد أنه عمل رومانى لأن الرومان قاموا بالنقش على العديد من الآثار المصرية؛ ولكن المثير للأهتمام هو أن نرى فى هذا الأثر دليلاً أكيدًا على أن المدينة كانت تزدهر فى عصر "البطالمة"، وختامًا يمكننا القول: إنه تم استخدام نوع ما من الآلآت لنقش الحروف العريضة التى يبدو عليها أنها تنتمى إلى النقوش الأثرية وأن أحجار هذا البناء أحجامها هائلة.

وبالقرب من هذه الأنقاض توجد - أيضًا - سبعة أو ثمانية أعمدة جرانيتية؛ وهذا هو كل ما يتعلق بأنقاض أشمونين، فهناك ستة مواقع بها أعمدة من هذا

---

(١) رأى بلزاك فى هذه الأنقاض تاج عمود أيونى الطراز .

النوع؛ ربما تكون بقايا من مبانى أخرى فاخرة تم تشييدها فى عصور مختلفة[١] أو عدة أعمدة لأثر ما تم نقلها إلى أماكن متفرقة من هذه الأطلال؛ ولو أن الكتل الهائلة التى تتكون منها هذه الأعمدة تجعل من هذا الأمر عقبة كؤود.

كل هذه الأطلال تعبر عن ثراء مدينة هرموبوليس القديمة وهذا هو ما يؤكده الامتداد الكبير لهذه الأطلال التى تبلغ حوالى ٦٣٠٠ م (٣٢٣٠ قامة) كما سبق وذكرت، وكما هو الحال فى معظم المواقع فقد اندثرت هذه المنشآت؛ غير أننا نجد فى كثير من البقاع جدرانًا من الطوب يبدو أنها تنتمى للعصور القديمة، ولا يجب الخلط بينها وبين المبانى الأخرى المبنية من نفس نوعية الطوب ذى الأحجام الصغيره والتى ترجع إلى الإنسان المصرى المعاصر؛ فالنوع الأول نتعرف عليه من الحجم الهائل لأحجاره.

المبحث الرابع: رواق هرموبوليس ماجنا

ينتمى رواق هرموبوليس ـ الأثر الوحيد الهام المتبقى من هذه المدينة الكبيرة ـ إلى إحدى المعابد الرائعة لمصر القديمة؛ فأحجام الأعمدة لا يضاهيها سوى الأعمدة التى نجدها فى معابد طيبة الكبيرة وقطرها يتفوق على أعمدة دندرة بحوالى الربع، وطول الرواق يتعدى رواق دندره؛ وهكذا فإن هذا الأثر يعد من أعظم آثار العمارة المصرية، وهذا الحجم الهائل بدا لنا عملاقًا عند مغادرتنا الشيخ عبادة ـ حيث مكثنا بضعة أيام ـ والتى تبدو فيها أبعاد العمارة أكثر ضآلة وأقل رونقًا من مثيلتها فى الصعيد التى تركت لدينا انطباعًا قويًا.

ولقد ذكرت أن الرواق يقع على محور الأنقاض على بعد ستمائة وخمسين مترًا تقريبًا من أطرافها الشمالية، ولم يندثر جزء كبير منه؛ فهناك اثنا عشر عمودًا لاتزال قائمة ومحتفظة بأسقفها المزينة وبعوارضها؛ ولكنها عانت كثيرًا من آثار الزمن وفقدت صفين كاملين من أعمدتها لأن كل المعلومات تؤكد أن الرواق كان يتكون من ثمانية عشر أو من أربعة وعشرين عمودا. ومما يثير

(١) هذه الأعمدة لا يمكن إلا أن تكون بقايا كنائس قديمة.

دهشتنا هو وجود أطلال قليلة من المعبد المذكور..! وفى كل مكان - فى اسنا على سبيل المثال؛ حيث لا يزال الرواق موجودا - نستطيع أن نتخيل بسهولة الحال الذى أصبحت عليه الأجزاء اللاحقة، وحتى فى قاو يعج سطح الأرض بأجزاء جدران المبنى، أما هنا فليس هناك أى أثر والأرض قليلة الارتفاع مما يجعلنا نعتقد أن هذا الجزء من الأثر قد تهدم عن قصد رأسًا على عقب حتى أساسات الأطلال ثم السعى إلى إخفاء معالمها تماما؛ والسبب الرئيسى فى ذلك يرجع - دون شك - إلى مكوناته من الأحجار الجيرية المزخرفة بالنقوش؛ فالمسيحيون والمسلمون قاموا بهدم هذه الأحجار لتحويلها إلى جير للبناء.

وكما سبق وذكرت فإن الأسقف الأعتاب لا تزال فى مكانها حتى الأن؛ وكذلك الحال بالنسبة للكورنيش الواقع فى وسط واجهة البناء، أما باقى الأجزاء فقد اختفت بأكملها مثل الأعمدة البارزة، أما رؤوس الأعمدة فقد احتفظت بأحجارها وألوانها الحيه التى لا تزال تبرق بريقًا رائعا. وإذا ما صدقنا رواية الأهالى فإن مصطفى بك هو الذى قام بتقويض هذه الأعمدة الستة وتركها على حالها هذا لكى يهدم المبنى ويستخرج منه - كما يقولون - الذهب المخبأ بداخله، وبعد أن أتلف الأساس الحجرى اكتشف عدم جدوى ما يقوم به فتخلى عن محاولاته المجنونة؛ ولكننى لا أستطيع أن أعزى إلى مصطفى بك أو إلى إنسان واحد مسؤولية هدم هذه الأعمدة حتى لو كان الهدم سطحيًا؛ على الرغم من أن التخريب الذى يرتفع من عشرة إلى اثنتى عشرة قدمًا فوق سطح الأرض قد أثر قليلاً فى صلابة رواق المدخل؛ ولكنه لم يزعزع دعائمه، فهذا العمل لا ينتج إلا من مجهودات متتابعة من جانب عدة رجال أقوياء(١) واستمر لفترة طويلة.

وهذا هو الحال فى المدن الأخرى القديمة فقد كان لأهالى المدن المجاورة أفكار غريبة عن مصدر هذا الأثر. وسوف استغل صبر القارئ وأروى له بعض الروايات المبالغ فيها والعبثية للأهالى، وإننى أفضل أن أبدأ بالكنية التى أعطوها لمعبد هرموبوليس؛ فالبعض منهم أجمع على أنه كان يسمى "مهلب البنات" أى

---

(١) اعتقد الأهالى - أيضاً - أن الفيضان كان له أثر على الأحجار الجيرية التى تسمح بتسرب المياه والرطوبة.

المكان الذى تلهو فيه الشابات أو الأميرات الشابات، ولقد سمعت تلك الكنية تطلق على العديد من المبانى القديمة الأخرى.

ويتجه المعبد بالضبط وفقًا لاتجاه البوصلة الشمالى - أى أن الواجهة تتجه نحو الجنوب المغناطيسى؛ وعلى الأقل هذا هو الحال الذى كان عليه فى عام ١٨٠٠ يوم ٢٩ أكتوبر[١]، ولا يتفق هذا الاتجاه مطلقًا مع ما اعتقده وحدده المصريون - أى اتجاه الشرق؛ غير أن محور المعبد يقع موازيًا لمجرى النيل ولقد رأينا من قبل فى بعض الأحيان اتجاه بعض الأبنية نحو هذا الاتجاه؛ فمدينة هرموبوليس كان لها نفس اتجاه المبنى حتى أن محور البناءين يختلط بعضه ببعض فى محور واحد تقريبًا. والملحوظة الخاصة بالتقاء الإبرة الممغنطة مع محور معبد هرموبوليس سوف تساعد فى التعرف فى كل الحالات على المسار الذى يتبعه المحور المغناطيسى فى انحرافاته.

ويبلغ الارتفاع الإجمالى للرواق فوق قاعدة الأعمدة $\frac{٢}{٣}$ ١٦ م[٢]، والقاعدة نفسها يبلغ ارتفاعها ٧ ديسمترات، أما العمود شاملا العتب دون القاعدة فيبلغ ١٣، ١٦م. ومحيط جذع العمود - وذلك بقياسه بارتفاع بداية الشرائط الزخرفية أو الأطواق الدائرية التى تربط الجوانب ببعضها البعض بخلاف المدماك الرابع - فيبلغ ٨،٨ م ونستخلص من ذلك أن قطر العمود يصل إلى ٢،٨م أو ما يقرب من تسعة أقدام، وفى أسفل الجذع يصل هذا القطر إلى ٨،٧ م. ويبلغ تاج العمود بما فيه الطبلية ٣،٩٨م. والمسافة بين الأعمدة الوسطى أكبر من غيرها فعرضها يصل إلى ٥،٢٠ م. والمسافه بين الأعمده الأخرى تصل إلى أربعة أمتار وبالتوازى مع المحور فإنها لا تصل إلا إلى ٣،٦٦م. ونظرًا لافتقارنا للطول الإجمالى لواجهة الرواق التى لا نستطيع تحديدها نظرًا لتهدم الأعمدة قمنا بقياس المسافة الخارجية بين العمود الأول والسادس فوجدنا أنها تبلغ ٣٨ مترا - أى حوالى ١١٧ قدما؛ وعلى هذا فالواجهة بأكملها تصل إلى حوالى ٥٠ مترا[٣].

---

(١) ٧ الشهر التاسع للتقويم الجمهورى العام الثامن.

(٢) انظر اللوحة ٥٢، المجلد الرابع، وشرح اللوحات .

(٣) انظر اللوحه ٥٢ المجلد الرابع، للتعرف على الأبعاد الأخرى للرواق .

ورواق أشمونين هو مثال على صلابة الإنشاءات المصرية؛ لأنه لم يتم تشييد أى مبنى بمثل هذه الصلابة؛ فأبعاده ضخمة وارتفاع العمود ليس له إلا خمس وحدات فى حين أنه يبلغ ستًا فى الآثار الأخرى، وفى المقابل فان خرجة السطح لها أبعاد أقل ارتفاعًا من الخرجات مثيلتها حتى أنها تبدو أقل ارتفاعا من الأعمدة، ولو أن القائمين على بناء هذا الأثر قاموا باستخدام الحجر الرملى بدلا من الجيرى أثناء تشييده لظل هذا الأثر سليما مثل بقية الأجزاء القائمة والباقية.

ولقد استثمر هؤلاء القوم هذا المحجر الغنى فنحن لا نرى خلف رواق المدخل لا أعمدة ولا أجزاء من أعمدة أو أفريز أو كورنيش أو سور أو حتى أى بريق للأحجار وقد يتعجب العابر من هذا الأمر حتى اللحظة التى يكتشف فيها السبب !!

فالمداميك التى تتكون منها الأعمدة متساوية ومنتظمة فى ارتفاعها الذى يصل إلى ٠,٥٦ من المتر، والجزء السفلى لجذع العمود يتكون من ثلاثة مداميك أما الجزءان المتوسط والعلوى فلهما أربعة. والأطواق السفلية لها مدماك ونصف وكل طوق من الطوقين الآخرين له مدماكان وتاج العمود له ستة، وأخيرًا فإن الطبلية لها مدماك واحد، وإذا كانت القاعدة لها مدماك ونصف - كما اعتقد - فإن إجمالى ارتفاع الأساس يصل إلى ٢٥ مدماك[١].

وأحجار الأعتاب كبيرة للغاية فلا يوجد منها إلا خمسة فقط بطول الواجهة، وأكبر عتب الذى يوجد فى المنتصف ويصل طوله إلى ٨ أمتار (ما يقرب من ٢٥ قدما). أما الأخرى فيصل طولها إلى ٦,٨م. وما تبقى من الكورنيش هو عبارة عن حجر كبير متآكل قليلاً من الجهة اليسرى ويصل طوله إلى ١٠,٨ مترا (حوالى $\frac{1}{4}$ ٣٣ قدما).

ولقد قلت إن هذه الأحجار ربما تكون مستخرجة من الجبل الليبى إلا أن بيسا - المدينة المصرية القديمة والتى تقع على الضفة الأخرى من النهر - لديها

(١) وفقًا لسيكارد فإن الأعمده تتكون من ثلاثة أجزاء، وأعتقد أنه لم يلاحظ القواعد الظاهرة هذه الأيام أو أن أثناء رحلته لم يكن السطح الخارجى للأعمدة قد تم تدميره أثناء رحلته .

أيضًا الكثير من التراث الذى يمكننا تأمله اليوم بإعجاب، وربما تكون هى الأخرى قد زودت هرموبوليس بمواد مماثلة للبناء.

ولا نستطيع - قط - أن نحدد الحالة التى أصبح عليها هذا الأثر الآن لأننا حتى لم نحاول إعادة رسمه؛ ولكن الشىء المؤكد هو أن هذا الرواق فى بداية تشييده كان يضم ثمانية عشر عمودًا وربما أربعة وعشرين كما هو الحال فى دندرة. ونستطيع افتراض إنشاء صالة أعمدة بعد ذلك وتؤدى إلى عدة حجرات وإلى قدس الأقداس.

ونستطيع أن نتساءل ما إذا كان هناك صرح فى مدخل المعبد؟ ما من دليل على ذلك، على الأقل فيما يتعلق بالأطلال الموجودة حاليًا؛ لأن الأنقاض الموجودة وسط المعبد متباعدة للغاية حتى نستطيع القول بأنها بقايا هذه الأبواب الأمامية.

وإننا نأسف لتدمير معبد الأشمونين لأن تكوينه وكل أجزائه كان لها بالتأكيد طابعًا خاصًا وهذا ما يؤكده التصميم الفريد للرواق؛ فكل المعابد لها على الكورنيش وفوق المدخل قرص مجنح كبير يمتد من أحد الأعمدة فى الوسط إلى العمود الآخر؛ لكن فى هذا المعبد لا يوجد أى قرص مجنح فالكورنيش بطوله الكبير مزخرف بانتظام بخراطيش موضوعة على أوانى ومتوجة بأوراق وملتحمة ببعضها البعض، وفى الفراغ الوحيد القائم بين الأعمدة الوسطى وبين مركز كل عمود وعمود آخر يوجد منها ستة وعشرون؛ هذا هو النموذج الوحيد لمبنى مصرى لم تتم زخرفة واجهته بقرص مجنح، وهذه الخراطيش لا توجد إلا على الطبليات والأجزاء الوسطى، وأخيرًا يمكننا القول بأن هذا المعبد هو الوحيد الذى ينطوى فى الرواق على أعمدة من مثل هذا النوع.

وأعمدة هرموبوليس مزينة بأشكال مغزلية وأضلاع مثل معابد الأقصر وممنون وكذلك الفنتين وتاج العمود يأخذ شكل زهرة اللوتس المقطوعة. ويطوق الأشكال المغزلية ثلاث حلقات كل منها يتكون من خمسة أطواق زخرفية، وفى الأسفل والوسط يصل عددهم إلى ثمانية وفى الأعلى هناك اثنان وثلاثون شكلاً مغزليًا.

وعـدد تيـجـان الأعـمـدة الموجـود على الجـوانب يصل إلى ثمـانيـة. والجـزء السفلى من الجذع دائرى وقطره يقل قليـلاً عن مـحيط الثلث الأول؛ وهو عـبارة عن تقليد لساق اللوتس، والأفـريز يتكون من لوحتين حولهمـا إطار هيـروغليفى تمثلان القرابين المقدمة لآلهة مصر، وفى هذه اللوحات تأخذ رأس الإله الرئيسى شكل طائر أبى منجل و ـ أحـيـانا ـ الصـقـر، وفى أعلى الجـذع هناك نقـوش هيروغليفية والأسقف مزينة بنجوم صغيرة جدًا ومتراصة بجانب بعضها، تحت السقف وفى الوسط هناك أشكال لطيور ترفرف بأجنحتها.

ومما يثير الدهشة ـ بالإضافة إلى الحجم الهائل لتلك الأعمدة ـ هو احتفاظ المعبد بألوانه البراقة؛ فتيجان الأعمدة مزينة باللون الأصفر والأزرق والأحمر، والخراطيش على الكورنيش تأخذ اللون الأزرق الزاهى، والأسقف غير ملونة[١] أو على الأقل فألوانها غير مرئية..!!

وبعد هذه الفقرة سوف أدلل على التناسق الذى تتمتع به كل أجزاء رواق هرمـوبوليس وبين كل جزء والآخـر؛ وهذا الانسـجـام يدهشنا مـثله مـثل بقـيـة الأبنية...!! هذا إلى جانب الأبعاد التى تطابق ـ تمامًا ـ كل المقاييس المصرية، ولن أسهب فى الكلام عن هذا الموضوع ولكننى سأكتفى بتجميع النقاط الأساسية فى الجدول التالى:

---

(١) فى عهد سيكارد كان سقف المعبد مطليًا بالأزرق السماوى ولكنه لم يرى أية رسومات على الكورنيش وهو أمر غريب ولكنه قال فى المقابل إن أسفل العتب مطلى باللون الذهبى الذى يبهر العين.

الأبعـــــاد	الطول بالمتر	بيان الأبعاد
ارتفـاع المداميـك	٠,٥٦	١
القاعدة المفترضة	»	١ ١/٢
النتـوءات	١,٦٨	٣
الأطواق الزخـرفية أعلى النتوءات	٠,٨٤	١ ١/٢
المنطقـه الوسطى لجذع العمود............................	١,٢٤	٤
الـروابط الوسطى	١,١٢	٢
جزء الجذع حتى الـ ٣٢ تضليعة	٢,٢٤	٤
الأطواق السفلية	١,١٢	٢
تاج الـعـمـود..	٣,٣٦	٦
الـطـبـلـيـــة..	٠,٥٨	١[١]
الخـرجات المفترضة	»	٥
الارتفاع الكلى للعمود..	١٣,٨٦	٢٥
الارتفـاع الكلى	»	٣٠
قطـر الأعـمـدة	٢,٨	٥

ووفقًا للذراع الذى قدرناه ب٤٦٢ ملليمترًا يصبح من اليسير علينا تقدير ارتفاع الأعمدة ب٣٠ ذراعًا وقطرها ب٦ أذرع، أما الارتفاع الكلى فيصل إلى ٣٦ ذراعًا؛ هذه الأرقام تطابق - تمامًا - السنار وهى أساس نظام القياس المصرى القديم[٢].

(١) يستلزم ٢ سنتيمترا. انظر اللوحه ٥٢ للشيخ عبادة، المجلد الرابع.

(٢) انظر دراستى عن نظم القياس عند المصريين القدماء .

المبحث الخامس: ضواحى الأشمونين

قبل أن أنهى هذا الوصف سوف نقوم بجولة فى أرجاء المدينة التى وجدت فيها بعض المواقع القديمة ذات العلاقة بهرموبوليس؛ ولكننى لن أشير إلى الأماكن الأخرى فى مقاطعة بنى حسن لأننا سوف نتناولها فى الفصول التالية، وتقع أولى هذه المواقع فى الشمال على مسافة بعيدة[١]؛ غير أن اسم ايبيو لمدينة أبيس كان بالضرورة مرتبطًا بشعائر العبادة فى هرموبوليس التى كانت تتبع مقاطعة هرموبوليتان، واسمها الحالى هو " طحا العمودين. وتضع خريطة " المسار " ايبيو على بعد ٢٤ ميلاً شمال هرموبوليس مما يوازى ٨ فراسخ بزاوية ٢٥[٢] بدلاً من ١١ إلى ١٢ فرسخ وهى المسافة من "طحا" حتى الأشمونين.

فى قرية "طحا" وفى جنوبها الغربى هناك كتلة من الأنقاض المرتفعة والممتدة بمساحة خمسة إلى ستة أمتار تقريبا، وتبدو القرية نفسها وكأنها أنشأت على الأنقاض، وفى أحد أطرافها وجدت عدة أعمدة من الجرانيت والحجر الجيرى مختلفة المحيطات؛ بعضها صغير وتم بناؤه بطريقة سيئة، وهناك حوالى خمسة أو ستة أعمدة من الجرانيت، ولقد استنتجت أنها بقايا كنيسة مسيحية تم بناؤها من أنقاض آثار قديمة والتراث يؤيد هذا الرأى، ويوجد - أيضًا - على ضفة القناة الكبيرة - التى تغمر الأنقاض - حجران كبيران يبدو أنهما سقطا من أعلى كتلة الأنقاض، ويجهل شيوخ القرية الاسم القديم لهذا المكان غير أنهم قالوا أن اسمها الحالى يرجع إلى الأعمدة التى نرى أنقاضها اليوم.

ولا أجد هنا سوى القليل من أطلال مدينة ايبيو غير أن هناك أسفل اتسا على نهر النيل وعلى بعد سبعة آلاف وخمسمائة متر فى الشمال الشرقى قرية يطلق عليها " بيوم " يتوافق اسمها مع الاسم الإغريقى القديم وسكان هذه القرية يطلق عليهم " البيومى "، وقد زعم البعض منهم أن هذه القرية حديثة. وهناك

---

(١) ٦ ميريامتر .

(٢) تقع هذه المواقع الثمانية بالضبط فى المنيا، وفى بقية الأماكن لم أر سوى الأطلال القديمة، وقد يكون هذا المسار خطأ حيث كان علينا قراءة ٣٤ بدلاً من ٢٤ . فى الواقع فإن ٣٤ ميلاً توازى ١١ فرسخا و ثلث .

كتلة أخرى من الركام مجاورة (ثلاثة آلاف متر شمال طحا والسد) تحمل اسم كوم العمودين ولا نجد فيها ما يدل على أنها أنقاض قديمة ولكننا نجد بعض الأنقاض من الأوانى الفخارية والطوب[١].

وفى شمال الأشمونين وجنوب قناة يوسف هناك أنقاض مدينة تانيس التى يتحدث عنها استرابون. والاسم الحالى لقرية " تونيه " التى قامت على هذه الأنقاض لا يدع مجالاً للشك فيما يتعلق بموقعها ويطلق عليها - أيضًا - تونة الجبل. وقد يكون ذلك هو استكمال التمييز الذى قمنا به بين مسمى تانيس فى الوجه البحرى وتانيس فى الصعيد. ويقول استرابون إن القناة التى تجرى فى الصعيد تؤدى إلى تانيس، ونحن نرى أن أنقاض هذه الأخيرة توجد فى غرب قناة يوسف غير أنها قد تكون تم نقلها إلى الشرق مع مرور الزمن. وقرية اتقا هى الموجودة حاليًا على نفس القناة وتقع تونة على بعد ألفى متر - تقريبًا - من حدود الصحراء، وقد قامت القرية جنوب المدينة القديمة، وبدلاً من الأنقاض وجدت هناك بقايا جدران من الطوب الأحمر لاتزال قائمة حتى اليوم مع بعض الركام من الأوانى القديمة. وحجم الطوب صغير ولكنه صنع بإتقان وقواعده متسقة. وفى الشمال بالقرب من إحدى الحدائق رأيت حوالى خمسة عشر حجرًا كبيرًا منقوشًا ومطموس المعالم: قد تكون لأحد المعابد. غير أنه ليس هناك ما يؤكد تلك الافتراضات، والعديد منها يأخذ شكل الأعمدة، ويصل قطر أحدها الذى لايزال قائمًا إلى حوالى ٢ متر، وبدلاً من استغلال الجبل يقوم السكان بتكسير تلك الحجارة لتحويلها إلى جير، وهناك - أيضًا - بعض الأحجار المنقوشة الأخرى جنوب تونة بالقرب من أحد المستنقعات تبرهن على أن المدينة امتدت فيما مضى إلى هذه الحدود. ويؤكد الأهالى أن هذه الأعمدة لم يتم نقلها من أى مكان آخر إلى هذا الموقع.

وقد قام قدماء المصريين باستغلال الجبل الليبى المواجه لتانيس. ولقد شاهدت هناك بعض المحاجر وإحدى المقابر وتوجد البوابة فى الواجهة المقطوعة

---

(١) لا نجد مدينة أبيبو إلا على خريطة "المسار"؛ إلا إذا وجدناها فى مرجع اتيان البيزنطى، مكتوبة بحرف "B" بدلا من "P".

عموديًا والمصقولة، ولا تظهر الحجارة إلا فى هذه المنطقة من الجبل لأن الكثبان الرملية غطتها فى معظم الأماكن الأخرى؛ وبالقرب من هذه المغارة القديمة تهبط السلسله الجبلية نحو أحد الوديان القديمة المردومة؛ وقد أنشأ الأعراب على ذلك الوادى طريقًا تؤدى إلى الواحة الصغيرة وتؤدى ـ أيضًا ـ إلى البهنسا والفيوم.

وبين أنقاض تونة وقمة الجبل وبالتحديد فى مواجهة الفتحة الموجودة داخل الصخرة توجد بعض الأنقاض التى أخفتها الرمال حاليًا مثل الجدران المصنوعة من الطوب الأحمر ذات الأحجام الصغيرة والمتناثرة بالتناوب بين الحقول والأراضى المنبسطة، ونجد فى الجوار أجزاء من المرمر والرخام المصقول، وكميات من الأحجار المنقوشة والمقطوعة وكتل من الأسمنت الجاف مصنوعة من الحصى والجير؛ هذه الكتل مصقولة من الخارج وتأخذ نفس لون الطلاء المستخدم فى الأحواض المصرية فى الوقت الحالى. وتدل طبيعة أحجار الأنقاض التى رأيتها فى تونة على أن الجبل الليبى الذى يقع فى هذه البقعة يتكون من أحجار منقوشة، وعلى بعد ثلاثمائة أو أربعمائة متر ومن جميع الجهات يوجد الطوب وبقايا أوانى بين الكثبان الرملية، ولا تُعرف هذه الأنقاض باسم معين ويُطلق عليها الأعراب الاسم الشائع " دير " وقد قيل لى إن هناك الكثير منها فى الجبل.

ولنتحدث بإيجاز عن الموقع الذى يطلق عليه "بابين " حيث توجد الأهوسة على قناة يوسف والتى قال عنها الرحالة إنهم شاهدوها فى شمال تانيس، ولقد أردت التحقق من هذا الاسم ومن وجود هذه "الأبواب" فلم أكتفى بسؤال الشيوخ وسكان المنطقة ـ أولئك الذين يجهلون حتى اسم "بابين" ـ ولكننى قطعت القناة خطوة خطوة ولم أر أى أثر لأى بناء.

ولقد حدثنى بعض الأعراب عن موقع بهذا الاسم يوجد فى غرب "ديروط أشمون " تقريبًا على قمة الجبل ولكن هناك بابان لمقبرتين محفورتين داخل الصخرة يؤديان إلى قاعات مليئة بالأعمدة، وهناك بالتأكيد فى المناطق المحيطة موقع مماثل لهذه القمم الجبلية؛ غير أننى لم أشاهد أيًا منها ولم يحدثنى أحد عن مكان يضم آثارًا قديمة، وهناك بعض أهالى من تندة والبدرمان ذكروا لى

موقع باسم" مدينة البابين " ولكنهم لا يعرفوا عنها سوى اسمها. فمن المؤكد إذن أن الأهوسة المزعومة ليس لها أى وجود وأعتقد أن المعنى العربى لكلمة "بابين" هو الذى أوقع الرحالة فى هذا الخطأ.

يبقى لى الحديث عن موقع ذكره لنا استرابون تحت اسم هرموبوليتكا فيلاس وهذا هو نص حديثه: "تقع أوكسيرنخوس بعيدًا عن النيل وتليها هرموبوليتكا فيلاس وهو موقع يدفع فيه التجار رسومًا على بضائعهم الواردة من الصعيد، ونبدأ من هذه النقطة القياس بالشون الذى تصل كل وحدة منه إلى ستين غلوه - حتى أسوان والفنتين، ثم تأتى بعد ذلك طيباياكا فيلاس والقناة المؤدية إلى تانيس". ويمكننا التساؤل ما إذا كان هذا الموقع الأول موجودًا على النيل كما قدره بطليموس[(١)] أم على القناة الكبيرة؟ ولم يقدم استرابون أى تفسير عن هذا الموقع بالتحديد. وإذا كان الموقع المماثل الذى يحمل اسم طيباياكا فيلاس مخصصًا للسفن القادمة من الصعيد فمن الطبيعى جدًا أن الموقع الأول كان له نفس الاتجاه بالنسبه للسفن القادمة من منف ومن مصر الوسطى عن طريق قناة يوسف، والملاحة فى هذه القناة كانت لها أهمية خاصة فى الماضى عن الوقت الحاضر، وقد أبحر فيها استرابون والطريقة التى يسرد بها روايته تجعلنا نعتقد أنه اعتبرها فرعًا من النيل حتى أنه لم يتحدث عن النهر الكبير.

وقرية ديروط أم نخلة - التى تسمى - أيضا - ديروط أشمون والتى تقع بجوارها كما رأينا أطلال من العصور القديمة - ربما تكون قد تشيدت على الموقع القديم لقصر هرموبوليتان كما كان موقع ديروط الشريف (ووفقًا للمسيحيين ديروط سرابامون) - التى تقع فى مدخل القناة - هو نفسه موقع طيباياكا. والاسم الشائع لدروة يبدو أنه يقابل الاسم القديم لفيلاس؛ فدروة سرابام تقع على حدود الصعيد مصر الوسطى، وديروط أشمون تقع بالقرب من الصحراء

---

(١) يفترض بطليموس أنه على خط عرض ١٥َ ٢٨° وهرموبوليس على خط عرض ٢٦َ ٢٨°- اى بفارق ١١ (أكثر من ٢٠,٠٠٠م) وهذه المسافة تناسب ديروط الشريف التى تقع فى اعتقادى مكان طيباياكا فيلاس، ولم يذكر بطليموس أيًا من هذين الموقعين، على الرغم من أن الموقع الأخير كان يقع أمامه؛ فالفقرة ذكر فيها - فقط - لفظ فيلاس دون هرموبوليتانا.

تقريبًا فى مواجهة الأشمونين وشمال تانيس، وأخيرًا يمكننا القول إن تسمية أشمونين قد تعنى نفس الشىء أى هرموبوليتان لأن الأشمونين - كما سنرى لاحقا - هى ما تبقى من التسمية القديمة للمدينة؛ وهو اسم فرضه الأغريق.

وفى شمال الأشمونين هناك موقع يطل على القناة يتكون من قريتين متجاورتين يطلق عليه قصر حور، والكلمة الأولى لها نفس المعنى بالفرنسية - أى قصر والثانية "حور" تعبر عن اسم مصرى قديم، قد نستطيع البحث فى هذا الموقع عن قصر هرموبوليس القديم.

واذا كنا نفترض وجود موقع هرموبوليتان على النيل واستنادًا إلى أن الأقباط يتحدثون عن ميناء شمون نستطيع أن نقترح ثلاثة مواقع لهذا المكان: الأول عند منبع ترعة السباخ حيث أشرت أعلاه إلى وجود دير هناك، والثانى عند الرايرامون وهو منبع ترعة تتجه إلى الأشمونين، وأخيرًا الموقع الثالث يوجد عند ملوى حيث يمر النيل فى القرن الأخير؛ ولكننى يجب أن أقول إنه ليس هناك وجود لأى أطلال ترعة فى الموقعين الأولين والثالث ليس به أى كتل ركامية.

ونحن أقل تشككًا فيما يتعلق بموقع طيباياكا. فمن المؤكد أن دروة سرابام - إحدى القرى الغنية اليوم بثروتها وبتعداد سكانها - هى مقرالموقع القديم؛ فهناك داخل المسجد المطل على القناة عشرة أعمدة قديمة من الرخام الأبيض وعمودان حلزونيان، وتيجان الأعمدة كورنثية و لكن العمل فظ و يبدو أنه من طراز عربى. وفى حوش سليم أغا رأيت قاعدة تمثال من الرخام لها نفس الطراز وأخرى أحادية الحجر من الجرانيت وهو عمل مصرى اكتشفه الفلاحون قبل الحملة بخمسة عشر عامًا عندما كانوا يقومون بالحفر بالقرب من الحديقة ويستخدم اليوم كمدرجة سلم.

وشريف البلدة هو الذى روى لى هذه القصة، وحدثنى آخرون باكتشافه فى كوم القصير وهو تل يطل على القناة شمال ديروط وتبلغ قاعدة التمثال الأحادية ٣٦ بوصة ارتفاعًا، ٣٢ عرضًا و٣٠ عمقا، وهناك مشكاة تم حفرها فى الداخل والواجهة مزينة بكورنيش و يطوقها شريط زخرفى.

ويقول المسيحيون من جهة أخرى إن سرابام هو الاسم القديم لهذا المكان ولم يتغير على مدار الزمن، وأضافوا إنها كانت فيما مضى مدينة أغريقية (رومانية)[١] ويطلق عليها المسلمون بلد كوفرى وهذا هو الحال بالنسبه لكل الأنقاض المصرية، وأخيرًا، ليس هناك ـ كما فى المدن القديمة ـ تلال تغطيها الأنقاض أو أى أثر لمبانى من الطوب الأحمر مهدمة.

ومما يؤكد روايات المسيحيين هو وجود دير قديم يطلق عليه دير أبى سرابام شاهدته بالقرب من ديروط، وهو عبارة عن مكان مربع محاط بأسوار يتم فيه دفن المسيحيين الموتى من القرى المجاورة، وكان خادم الكنيسة رجلاً شديد الفقر يحيا على الصدقات ولم يكن هناك أى قساوسة فى الدير[٢].

وتعداد المسيحيين فى ديروط ضئيل، وتعتمد حياة حوالى عشرين منهم على الصدقات و يزاولون مهنة الفلاحة، والدير أقدم بكثير من القرية نفسها التى كان يقطنها الإغريق قبل أن يتمركز فيها المسيحيون، وكان يطلق عليها دروة سرابامون ـ ودروة كما قيل لى كانت تعنى المكان المسور الذى يقطنه بعض السكان[٣] أما سرابامون فهى كلمة تتكون من مقطعين سراب وآمون[٤] وهكذا كما نرى فإن دروة سرابامون هى كلمة مختصرة ومحورة؛ فقد وقع إذن دانفيل والذين سبقوه فى خطأ مزدوج عندما اعتقدوا أن دروة الشريف تعنى القناة

---

(١) يطلق الأقباط على هذا المكان بلد الرومان ـ أى المقر القديم للأغريق وليس الرومانيين كما اعتقد جابلونسكى اما روم أو رومان هو الاسم الذى يطلقه الأقباط على الأغريق، ويجب عدم الخلط بينه وبين رمّان التى تعنى نوع من الفاكهة.

(٢) يوجد فى الداخل بعض أشجار الدوم ونخلة كبيرة و شجرة جميز.

(٣) اشتق بعض العلماء كلمة دروة أو ديروط من TΣPWT وهى كلمه قبطية تعنى اشتقاق. (مصر فى عهد الفراعنة، الجزء الأول ص ٢٠) و ترعة فى العربية لها نفس هذا المعنى تقريبا فى الوقت الحالى. وهو الاسم الذى يطلق على القنوات.

(٤) أعطى المصريون القدماء اسم آمون إلى جوبيتر (هيرودوت التاريخ، الكتاب الثانى، الفقرة ٤٢). هذه الأسماء المركبة للآلهة المصرية نصادفها كثيرًا؛ فتجدها فى المخطوطات القبطية، وقد اقرها المسيحيون؛ فهناك أحد القديسين الزاهدين يسمى سرابامون أطلق اسمه ـ وفقًا للمقريزى على إحدى الكنائس المجاورة؛ لديروط اتيان كاترمير: ملاحظات حول بعض النقاط الجغرافية لمصر، الجزء الأول، ص١٣).

النبيلة أو قناة شريف البلدة[١]، وهذا اللفظ ليس تحريفًا لمصطلح ترعة الشريف. فكلمة دروة هى التى تم استبدالها بكلمة ديروط وأضافوا إليها كلمة الشريف وذلك يرجع إلى أن شريف البلدة اتخذها مقرًا له، وهكذا فإننا نستبعد ما ورد مسبقًا من أن قناة يوسف كانت تسمى قناة النبى، ونحن ندرك الآن - مما لا يدع مجالا للشك - أن هذه التسمية هى اشتقاق طبيعى و ربما تكون فرعا قديما للنهر؛ ذلك الفرع الذى كان فيما مضى هامًا للغاية[٢].

وفى قرية ديروط نفسها هناك القليل من المعالم عن المدينة القديمة. وقد قيل لى أنه قبل الحملة بثلاثين عاما كانت هناك كنيسة قديمة تلتها أخرى أصغر حجما. وقد رأيت قاعتين مستطيلتين أو ثلاث على الخريطة المشتركة للكنائس المصرية[٣] ولم يستطع أحد أن يؤكد لى وجود حصن داخل هذا المكان كما هو المفترض وجوده فى طيباياكا فيلاس، وغابة النخيل القريبة منها بها العديد من الطوب الأحمر - أنقاض مساكن قديمة - اعتاد الفلاحون على جمعه لاستخدامه فى البناء.

وسوف أذكر هنا أجاثا رشيد و هى إحدى المقاطعات الخمس الواقعة بين منف والصعيد التى يطلق عليها - أحيانًا - فيلاكًا و - أحيانًا - أخرى شديه ويتم فيها تحصيل الجباية على البضائع القادمة من الشمال، ولا توجد أطلال أخرى لمقاطعة تحمل هذا الاسم غير أن لفظ شديه المشترك فى الموقع مع بحيرة مريوط بالقرب من الإسكندرية تتيح لنا نوعًا من هذا التقارب[٤].

وأختتم بقولى إن الحصن الذى تحدث عنه استرابون تحت اسم طيباياكا فيلاس كان يقع ليس فى ديروط نفسها أو دروة الشريف ولكن فى دروة سرابامون؛ حيث كانت هناك منطقة سكنية ليست ببعيدة عن الدير الحالى ويطلق عليها بعد الاختصار دير أبى سرابام، والموقع الآخر الذى أطلق عليه الإغريق

(١) يطلق هذا الاسم على المسلمين، فالشريف هو - دائمًا - شيخ البلد فى القرية .

(٢) انظر دراستى عن بحيرة موريس .

(٣) المربع كان محاطا بدعائم مغلقة وتملؤه الحشرات مما يجعل إقامة الأجانب فى هذه الكنائس غير محتملة.

(٤) الكتابات الجغرافية.

هرموبوليتانا فيلاس كان - حسبما أرى - فى قصر حور أو فى دورة أشمونين التى يجب أن نطلق عليها دروة أشمون، وهو المصطلح الذى يعنى مكان سكنى[١].

المبحث السادس: مقارنات وخاتمة

لا يجب أن نبحث فى تسمية هرموبوليس - وهى التسمية الإغريقية تماما - عن الاسم الحقيقى للمدينة المصرية؛ فاسم الأشمونين الحالى ربما يكون هو الأقرب للاسم القديم، ولفظ شمون يبدو لى أنه تكملة الكلمة القديمة بالتأكيد لأن الأهالى حدثونى بأن هذا المكان كان يطلق عليه فيما مضى مدينة أشمون، وهو يشبه كثيرًا كلمة شمون التى تعنى بالإغريقية شميس أى اسم إله مصرى وفقًا لديودور الصقلى وآخرين. وشمون تقع فى الوجه البحرى بالقرب من المدينة القديمة منديس والتى تسمى قناة منديس باسمها، وفى الصعيد خلفت مدينة أخميم مدينة خميس القديمة وهى مدينة بانوبوليس الإغريقية.

ومدينة أشمون هى التى تقارب فى كل المخطوطات المسيحية اسم هرموبوليس ماجنا[٢]، وقد أضاف العرب حرف الألف فى بداية الكلمات مثل أخميم - أسوان - اسنا - والعديد من الأسماء الأخرى لملائمة الألفاظ للسمع.

واسم دروة أشمون - القرية التى تقع فى مواجهة الأشمونين - يدل على أن هذه التسمية أطلقت على كل هذه المنطقة المصرية؛ وربما تكون هى ذاتها تسمية مدينة هرموبوليس. وأخيرًا فإننى لن أبحث فى خفايا اللغة المصرية القديمة عن مغزى كلمة أشمون (شمون وفقًا لجابلونسكى) فهى محاولة قام بها هذا العالم دون نجاح يذكر[٣].

---

(١) دوارات هى جمع لكلمة دار التى تعنى المنزل أو المسكن .

(٢) انظر البحوث عن "مصر" بقلم اتيان كاترمير التى أورد فيها الكثير من النصوص القبطية. انظر أيضا "مصر فى عهد الفراعنة" بقلم شامبليون.

(٣) يفسر جابلونسكى كلمة شمون بالثامن، كما لو أن ماركورس هو الإله الثامن الذى أضيف إلى السبع كواكب الأخرى وكما لو أنه ليس واحدا منهم. انظر "آلهة المصريين" ص٢٠٠ وما بعدها. والقرية التى توجد بها أنقاض هذه المدينة الكبيرة تحمل اسم " نفس الأشمونين" وليس أشمونين. فكلمة " نفس " تعنى الروح والفعل نفس له عدة معانى منها: التنفس - الاعتقاد - البريق ... الخ.

وفى كتابه عن ايزيس قال بلوتارخ: إن البعض جعل من هذه الربه ابنة چحوتى هيرمس والبعض الآخر ابنة بروميثيوس لأن الأول كان مصدر الحكمة والفطنة والآخر كان مبتكر علم القواعد والموسيقى، ولهذا تم إطلاق اسم إيزيس وجوستيس على أولى هذه الربات التى تعنى الحكمة والتى تعلم الشعائر الإلهية إلى هيرافور وإلى هيراستول الذين أطلق عليهم هذا اللفظ نسبة للملابس أو الأشياء المقدسة التى يرتدونها[١].

والفقرة السابقة توضح لنا لماذا تم تمجيد چحوتى هيرمس فى هرموبوليس؛ ففى كل المعابد كانت ايزيس وأوزوريس يمثلان العبادة الكونية لكن تحوت أو چحوتى هيرمس المصرى الذى نعزى إليه اكتشاف الحروف والعلوم والفنون كان بالنسبة لشعبه مصدر النظام والعدالة التى تتفوق على اقتصاد المجتمع. وكان لأهل هرموبوليتان عبادة خاصة لچحوتى هيرمس وقد تم نذر بعض الحيوانات له مثل أبى منجل والقرد؛ غير أن الخبراء فى معرفة الرموز أدركوا أن هذه الشعيرة كانت فى الواقع تجرى تكريمًا للربة أم الفنون والعلوم، وأولى الربات وفقًا لبلوتارخ الذى قام - فى نفس المرجع السابق - بتجميع العديد من التفاصيل المشوقة عن الديانة المصرية؛ فهناك - كما يقول - فى هرموبوليس نقش فرس النهر - رمز الشر - وفى أعلاه يوجد الصقر وهو يحارب الثعبان[٢] وقد يكون من اليسير أن نجد خاصة فى بيت الولادة رواية مماثلة ولكن الدمار الذى لحق بمعبد هرموبوليس لم يسمح لنا بنقل كثير من أعمال النقش لكى نجد الشعار الذى ذكره بلوتارخ والذى يسهل علينا تفسير معناه[٣].

وأليان - بعد أن نقل لنا الأهداف التافهة لنذر أبى منجل لجحوتى هيرمس يقول - وفقًا لأبيون : «إن حياة ذلك الطائر كانت طويلة للغاية»، ولقد أضاف قائلا - «إن كهنة هرموبوليس دلوا أبيون على أحد هذه الطيور الخالدة[٤]».

---

(١) انظر بلوتارخ " ايزيس و أوزوريس".

(٢) بلوتارخ "نفسه" الفقرة ٥٠٠ .

(٣) انظر وصف ادفو، الفصل ٥ المبحث السابع، واللوحه رقم ٦٤، المجلد الأول التى نرى فيها صقرًا رمزيًا بجسد أسد يطأ ثعبانًا بقدميه.

(٤) اليان - الطبيعة الحيوانية، المقطع ٢٩، لندن، ١٧٤٤.

ولقد رفض اليان تصديق هذه القصة واحتمال حدوثها؛ ولكن من منا لا يرى فى هذه الروايات الفكرة البسيطة المتمثلة فى معرفة مصدر ألوهية الفنون والعلوم التى ابتكرها چحوتى هيرمس الذى يرمز إليه أبو منجل الطائر الحى؟ وسوف أسهب فى الكلام وأفترض أن أبا منجل الخالد الذى اظهروه لأبيون كان أحد وجوه تحوت برأس أبى منجل الذى تم نقشه كثيرًا على الأعتاب فى معبد هرموبوليس، هذا الوجه الذى يعبر عن أحد آلهة مصر لم يكن غريبًا أن يصفه الكهنه بالخلود، وعلينا فى نهاية الأمر التسليم بأن حياة أبى منجل والصقر كانتا طويلتين بصورة غير مألوفة.

وفى إحدى حوارات أفلاطون (فيدرا) قال سقراط: لقد علمت أنه - بالقرب من نقراطيس - كان يتم نذر أبى منجل للإله المعبود الذى يطلق عليه تحوت وهو الذى ابتكر الأرقام، الحساب، الهندسة، الفلك، لعبة الحظ والحروف الأبجدية.

ومع هذا الموقع المسمى ايبيو يصبح لدينا ثلاثة أماكن مصرية تم فيها تمجيد أبى منجل، و كانت مدينة هرموبوليس - وفقًا لهيرودوت - هى المدينة التى يتم نقل هذا الطائر إليها[1].

وسوف أؤكد هنا على العلاقة بين أبى منجل والإله تحوت أو چحوتى هيرمس وهى العلاقة التى تفسر روايات المؤرخين القدماء عن هرموبوليس ماجنا و ايبيو. لقد قام مؤلف كتاب " التاريخ الطبيعى والأسطورى " لأبى منجل (كتاب سبق وذكرناه) بتجميع كل التفاصيل التى تصف هذا الطائر بعناية ومن الصعب علينا إضافة أى شىء فى هذا الصدد؛ غير أن التكريم الذى حظى به أبى منجل فى مدينة چحوتى هيرمس الكبيرة جدير بأن نوليها اهتمامًا خاصًا؛ فلقد اخترع هيرمس - وفقًا لديودور الصقلى - الأرقام و الحساب و المقاييس، ويبدو أن نظام المقاييس حظى باهتمام خاص لدى قدماء المصريين بحيث أصبح له إله برأسه و كان هناك عضو من أعضاء جماعة الكهنوت مسؤولاً بصفة

---

(١) هيرودوت - التاريخ - الكتاب الثانى، الفقرة ٦٧.

خاصة عن هذا النظام، وكان من بين الشروط اللازمة لشغل منصب كاتب معبد لچحوتى هيرمس الإلمام التام به.

وإذا كانت هناك علاقة ما بين أبى منجل والمقاييس كان من الضرورى إذن جذب أنظار المصريين إليه، ونذره لچحوتى هيرمس فى مدينة هرموبوليس حيث تم نقشه كثيرًا على الجدران، وفى ايبيو التى تحمل اسمه وفى مكان ما بالقرب من نقراطيس وفى منف على وجه التحديد تم تكريمه لدرجة أن هناك سراديب بأكملها مليئة برفاته المحفوظة بطريقة دينية فى أوانى وأغلفة مجهزة بطريقة فنية. ويقول چحوتى هيرمس إن نذره لا يثير الدهشة مطلقا.

ولقد ذكر أحد المؤلفين القدماء من قبل هذه العلاقة بين أبى منجل والمقاييس المصرية؛ فهو يقول - وفقًا لأليان - إن ساقا أبى منجل كانتا تتباعدان فى مشيته بمسافة ذراع، ونحن نعرف أن فصيلة هذا الطائر تتكاثر أثناء وبعد الفيضان، وكانت آثار أقدامه موجودة فى كل الحقول المغطاه بطمى النيل، ووفقًا للمقاييس المعتادة كان من اليسير عمل مسح للأراضى من خلال آثار هذه المشية (وهى فى الواقع طريقة بدائية إلى حد ما)، ولقد أثار فضولى معرفة ما إذا كانت المسافة بين خطوات هذا الطائر لها علاقة بمقياس البوصة المصرية وذلك من خلال النتوءات التى نحت عليها الطائر. ولقد كان أمرًا طبيعيًا أن يدرك المثالون - وفقًا لآراء المصريين - ضرورة نحت المسافة بين ساقى أبى منجل، وإذا ما تحققنا من هذا الأمر عن طريق إحدى المسلات الصغيرة المصنوعة من الجرانيت والموجودة بالقاهرة سوف نجد أن خطوة هذا الطائر المرسومة بربع أبعادها - فقط - تصل إلى ٠,٠٥٧٥م مما يعنى أن خطوته الطبيعية تبلغ ٠,٢٣١م أى نصف الذراع (٤٦٢ملليمتر)[١]. وإذا كان اليان قد واتته فكرة تحديد الخطوة بنصف ذراع لأصبح مقياسه دقيقًا للغاية. ولا أزعم هنا أن أبا منجل كان يمشى دائمًا وبصورة مؤكدة بهذه الخطوة التى توازى نصف ذراع؛ ولكننى أردت التذكير - فقط - بأن تلك هى المسافة التى تم نحتها على الآثار المصرية.

---

(١) انظر الدراسة حول نظم القياس عند قدماء المصريين، الفصل الخامس.

تلك هى الحقيقة التى استند إليها كليمينس السكندرى فى الفقرة التالية التى يقول فيها «إن أبا منجل هو الذى أوصى إلى المصريين بالفكرة الأولى عن الأعداد والمقاييس ولهذا فقد تم نذره للإله چحوتى هيرمس مخترع علم المقاييس والحساب». وسوف أذكر هنا جزءًا من بيت شعر فى مدح هيرمس تجدر الإشارة إليه : «آة يا هيرمس (أو ذو وجه أبى منجل) مرشد العقول، مخترع الحروف الأبجدية وكل أنواع المقاييس[١]». وهكذا فقد أصبح التقارب أكثر وضوحًا بين شكل أبى منجل وبين چحوتى هيرمس وبين الإله ذى رأس أبى منجل والمقاييس المصرية، وهذا النعت "ذو وجه أبى منجل" جدير بلفت الأنظار لأنه يعبر بصورة كاملة عن وجه تحوت الذى نراه منقوشًا على العديد من الآثار المصرية، وفى معبد هرموبوليس ماجنا ـ أى الإله ذى وجه الإنسان والمرتدى لقناع هذا الطائر.

وبعد كل هذه المقارنات التى استندنا فيها إلى الآثار المصرية ذاتها وإلى روايات المؤرخين القدامى[٢] فإننى أختتم قولى بأن المصريين قاموا بتشييد معبد فى هرموبوليس تخليدًا لتحوت أو چحوتى هيرمس المنسوب إليه اختراع الفنون والعلوم الأكثر نفعًا للمجتمع مثل: الحساب، الرياضة، الخط، النحو، الموسيقى، الهندسة، علم الفلك وعلم المقاييس، كما أنهم نذروا أبا منجل لهذا الإله المصرى كرمز حى له وتمجيدًا لمواهب هذا الطائر الفطرية والمرتبطة بإنجازات هذا الإله. وإننا نأسف لتقويض معبد هرموبوليس ماجنا فى الوقت الحالى إذ كان فى استطاعتنا اكتشاف العديد من الموضوعات التى تلقى الضوء على هذا الإله مصدر ورمز العلوم والفنون.

---

(١) أمتنع هنا عن ذكر كل مميزات طائر أبى منجل لأن سافينى عرضها بإسهاب فى أعماله.

(٢) لكى نختصر فى هذا الوصف، لم أستطع فى هذا المجال ذكر كل الفقرات المعروفه عن ديودور، أفلاطون، بلوتارخ وكليمنيس السكندرى..... الخ والمتعلقة بحچوتى هيرمس المصرى.

الفصل الخامس عشر
وصف الشيخ عبادة
بقلم السيد: چومار

المبحث الأول: ملاحظات عامة عن أصل الشيخ عبادة

عندما نتناول وصف مدينة مصرية رومانية الأصل تمامًا بعد أن تناولنا وصف المدن الرائعة للصعيد وعاصمته المتميزة نشعر بإحساسين متضاربين فى آن واحد: أولهما هو خشية الابتعاد عن فن الآثار المصرية، والآخر هو الإعجاب الذى ينشأ من قوة روما لتمكنها من تشييد عمارة - فى منطقة أجنبية - تختلف تمامًا عن عمارتها التى ظلت دون منازع تفرض نفسها لقرون طويلة؛ فقد استطاعت إرساء قواعد مدينة و تنفيذها فى بضع سنوات كما لو أنها كانت تقيم مبنى واحدًا و هى المدينة التى تعاقبت على طيبة، منف، أبيدوس، بطوليمايس، الإسكندرية و ظلت عاصمة للبلاد حتى الفتح العربى و انهيار الإمبراطورية.

وبالطبع فإن أنتينويه لا تحتوى على تماثيل ضخمة ومسلات وأعمدة عملاقة كما هو الحال فى طيبه ولكننا نجد المعابد والمقابر . و ثراء الزخرفة المعمارية أقل تنوعًا من الأعمال المصرية و ينقصها أخيرًا جسارة و معرفة و مهارة المشيدين المصريين؛ ولكن من منا لا تثيره عظمة هذا الشعب المحاط بالأعداء و يعمل على تشييد عاصمة بسرعة فائقة مليئة بالمبانى الغربية على أهل البلاد و مسارح مكشوفة و أقواس النصر و أعمدة هائلة و حمامات المياه المعدنية و ميادين الخيل فى إقليم كان يصعب عليه إخضاعه؟ ماذا عن تلك الشوارع الفسيحة الممتدة بطول المدينة التى تقسمها إلى اتجاهين و على كل جانب منها أعمدة هائله ؟ ما قولنا فى العديد من الأعمال الخارقة التى لا يقدر على

انجـازها سـوى الرومـان سـادة العـالم الذين دأبوا على تشـييـدها فى كل مكان و التغلب على كل العقبات الصعبـة وكانوا جديرين فى الواقع بقيادة العـالم؛ لأنهم قاموا برفع أنقـاض الآثار العظيمة وتشييد أعمالاً فريدة بدلاً منها ؟ فهل نتعجب إذن من انجـازاتهم فى مصـر بعد أن قاموا فى كل بقعة أخضعوها ببناء المدن و الكبارى ولطرقات والقنوات والسدود الرائعة ؟ وهذه المنشآت العظيمـة هى التى تعبر اليوم عن عظمـة هذه الأمة وتضاهى مجدها العسكرى وعبقـرية مفكريهـا؛ فقـد كان هـذا الشعب مـقـتنعًـا أن الذكـرى التى تتـركهـا الآثار هـى ذكـرى خـالدة ولذلك استمر الشغف بهذه الأعمال مع تتابع الملوك والأباطرة.

فقد خلف هادريان أمراء عدة قاموا بتشييد المبانى الفخمة فأخذ عنهم الذوق الفنى و أثبت جـدارة لا تقل عنهم فى هـذا الشـأن، ولم يكن هناك من هـو أعظم منه تشـيـيـدًا لـلآثار فى كل أرجـاء الإمـبـراطورية، ويذكـر لنا التـاريخ رحلتـه إلى مـصـر؛ فـقـد أذهلتـه عـادات هذا الشـعب المضمـحل الذى لم يتـبق له سـوى هذه العمـارة الأثرية؛فقد طواه الإغـريق فى طى النسيـان و دأبت روما على محـو كل ما هو قـائم قـبل وجودهـا، و تلاشت العلوم و العـبـقـرية المصـرية مـع هذا الاحتـلال السيـاسى، و لم يقدم هـذا البلد الخـاضع لأولئك الغـازين الجدد سـوى الأنقـاض الصـامتـة التى لا تسـتطيع التـعـبـيـر عن مـجدهـا . وعلى الرغم من ولع الرومـان بالعلوم فـإنهم لم يستغلوا عبقـريتهم فى اكتشـاف عبقـرية هذا الشـعب المهزوم و لكنهم انكبـوا علـى صنع حـاضـر جـديد لخلفـاء قـدمـاء المصـريين بدلاً من دراسـة أطلال قدامى فنانيهم ونمط أعمالهم، هـذه الأمة التى طالما عاشت لتخلد ذكراهـا للأجيـال القـادمـة ـ لم تهـتم ـ قط ـ بأمجـاد الأجـانب، فتحـقـيق العدالة للشـعب المهـزوم لم تكن أبدًا من الفضـائل التى تؤرق الرومـان إذ لم يكلفوا أنفسهم مـشـقـة إحيـاء ذكـرى الأمم الأكثـر شـهـرة منهم، و يـالهـا من شـعـوب مـحظوظة تلك التى خـضـعت لهم و لم يـعـمل ظافـروهـا على انتـهـاك قـوانين العـدالة بهـا فـى أحلك الظروف و تهديد مصالح أخرى غير المجد المكتسب من آثار قديمة !

ويـبـدو أن هـادريان ـ مـثله فـى ذلك مـثل من سـبـقـوه من أهل وطنـه ـ لم يدرك عبقـرية الأعمال المصـرية وحضارتهـا القديمة؛ مـصـدر حضـارة الإغريق وايطاليا؛

ولكنه تأثر بجمال عمارتها ورونق وعظمة آثارها؛ فزار طيبة و تعجب من أطلالها الشامخة التى كانت لاتزال باقية فى عصره كما لو أن أهلها هجروها حديثا وكما لو أنها عاصمة الدنيا التى أصابتها فقط بعض الكوارث . و كرحالة فضولى عمد إلى حفر اسمه على الآثار التى مر عليها لتشهد على رحلته إلى ضفاف النيل، وأمر بصك العديد من الميداليات التى تحمل اسمه تكريمًا له فى كل مقاطعات الأقليم .

و قد بهرته عظمة طيبة ـ مثله فى ذلك مثل جرمانيكوس، ولا شك فى أن تلك العظمة زادت من شغفه بالفنون وبكل ما هو جميل. و ربما تدين مصر لهادريان ببعض من هذه الآثار العظيمة التى تدل على فترة حكمه لها(١)، ولم يعمد هذا الإمبراطور إلى تقليد العمارة المصرية ولكنه اقتبس المبادئ الأساسية لهذه الأعمال مثل صلابة البناء وتناسق المواد المستخدمة ورفعة الأسلوب وعظمة التنسيق وتناسب الخطوط العريضة أى ـ باختصار ـ تناسق العمل ككل. فالآثار التى شيدها فى أثينا ـ ذات الذوق الرفيع و الأناقة الإغريقية ـ تشع بالعبقرية المصرية بأبعادها الكبيرة؛ العنصر الأساسى فى جمال العمارة .

هذا هو السبب الأول ـ فى اعتقادى ـ الذى دفعه إلى بناء (الشيخ عبادة) وليس تمجيدًا لذكرى هذا المحظى أو تمجيدًا لذوقه الجامح فى تشييد هذه المدينة. ولا أعتزم فى هذا الصدد تبرئة هادريان من التهمة التى أضرت بذكراه، لأنه كلما عظمت أنتينويه كلما أنطفأ مجد مؤسسها، ومهما يكن الشعور الذى يكنه هذا الأخير لانطونيوس فمن غير المعقول الاعتقاد بأنه شيد هذه المدينة تمجيدًا له؛ وإلا أصبح هذا العمل تخليدًا لعمل شائن ذاع صيته. وهناك أسباب أخرى وراء تأسيس أنتينويه؛فأنا أعتقد أن مبانى طيبه أوحت إلى هادريان بفكرة بناء مدينة ضخمة ذات أعمدة هائلة تنافس شوارعها الطرقات الفسيحة بين التماثيل الكبيرة، وكان من الضرورى كذلك إنشاء عاصمة جديدة بدلاً من القديمة؛ لأن إدارة جنوب البلاد كانت تستلزم وجود مقر كبير فى وسط مصر؛ فالإسكندرية

---

(١) انظر أعلاه ، المبحث ١٥ .

كانت تفى بالأغراض البحرية وأبيدوس ومنف تم تدميرهما وهيرموبوليس ماجنا التى كانت تتمتع بموقعها المتميز داخل البلاد تنهار يومًا بعد يوم و هى تطل على البحر المتوسط و ليس على نهر النيل ، و الاسكندر بنى مدينة كبيرة فى مصر، والإغريق شيدوا مدينة إغريقية بأكملها فى الصعيد ولهذا كان على هادريان أن يبنى مدينة لها طابع رومانى، فاختار موقعًا قديمًا بالقرب من أطلال مدينة تحمل نفس اسم الإله بسا الذى كان يعبد أيضًا فى أبيدوس(١) .

تلك هى الدوافع التي شجعت على بناء مدينة جديدة فى هذا الموقع في وسط البلاد مواجهةً لهرموبوليس فيما بين النهر والجبل العربي وتلك هى الأسباب السياسية التى دفعت ـ فى رأى ـ هادريان لهذا القرار و ليس حبه لانطونيوس. أما التماثيل التى شيدها له وزين بها المدينة والاسم ذاته الذى أطلقه عليها والتعظيم الذى شرفه به كل ذلك كان كافيًا ليبرهن على شغفه بهذا الأمير(٢).

ولم يكتف هذا الإمبراطور بتشييد مدينة فى مصر ولكنه أنشأ كذلك فى نفس الفترة مقاطعة أخرى و جعل من أنتينويه عاصمة لها، وبطليموس الجغرافى هو الذى نقل لنا هذه المعلومة الغريبة غير أن أى من الميداليات لا تحمل اسم هذه المقاطعة.

وأنتينويه لم تكن مقاطعة رومانية بحتة بل كانت تضم فيما بعد جالية إغريقية ـ و هذا هو ما نستنتجه من النقوش المخطوطة على الأعمدة الضخمة ـ تم تشييدها تمجيدًا لسيفروس الأسكندر وقد اكتسب بعض العادات و الطقوس الخاصة وحكم الإغريق الجدد أنفسهم وفقًا لقوانين خاصة بهم(٣). و سوف أتوقف عند هذه الملاحظات العامة عن مدينة أنتينويه لأتناول بالتفصيل تاريخ هذه المدينة.

---

(١) انظر اميان مارسلان، ووصف أبيدوس . الفصل ١١ .

(٢) ويحدثنا تيلمونت ـ نقلاً عن سبارتيان ـ أن هادريان شيد لهذا الإمبراطور معبدًا رائعاً فى مانتينيه بأركاديا ونظم على شرفه ألعابًا شعبية.

(٣) انظر فيما بعد المبحث السادس ودراستى عن «النقوش القديمة».

المبحث الثانى: ملاحظات تاريخية و جغرافية

أوردت فى الصفحات السابقة كل ما هو أقرب للواقع فيما يتعلق بنشأة أنتينويه ولكننى لم أذكر الملابسات التى دفعت لتأسيس هذه المدينة؛ غادر هادريان ايطاليا عام ٨٨٦ بالتقويم الرومانى و عام ١٣٠ ميلاديًا ليبدأ رحلته الكبيرة إلى الشرق، وفى عام ١٣٢ - العام الخامس عشر من حكمه - زار مصر التى تشوق لدراسة عادتها ومناخها وآثارها وعندما بلغ القلزم قام بتشييد مقبرة بومبى، ولم يعجبه أهل هذه المدينة؛ ففى خطابه الشهير لصهره سرفيان الذى أشاد فيه ببراعة و فطنة المصريين فى الفنون و تذوقهم للعمل أظهر انطباعاته السيئة عن أهل هذه المدينة لتفاهتهم و صخبهم إذ قال «أهل هذه الأمة عباقرة ولكنهم مغرورون ومضجرون»[١] وهو يعلم جيدًا كيف اضمحلوا قبل وأثناء الغزو الإغريقى لهم ، وحاول أن يحثهم على المشاعر الطيبة تجاه البلد الأم وهى المشاعر المكنونة منذ يوليوس قيصر؛ فمنح أهل الإسكندرية الامتيازات التى انتزعت منهم وأنعم عليهم بأفضال جديد؛ فزار المتحف وأكرم العلماء، ونظرًا لشغفه بالفنون والعلوم كان كثيرًا ما يجتمع بالأدباء والمثقفين[٢].

واصطحب معه فى رحلته - كما نعلم - انطونيوس ذلك الشاب الذى أحبه كثيرًا والذى غرق فى مياه النيل، وقال عنه البعض إنه انتحر نتيجة إخلاصه للإمبراطور وزعم البعض الآخر أن غرقه كان مجرد حادثة، ومهما يكن من تعارض هذه الأقاويل فقد أصابت هذه الحادثة هادريان بالألم الشديد فقام تمجيدًا له بتشييد الآثار فى المكان الذى توفى فيه و أطلق اسمه على المدينة التى شيدها فى نفس الموقع، وتم الحاق كل المؤسسات المرتبطة بالمستعمرات الرومانية بالمدينة التى تم بناؤها - كما قيل - فى ثلاث أو أربع سنوات وأصبحت فجأة فى أوج ازدهارها.

---

(١) انظر فيما بعد المبحث ١٥.

(٢) سار على نهج قيصر فى تكريم رفات بومبى وطاف بالصعيد بكل اهتمام وحرص على اكتشاف أسرارها ويقال أنه كان يأخذ الكتب التى كان يعثر عليها فى المعابد ويخفيها فى مقبرة الاسكندر.

وكانت تسمى - أيضًا - أنتينوبوليس وهو الاسم الذى أطلقه عليها بطليموس وحملت اسم أنتينو فى خريطة «أنطونيانوس» واسم انتينو فى نبذة هرقل واسم انتينوس فى كتاب القديس جيروم والبعض أطلق عليها AntivcEiα، ونظرًا لعدم وجود موقع رومانى بها - على الأقل فى فترة إعلان الإمبراطورية - فلم يتم ذكر اسمها فى هذه النبذة. و عندما جاب سيفيروس الأسكندر مصر فى عام ٢٠٢- هذا الإمبراطور المحب للفنون - أضاف بعض الآثار إلى المدينة الرومانية[١].

وزعم كل من جيروم[٢]، واثاناس[٣] وأوريجان وحولية الإسكندرية[٤] أن تكريم انطونيوس كان كتمجيد الآلهة؛ فقد شيد له هادريان معبدًا تقام فيه الشعائر وتمارس فيه الألعاب الرياضية. ولقد شبه أبيفان معبد انطونيوس والطقوس الدينية التى كانت تمارس بداخله بطقوس العربدة فى منف وسايس والقلزم وتل بسطه وأبيدوس وفارباتوس[٥]. ومن الواضح أن مدينة أنتينويه ظلت مزدهرة حتى اعتناق أهلها للمسيحية وأصبحت فى نفس هذا العصر أسقفية تابعة لطيبة. وفى نهاية القرن الثالث - وفقًا لأوزاب ارتبطت أنتينويه بأسقفية القدس، وبعد ذلك بقرن من الزمان - وفقًا لبلاديوس - امتلأت بالأديرة المسيحية. و لتتبع تاريخ أنتينويه بعد السيطرة الرومانية علينا بقراءة ما كتبه عالم الجغرافيا الإدريسى الذى يخبرنا أنها أنصنا (هذا هو الاسم الذى أطلقه عليها العرب عن طريق الخطأ) كانت مدينة قديمة غنية بالآثار وبالحدائق و بالمناطق الممتعة التى يتمتع فيها المرء بالنزهات العذبة وبالمحاصيل الوفيرة والغلال والتربة الخصبة وكانت تسمى مدينة السحرة[٦]، ويقال أن فرعون مصر جلب منها السحرة المتبارين مع موسى، وهى رواية غريبة ربما تعود إلى نشأة بيسا المدينة المصرية الواقعة فى الجوار والتى سوف أتحدث عنها فيما بعد[٧].

---

(١) أوريليوس فيكتور.

(٢) إن مصر كانت دائمًا تحتفظ باثنين من المجدين فى مدينة أمازيس التى كانت تعرف بعد ذلك بأنطنيوس.

(٣) اثاناس : ضد البشر .

(٤) حوليات الاسكندرية : حول الانشقاق ص ٥٩٨.

(٥) ابيفان ، المجلد الثانى والثالث ، ص ١٠٩٣.

(٦) جغرافية النوبة ، باريس ١٦١٩ ، ص ٤.

(٧) فى المبحث ١٣ .

ويؤيد أبو الفدا رواية الإدريسى ، وعلى هذا تصبح المدينة التى قامت فى هذا الموقع قبل عهد الرومان من أهم المدن المصرية ، وأطلق عليها نفس اسم أنصنا وكانت الآثار قد بدأت فى الاندثار فى عهده الواحد تلو الآخر .

ويضع هذا الجغرافى أنتينويه على خط عرض ٣٩َ - ٢٧ْ (١) فى حين يضعها بطليموس على خط عرض ٢٧ْ . و إذا ما طالعنا خريطة مصر سنجد أن هناك خط عرض ٢٧ْ - ٤٨َ - ١٥ً وعلينا ألا نحدد موقع هذه المدينة وفقًا لتقديرات بطليموس وأبى الفدا الخاطئة، ولا نستطيع كذلك أن نحدده وفقًا لخريطة انطونيانوس لأنه يربطها بمواقع تفتقر إلى الآثار الهامة، وعلينا بالأحرى تحديد مواقع المدن القديمة الأخرى التى تقع بجوار أنتينويه من خلال موقع هذه العاصمة؛ فعلى سبيل المثال نستطيع تحديد مكان اصطبل عنتر - عند قراءتنا للخريطة الرومانية - على بعد ثمانية أميال من أنتينويه ووفقًا لمقياس الخريطة الحالية نجد أن هناك أكثر من فرسخين ونصف الفرسخ بين أنقاض أنتينويه ومقابر بنى حسن كما يرد ذلك فيما بعد فى الفصل ١٦ .

ولنتناول - فى النهاية - اسم أنتينوبوليس الذى أطلق - وفقًا لبطليموس - على هذه المقاطعة؛ فولاية هبتابوليس كانت تسمى - أيضًا - هبتانوميا . وتؤكد رحلات كل من دنيس الجغرافى وأوتاث اتيان البيزنطى أنها كانت تشكل دائمًا جزءًا منفصلاً عن مصر يقع بين الدلتا أو مصر السفلى وبين الصعيد و تعرف الآن بمصر الوسطى أو «الوسطانى» و هو اللفظ الذى يحمل نفس المعنى، ولها نفس حدود هبتانوميا، وتتكون من سبع مقاطعات كما هو واضح من اسمها، وبموقعها هذا كان من الصعب اعتبارها مقاطعة إضافية وإلا اضطربت تقسيمات الأراضى.

وبطليموس هو الوحيد الذى تحدث عن مقاطعة أنتينويت ولم يكن هناك أية ميدالية تحمل اسمها على الرغم من أن هناك أكثر من خمس وأربعين ميدالية عن الصعيد والمناطق السفلية وغيرهما مما ذكره بعض الكتاب و تعود إلى عصور

---

(١) خط عرض ٣٩َ ٢٧ْ كانون - وصف مصر - عربى ولاتينى طبعة ميخائليس - جوت ، ١٧٧٦ ، ص ٢٠ .

مختلفة، ولم نعثر على ميدالية واحدة ـ فقط ـ تحمل هذا الاسم على الأقل حتى عصرنا هذا ولم يرد ذكره عند أى من الجغرافيين الآخرين ـ باستثناء بطليموس.

وأعتقد باحتمال اعتبار أنتينوبوليس بقعة منفصلة إذ أن أهلها وشعائرها وآثارها تختلف حتى عن الجزء المتبقى من إقليم بنى حسن وتم بعد ذلك تسميتها «مقاطعة»، وكما سنرى من وصف بنى حسن تم إجراء الكثير من التغيرات فى التقسيمات السياسية لهذه البقعة الوسطى وفى تسمياتها .

و إذا ما صح الرأى الذى طرحته فى وصف هرموبوليس ـ أى أن هذه المدينة كانت هى المركز الرئيسى لصعيد مصر ـ فليس مستغربًا إذن تسمية أنتينويه فى عهد الإمبراطورية البيزانطية بـ «عاصمة الصعيد»، ووفقا لبالاديوس وروفان فقد قامت أنتينويه بعد هرموبوليس ماجنا التى بدأت فى الاضمحلال .

وتحدث كل من المقريزى وأبى الفدا الإدريسى عن حدائق أنتينويه الرائعة وقالوا إن أحد أبواب هذه المدينة تم نقله إلى القاهرة إلى باب زويلة؛ ولكن المقريزى ذهب إلى أبعد من ذلك وقال إن صلاح الدين اقتلع كل سور أنتينويه لاستخدامه فى بناء العاصمة الجديدة[١]، وأنتينويه كان لها سوران لازال أحدهما قائما بأكمله، أما الآخر فالمتبقى منه هو بعض الأطلال كما سيرد ذلك فى الفقرة التالية.

المبحث الثالث: النمط العام لأنتينويه؛ نظرة سريعة على آثارها ـ طبوغرافيا المدينة وضواحيها

أول ما يصادفنا عند بلوغنا صعيد مصر على الضفة اليمنى للنهر هو أنقاض أنتينويه، ووسط غابة من النخيل الكثيف الواقعة فى إحدى منخفضات النهر نلاحظ وجود أعمدة تتعدى ارتفاع أشجار النخيل و يبدو لنا عند اقترابنا منها

---

(١) يعتقد اتيان كاترمير أن انتينويه كانت موجودة فى عهد باخومى؛ حيث قيل أنه ذهب إلى مدينة طيبة ـ أى العاصمة أو المدينة الأم.

أننا على مشارف مدينة إغريقية أو رومانية، وما أن ترجلنا حتى اكتشفنا وجود كم هائل من الأنقاض تحيط به أشجار النخيل و تتوسطها أعمدة وعدة منشآت تتميز بلونها الأبيض عن الأنقاض التى اكتسبت اللون الأسمر والمكدسة على أرض فضاء، والصخرة الجرداء المرتفعة الأنصع بياضًا من الآثار تشكل سياجًا بطول فرسخين ترتسم عليه هذه اللوحة الكبيرة، وللتمتع كلية بهذا المنظر يجب الصعود إلى التلال الواقعة فى الغرب[١] حيث يستطيع المشاهد رؤية الرواق الكبير وبقايا المسرح، وفى الأسفل هناك الشارع الطولى المليئ بالأعمدة. فى السهل أعلى الأنقاض يوجد المضمار ومقبرة الشيخ عبادة وجبل العرب بتجويفاته المحفورة بداخله، وعلى اليسار هناك الشارع العرضى و تزينه الآثار والأعمدة التى تنتهى فى الشمال بالباب الشرقى، وفى أقصى الشمال يرى المشاهد الأعمدة العظيمة التى شيدت تمجيدًا لـ سيفيروس الأسكندر والبوابة ذات السبع فتحات، وإذا استدار قليلاً يرى قوس النصر وأعمدة الجرانيت. ومن أول نظرة لانرى سوى هذه الهياكل الأساسية ولكن إذا ما نظرنا بإمعان على الطريق الكبيرة نرى ـ عند قاعدة الأعمدة ـ كتلا تكاد تكون اليوم متساوية الحجم وركامها يدل على أنها تم نقشها بنفس النمط[٢]. على اليمين نرى شارعًا أو واديًا صغيرًا عريضًا ويتجه نحو النيل بخط غير مستقيم ويتسع عرضه كلما اتجهنا نحو السهل المهجور. ولأول وهلة يدرك المشاهد لأنقاض المبانى من الطوب الأحمر وجود شارع قديم غير أن عرضه كبير والرمل الناعم فى نهايته و آثار مياه الأمطار التى تمخره تلغى هذه الفكرة، ونعتقد أنه كان مجرى قناة قديمة تعبر النيل من الشرق إلى الغرب ولكن علينا البحث عن الطمى المفترض وجوده فى هذا الحوض. فى الشرق عندما نتفحص السهل المهجور والجبل فى اتجاه هذا الوادى الرملى نجد أن بكل منهما آثارًا لمجارى سيول عميقة إلى حد ما

---

(١) تم التقاط المنظر العام للمنطقة من خلال هذا الموقع؛ اللوحة ٥٤ ـ الشكل ٢٠. وعند اتجاهنا ناحية اليمين نرى بوابة المسرح وأعمدة سيفيروس الأسكندر وإذا استدرنا إلى اليسار نجد جزءًا من قوس النصر.

(٢) انظر اللوحة ٥٤ ، الشكلين ١ – ٢ .

ناتجة عن مياه الأمطار التى تهبط من أعلى السلسلة الجبلية أو بين جوانبه وكل هذه الآثار تنتهى عند الوادى الصغير، وتنهمر السيول على هذه الطريق من أعلى الجبل. وحيث إن هذه العوامل الطبيعية لاتزال كما هى ولم تتغير منحنيات الصخور والأراضى عن الماضى فمن المنطقى استنتاج أن هذه المدينة كانت دائمًا معرضة للأمطار فى هذا الاتجاه .

وتجدر الإشاره هنا إلى أحد التلال المستوية الذى يزيد طوله عن عرضه ويأخذ تقريبًا شكل ومساحة المضمار(١)؛ إذا ما نظرنا نحو الجنوب أعلى المسرح، ودائمًا من نفس هذا الموقع نرى حرم أنتينويه وعلى مسافة أبعد منه قليلاً يوجد مسطح كبير يكتظ بالركام وهى أنقاض مدينة مسيحية وعلى أطرافها تقع قرية دير «أبوحنيس» . إذا ما استدرنا نحو الشمال نرى السلسلة الجبلية المتجهة مرة أخرى نحو النيل وعلى قمتها توجد العديد من الأديرة المهجورة، وأخيرًا هناك بعض الكتل الركامية الأخرى التى يحيط بها سور خاص و تقع ما بين الصخرة وأنتينويه ؛ نعتقد أنها أطلال مدينة بسا القديمة.

هذا هو المنظر العام لأنتينويه إذا ما شاهدناه من أعلى التلال الغربية(٢) ولكن هناك بعض المواقع الأخرى التى نستطيع من خلالها اكتشاف وادى النيل كله بضفتيه اليسارية المتسعة واليمنى الضيقة، و هذا المنظر أكثر ابداعًا؛ فالمشاهد يرى قرية الروضة الغنية و قرية بياضيه المسيحية و المشهورة بصناعة السكر ومدينة ملوى وأخيرًا الرواق العظيم لهوموبوليس ماجنا على بعد ثلاثة فراسخ تقريبًا نحو الغرب .

سبق وأوضحنا أن هادريان - لكى يشيد مدينته الجديدة - استغل أحد المنخفضات العميقة فى الجبل على شكل قوس ترتكز أطرافه على نهر النيل، وعلى ما يبدو فإن جزءًا صغيرًا جدًا من هذا الخليج كان قابلاً للزراعة وبقية الأراضى من حوله - كما هو الحال اليوم - كانت تتعرض للفيضانات الشديدة؛

---

(١) انظر اللوحه ٥٣.

(٢) انظر اللوحه ٥٣ ، النقطة D.

ولهـذا فلن نأخـذ على هـادريان فكرة بناء هذا المشـروع الكبيـر على حسـاب الأراضى الخصبة وبالتالى على بقية المساحة الواقعة فى جنوب هذا الحوض(١) ، وأعتقد كذلك أن حقول قصب السكر(٢) والأراضى الزراعية الأخرى فى الغرب سواء فى أنتينويه أو فى دير «أبو حنيس» ما هى إلا أراضى مرتفعة عن قاع النيل مما جعل الفيضان يصل إلى مشارفها فقط .

ونستنتج مما سبق أن الطوبوغرافيا القديمة للمكان لم تتغير كثيرًا عن اليوم؛ ولذلك أرى عدم جدوى وصف المكان مرة أخرى وعلينا الرجوع إلى اللوحات إذا ما رغب القارئ فى مزيد من التفاصيل(٣)، وسأكتفى فى هذا المجال بالحديث عن مساحة المدينة؛ فشكلها العام عبارة عن مربع منحرف ضلعاه المتوازيان هما خطى الجنوب والشمال. فى الشرق يتقدم أحد طرفى السور على الآخر نحو الجبل ولكن دائمًا فى شكل متوازى. والقياس الدقيق لحدود المدينة الخارجية البالغ خمسة آلاف ومائتين و ثمانية وتسعين مترًا تم تحديده وفقًا لطول المسطح المسور فى الجنوب والشرق والشمال وفقًا لخط الأنقاض فى الغرب(٤).

وطول المدينة ـ وفقًا لاتجاه الشارع الرئيسى ـ بدءًا من البوابة الشرقية الغربية وحتى النقطة المقابلة لها فى الجنوب داخل المسطح المسور، تصل إلى ألف وستمائة واثنين وعشرين مترا(٥) وعرضها ـ وفقًا للمسافات بين منازل القرية وبالقرب من قوس النصر و المساحة المسورة فى الجهة الشرقية يبلغ ألف وأربعة عشر مترًا(٦)، أما عرضها وفقًا لاتجاه الشارع العرضى الآخر كان أكبر بكثير إذ يصل إلى ألف وستمائة واثنين وسبعين مترًا فيما بين الساحة المسورة

---

(١) انظر اللوحة ٥٤ - الشكل ١.

(٢) لاحظت فى هذه الحقول أن ارتفاع أعواد قصب السكر يصل إلى ١٢ قدمًا (حوالى أربعة أمتار) تحيطها وتظللها سياج كثيفة من السيسبان .

(٣) انظر اللوحتين ٥٣ - ٥٤ .

(٤) ألفان وسبعمائة وثلاث عشرة قامة تقريبًا.

(٥) حوالى ثمانمائة واثنين وثلاثين قامة.

(٦) حوالى خمسمائة وثمانين قامة.

وحافة تلال الأنقاض[١]. ويبلغ قياس طول الساحة المسورة من جهة الجنوب ستمائة وثمانية وتسعة عشر مترا فقط[٢] وألف ومائة وثمانية مترًا فى جهة الشمال[٣] وذلك فيما بين الزاوية الشرقية وأطراف الأنقاض، ولقد تم تحديد هذه القياسات بمقياس مترى دقيق و كذلك القياسات الأخرى التى لن أذكرها هنا لتجنب التفاصيل المضجرة [٤].

ولقد لاحظ كورابوف وجود ساحة أخرى مسورة بالحجارة والطوب تجاه الشمال وتتصل بالساحة الأخرى عن طريق كتل ضخمة تفصل المسافات بين بعضها البعض .

وهناك كم كبير من الأوانى القديمة مختلفة الأشكال والأنواع فى أعلى تلال الأنقاض التى تحدثت عنها ؛ بعضها يشبه الأوانى الفخارية الأترورية لونها أحمر قانى وحبيباتها رفيعة وزخرفتها بسيطة ومصنوعة بإتقان، والبعض الآخر لونها رمادى وعبارة عن قارورات مختلفة الأحجام أو قوارير مخروطية[٥] ذات عروتين فوهتها متسعة وتحتوى فى قاعها على ترسيبات لامعة وسوداء اللون راتنجية القوام ورائحتها كالسكر المحروق، البعض يعتقد أنها رواسب طلاء وضع فى هذه القوارير لمنع السائل من الخروج من خلال المسام والبعض الآخر يزعم أنها ترسيبات خمرية، وعلى أية حال فالكمية الهائلة من الأوانى والقوارير التى تغطى أنقاض المدينة تثير الدهشة فهى فى أغلب الظن تعود إلى عدة أجيال متعاقبة عاشت على هذه الأرض؛ فمدينة أنتينويه ظلت بلا شك آهلة بالسكان لفترة طويلة بعد السيطرة الرومانية .

---

(١) ستمائة وقامة واحدة تقريبا .

(٢) ثلاثمائة وثمانية وخمسين قامة تقريبا .

(٣) خمسمائة وثمانية وستين قامة ونصف تقريبا .

(٤) انظر شرح اللوحة ٥٣ حيث فسرت تقسيمات الخريطة.

(٥) ربما تكون ترسيبات خمرية مسكرة وعند تعرضها للشمس تكرملت . كل هذه الأوانى بها أربعة ثقوب. انظر لوحة الأوانى القديمة ـ الشكل ٤٠ ـ المجلد الخاص (المجموعات القديمة).

على الرغم من هذا فإننا نندهش من هذه الكمية الهائلة؛ إذ كيف يتأتى لمدينة شيدت بعد المدن الأخرى بخمسة عشر قرنًا من الزمان تحتوى على مثل هذا الكم من الأنقاض؟ وتزداد الأنقاض فى الداخل حيث يعيش السكان الأقباط والأعراب الذين عمدوا إلى رفع مستوى الأراضى؛ لأن التربة منخفضة وتكاد تختفى عند رواق مدخل المسرح والمضمار والحمامات المعدنية وقوس النصر والأعمدة الهائلة .

وبالبحث بين هذه الأنقاض عثرنا على العديد من الأوسمة و مشابك الأحزمة والأزرار وأشياء أخرى من هذا القبيل ترجع إلى عصر الإمبراطورية البيزنطية والامبراطور قسطنطين وتعود سكان المنطقة على حك الميداليات فى الصخر لتلميعها طمعًا فى بيعها للزائرين.

هذا هو حال أنقاض أنتينويه، وبعد هذه الفكرة العامة عن المدينة ومناطقها المجاورة سوف أشرح كل أثر على حده، وليغفر لى القارئ إسهابى فى سرد التفاصيل عن هذه المدينة إذ أنها تكتسب أهمية مزدوجة من حيث تاريخ هادريان أو التاريخ الفنى على حد سواء ؛ فما من زائر إلا وتوقف عندها لتأملها ولقد استمتعت بزيارتها خمس مرات أثناء الحملة الفرنسية .

وهناك ملحوظة عامة وهى أن كل الأبنية من الحجر الجيرى باستثناء أعمدة الجرانيت بالقرب من قوس النصر، وبعض المناطق الأخرى المتفرقة وتيجان هذه الأعمدة من نفس حجر الأبنية، وهناك بعض الأجزاء من الرخام مثل حوض الحمامات و تمثال انطونيوس.. الخ(١) .

و إذا ما هبطنا من أعلى التل تجاه اليمين متجهين نحو الجنوب فإننا نصل أولاً إلى الطريق الكبيرة التى تقسم عرض المدينة إلى اتجاهين، ويجذب انتباهنا هذه السلسلة الطويلة من الأعمدة على طرفى الطريق المتهدمة فى معظم أجزائها فالقليل منها هو الذى احتفظ بحاله وكلها من النمط البيزنطى

---

(١) رأى بلزاك جذع عمود مكسور وبعض أجزاء رخامية من هياكل معبد.

الإغريقى، ولا يفصل هذه الأعمدة عن بعضها إلا بعض الأبنية الفخمة التى تحد الطريق. و يقع الرواق الكورنثى ـ الذى يسبق المسرح ـ فى طرفها الجنوبى وهو من أجمل الآثار التى تفرض نفسها على المشاهد فى هذه المدينة. وعلى الرغم من آثار الزمن التى بدت على أطلال الأعمدة والدعائم والجدران إلا أنها لاتزال فى غاية الجمال، بعد اجتياز الرواق نجد بقايا خشبة المسرح ومدرجاته، وتفسر لنا أفران الجير التى أقامها العرب هناك سبب التدمير شبه الكامل لهذا البناء؛ غير أننا نرى بوضوح مساحته وتصميمه وتقسيماته بصفة عامة(١). والمسافة بين الأنقاض والحرم مستوية وخالية من الركام و أننى أتشكك فى عدم سكنى هذا الجانب من المدينة(٢). وبعد توغلنا حتى مدخل الوادى الكبير الرملى لا نجد أى أثر يلفت الانتباه؛ ولكن عندما نصل إلى حائط استخدم كمصد لمنع مياه الفيضانات نرى على الجانب الأيمن أثرًا هائل المساحة يبلغ طوله أكثر من ثلاثمائة متر، وهو عبارة عن مضمار قديم مدخله تجاه المدينة، ودرجات المسرح مدمرة ومغطاة برمال الصحراء التى تكدست من الناحية الجنوبية الشرقية وحتى أعلى المبنى، واختفت الأعمدة التى كانت تحيط بها عدا القليل منها .

وفى نهاية الشارع العرضى الأول نكتشف عبر المضمار البوابة الشرقية الكبيرة والجزء المتبقى منها عبارة عن دعامتين كبيرتين تقعان إلى حد ما داخل حرم المسرح وحولهما الكثير من الأنقاض. أما بوابة الحرم ذاته المفترض وجودها فلا أثر لها، وهناك على جانبى هذه الطريق عدة آثار شبه مدمرة والجزء المتبقى منها يبدو وكأنه حمام شعبى .

وعندما نصل إلى مفترق الطرق نجد أنفسنا عند الشارع الكبير لرواق المسرح وفى كل زاوية من زواياه الأربع نجد عمودًا أكبر من الأعمدة الأخرى، ومن هناك يتجه الزائر رأسيًا فيكتشف على مسافة غير بعيدة أربعة أعمدة

---

(١) انظر اللوحة ٥٥ .

(٢) انظر اللوحه ٥٣ .

أخرى مشابهة للأعمدة الأولى لايزال واحد منها على حاله حتى الآن[١]، أما الثانى لم يحتفظ إلا بقاعدته، وهى الأعمدة التى سبق وقلنا إنها شيدت تمجيدًا لسيفيروس الأسكندر، وفى الطرف الآخر من هذا الشارع هناك أثر كبير ويبدو وكأنه مقبرة وعلى مسافة أبعد منها نجد بقايا البوابة الشمالية.

وبعودتنا إلى المفترق الأول واجتيازنا للشارع العرضى نجد أمامنا قوس النصر الذى يقع على الطرف المجاور للنيل، و هو من أكثر الآثار التى تجمل المدينة بقاء على حاله[٢]، كما نجد عمودين من الجرانيت فى المنطقة التى تقع بين القوس والنيل .

وتقع قرية الشيخ عبادة الحالية التى تعاقبت على مدينة أنتينويه على مقربة من قوس النصر، ومنازلها مبنية من الطوب الأحمر ومطلية بالطمى أو بالصلصال الرملى. والبيوت المتواضعة التى تقع بالقرب من الأنقاض وترتكز على الأعمدة التى لاتزال قائمة هى الأكثر بؤسا، وحتى داخل هذه الأكواخ توجد بعض الأعمدة التى تعوق حركة سكانها ولكن ما من ملاحظ..!! والقرية تضم مسجدًا تم إنشاؤه بأعمدة قديمة مختلفة الأحجام ـ يقال إنها من بقايا إحدى الكنائس ـ ومتراصة بصورة غريبة .

ويجهل أهل هذه القرية الإسلامية أن اسمها مأخوذ عن الأسقف القديس أنصنا وهذا هو الاسم الذى سبق وأطلقه عليها سكانها الأقباط[٣]، وقد أصبح هذا الاسم الآن فى طى النسيان ووفقًا لسيكارد ـ فقد كان هذا الشهيد فى أنتينويه يسمى القديس امونيوس ولقد وقره سكان هذه المنطقه كشيخًا مسلمًا واتخذوه وليا لهم، وسألت أحدهم عما إذا كان يعرف أن هذا الشخص كان مسيحيًا فأجاب «إذا كنت أنت تعرف هذا فنحن لا نعرفه» ويقع قبره فى منطقة السهل الرملى التى تفصل أنتينويه عن الجبل العربى[٣] والتى تضم العديد من

---

(١) انظر اللوحتين ٥٣ ، ٥٤ شكل ، عند النقطة ٢ .
(٢) انظر اللوحة ٥٧ .
(٣) تنطق أنسليه بطريقة شائعة (انظر فيما بعد المبحث ١٤).

المقابر بعضها يعلوه الشاهد والبعض الآخر مجرد حجر، وهى المنطقة التى يدفن فيها سكان الضفة الغربية للنيل موتاهم، وهى سمة عامة إذ يوارى المصريون موتاهم فى التراب سواء تجاه الجبل الليبى أو على مسافة ما داخل الصحراء، والتفسير الوحيد لهذا هو الخوف من امتداد الأراضى الزراعية نحو مقابر الموتى أو الفيضان و هو الأشد خطرًا من المحراث؛ وربما يكون الدافع لهذا هو الرغبة فى الحفاظ على رفات الموتى إذ أن تربة الصحراء الجافة والنظيفة تساعد على صيانة الجثث ولقد عثرنا عدة مرات على مومياوات طبيعية ملقاة فوق الرمال وفى حالة تيبس تام .

وسكان قرية الشيخ عبادة الحاليين هم من أصل عربى وهو أمر واضح لكل رحالة قارن بين المزارعين العرب والفلاحين المصريين؛ فالقبائل العربية استقرت فى القرى بطول الضفة اليمنى للنيل بعد أن هجرت حياة الرعى واحتفظ العرب بكل طبائعهم الطبيعية وملامحهم التى تميزهم عن غيرهم(١). وكما هو الحال فى جميع القرى يقوم أهل الشيخ عبادة بزراعة قصب السكر بكل مهارة، وهذه الحقول - وفيرة المحصول - تقع على أنقاض أنتينويه فى الجهة الشمالية الشرقية .

ويقيم العرب الرحالة علاقات مع أهالى هذه القرى كما هو الحال فى سائر مصر، عاش هؤلاء القوم - أعداء الفلاح - فى سلام مع المزارعين من أصلهم العربى على الرغم من أنهم ازدروا كل من هجر حياة البدو واكتسب العادات الثابتة. و لقد شاهدنا العديد من البدو فى المناطق المحيطة بالأنقاض، وبعد اطمئناننا من عدم مواجهة أية مخاطر قمنا برحلات متعددة دون حرس أو سلاح و لمسافات بعيدة عن النهر حيث ترسو سفننا، ولقد أزعجنا بعض الخيالة العرب أثناء هذه الرحلات ولكن الأمر كان ينتهى دائمًا بسلام؛ففى يوم من الأيام كان أحد الزملاء يتجول فى المضمار فإذا بثلاثة من البدو يركضون نحوه وانتهى

---

(١) انظر اللوحة ٥٤ - الشكل ٢ - النقطة ٣ .

(٢) انظر «ملاحظات حول عرب مصر الوسطى»، الدولة الحديثة ، المجلد الأول .

الأمر بفرارهم مسرعين نحو النيل إذ كانوا مجردين من السلاح ومن أية وسيلة دفاعية. و أثناء رحلة أخرى، كان أحد الرحالة منهمكًا فى قياس المحيط الخارجى للمدينة إذا به يسمع صهيل حصان و عندما التفت وجد أربعة خيالة عرب يترصدونه فهددهم الخادم بطبنجته وهنا سيطر الرحالة[١] على الموقف بفطنته قائلاً للعرب إنهم إذا كانوا أصدقاء فليمروا بسلام، و بعد أن أدهشهم ثباته تفاوضوا مع بعضهم البعض للحظة ثم لاذوا بالفرار نحو الجبل .

والسلسلة العربية بها بضعة وديان تختلف فى عمقها. و قد قيل لى إن هناك طريقًا محفورة فى الصخر بعرض خمسة عشر مترًا وتؤدى إلى أنتينويه، ولقد استعلمت كثيرًا عن هذه الطريق ولكنى لم أستدل على شىء. ولقد اكتشف كل من رافنو وبرت طريقًا مماثلة أثناء رحلاتهم الاستكشافية[٢] بين النيل والبحر الأحمر و قد أكد لهما المرشدون أنها تتجه نحو أنقاض أنتينويه .

المبحث الرابع : الرواق و المسرح

سبق وقلنا إن رواق المدينة يقع فى الطرف الجنوبى الغربى على محور الطريق الطولية ذاتها، وهذا البناء الجميل هو الذى نستطيع من خلاله أن نرى هذا الخط الطويل الذى يبلغ ١٣٠٨ متر ونصف و الممتد حتى الأثر الذى يقع فى الشمال ـ الغربى، ومحوره يشكل زاوية مقدارها حوالى ٣٨° فى غرب خط الزوال المغناطيسى،و هناك بعض الشك حول الموقع الذى يمتد إليه المبنى فى الأجزاء الجانبية و من الصعب تصميم خريطته العامة ولهذا سوف أكتفى بوصف الأنقاض الحالية وأقترح تصورًا على مجمل أنقاض الرواق والأجزاء الخلفية .

---

(١) كورابوف .

(٢) انظر اللوحة ١٠٠ ـ الشكل ١ ، الدولة الحديثة.

(٣) انظر اللوحة ٥٦ .

تميز الأثر من بعيد بتيجانه الكورنثية ودعاماته وأعمدته التى تبرز زواياها مما جعل العرب يطلقون عليه «أبو القرون»، فهذه التيجان تظهر بوضوح من وراء غابات النخيل الكثيفة التى تزين ضفاف النهر، وهذا هو ما يميز مدينة أنتينويه لكل من يبحر فى النيل .

والرواق كان يتكون من أربعة أعمدة أمامية مع ممر عريض فى الوسط، ومن دعامتين خلفيتين وكتلةصخرية محفور بداخلها ثلاثة أبواب وأخيرًا من عمودين ودعامتين فى نهاية الرواق تؤديان إلى تقسيمات أخرى اختفت تحت الأنقاض. والعمودان الأماميان من ناحية النيل لازالا كما هما وبنفس ارتفاعهما، وكذلك الحال بالنسبة للدعامتين الأماميتين للأبواب، أما العمود الثالث الأمامى فنصفه متآكل والرابع أصبح بمستوى الأرض، والعمودان الخلفيان لايزال جزء منهما قائمًا حتى الآن[١] و دعامتهما اليمينية واليسارية لم يتبق منهما سوى القليل.

والكتلة الكبيرة المحفور بداخلها ثلاثة أبواب دمر جزؤها العلوى حتى ارتفاع باب الوسط،أما الأبواب الجانبية فلازالت كما هى بالكامل وكذلك النافذتان المزخرفتان فوق الأبواب، وباقى الرواق عبارة عن أجزاء من أعمدة أو من تيجان و الأرض تكتظ بالركام الذى يدل على وجود أبنية أخرى فى هذا المكان ـ سوف أتحدث عنها لاحقا ـ كانت امتدادا للرواق على اليمين واليسار .

وواجهة المبنى تبلغ ١٦,٤ م طولا، والمسافة بين قاعدتى العمودين فى الوسط تصل إلى ٤,٣٦ م وبين الأعمدة الجانبية ٢,٤٤ م، ويقدر القطر السفلى للأعمدة بـ ١,٣٣٧ م و العلوى بـ ١,١٥٥ م. وارتفاع العمود شاملاً القاعدة والتاج يبلغ ١٢,٧٨م، أما قاعدة العمود وأرضية المبنى كلها فهى ترتفع بمقدار متر عن سطح الشارع و نصعد إليها عن طريق درجات تختفى اليوم تحت الأنقاض، وهكذا يصل الارتفاع الكلى لكتلة الرواق إلى تسعة أمتار تقريبا. واختفت كل من خرجة السطح والعتب، ولقد أكد الرحالة السابقون وجود هذين

---

(١) لا يمكننا تصور ما قاله سيكارد من أن الأعمدة الأربعة الخلفية أصبحت بمستوى الأرض.

الجزءين ونستطيع تقدير ارتفاعهما وفقًا للخرجة بمقدار ٦,٩ م، وهكذا يصل الارتفاع الكلى للرواق فوق سطح أرض الشارع العريض إلى ٢٠,٦م تقريبا.

وتقدر المسافة التى تقع بين العمودين الأماميين و الكتلة ذات الأبواب الثلاثة بـ ٣,٦٢ م تقريبا و بين هذا الحائط و الأعمدة أو الدعامات الخلفية بـ ٤,١ م، أما باب الوسط فارتفاعه ملحوظ و يبلغ ٩,١ م متضمنًا الإطار و عرضه ٥,٥م .

ويصل ارتفاع قاعدة العمود إلى ٠,٦م ، والتاج فوق الجزء المزخرف ١,٣٣م ويبلغ محيطة السفلى _ بقياسه من نفس النقطة _ ١,٣٠٤ م، أما القاعدة السفلية للعمود فتقدر بـ ١,٧٧٣م والقاعدة الكبيرة بـ ١,٩٦٣م، وجذعه الذى يتكون من خمسة أحجار كبيرة أسطوانية الشكل تصل الواحدة منها إلى أكثر من مترين لكن العلوية تبلغ ٢,٤٣ م ، تلك هى الأبعاد الدقيقة للرواق و أجزائه الرئيسية والقارئ الذى يرغب فى معرفة التفاصيل الدقيقة يمكنه الرجوع إلى اللوحات (١).

وعمودا الواجهة مضلعان بتضليعات غاية فى الدقة حتى منتصف الارتفاع (الذى يبلغ ٣,٥٤٥م بدءًا من الربعية العليا للقاعدة) و يصل عددها إلى أربع وعشرين تضليعة، أما بقية العمود - الجزء العلوى - فهو خال تمامًا و يتغير شكله الأسطوانى (٢) ليصبح قمعيا .

و النقش على التيجان جميل للغاية؛ على الرغم من الحجارة التى يتكون منها؛ إلا أن تنفيذه تم بدقة شديدة نظرًا للقواقع المتحجرة التى تملؤه بالكامل وأوراق وسيقان نبات الأقنثه المزخرفة عليه باتقان . ولا تقل زخرفة ناتئات الإطار التى تزين الثلاثة أبواب - على الرغم من نمطها البسيط - والأعمدة المستطيلة الناتئة الكورنثية التى تعلو الأبواب الجانبية اتقانًا عنها، وتيجان هذه الأعمدة الناتئة وجبهتها التى تتسم بصغر حجمها تضاهى كذلك هذا الاتقان والدقة فى التنفيذ.

---

(١) انظر اللوحة ٥٦.

(٢) قياس المحيط عند هذا الارتفاع يبلغ ١,٢٦٥م والجذع كان قمعى الشكل، وبحسابه وجدناه ١,٢٧٤م مما يختلف قليلا عن الارتفاع السابق .

و تنسيق الحجارة فى جدار الباب يتكون من عدة مداميك تبلغ ٠,٥٣٥م متساوية الارتفاع ومن فواصل مدعمة مما يشكل حزًا ظاهرًا فى كل مدماك يقدر عرضه بـ ٠,٠٥ م ويعطى لتنسيق الحجارة نمطًا بسيطًا وصارمًا فى آن واحد.

وإذا ما سلمنا بصحة الروايات القديمة فإن باب الوسط كان مغلقًا بواسطة مزلاجين خشبيين مكسيين بالحديد تم نقلهما فيما بعد إلى القاهرة لإغلاق الباب المسمى «باب زويله» ومن المؤكد ـ أيضًا ـ وجود باب آخر فى القاهرة يطلق عليه «باب الحديد» .

وفى امتداد كتلة الوسط هناك أجزاء حائط تربط الرواق بأبنية أخرى واكتشفت فيها نمطًا أيونيًا أقل اتقانًا من النمط الكورنثى ونجد أنقاض التيجان والأعمدة مازالت ملقاة على الأرض[١]. ومن المعتقد وجود بهو وباحة كبيرة مربعة فى هذا المكان تؤدى إلى المسرح وهذا ما يؤكده نصفى العمودين المرتكزين على الدعائم الخلفية وهما من النمط البيزنطى المضلع، وهناك ـ أيضًا ـ قواعد أعمدة مشابهة من المفترض امتدادهما لليمين واليسار لتكوين باحة أمامية للأثر التالى.

إذا ما تقدمنا من الواجهة الخلفية للرواق تجاه محور الجنوب الشرقى نجد أنقاضًا هائلة تأخذ شكل مدرجات مسرح معظمها أتى عليه الدمار أو الحريق بالكامل، ولا نميز النمط النصف دائرى للمسرح الكبير بصورة جيدة إلا عندما نقترب منه و هو يماثل المسارح الرومانية ومسرح أوتريكولى فى أومبرى غير أن القوس أكبر بقليل من نصف الدائرة . وتقدر المسافة من صدر المسرح إلى رواق المدخل بخمس وأربعين مترًا حيث توجد خشبة المسرح المدعمة بست دعائم لتشكل ثلاثة مداخل لازال بعضها قائمًا حتى الآن . والمسرح الذى لا يقل عرضه عن أربعة وسبعين مترا موجود كما هو. والمسافة بين دعائم خشبة المسرح حتى

---

(١) لن أذكر مقاييس هذه الأعمدة لأننى لم أستطع تحديدها بدقة كالأعمدة الأخرى. انظر اللوحة ٥٦ ـ الشكل ١٥ ملحوظة : إن الرقم ٢٦٥ لعرض الزخرف الحلزونى هو رقم ضعيف للغاية.

منتصف المدرجات تبلغ خمسة أمتار ومن المنتصف حتى نهاية الدرجات تبلغ أربعة وعشرن مترا، وهو مقدار المدى الداخلى. وعمق هذه الدرجات يصل إلى أربعة وعشرين مترا - أى أن المقدار الدائرى ككل يبلغ أربعة وعشرين مترا .

و إذا ما تقدمنا فى هذا الاتجاه نجد بابًا خارجيًا ذا مدخلين على بعد ثمانية أمتار من المدرجات ، وعلى ما يبدو كأنه هو الذى كان يؤدى إلى المسرح من الجهة الجنوبية الشرقية ، أما الجهة الشمالية الغربية فمدخلها كان عن طريق الرواق، و كان هناك باب آخر كبير فى نهاية المقاعد يؤدى إلى الصف الأخير منها، وإذا ما تابعنا السير دائمًا فى اتجاه الجنوب الشرقى نجد حرم أنتينويه على بعد مائة وخمسة وعشرين مترا .

وفى امتداد الصف الأول للمقاعد نجد أحجارًا كبيرة مهدمة وحجرًا كبيرًا محفورًا بشكل دائرى ولم أستطع استنتاج الغرض منه، والمساحة الكبيرة الأمامية بها أكوام من الأنقاض والركام، ومدرجات المسرح يكاد يكسوها الرمل بالكامل، غير أن هذا لا يحول دون التعرف على الأجزاء الكبيرة لهذا الأثر وتناسق التقسيمات العامة .

والدمار الذى لحق بهذا المسرح يرجع بلا شك إلى عدة أسباب؛ غير أن أهمها هو ثراء المواد التى تم بناؤه بها، فهناك العديد من الأفران فى الجزء الأمامى من المدرجات كان يتم فيها حرق الجير و يوجد حولها أنقاض من الرخام الأبيض تدل على أن الجماعات الهمجية قامت بتحويل كل ما هو حجر جيرى أو رخام إلى جير يصلح للبناء و يمكننا الاعتقاد كذلك أن المقاعد كلها كانت مصنوعة من الرخام .

والحائط المبنى من الطوب الأحمر الواقع بين كتلة البوابة والدعامة الخلفية من الجهة الجنوبية يوازى المحور ويتجه نحو نصف العمود المتداخل فى البناء.

والمسافة الكبيرة بين الرواق وخشبة المسرح تجعل من الصعب الاعتقاد بأنها كانت جزءاً متصلاً بالمسرح؛ فقد سبق وقلنا إن هناك باحة كبيرة بين الموقعين وبهوًا على النمط الأيونى نجد بقاياه فى اتجاه الكتلة الرئيسية؛ و بناء عليه

يصبح هذا الرواق هو مدخل حرم المسرح المزين بأعمدة على الأربعة جوانب والمحيط بالمسرح، و هذا هو التصميم الذى كان يميز المسارح الرومانية؛ وجود ردهات فسيحة خلف خشبة المسرح تصطف بطولها آثار صغيرة الحجم تفصل بينهم مسافات صغيرة و يستطيع المرء أن يستظل بها و أروقة صغيرة تضم صفًا واحدًا - فقط - من الأعمدة، ومن الواضح أن ثمة غرضًا ما من وراء تصميم بوابات ونوافذ هذا الأثر وأن الأجزاء الملاصقة للكتلة الكبيرة تؤدى إلى الحرم، وسوف أتناول هذا الموضوع فيما بعد ولكن على التركيز بأن الأطلال الباقية من هذا العمل لا تسمح بصفة عامة بإعادة تصميم المبنى .

المبحث الخامس: قوس النصر و ضواحيه

يقع قوس النصر فى نهاية الشارع العرضى لأنتينويه من جهة الغرب ويقع الرواق فى نهاية الشارع الطولى من جهة الجنوب، وعندما ننطلق من الرواق ومن الحرم فى الشرق نرى أمامنا هذا الأثر الرائع الذى لايزال كما هو لم يلحقه الدمار إلا فى بعض أجزاء من الأعمدة والنتوءات التى اختفت لتستخدم فى بناء الكنائس والمساجد، والأنقاض الموجودة حاليًا تدل على أنها كانت مبنية من الجرانيت، وغابات النخيل فى الوقت الحاضر تضفى على هذا الأثر رونقًا خاصا.

وعندما نقترب من قوس النصر نتعجب من جمال ودقة تنفيذه، فكل شىء يدل على الرقة التى لا نجدها فى أى عمل من الأعمال المصرية المعمارية من هذا النمط؛ الخطوط والزوايا والنتوءات فى العقود المنقوشة بأعلى الأثر؛ واختيار الحجر ذا المسام الرفيعة هو السبب وراء هذا الاتقان البديع!! .

ويشكل محور البناء مع خط الزوال المغناطيسى فى الشرق زاوية مقدارها ٤٥° وهى نفس زاوية الشارع المستعرض لأنتينويه فى الزاوية اليمنى للشارع الطولى، ويتكون المبنى من ثلاثة أقواس: الأوسط يبلغ عرضه ضعف القوسين الجانبيين ونصف ارتفاعهما، وسمك المبنى مقسم إلى نصفين عن طريق أبواب مقنطرة

مقنطرة تتجه رأسًا نحو المحور وهى أقل ارتفاعًا من الأقواس مما يقسم المبنى إلى ثمانية أجزاء كبيرة، وهناك نافذتان أسفل الأقواس الجانبية، والأعمدة الأربعة بها نتوءات توازى ارتفاع المبنى بدءًا من القاعدة وحتى العتب وتأخذ هى والخرجات والدعامات الصغيرة الخلفية النمط الكورنثى، أما النتوءات المستطيلة والخرجة الكبيرة التى تحمل جبهية البناء فهى من النمط البيزنطى، وسوف أتناول فيما بعد الخصائص التى تميز كل نمط منها. والأقواس الثلاثة كلها من النمط البيزنطى والأعمدة. فقط. هى التى تتميز بالنمط الكورنى وكذلك النتوءات المستطيلة والخرجة التى تحملها الأعمدة، وفى الكتل الأربع الوسطى هناك سلالم حلزونية تؤدى إلى القاعات العلوية .

وبعد إلقاء هذه النظرة العامة سوف أتناول الوضع الحالى للبناء الذى ظل على حاله حتى الآن[١] باستثناء زاوية الجبهة اليمنى والخرجة التى تحمل النافذة وزاوية الجبهة اليسرى وخرجة هذه الناحية وجزء من حائط الواجهة والخرجة التى كانت تحت القوس الأوسط، وهكذا نستطيع القول بأن إعادة تصميم البناء لن يتطلب إلا الجهد اليسير .

وعلى اليسار فيما بين قوس النصر والنيل هناك قاعدة هائلة لتمثال قليلة الارتفاع ويقابلها على الأرجح قاعدة أخرى مماثلة كانت كل واحدة منهما تحمل إما تمثالاً واحدًا هائل الحجم أو عدة تماثيل مجتمعة[٢].

وفيما يتعلق بالأعمدة الضخمة والأبنية المحيطة فسوف أتناولها فى نهاية هذه الفقرة مقتصرًا الآن على ذكر الأبعاد الرئيسية لقوس النصر.

ويبلغ طول الواجهة ٣٩، ١٧ م وعرضها ـ بما فيه قاعدة الأعمدة ونتوءاتها ـ ١٢، ١٠ م و يصل ارتفاعها إلى ١٨,٣/٤ وتتكون من ٢٦ مدماكًا كل منها ٠,٧٢ م يقدر ارتفاع القوس الكبير فى الوسط بـ ١١,٢٥م وعرضه بـ ٥,٢١ م، أما

(١) انظر اللوحة ٥٧ .

(٢) وفقًا لعرض قاعدة التماثيل . انظر اللوحة ٥٨ ـ المجلد الأول ، الشكل ٢ ، النقطة A . والشكل I فى اللوحة ٥٨ يجب تصحيح قراءة الجانب البارز ٣٦,٤م ليصبح ٢٦,٤م.

ارتفاعات الأقواس الجانبية فتصل إلى ٧,٧١م و٢,٤٦م والصغرى المستعرضة ٥,٤٥م و ٢,٢٦ م .

وتضم ارتفاعات النتوءات المستطيلة البيزنطية - بما فيها التاج والقاعدة والقاعدة السفلية تسعة عشر مدماكًا، أما الخرجة فتشمل ثلاثة، والجبهية أربعة.

والنتوءات الكورنثية وأعمدتها شاملة القاعدة بها تسعة مداميك - أى ٦,٤٨ م، الخرجة بها مدماكان - أى ١,٤٤م والقاعدة بها ثلاثة أى ٢,١٦م .

والقطر السفلى للأعمدة يساوى ٠,٥٩م وقطر الأعمدة يصل إلى عشرة أمتار ونصف. وقاعدة التمثال الرئيسى - على الرغم من أنها بيزنطية - فإن لها نفس الأبعاد ولكن ليس هذا هو الخطأ الوحيد فى تصميم هذا الأثر .

والنوافذ التى تعلو الأقواس الجانبية يصل عرضها إلى ١,٦ م وارتفاعها ٢,٨م تقريبا؛ تلك هى المقاييس الرئيسية الخارجية للبناء، وسوف نجد على الرسم تفاصيل المقاييس والنتوءات مسجلة بكل دقة .

ولكى نصل إلى السلالم الحلزونية فى الأجزاء الكبيرة من قوس النصر يجب صعود درجتين بدءًا من العتبة السفلية، الأولى يبلغ ارتفاعها ٢٤ سنتيمترًا والثانية ١٤ سنتيمترًا لكى نجد أنفسنا ببئر السلم الدائرى الذى تم تنفيذ كل أجزائه و درجاته بعناية فائقة لا تضاهيها إلا صلابة البناء ودقة الفواصل التى ظلت كما هى حتى العصر الحالى .

يبلغ ارتفاع محور السلم الحلزوني بدءًا من أرضية الدرجة الأولى وحتى القاعة المقبية التى ينتهى عندها حوالى ١١ متر وثلث، ولكى نبلغ القمة علينا صعود سبع دورانات كاملة تضم كل منها عشر درجات بالإضافة إلى ثلاث درجات أخرى بعدها - أى أن عددها الكلى يصل إلى ثلاث وسبعين درجة كل درجة منها بارتفاع خمسة عشر سنتيمترًا أو خمس بوصات ونصف تقريبا .

والقاعة المقبية التى ينتهى عندها السلم يبلغ طولها ٧,٥ م وعرضها ٣,٦٢ م ويصل مستوى الأرض فيها إلى ارتفاع المدماك السابع عشر، وتقع هذه القاعة فى وسط المبنى وترتفع إلى ٥,٥ م ولا أعرف ما هو مصدر ضوئها؛ وذلك ينطبق على الغرف الواقعة أعلى الأربع درجات غير أن حجرات اليمين و اليسار يصلها الضوء عن طريق النوافذ العلوية فوق الأقواس الجانبية لأنها تقع فى مستوى أقل من الأخرى بحوالى مترين[١]، و هناك شعاع من الضوء يدخل عن طريق الأبواب التى تصل هذه الغرف الأخيرة بالقاعات الموجودة أعلى السلم و بالقاعة الوسطى

لقد أوضحت جمال تنفيذ السلالم الحلزونية وهذا الجمال نفسه ينطبق على التيجان الكورنثية والبيزنطية والكرانيش والنتوءات والأقواس أعلى النوافذ وقواعد الأعمدة التى تسر أعين الناظرين، هذه الأعمال فى غاية الاتقان ولازالت كما هى؛ غير أن نتوءات هذا النمط تنقصها البساطة[٢]، وهناك بروز خفيف مستوى ومريح للنظر عبارة عن حديبة لا نكاد نراها .

والأفريز مزين بثلاثى الأخاديد الشائع وبنقوش خالية من الزخرفة، وإطار النوافذ التى تعلو الأقواس الجانبية جميل وبسيط فى آن واحد، وهى نوافذ قليلة الارتفاع بحيث تسمح بخروج زوائد الأقواس الكبيرة إلى حد ما، ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى الرسم وسأكتفى الآن بلفت الأنظار إلى أن أبعاد جبهية البناء فى غاية الجمال .

وتتميز الأقواس والأبواب الطويلة والمستعرضة بالأناقة والبساطة والاتقان مثلها مثل بقية الأجزاء وياله من أثر تتركه هذه الأبواب المتقاطعة التى تتعدد مخارجها وتسمح بدخول الضوء من كل اتجاه، والواضح أنه فى أيام الاحتفالات كانت الجماهير تعبر فتحات قوس النصر العشر فتضفى عليه المزيد من الحيوية والتنوع .

---

(١) ندخل إليها عن طريق أبواب تم شقها فى بئر السلم، هذه الأبواب لم تظهر فى الرسم . انظر اللوحة ٥٨ - الشكل ١٥.

ومن المؤكد أن أعمدة الجرانيت الثمانية المشيدة خلف وأمام المبنى لم تكن بغرض وضع التماثيل عليها؛ فهى منفصلة وهائلة الحجم (يتراوح ارتفاعها بين مترين ونصف إلى ثلاثة أمتار) و لكن لم يتبق منها شىء واختفت أعمدة الجانب الشرقى بأكملها من فوق قواعدها، وفى الجهة الأخرى لاتزال جذوع الأعمدة موجودة فى مكانها .

ولم أعثر فى أى موقع على نقوش أو زخرفة ولا أعتقد بوجودها إلا على الحائط المشيد خلف القوس الكبير والمتهدم حاليا .

ضواحى قوس النصر

تحيط أعمدة الجرانيت الحمراء والمصطفة فى أربعة صفوف بالفناء الفسيح الواقع بين قوس النصر والنهر، وهناك ستة أعمدة فى الجهة الشمالية من هذا الفناء؛ أربعة منها لاتزال باقية، وترتكز على إنشاءات تقع بمحازاة المبنى(١).

وفى الجهة الجنوبية لا توجد إلا سبعة أعمدة فى الصف الأول، ووفقًا للمسافات الموجودة بينها نعتقد أنه كان هناك مالا يقل عن أربعين عمودًا على كل جانب من قوس النصر وربما أكثر من هذا لتمتد حتى ضفاف النيل، والأعمدة المنزوعة تم استخدامها فى بناء مسجد القرية، ووفقًا لبعض الرحالة كان هناك أعمدة من الحجر السماقي فى نفس المكان(٢) .

ويؤكد هذا التصميم المعمارى بالإضافة إلى القاعدتين المنفصلتين على أن الواجهة الرئيسية لهذا البناء كانت تتجه نحو النيل ونصل إليها بعد عبور هذه الباحات الفسيحة التى كان لها هى الأخرى بلا شك مدخل أثرى .

وبوجه عام كانت هناك أعمدة أكبر من غيرها وكان يعيب المبنى بعض الأخطاء من حيث التصميم والمسافات بين الأعمدة التى شيدت جميعها على النمط الرومانى والتى تهدمت أو انتزعت لأسباب عدة.

---

(١) انظر اللوحة ٥٨ ، الشكل ١ .

(٢) ب. سيكارد «مذكرات عن بعثات الشرق» .

والشيء الغريب فى هذه الأعمدة الجرانيتية هو أن تيجانها من الحجر الجيرى وتصميمها كورنثي فى حين أن جذوعها بيزنطية النمط، و تؤكد هذه الملابسات أن جذوع الأعمدة الجرانيتية قد تم اقتباسها من آثار سابقة ربما من هرموبوليس ماجنا التى كانت تقع على الضفة الأخرى للنهر، وهى ذات طابع يونانى يرجع إلى عصر أحد ملوك البطالمة، والعمل فى حد ذاته غير متجانس ولكنه منفذ بطريقة جيدة إلى حد ما، وفيما يتعلق بالتيجان فهى من الأحجار التى يصعب التعامل معها بالآلة.

ووفقًا لتقرير الرحالة الذى ذكرته من قبل كان هناك سور ضخم مضلع يحيط بهذه الإنشاءات؛ غير أنى لم أعثر على مثل هذا السور؛ ولكن فى شرق القوس وفى اتجاه الشارع الكبير المستعرض نجد بناء مستطيلاً محاطًا بسور سميك يصل طوله من الداخل إلى ١٣,٧ م وعرضه إلى ٥,٩ م، و يمتد الحائط الشمالى بامتداد صف الأعمدة الجرانيتية، والأسوار كلها من الطوب الأحمر تفصلها طبقة سميكة من الملاط الصلب وزخارفها متناسقة وجيدة الصنع[١]، وهناك أسوار مشابهة لاتزال قائمة فى الشارع المستعرض فيما بين الحمامات والباب الشرقى وفى الإسكندرية و أماكن أخرى؛ فمن المحتمل أن يكون هذا الجزء المسور قد استخدم كخزان للمياه ولكنى لا أملك الدليل على ذلك فالأنقاض حالت دون التأكد من وجود حوض بداخله، ومن المعتقد وجود بناء مماثل على الجانب الآخر من الشارع .

على مقربة من قوس النصر وبالقرب من مفترق الطرق عثرنا على نصف تمثال من الرخام الأبيض لانطونيوس وهو غاية فى الاتقان وسوف أتحدث عنه فى المبحث الثامن .

---

(١) انظر اللوحه ٥٨ ، الشكل ١ الموقع ٢ واللوحة ٦٠ ، الشكل ١٣.

المبحث السادس: أعمدة تمجيد الإمبراطورا سيفيروس الأسكندر

ما من شك فى أن الخريطة الأولية لمدينة أنتينويه لم تشمل الشوارع الكبيرة الطولية التى تقسم المدينة إلى أحياء و المزينة على جانبيها بأعمدة بعضها كان لتمجيد سيفيروس الأسكندر والتى تم بعد ذلك إضافة بعض الآثار إليها لتزيين مفارق الطرق، وكل الدلائل تشير إلى أن قواعد هذه الآثار الموجودة أمام قوس النصر، رواق المسرح كانت تحمل أعمدة مماثلة لأعمدة المفترق الشمالى التى قد تكون شيدت تخليدًا لهادريان مثلها مثل التى مجدت سيفيروس الأسكندر، وتتجه واجهة تلك القواعد ناحية مركز مفترق الطرق وزواياها الداخلية فى اتجاهات الأعمدة الضخمة(١). وحيث إنه لم يتبق منها سوى قواعد ملتقى شارع قوس النصر فكل ما نستطيعه الآن هو التكهن ببعض الافتراضات ولهذا سوف أكتفى بقواعد المفترق الشمالى.

ولقد أوضحنا فى المبحث الثالث المسافة بين أعمدة سيفيروس الأسكندر مقارنة بمواقع أنقاض أنتينويه الأخرى، وعلينا الآن وصف الحالة التى عليها هذه الآثار والتى تختلف قليلاً عن حالتها الأولية، ولقد استخدمت لفظ «آثار» لأن هذه الأعمدة المنفصلة والتى يصل ارتفاعها إلى ثمانية عشر مترًا(٢) تستحق فعلاً هذه التسمية؛ فكل قطعة منها تفرض نفسها؛ القواعد المرتفعة المزدوجة وعرض القاعدة السفلية التى يبلغ جانبها ٣,٥ متر(٣)، ووجود أربعة أعمدة منها بالفعل متوجة بأربعة تماثيل ضخمة متباعدة لمسافة ستة عشر مترًا(٤) ومطلة على أبنية مجاورة كفيل بأن يترك لدينا هذا الانطباع، وما من شك فى وجود هذه التماثيل الضخمة آخذين فى الاعتبار الطبلية أعلى التاج و التضليعة المربعة فوق هذه الطبلية .

---

(١) انظر اللوحة ٥٣ ، واللوحة ٦٠ الشكل ١٨.

(٢) خمسمائة قدم تقريبا .

(٣) حوالى أحد عشر قدما .

(٤) ما يقرب من ثلاث وخمسين قدما .

اثنان من هذه الأعمدة الأربع مقلوبان بحالتهما على الأرض ومدفتهما فى مكانهما، أما العمود الثالث فلم يتبق منه إلا القاعدة والجزء السفلي من الجذع، والرابع على حالته وسليم - وهو العمود الشرقى مقارنة بمركز المفترق[١] - ولكنه لا يحمل تمثال الإمبراطور، ربما كان هذا العمود مصنوعًا من مادة صلبة ونادرة وتم نقله إلى هذا المكان لأننى لم أر ركامًا له على الأرض، والمكان حول الأعمدة كلها خال من الأنقاض المتراكمة - فقط - فى المناطق المجاورة، وهناك طبقة خفيفة من الرمال على قارعة الطريق .

والارتفاع الكلى للأثر - شاملاً القاعدة السفلية وطبلية التاج - يصل إلى ١٧,٨٤٣ م، والتاج يبلغ ١,٥٣ م، والجذع - شاملاً الكميبة - ١٠,٠٨ م ويتكون هذا الجذع من خمس قطع عدا القواعد التى يرتكز عليها، والطبلية تصل إلى ٠,٩٩م ، والقطر السفلى للعمود ١,٢٥م[٢] وقاعدة التمثال شاملة القاعدة السفلية ٣,٤٠م .

وأحجار هذه الأعمدة صدفية غير أن هذا لم يحول دون حفر أوراق نبات الأقنثه بدقة على التاج والزيتون على الجزء السفلى للجذع، هذا بالإضافة إلى النمط الفريد لجوانب قاعدة التمثال[٣]، أما الزوايا الثمانية للقاعدة الموضوعة مباشرة على قاعدة العمود السفلية فهى شائعة وعادية، وعلى الرغم من أن نمط الأثر كله كورنثى إلا أن أبعاد الجذع لا تتلاءم مع هذا النمط؛ فهى أقصر بكثير.

وهناك نقش إغريقى يتكون من أربعة عشر خطًا محفورًا على واجهة القاعدة المتجهة نحو مركز المفترق ، وهذه النقوش على ما يبدو كانت محفورة على الأعمدة الأربعة لأننا نراها اليوم على القاعدتين القائمتين الآن و هى غاية فى الدقة ولقد تم نقلها فى اللوحات ، ولن أعلق عليها الآن لأنها جديرة بأن

---

(١) انظر اللوحة ٥٩، الشكل ١.

(٢) تم تحديد هذا المقياس من أعلى أوراق النبات المحفورة على الجزء السفلى للجذع - وتم حذفها من الرسم. انظر اللوحه ٦٠ - الشكل ١ .

(٣) انظر الوحه ٦٠ - الأشكال ٦ ، ٨ ، ٩ .

نخصص لها بحثاً كاملاً[١]، وتخبرنا هذه النقوش أن هذه الأعمدة شيدت تمجيدًا لماركورس أوريليوس سيفيروس، وها هى تلك النقوش أنقلها كما هى من على القاعدة الشمالية الموجودة الآن. عن طريق الاستعانة بالقاعدة الأخرى والمعلومات التاريخية نستطيع نقلها حرفيا كالآتى :

للذكرى الطيبة

«إلى ماركوس انطونيوس قيصر أوريليوس . إلى سيفيروس الأسكندر وأغسطس والأم جوليا الأوغسطية والدة ايليوس وايثيدس كاستوس، مع الاحترام والتبجيل».

من الراسل : انطونيوس الإغريقى
و المجلس الإغريقى
الاثنين العام الحادى عشر

وأعمدة تراجان وانطونيوس الضخمة شيدت على الطراز الدورى فى حين أن أعمدة أنتينويه المخلدة لسيفيروس وعمود القديسة مارى الكبيرة كورنثية الطراز النمط، وهذا العمود الأخير يتعدى أعمدة الأسكندر بستة أمتار؛ إذ أنه يبلغ ستة عشر مترا، وهناك ـ أيضًا ـ فى باليرا عمودًا منفصلاً من نفس نمط تلك الأعمدة.

وفيما يتعلق بأوراق النبات المزخرفة على الجذع فنادرًا ما نجدها على مثل هذا النمط المعمارى ذلك أن الرومان كانوا قليلاً ما يلجأون إلى مثل هذه الزخارف، وإذا ما كنا نرى بعضًا منها على أعمدة نيم و بابتسير لقسطنطين فإنها أقل طولاً من زخارف أعمدة أنتينويه، ولا تشمل إلا أوراق الزيتون وبالتالى فهى أقل جذبًا للانتباه .

---

(١) انظر دراستى عن النقوش القديمة التى جمعتها فى مصر، دراسات العصور القديمة واللوحة ٥٦ ـ المجلد الخامس .

ولقد اعتقدنا خطأ أن هذا الزخرف كان لأوراق البلوط ليعبر عن انتصارات سيفيروس، وإذا ما كان هذا الزخرف فعلاً رمزًا لفكرة ما فإنه يرمز إلى السلام أكثر منه إلى النصر. ولأننا لا نعتقد أن الأعمدة الأربعة شيدت تمجيدًا للانتصار الذى حققه سيفيروس الأسكندر على ارتاكسركيس - ملك الفرس - فى عام ٢٣٣ لأن رحلته إلى مصر كانت فى عام ٢٣٤ .

المبحث السابع: من المدرج الرومانى إلى المضمار

فى الشرق وخارج حرم أنتينويه يوجد فى السهل الرملى - عند اتجاهنا من الشرق إلى الغرب - مضمار فسيح مستطيل الشكل يصل طوله إلى ثلاثمائة وسبعة أمتار و عرضه ستمائة وسبعة عشر مترا وينتهى بنصف دائرة ولايزال البناء المشيد بداخله موجودًا حتى الآن باستثناء بعض صفوف من المقاعد ومن درجات المسرح التى اختفت تحت الرمال، أما الأعمدة فقد تلاشت ولم يتبق من صلب البناء سوى ارتفاع على شكل سنم يبلغ مترًا تقريبًا ويمتد بطول مائتين وثلاثين مترا، وهناك عمودان أسطوانيان فى طرفى هذا المضمار.

ويقدر عرض الساحة التى شيد عليها المسرح المكشوف بحوالى ٩,٢٥ م، وهو يضم أربع درجات مزدوجة ضيقة على الجانبين تؤدى إلى قمة المسطح والمدخل المقبي موجود بطرف الحرم، وهناك ثلاث فتحات كبيرة تربط خارج المسرح بداخله اثنتان منهما توجد بين درجات السلم والثالثة فى محور صلب البناء(١).

وأسفل الدرجات كانت هناك قاعدة عمود، ونجد بالقرب من الزاوية اليسرى أنقاض عمودين هما - بلا شك - من بقايا البهو المغطى المحيط بالمسرح والمندثر فى الوقت الحالى(٢).

---

(١) انظر اللوحة ٦٠ - المجلد الرابع - الشكلين ١٦ و ١٧ .

(٢) من المحتمل وجود عمود ضخم عند سفح المسرح، وبالإضافة إلى هذين العمودين يوجد فى وسط البهو أنقاض عمودين آخرين.

والحائط الخارجى للبناء مائل قليلاً ويشبه إلى حد ما الصروح الفرعونية، والارتفاع الظاهرى له - شامل القاعدة - يصل تقريبًا إلى اثنى عشر مترًا [(١)] إذ يصعب تقديره بصورة دقيقة لتراكم الرمال عليه من جميع الاتجاهات وحتى القمة، ويتجه محور هذا البناء ناحية مفترق أنتينويه الكبير .

وهناك مساحة فسيحة بين صلب البناء وسفح المسرح تصل إلى أكثر من عشرين مترًا تسمح بمرور عشر عربات بكل سهولة ويسر، وعلى الرغم من اتساع هذا الأثر إلا أن مسارح روما كانت أكبر منه إذ أن مسرحى كاراكالا ورومیلوس يبلغ كل واحد منهما أربعمائة متر تقريبًا وتبلغ أبعاد طول وعرض مسرح أنتينويه حوالى ٤ إلى ١ و هى أبعاد تقل عن مسارح روما التى كانت تبلغ عادة من ٥ إلى ١ .

ونعلم أن المسرح الرومانى الكبير كان يضم مسلة على النمط الأغسطينى أما فى أنتينويه فقد كان من السهل جلب مسلة من الوجه القبلى إلى المسرح، ومن اليسير علينا الاعتقاد بأن الإمبراطور هادريان شيد إحدى هذه المسلات الرائعة فى المضمار الذى بناه غير أننا لم نعثر على أى أثر لهذا العمل .

ومساحة المضمار - وفقًا للمقاييس المصرية - جديرة بالاهتمام؛ فالطول الكلى يبلغ ألف قدم مصرى أو عشرة بليثرونات ويصل طول صلب البناء إلى سبعمائة وخمسين قدمًا وعرضه عشرين، أما طول العمود بلا قاعدة - النصف الدائرى و الذى يقع فى طرف المضمار - فيصل إلى أربعين قدما، والمسافة بين مدخل المضمار وصلب البناء مائة قدم وبين طرفه ونهاية المسرح عشرون قدما، أما طول منفذ خروج المسرح فيبلغ مائة وتسعين قدمًا وعرضه الإجمالى مائتين وخمسين أى ما يوازى ربع الطول الكلى [(٢)].

ومن الواضح أن هذه المقارنات الدقيقة ليست تخمينية، ونستنتج منها أن الفنانين المصريين عندما وضعوا خريطة هذا البناء - لجأوا إلى استخدام المقاييس المصرية التى اعتادوا عليها .

---

(١) الشكل ١٧ ، اللوحة ٦٠ تحمل خطأ الموقع رقم ٤ بدلاً من ١٢.

(٢) انظر اللوحة ٦٠ - الشكل ١٦ - المجلد الرابع وشرح اللوحات . انظر دراستى عن «نظم القياس عند قدماء المصريين» الفصل الرابع ، المبحث الخامس .

والأمر الواضح هو أن طول صلب البناء يساوى قاعدة هرم منف الكبير[١] مما يدل على أن الإمبراطور هادريان ـ الشغوف بالآثار المصرية القديمة[٢] ـ عمل على تطبيق المقاييس المصرية على أثر خاص به؛ تلك المقاييس التى تذكرنا بأعمال وانجازات هذا الشعب الشهير، وفى النهاية يمكننا القول بأن هذه المقاييس هى نفسها المقاييس الإغريقية فالقدم الهيكاتومب توازى مقياس القدم المصرى[٣].

ولنطالع النص التالى والطريف للمقريزي عن هذا الأثر: «إن مدينة أنتينويه من أهم مدن الصعيد وبها بناء مدرج يستخدم لقياس نهر النيل وهو محاط بأعمدة من الجرانيت الأحمر تتباعد عن بعضها البعض بمقدار خطوة وعددها يساوى بضعة أيام من السنة الشمسية»[٤].

من المؤكد أن المقياس المذكور لنهر النيل لم يكن له وجود فى هذا المدرج بما أن مستوى نهر النيل كان أعلى بكثير فى عهد قدماء المصريين، ولقد أثارنى الفضول لقياس المسافة بين الأعمدة فى تلك المنطقة وبين صلب البناء وسفح المسرح وفقًا لما أورده المقريزى فوجدت أن المحيط الداخلى يصل إلى ستمائة متر وثمانية ومحصلة هذا الرقم بعد قسمتها على ٣٦٥ تبلغ ١,٦٧م بين كل عمود و آخر، وإذا ما افترضنا أن سمك الأعمدة الضخمة يصل إلى ٠,٩م تصبح المسافة بين العمودين ٠,٧٧ م ـ أى ما يوازى الخطوة العادية للرحالة هيرون أو ابيفان، ويمكننا طرح افتراضات أخرى مماثلة[٥] ولكن الشىء المؤكد هو أن هذه الأعمدة

---

(١) المقياس المسجل من أعلى قاعدة الهرم هو ٩ ، ٢٣٠ م (انظر البحث المذكور أعلاه- الفصل الثالث المبحث الأول) و مقياس المسرح الرومانى هو ٢٣٠ م، والتسعة ديسيمترات الباقية تشكل فارقًا لانكاد نلحظه ١/٢٥٦ و يمكن أن نعزيه إلى عملية القياس أكثر من كونها خطأ إنشائيا .

(٢) هذا الأمير كان شغوفا بكل ما هو بارع .

(٣) انظر البحث المذكور أعلاه .

(٤) انظر «مذكرات جغرافية عن مصر» بقلم اتيان كاترمير .

(٥) انظر بحثى عن «نظم القياس عند قدماء المصريين»، الفصل التاسع المبحث الاول . و لقد قمت أيضًا بحساب المحيط الخارجى فبلغ ستمائه و خمسين مترا و المسافة بين عمود و آخر كانت ١,٧٨م . و بافتراض نفس هذا القطر للأعمدة تصل المسافة بين جذوع الأعمدة إلى ٠,٨٨ م أو ثلاثة أقدام رومانية .

الضخمة تترك أثرًا واضحًا فى النفس، ونحن نندهش من عدم وجود عمود واحد فى مكانه؛ غير أن الزمن والرمال المتراكمة على البناء كفيلة بمحوه من على سطح الأرض.

ووفقًا لروايات بعض الكتاب فقد كان يتم تنظيم الاحتفالات الرياضية فى أنتينويه، ولنقتبس النص التالى من جيروم : «لقد قاموا بتشييد معابد ومقابر للموتى، واليوم نرى أنطونيوس ـ المفضل لهادريان قيصر ـ يتم تخليده فى المدينة التى تحمل اسمه والتى تنظم فيها الألعاب الرياضية، لقد قام هذا الأمير ببناء معبد خاص لانطونيوس ونذر له ». وقد كان المضمار وأثر الجنوب هما مسرح هذه الألعاب التى كانت تقوم على المصارعة والقتال بكل أشكاله وسباق العربات و الخيول، ومن الصعب التكهن بأية أفكار عن هذا الموضوع؛ إذ أن التاريخ لم يترك لنا أية تفاصيل .

المبحث الثامن

صفات الأعمدة والشوارع الرئيسية لمدينة أنتينويه ـ تمثال انطونيوس

لم يتبق فى الوقت الحالى من شوارع مدينة أنتينويه – التى كانت تقسمها إلى أحياء مختلفة ـ سوى شارعين واضحين: الأول هو الطريق الطولية التي تمتد من المسرح وحتى الباب الشمالى ـ الغربى، الثانى هو الطريق المستعرضة الممتدة من قوس النصر وحتى الباب الشرقى وبهما القليل من الأنقاض. وكانت المعابد والآثار والأعمدة الضخمة الدورية والإغريقية متراصة على جوانب هذه الطرق ولم يتبق منها اليوم سوى الجذوع أو القواعد ذات الأحجام المتواضعة ولكن كثرتها وتعددها يولد أثرًا ساحرًا فى النفس خاصة لو تخيلناها مزخرفة وتحمل

التماثيل، وعرض هذه الشوارع يصل إلى ستة عشر مترًا تقريبًا[١] وكانت مخصصة لسباق العربات .

ولقد قيل إن الشارع الطولى كان يبلغ ١٣٠٨,٥ م والشارع المستعرض ٩٥٤ م، والمسافات بين الأعمدة بالقرب من الرواق[٢] تصل إلى ٣,٠٤م و ٣,٤ م بالقرب من الأعمدة الضخمة[٣] والمتوسط العام فى كل المدينة يبلغ ٣,٢٢ م، وبلغ عدد الأعمدة ـ بغض النظر عن المفترقات ـ سبعمائة واثنين وسبعين فى الشارع الطولى وخمسمائة و اثنين و سبعين فى الشارع المستعرض؛ هذا عدا الأعمدة بين الحرم ورواق المسرح فى الشارع الأول و الأعمدة بين الحرم والباب الشرقى فى الشارع الثانى ـ إذا ما كانت الأعمدة الضخمة تمتد فيما وراء هذا الباب ـ وعدا الأعمدة بين قوس النصر والنيل .

ولاتزال أجزاء كثيرة من هذه الشوارع على حالها حتى اليوم وتغطيها طبقة رقيقة من الرمال، أما قارعة الطريق بالقرب من البوابة فهى نظيفة تمامًا وتتكون من أحجار جميلة مقطوعة ومتراصة وفقًا لنمط الطرقات الرومانية.

وأنصاف التماثيل لاتزال موجودة على أعمدة الشارع الطولى؛ ولكن معظم أجزائها محطمة بطريقة مرعبة ومبعثرة هنا وهناك خاصة فيما بين الرواق وأعمدة سيفيروس، وبمقارنة هذه الأنقاض وجدنا أن كلها لأنطونيوس ومن هنا نستنتج أن وجهه كان يكسو أعمدة الشارعين ، وما أبرز هذا المثال على حب هادريان له، ومن الواضح ـ أيضًا ـ أن هذه الأعمدة الضخمة كانت بمثابة البهو المغطى الذى يقى من أشعة الشمس، وعلى بعد مترين تقريبًا خلف الأعمدة نلاحظ وجود أنقاض أسوار ربما تكون بقايا واجهات أبنية شيدت على جانبى الطريق .

---

(١) أكثر من تسعة وأربعين قدمًا.

(٢) انظر اللوحة ٦١ ، الشكل ٢٥ .

(٣) انظر اللوحة ٦٠ ، الشكل ١٨.

وبالقرب من محور مفترق طريق قوس النصر عثرنا على تمثال لأنطونيوس بالحجم الطبيعى من الرخام الأبيض وبكل اتقان إلا أنه محطم الرأس والساقين والذراعين، ولقد بحثت عنهم بالفعل. وفى أثناء رحلتى الرابعة إلى مدينة أنتينويه نقلت معى هذا الجزء من التمثال إلى القاهرة ولكن الأحداث الحربية أجبرتنى على تركه فى الميناء واختفى بعدها. و قد كان هذا التمثال بهيئته رمزا للشباب والصرامة والمرونة المملوءة بالرضا إذ أن الجسد عاريا ولا يغطيه سوى وشاح على كتفه الأيمن ويمر بالجانب الأيسر للجسد[١].

وأعمدة شوارع أنتينويه لا تنم عن النمط الدوري اليونانى المحض فهى أقل ارتفاعا وقطرها العلوى يقل عن الأعمدة المسماة بوستم[٢] ويختلف التاج ـ أيضًا ـ عن التيجان المعروفة ولكنه يقترب من نمط معبد توريثون[٣] ويبلغ القطر العلوى للعمود بالقرب من الرواق ٠,٦١ ، والسفلى ٠,٧ م، أما عرض عصابة التاج فتبلغ ٠,٨٣ م . وبالقرب من الأعمدة التذكارية يزيد القطر السفلى للعمود عن ديسيمتر ـ أى أنه يبلغ ٠,٨ م ولكن هذا الفرق غير ملحوظ بالعين المجردة. ومن الصعب استنتاج الارتفاع الكلى للأعمدة[٤] .

وعلى ما يبدو فقد كان هناك شارع آخر مستعرض عند الموقع الذى شيدت فيه أعمدة سيفيروس ولاتزال هناك بعض الأطلال القليلة التى تدل على وجوده؛ فالأنقاض متراكمة لدرجة أنها تخفى آثار الأعمدة والأبنية؛ هذا إذا ما كانت أصلا موجودة على جانبى الطريق[٥]. وطريق قوس النصر المستعرضة هى التى تربط اليوم بين النيل والجبل والأودية التى تصب فيه وهذا هو ما ساعد على بقائه نظيفًا بدون أنقاض؛ ولكن الطريق التى أتحدث عنها لا تصلح إطلاقًا للسير فالركام يغطيها بالكامل.

---

(١) انظر اللوحة ٥٩ ـ الشكلين ٣ - ٤ .
(٢) انظر اللوحة ٥٤ الشكل ٢ ـ النقطة I ـ واللوحة ٦١ الأشكال من ٢٦ إلى ٢٨.
(٣) انظر المقارنة بين المبانى القديمة والحديثة بقلم دوران ـ اللوحة ٦٣ .
(٤) هناك جذوع مقطوعة ولم تتعدى ٣,٦ م وأخرى تصل إلى ٤م.. إلخ
(٥) انظر الخريطة العامة ، اللوحة ٥٣ .

ولقد سبق وتحدثت عن الوادى الرملى الذى يعبر المدينة بين الرواق وقوس النصر وبما أنه لازال قائمًا حتى الآن ويستغل كشارع مستعرض عامر بالمنازل فيجب شرحه باختصار؛ يزداد عرض هذا الشارع بدءًا من النيل و حتى الحرم الشرقى مع وجود منحنى فى وسطه. فعند النهر يصل عرضه إلى أربعة وثلاثين مترا، فى الوسط واحد وستين وفى نهايته نحو الصحراء مائة وستة وعشرين، وطوله الإجمالى يبلغ سبعمائة وواحد وأربعين مترًا دون المسافة بين النيل وحدود أنقاض الفرب .

ولقد أخطأنا حين أطلقنا على هذا الوادى لفظ قناة إذ أن الأهالى يطلقون عليه «وادى الجاموس» وهناك بعض الزراعات على جانبيه، ومستوى حوضه أعلى عن حوض نهر النيل على الرغم من أنه أقل انخفاضًا حتى بدا لى أنه أرض الشارع الرئيسى، ولا يصله النيل اليوم إلا فى أثناء الفيضانات الشديدة؛ إذا ما صح أن المياه تصله، ويمكننا القول بأن هذا الوادى يعتبر ـ بشكل ما ـ عكس فروع النيل إذ أن مياه الأمطار تسقط من أعلاه ولقد أكد لى الفلاحون أنهم شاهدوا المياه تسقط من أعلى الجبل عبر هذه الطريق(١)، و هضبة الصحراء قليلة الارتفاع فى هذا الموقع وتتخللها الأودية التى تتجمع فيها مياه الأمطار الشتوية لتحملها بعد ذلك إلى السهل الرملى فى شرق أنتينويه، وعند وصول المياه إلى المخرج الواسع للوادى تتجمع لتصب فى النهر بسرعة كبيرة لدرجة أنها تحفر الجبل(٢).

وكتلة البناء الكبيرة المسورة التى بناها الرومان كانت تهدف بلا شك إلى حماية المدينة من السيول أكثر من حمايتها من الأعراب الرعاة، وموقع المدينة نفسه يدل على أن بناء السد كان بغرض حمايتها من مياه الأمطار المفاجئة، وفى مدخل السيل بنى الرومان سدًا من الأحجار الصدفية وفى وسطه باب ولاتزال أنقاضه موجودة حتى الآن. و قد يندهش القارئ من حديثى عن الأمطار

(١) انظر اللوحتين ٥٣ - ٥٤ .

(٢) انظر اللوحة ٥٣.

والسيول فى مصر لكن على عكس ما هو شائع؛ تتعرض الضفة اليمنى للنيل كل عام لسيول هائلة ومفاجئة تسبب أضرارًا جسيمة والأهالى يحططون لذلك بقدر استطاعتهم، ولقد عاصرت فى شتاء عام ١٨٠١ إحدى هذه الأمطار الرعدية والخسائر التى سببتها[1]، ومن جهة أخرى، رأيت العديد من الوديان الضيقة والمتقاربة التى يتراوح عمقها من متر إلى مترين مما يؤكد سرعة جريان المياه فى هذه الممرات، وهناك أيضًا رؤوس جبل مرتفعة بين النهر والبحر الأحمر تعمل على تجميع السحب التى تساعد على هطول الأمطارعلى وادى النيل وتفتح لها الأودية مجارى تسيل فيها.

وجوانب مجرى السيل فى «أنتينويه» محاطة بأبنية من الطوب الأحمر متهدمة إلى حد ما، وهكذا فمن الواضح أن السد الرومانى تم إنشاؤه على هذا المدخل الذى يرجع تاريخه إلى عهد إنشاء المدينة بعد أن أدرك مؤسسوها هذا الظرف الموسمى، ومنحنى الأرض هو الذى يحدد اتجاه مياه الأمطار ولا يستطيع أى عامل آخر تغيير هذا الاتجاه وما فعله الرومان من تشييد للسد والكتلة الصخرية المسورة على ارتفاع عال كان هدفه - فقط - تغيير مسار المياه عن طريق جنوب المدينة . وأختتم قولى بأن عرض هذا الوادى الذى يصل فى المتوسط إلى ٢٤ مترًا يساعد على تقدير منسوب المياه التى كانت تغرق - أحيانًا - حوض النهر وبالتالى كمية المياه التى تهطل على الوادى .

المبحث التاسع : الحمامات

أطلقت هذا الاسم على البناء الكبير الذى تدل أنقاضه اليوم على أنه كان يستخدم كحمام شعبى، وهو من أكبر الأبنية بعد المسرح المكشوف والمضمار، ولا

---

(١) تثبت ينابيع المياه فى أديرة القديس أنطون والقديس بولس المبنيه فى الجبل وجود مجارى السيول بكثرة فى السلسلة العربية، وقد اكتشفها كل من رافنو وبرت أثناء رحلاتهم الاستكشافية فى الصحراء شرق «أسيوط» وعلى ارتفاعات عالية من هذه الينابيع، وقد أطلق أحد هؤلاء الرحالة اسم جبل الدخان على السحب الكثيفة المستقرة أعلى الجبل المسمى بهذا الاسم والتى لا يسببها أى بركان.

نستطيع تحديد أبعاده الهندسية من خلال الأنقاض التى تشير إلى وجود عدد كبير من الأبنية المنهارة أو المساوية لسطح الأرض، ونشعر من أول وهلة أنه ركام لدعامات وأسوار وأعمدة غير متناسقة لأثر لا يمكن إعادة تصميم الجزء الأكبر منه على الأقل(١).

ويقع مدخل هذا البناء فى الشارع المستعرض بين مفترق الطرق الرباعى والباب الشرقى ونستطيع التعرف على عرضه بواسطة جانبه الشرقى الذى مازال قائما ؛ و بافتراض تناسقه فإننا نقدره بثمانية وسبعين مترًا ونصف؛ غير أنه من العسير علينا تقدير عمقه لأن أجزاء المبنى الخلفية مطموسة المعالم ولكننا نقدره بثمانية وستين مترا .

وكانت الواجهة بارزة وتتكون على الأقل من ثمانى عشرة دعامة مربعة مرتفعة ومقسمة إلى قسمين عريضين كل منهما يوازى ٠,٨٥م على ١,٣٣ م . على بعد ستة أمتار من الخلف نجد الهيكلين الآساسيين للبناء القائمين على دعائم وواجهتها الجانبية مزينة بأعمدة وهناك حائط عمودى على محور البناء وعلى مسافة ١٧,٧ م من الواجهة وعدة أجزاء من أسوار تتجه لنفس محور هذا الخط، يدل هذا التصميم على أن الحمامات كانت مقسمة إلى قسمين متساويين و ذلك على الأرجح لفصل الرجال عن النساء، وعلى بعد ٢٣,٨ م يوجد محور المبنى وعلى مسافة أبعد منه ـ ٢٢,٥م ـ نجد غرفًا كبيرة وممرات تبدو وكأنها مدخل الحمامات. وهناك القليل من الأعمدة فى هذا البناء وجناحاه مزينان بعمودين ودعامتين وأنصاف أعمدة، ونرى على اليسار فى الجزء الخلفى بقايا رواق بعمودين وسقف على اليمين، وباقى الأنقاض عبارة عن دعامات تدعم عقودًا من أعلى غير أن هذه العقود انهارت بأكملها .

ويبلغ ارتفاع الأعمدة الصغيرة الناتئة ٦,٥ م بدءًا من أعلى التاج وحتى أسفل القاعدة، وفى الداخل وعلى اليسار نجد أنقاض عدة أبواب وحجرات صغيرة

---

(١) انظر اللوحة ٦١ ، الشكل ٢٢ . لم نعيد رسم هذا البناء مرة أخرى لكى نترك للقارئ المتخصص حرية تخيل تصميمه.

مـربعة كانت مخصصة بالطبع للمستحمين؛ هذه البوابات ـ على ما يبدو ـ كانت تؤدى إلى الأروقـة والممـرات التى تقسم المبنـى إلى عـدة تقـسيـمات. وهـناك فى بعض الأماكن المتفرقة أجزاء من مواقد وأبنية من الطوب الأحمر وقد غطت عدة جدران بالرخام، ونحكم علي ذلك ـ على الأقل من خلال الثقوب التي استخدمت لتثبيت ألواح الرخام علي هذه الجدران . كما توجد أجزاء من حوض كبير دائرى من الرخام كان يستخدم بلا شك للاستحمام يصل عرضه إلى ٤م[١] و عمقه إلى ٠,٣٥م أما ارتفاعه الكلى فيصل إلى ٠,٧٥م ويبلغ سمك جدرانه ٠,٤٢٣م. ولقـد تم نقل هذا الحوض إذ نجده اليوم على بعد اثنى عشر مترًا تقريبًا من يسار المحور وأربعة عشر مترًا من الطريق ؛ مقطعه الجانبى دائرى وعلى شكل تضليعة وأسفله منبسط تمامًا، وهناك حمام آخر يصل قطره إلى أكثر من عشرين قدما أو ٦,٥م .

ووسط هذه التكدسات عثرنا على أنقاض أفاريز وكرانيش وأعمدة وحوائط لاتزال بعض أجزائها قائمة؛ غير أن هذا الدمار لم يسمح لى إلا برسم خرجة[٢] واحدة، و إذا ما كان متاحًا لنا فيما بعد البحث بين هذه الأنقاض سوف نكتشف بالطبع أشياء أخرى ثمينة .

المبحث العاشر: أبنية مختلفة فى مدينة أنتيويه

عند اتجاهنا إلى الشارع الكبير بدءًا من الرواق وبعد اجتيازنا الوادى الكبير نجد على يسارنا عدة أبنية أقل ضخامة من المبانى السابقة وشبه متهدمة: البناء الأول ـ الذى يتجه إلى الشرق ويشكل زاوية مع الطريق ـ عبارة عن واجهة مكونة من أربعة أعمدة كورنثية[٣]، والبناء الثانى يتكون من أربعة أعمدة كل اثنين منهما يشكلان مجموعة واحدة، والمبنى الثالث عبارة عن قاعة تضم صفين من الأعمدة

---

(١) انظر اللوحة ٦١ ، الشكلين ٢٣ و ٢٤ .
(٢) انظر اللوحة ٦١ ، الشكل ٢١ .
(٣) انظر اللوحة ٥٣ .

كل صف منهما به ست دعامات ، وبينهما صفان كل منهما يتكون من ستة أعمدة و هناك قواعد ذات نمط خاص[١] .

وعلى بعد أربعة وثلاثين مترًا من مفترق الشارع الطولى توجد واجهة لأعمدة ضخمة مضلعة[٢]، وبالقرب من مفترق الطرق المواجة لقوس النصر نجد بعض الخرجات الكورنثية، وفى المسافة التى تفصل الوادى عن الشارع المستعرض نجد خمسة آثار لا تقل أهمية عن المسرح وقوس النصر .

وفى الشارع الطولى نجد قاعة شبيهة بالقاعة المذكورة تتكون واجهتها من دعامتين وعمودين كورنثيين مضلعين[٣]. وهناك صفان من خمس دعامات وصفان من خمسة أعمدة معظمها كورنثية ولاتزال كما هى. الدعامات التى تحد الطريق تقع على محور صف الأعمدة الدورية - الإغريقية، وهناك نصف عمود يستند على كل من الدعامات الأمامية ليصلها بصفة الأعمدة. والعمود الدورى تختلف أبعاده قليلاً عن الأبعاد التى سبق وذكرناها، فارتفاع الجذع من أعلى الركيزة المزخرفة يبلغ ٣,٦ م والتاج ٠,٢٦م، أما القطر العلوى فهو٠,٥٥م بدلاً من ٠,٦١م ويصل الارتفاع الكلى للدعامات والأعمدة إلى ٨,٤٧م والتاج ١,١٠م.

وإذا ما اتجهنا من قوس النصر ناحية الباب الشرقى من خلال شارع الحمامات نجد على يسارنا أنقاض بناء يتكون من أعمدة من الرخام الأبيض . على اليمين - أعلى قليلاً - نجد رواقًا من أربعة أعمدة مضلعة أيونية الطراز وخلفها بناء ضخم له باب وأربعة أعمدة أخرى لاتزال قائمة حتى الآن و يبلغ ارتفاع جذعها - باستثناء القاعدة والتاج الذى يبلغ ٠,٤١ م - ٦,٧٥ م، أما قطرها فيصل إلى ٠,٩١م ، وواجهة المبنى تبلغ ١٠,٥٨م وارتفاعها ١١م

---

(١) انظر اللوحة ٦٠ ، الشكلين ١٤-١٥.

(٢) انظر اللوحة ٥٣ .

(٣) انظر اللوحة ٦١ ، الأشكال ١ إلى ٦ .

(٤) انظر أعلاه - المبحث الثامن واللوحة ٦٠ - الشكل ١٨ ؛ اللوحة ٦١ . الشكلين ٢٥-٢٨.

وتصميمها شبيه برواق المسرح ، والفارق الوحيد بينهما هو استبدال الدعامات ذات الزوايا بالأعمدة، يبلغ عدد التضليعات المحفورة أربعًا وعشرين ويصل عمقها إلى ٠,٠٤م وهى تبدأ عند ارتفاع ٢,٣٤ م من القاعدة[١] .

وعلى مسافة أبعد من ذلك ، نجد أنقاض مبنى أعمدته من الجرانيت يصل سمكها إلى متر تقريبًا، وتليه الحمامات التى سبق ووصفتها، وفى طرف الطريق هناك عمودان ناتئان كورنثيان لازالا كما هما منفصلان بطول وعرض الطريق، وهما لمبنيين رائعين و يشكلان الباب الشرقى. والمبنى مزخرف بأعمدة من الجرانيت ملقاة حاليًا على الأرض إلى جانب بعض الكتل الجرانيتية، والأرض تكسوها الأنقاض والخرجات من الحجر الصدفى والأفاريز المزينة بزخارف ثلاثية الأخاديد ونجمية، والنقش تم بذوق رفيع واتقان رائع!! واختلطت هذه الأجزاء ببعضها حتى أننا لا نستطيع تكوين فكرة واضحة عن الأثر الذى نندهش من ابتعاده عن الحرم بصفة عامة على الرغم من أن هذا الأثر يعتبر مخرج المدينة من الناحية الشرقية[٢] ؛ ولكن هذا هو حال البوابة خلف المسرح من الناحية الجنوبية.

وعند عودتنا حتى المفترق تجاه الشارع الكبير فى الشمال الغربى، نجد الكثير من الأطلال المختلطة ببعضها والمدفونة تحت الأنقاض ونستطيع بالكاد أن نرى هنا وهناك أجزاء من أعمدة وأسوار. وتجاه اليسار نجد دعامات تستند عليها أنصاف أعمدة فى أحد الجوانب و طبقًا لأبعادها فإنها تعتبر بقايا لصفوف أعمدة[٣]، وهناك أجزاء أصغر منها بكثير[٤]. بالقرب من أعمدة سيفيروس الأسكندر ـ فى نفس الشارع ـ وعلى مقربة منها نجد بناء ذا أعمدة ناتئة كورنثية

---

(١) انظر اللوحة ٦١ ، الأشكال ٧ إلى ١٤ .

(٢) بين الحرم والمبنى نجد أنقاض سياج من الحجر. ويخبرنا بلزاك أنه شاهد بعض الساحات تستخدم كمنتزه ولكننا لم نعثر عليها على الرغم من بحثنا عنها إلا إذا كان يقصد المضمار والوادى.

(٣) انظر اللوحة ٦٠ ـ الشكل ١٠.

(٤) انظر اللوحة ٦٠ الشكلين ١١-١٢.

و يبعد عن صف الأعمدة بحوالى ستين مترًا ثلاثة من هذه الأعمدة تشغل مساحة ٨,٨ م.

وبعد اجتيازنا لأعمدة الأسكندر وفى طرف الشارع الطولى نجد مبنى الشمال الفربى، وهو مبنى مربع ومحاط من الشرق والغرب بأسوار لاتزال واضحة المعالم حتى اليوم و يصل ارتفاعها إلى ثلاثين مترًا تقريبا. وهناك رواق يحيط بالمبنى، أما أبوابه فهى فى أركان المسطح المسور، والبناء تهدم حتى أعلى الدعامات ولا نرى منه سوى نتوءات القواعد، ومن الصعب التكهن بتصميمه؛ إلا أن شكله العام يدل على أنه مقبرة ربما تكون لانطونيوس نفسه[١] .

وعلى مسافة تبعد ستة وعشرين مترًا من الأثر الشمالى الغربى و بمحازاة الحرم نجد دعامات ضخمة تبدو وكأنها أنقاض باب كبير لاستقبال المنتصرين ويؤدى إلى بوابة المسرح و نشاهد هناك أنقاض أسوار وقواعد وخرجات... إلخ والمسافة بين الباب الأخير والحرم الجنوبى تصل إلى ألف وستمائة واثنين وعشرين مترًا وهى عبارة عن خط مستقيم لشارع واحد .

وفى وسط أنقاض المدينة نجد أنقاض قاعة أخرى كورنثية لم نجد أعمدتها فى أماكنها والدعامات تم تشييدها ونفيذها بدقة جميلة. ويبلغ ارتفاع جذع العمود ١٠,٩٦ م والتاج ٢,٠٤ م، ويتكون الجذع من ستة عشر حجرًا أما التاج فمن ثلاثة أحجار وفى الجزء السفلى هناك أجزاء لخرجات[٢] .

تلك هى الأطلال الرئيسية لأبنية أنتينويه الجديرة بالوصف؛ غير أننا نرى فى مواقع أخرى أعمدة مهدمة وأحجار رخامية، وبعض هذه الأعمدة سقط على حاله ولكن تكسوه تلال الأنقاض، أما الأعمدة الجرانيتية ـ وهى بالطبع ليست من الأعمال الرومانية ـ فإنها تدل عل اكتظاظ مدينة هيرموبوليس بها وبعض المدن الأخرى التى استغلت هذه المواد الفنية .

---

(١) انظر اللوحة ٥٣ وشرح اللوحة فى بحث عن آثار الشمال الغربى.

(٢) انظر اللوحة ٦١ ، المناظر ١٦ إلى ٢٠ .

المبحث الحادى عشر: الطراز المعمارى لآثار أنتينويه ـ مقارنة بين تلك الآثار والأبنية الأخرى من نفس النوع

أوضحت فى الفصول السابقة المكانة التى تحتلها أبنية أنتينويه وفن تنفيذها؛ غير أن هذا النمط يختلف رونقه من موقع إلى آخر ويجب علينا الآن وصف أجزاء الأبنية التى تفتقر إلى الذوق والجمال. ونعرف أن عهد الإمبراطور هادريان هو العصر الذى بدأ يضمحل فيه الفن ويحل الذوق الشاذ فيه محل البساطة، وعلى الرغم من أن تصميم الآثار ظل يخضع للقانون الموحد للمقاييس الذى يمثل أساس فن العمارة ولأنظمة البناء الرائعة إلا أن ذوق الزخرفة اتسم بكثير من التصنع؛ فلا وجه للتعجب إذن إذا ضربت المدينة التى شيدها هادريان المثل على هذا التدهور الفنى.

ويظهر هذا التصنع فى قوس النصر أكثر من غيره؛ فقد شمل الثلاثة أنماط مجتمعة بصورة مزعجة مهما كانت البراعة فى صقل أحجاره وفى نحته، فالنمط الكورنثي يختلط بالدورى والدعامات الضخمة من نفس هذا النمط الأخير إلا أن ارتفاعها يصل إلى عشرة أمتار ونصف والأعمدة الأخرى التى يصل ارتفاعها إلى نصف ارتفاع الأعمدة الأولى شيدت على النمط الكورنثى، وخرجات الأعمدة الأمامية كورنثية وتختلط بخرجات أخرى دورية تشكل قاعدة الجبهية.

وعلى الرغم من أن قوس اوريليوس والقوس المنسوب لجانوس من النمط الكوررنثى إلا أنهما يجمعان بين نمطين، وتعدد الزخارف المختلطة فى هذا القوس الأخير يولد أثرًا سيئًا عند مشاهدته ؛ و ذلك مرجعه الأعمدة الأربع الناتئة التى تبدو وكأنها مغلفة بدعامات أخرى أصغر منها، وأخيرًا فإن ارتفاعات الأقواس تزيد قليلا عن المعتاد.

والجبهيات نادرة فى الأقواس خاصة تلك التى تشغل السطح بأكمله[١]، ونذكر من بين أجمل أقواس النصر قوس أغسطس فى ريمينى وقوس ماريوس

---

(١) لا أعرف فى هذا الصدد سوى قوس بالميرا وقوس هادريان فى أثينا .

فى أورانج وهى الآثار التى تقع جبهيتها فى واجهة السطح، أما فى أنتينويه فالجبهية لا تتوج السطح ولكن تشغلها بالكامل . والعيوب السابق ذكرها لا تتيح لنا مجالاً لمدح هذا البناء سواء فيما يتعلق بالتنفيذ أو الذوق الرفيع أو جمال التفاصيل.

ولم تسلم - أيضًا - أعمدة سيفيروس الأسكندر من بعض النقد؛ فأبعادها قصيرة جدًا مقارنة بالنمط الذى تنتمى إليه، والجذع شاملاً التاج لا يزيد قطره عن تسع وحدات، والتاج عريض جدًا فى القمة ويبدو كالمضغوط بالعتب. والزخرفة فى أسفل العمود أفقدت الجذع رونقه ولا نجد نظيرًا له إلا فى الإمبراطورية البيزنطية فى دير القديس جون دو لاتران على سبيل المثال المسمى بدير قسطنطين وكذلك فى حمامات نيم[1]، والجزء المزخرف بأوراق الشجر أقل ارتفاعًا من زخرفة أعمدة الأسكندر، وهناك أعمدة مزخرفة بهذا الشكل بمعبد أغسطس فى ميلاسا [2] .

وللجزء السفلي من القاعدة ثمانى زوايا بدلاً من أربع دون أية ضرورة لاستخدام هذا الشكل، والنتوءات العلوية والسفلية للقاعدة ينقصها هى - أيضًا - الجمال؛ فزواياها حادة وهو ما لا نجده فى أى نمط من أنماط زمن الفن الرفيع، والأعمدة غير منتفخة وهو ما قد يعد تقليدا للأعمدة المصرية ، ويصدق ذلك على الزخارف النباتية التى تزين الجزء السفلى من الجذع لأن الأعمدة المصرية كانت - دائمًا - مزينة بالأزهار وأوراق الأشجار. وأخيرًا فإن القاعدة تبدو ضعيفة لحمل عمود بمثل هذا الارتفاع ولقد أوضحت بالفعل أن الأعمدة المنفصلة - ومثال على ذلك أعمدة تراجان وانطونيوس - كانت من النمط الدوري فى حين أن تلك الأعمدة نمطها كورنثى، وهناك - أيضًا - فى بالميرا عمود معزول من نفس النمط الأخير .

---

(١) انظر المقارنة بين المبانى القديمة والحديثة ، بقلم دوران ، اللوحة ٧١ .
(٢) نفسه ، اللوحة ٢٠.

ورواق المسرح هو - دون منازع - أفضلها. والملحوظة الوحيدة التى نذكرها هى أن أوراق الشجر المنحوتة على التاج أكثر اتساعًا من الجذع وتتعدى الكميبة*. ولقد سبق وأوضحت أن إعادة تصميم هذا الأثر ومجموع الأبنية التى تتقدم المسرح صعب للغاية ولكن المؤكد هو أن هذا الرواق يؤدى إلى المسرح. والأمر المحتمل هو وجود بهو فسيح بنفس مساحة المسرح يقع خلف الرواق محاط بأعمدة وكان يستخدم كمتنزه كما هو الحال فى عدة مسارح رومانية، ويلى هذا البهو عدة أبنية كالمسرح وخشبة المسرح التى لاتزال واضحة المعالم حتى اليوم؛ غير أننى لم أر فى أى مكان دعائم يتصل كل اثنين منها ببعضهما كما نراه هنا.

ويمكننا مقارنة اتساع مسرح أنتينويه بمساحة مسرح أوتريكولى فى أومبريه ومسرح كاتان ؛ فالقطر يكاد يكون مطابقًا لقطريهما ولكنه أصغر من مسرح مارسيللوس، وأوتريكولى له بوابة فى نهايته كما هو الحال فى أنتينويه، وبالنسبة للتصميم؛ فهذا الأخير يقترب كثيرًا من مثيله فى تاورمينا؛ وهكذا تخيلنا تصميمه(١).

وصفات الأعمدة من النمط الدورى الإغريقى والتى تزين الشارعين مسرح أنتينويه . سبق وقلت إن تاج الأعمدة يتقارب مع مثيله فى معبد توريسيون(٢) ولهما تقريبًا نفس الأبعاد ونفس التصميم؛ فهناك تحت العصابة خيطية مربعة، ونجد تحتها شكلاً مخروطيًا وعدة مقولبات أو خيطيات تربط العمود بالجذع ، والفرق الوحيد بينهما هو أن هذه الخيطيات مقوسة فى حين تأخذ فى الشيخ عبادة شكلاً مربعًا تماما . و بعد إهمال وهجر النمط الدورى فى عهد هادريان، بدأ التراث الفنى يتدهور و يأخذ طابعًا مشوها. والشىء المميز لهذا التاج عن مثيليه فى معابد مينرفا وأروقة ومعابد ديلوس وأجريجنتا هو أن النتوءات أو المقولبات فى هذه المعابد تعتبر جزءًا من التاج نفسه فى حين أنها تشكل فى

---

* حلية فى قاعدة التاج على شكل كعب الكاحل . (المرجع).

(١) انظر «المقارنة بين المبانى القديمة والحديثة» بقلم دوران ، اللوحة ٣٧.

(٢) انظر المرجع نفسه.

أنتينويه (نفس النمط تقريبًا فى معابد بوستوم او بوسيدونيا جزءًا من الجذع أو تفصله عن التاج. وأخيرًا فإن التاج الدوري الرومانى لمسرح مارسيلوس ذا الثلاث مقولبات أو حلقيات التى تقع بين ربع الدائرة والجذع لا يختلف ـ قط ـ عن تاج أنتينويه إلا فى هذا الشكل الربع الدائرى بدلاً من المخروطى المقلوب .

وسأكتفى بالمقارنة التى عقدتها من قبل بين المضمار وبين آثار أخرى مماثلة، وأختم هذه الفقرة ببعض الملاحظات الجديدة عن قوس النصر والمتعلقة بالثلاثة أقواس (الأوسط والجانبين) والجبهية التى تشغل عرض البناء بالكامل.

فارتفاع البناء لا يضاهيه سوى قوس ماريوس فى أورانج الأرقى فى نمطه، ويختلف قوس أنتينويه عن هذا الأخير فى ثلاث نقاط :

١- وجود نوافذ تحت الأقواس الصغيرة بدلاً من شعارات النصر فى قوس ماريوس .

٢ _ الجبهية تشغل عرض البناء بأكمله بدلاً من أن ترتكز على القوس الكبير فقط.

٣- الأعمدة منخفضة ومنفصلة فى حين أنها مرتفعة وملتحمة بالخرجات فى أورانج .

وعلى الرغم من تهدم الجزء العلوى من البناء إلى حد ما إلا أننا نرى بوضوح عدم وجود طبقة سطح أو شعار عربة النصر على قمته كما هو الحال بقوس ماريوس .

ويختلف تصميم قوس النصر عن أى قوس آخر معروف وأقربهم له هو قوس سبتيموس سيفيروس الذى لا ينقصه سوى بوابتين ليطابق قوس النصر من حيث التصميم، وتتفصل الأعمدة عن الواجهة فى كل من قوس سبتيموس وقسطنطين وأنتينويه على حد سواء، وفى كل روما لا يوجد إلا هذين القوسين المميزين بأبوابهما الثلاثة .

وواجهة قوس أنتينويه تقل عن واجهات ماريوس وسبتيموس سيفيروس وقسطنطين ولكنها تفوق مثيليها فى قوس تراجان بمدينة بنيفان وفى قوس

تيتوس وهى تصل إلى نفس مساحة واجهة باب القديس مارتان بباريس، أما ارتفاعها الذى يصل إلى ستة أمتار ونصف تقريبًا فلا يمكن مقارنته بارتفاع أية واجهة أخرى معروفة؛ إذ أنه يبلغ ضعف قوس ماريوس وسبتيموس سيفيروس وباب القديس مارتان، والمخارج الجانبية التى ينفرد بها هذا الأثر تضيف إليه الكثير من البهاء.

المبحث الثانى عشر: مدينة بسا المصرية والأطلال المحيطة

عندما قرر هادريان تشييد أنتينويه اختار أحد مواقع المدن المصرية القديمة التى تقوضت فى عهده وربما يكون السبب وراء ذلك هو استخدام أنقاضها كمواد بناء ، وقد كانت بسا تقع عند سفح الجبل و شمال المدينة الرومانية، وما دفعنى لهذا الاعتقاد هو تراكمات الأحجار والأبنية المشيدة من الطوب المجفف تحت أشعة الشمس والتى يصل سمكها إلى سمك الأسوار المصرية القديمة، كما أن هناك طريق تمتد بمحازاته البوابة الشمالية الغربية للمدينة الرومانية، والحقول المزروعة أبعد قليلاً من هذا الموقع - تجاه النيل - ربما تكون جزءًا من حرم مدينة بسا التى لم تصل مساحتها الكلية نصف مساحة أنتينويه، بالإضافة إلى ذلك هناك حرم آخر مسور بالأحجار الصلبة فى الشمال الشرقى يحيط بهذه الأنقاض به بعض الأبراج الصغيرة وملحق بمدينة هادريان.

وعلى الرغم من التصور شبه الواقعى لهذا الموقع نود التنويه هنا إلى أن الرومان قد خلفوا أبنية من الطوب لكى تماثل مواد وطريقة بناء المصريين بالرغم من أنها أقل سمكا، وعلى هذا فقد تكون تلك الأسوار السابق ذكرها إحدى الأعمال الرومانية، ولم تتوفر لدينا آثار أكيدة لكى نؤكد بالتحديد موقع مدينة

---

(١) انظر اللوحة ٥٤ - الشكل ١ . لقد أغفلنا الإشارة فى الرسم إلى الأبراج الصغيرة المستديرة الواقعة فى زوايا إحدى واجهات السور ، والأكثر حداثة دون شك من الأنقاض.

بسا؛ غير أنه من الواضح أنها لم تكن فى جنوب أنتينويه إذ كانت هناك إحدى المدن المسيحية التى سوف أتحدث عنها لاحقا[١] .

وبسا هو اسم إحدى الربات المصريات التى كانت تقوم ـ كما يخبرنا أميان مارسلان اشتهرت بوحيها فى أبيدوس[٢]؛ غير أن الأمر مشكوك فيه بالنسبة لمدينة لاوزاب عن الربة بسا، والشىء المؤكد هو أن أنتينويه تم تشييدها فى نفس موقع المدينة التى تخلد هذه الربة طالما أن اسمها الأصلى ـ وفقًا لفوتيوس ـ كان بسانتينويه[٣] وهو الاسم المركب من مقطعين بيسا و أنتينويه، كما هو الحال فى كثير من المدن المصرية التى تحمل أسماء آلهة مثل سارابامون ـ هيرمانوبيس ـ هورابوللون ـ بيسامون وغيرها. وقد تسمى المسيحيون باسم بسا المشتق من بيساريون؛ وهذا هو كل ما توفر لدينا من معلومات تاريخية ومن أبحاث عن هذه المواقع .

وفى المناطق المجاوره لهذه الأنقاض نجد أطلال كنيستين متهدمتين تقعان فى أعلى الجبل العربى ويطلق عليهما اسم «دير»، وينتهى جبل أنتينويه بالقرب من النيل فى اتجاه نزلة الشيخ عبادة وهى كفر صغير يقع فى أعلى موقع من هذا الجانب ، كما تقع إخدى هذه الكنائس فى تجويف الجبل، وعلى مسافة بعيدة من هذا الموقع نرى أطلال الأبنية من الطوب والأسوار القائمة وبعض الصوامع المحتفظة بأسقفها، وتصميم لبنات الطوب الضخمة تشبه تصميمات قدماء المصريين، ويعتقد أهل هذه المنطقة المسيحيون بوجود كنيسة قديمة بها، أما المقابر والمحاجر فتوجد فى المناطق المحيطة، وفى الجنوب الشرقى نجد حوضًا كبيرًا لمجرى سيل، وفى الغرب هناك تجويف كبير أو بالأحرى منخفض عميق يستحق موقعه الفريد فى أعلى هضبة الجبل أن يكون موضع دراسة أحد

---

(١) انظر فيما بعد المبحث الرابع عشر .

(٢) سيق وذكرت هذا الاستشهاد للمؤرخ أميان فى وصف أبيدوس . انظر الوصف الفصل الحادى عشر.

(٣) فوتيوس ، المكتبة ، المقطع ٢٧٩ . وهيللاديوس ـ كما يقول ـ مصرى الجنسية من مدينة أنتينيوس أو كما كان يكتبها بيساتينيوس. انظر جابلوسنكى المجمع المصرى . ص ٢٠١، الجزء ٣ .

الچيولوچيين(١)، ومن الصعب تخيل وجود موقع قاحل ووعر تجاه الشرق بعد رؤيتنا لهذا المنظر فإذا ما اتجهنا ناحية النيل تقع أبصارنا على ريف رائع وخصب يمتد فيما بعد قناة يوسف .

وفى أعلى قمة جبل أنتينويه يوجد ـ وفقًا لأبى صلاح ـ دير القديس ماتياس(٢) وهذا هو بالفعل الموقع الذى يجب التنقيب فيه أو فى الأنقاض المشابهة المتراكمة فى أحد أركان الجبل شرق المكان السابق ، فوق سطح الهضبة أو على قمة أعلى من القمة الأولى، ولقد شيدت هذه الكنيسة باتقان من الطوب ولازال هناك بعض الأسوار القائمة وأطلال قباب(٣) تدل على أن هذه الكنيسة أكبر من الأخرى .

المبحث الثالث عشر: محاجر وتجويفات محفورة فى جبل أنتينويه

تتجه السلسلة العربية بكل تجويفاتها ومغاراتها الصناعية ومحاجرها المتعددة شرق أنتينويه بمحازاة مجرى النيل، وهذا هو الموقع الذى استخرجت منه مواد بناء المدينة التى سبق استخدامها فى بناء مدينة الأشمونين، وتصل فتحة الكثير من هذه التجويفات إلى أكثر من عشرة أمتار تقريبا، وتقع كلها على ارتفاعات مختلفة من الجبل وتشبه أروقة مقابر طيبة وبها العديد من الالتواءات التى تجولت فيها بمشقة شديدة.

وأكبر هذه التجويفات التى زرتها له مدخل بالقرب من الكنيسة التى وصفتها فى الفقرة السابقة ـ أى الكائنة فى مدخل الجبل . وقد تم شق الصخر لبناء قاعات كبيرة قائمة على الدعامات القديمة الموجودة فى المكان لتتقسم إلى

---

(١) انظر اللوحة ٥٤ ـ الشكل ١ .

(٢) انظر الأبحاث الجغرافية عن مصر ص ٤٢ ـ المجلد الأول . وفقًا لأبى صلاح والمقريزى ـ كان هناك أربع كنائس وستة أديرة بالقرب من انتينويه.

(٣) انظر اللوحه ٥٤ ـ الشكل ١ .

أجنحة أصفر لا حصر لها تتفرع فى جميع الاتجاهات[١]، والمغارة يكتنفها الظلام بدءًا من مدخلها والأرض تكتظ ببقايا الأحجار والرماد الذى يبحث عنه الفلاحون لاستخدامه كسماد، والمكان ملئ بالخفافيش التى تفوح رائحتها الكريهة والمقززة، والحرارة المرتفعة تجعل التنفس صعبًا للغاية فى هذه الممرات الرحبة، ولقد أثارنى الفضول للخوض فى أماكن أعمق من ذلك لعلى اكتشف ما هو جدير بالدراسة فوجدت الغرف والأروقة التى يتراوح ارتفاعها ما بين مترين أو مترين ونصف تتفرع منها تشعبات فى ألف اتجاه، وأخبرنى المرشد أن قطع هذه المغارة يستغرق ساعتين على الأقل؛ فى حين أن أهل القرية أكدوا لى أن مخرجها يقع عند البرشا وهو أمر يصعب تصديقه لأن هناك العديد من المضايق العميقة جدًا والتى تصل مساحتها إلى فرسخين فيما بين الموقعين، وحيث إن أرضية هذه المحاجر تقع تقريبًا فى مستوى قمة الجبل فمن الواقعى إذن أن يكون مخرجها فى أول وادى جنوبى أو ربما فى الواجهة التى تطل على المدينة .

ولقد دخلت من الفتحة المواجهة لشارع الحمامات وبعد أن تجولت فى هذه القاعات لمدة ربع ساعة - تقريبا - أدركت أن الإضاءة التى معى لا تتيح لى بلوغ نهاية المغارة واضطررت للرجوع ولكننا اتخذنا مسارًا آخر فوجدت نفسى أمام الكنيسة التى تحدثت عنها على بعد ربع فرسخ من الموقع الذى دخلت منه إلى الجبل .

ويخشى أهل المنطقة الخوض فى هذه المغارات خوفًا من أن يلقوا مصير من سبقهم ؛ فهم يتحدثون عن أشخاص لقوا حتفهم داخل هذه المتاهات موتًا من الجوع والعطش، فمن بين أربعة شيوخ وثمانية فلاحين اصطحبتهم معى إلى الجبل لإرشادى فى هذه المغارات لم يتحل بالشجاعة منهم إلا رجل واحد - فقط - وبصحبته طفل ليلازمنى فى هذه الرحلة، وهناك العديد من الأقاويل الغامضة عن هذه الكهوف؛ فقد زعم البعض وجود أعمدة شبيهة بأعمدة أنتينويه فى نهايتها والبعض الآخر زعم أنها دعامات تركت على حالها بعد استغلال

---

(١) انظر اللوحة ٥٤، الشكلين ١ - ٢ عند النقطتين ٤، ٩ .

حجارتها، وهو الأمر الأقرب إلى التصديق وفقًا لما شاهدته فى هذه المواقع ؛ فنحن لم نكتشف أية مغارة أو مقبرة بامتداد المنخفض الذى يحيط بأنتينويه، وعلى الأقل أنا لم أره بنفسى والسكان أنفسهم نفوا وجود مثل هذه المغارات عندما سألتهم عنها .

وبالإضافة إلى هذه التجويفات المحفورة فى الصخر هناك العديد من التجويفات المكشوفة على هضبة الجبل وجوانبه. ومن المستحيل الآن تقدير الجهد الذى بذله المصريون لاقتلاع كل تلك الحجارة التى كانت تغطى جوانب الجبل.

المبحث الرابع عشر: أنقاض مدينة مسيحية بالقرب من دير «أبى حنيس» وبعض المغارات والضواحى

فى الجنوب وعلى بعد ثلاثمائة أو أربعمائة متر تقريبا من أنتينويه هناك أرض فضاء مكدسة بالأنقاض يقارب اتساعها - تقريبًا - اتساع المدينة الرومانية نفسها ويحدها من الجانب الأيمن نهر النيل و بعض أشجار النخيل والثلاثة جوانب الأخرى تحدها إما الرمال أو أسوار، والطريق إليها يخلو من أية أنقاض باستثناء أطلال كنيسة فى اتجاه الشمال، وهذه الأنقاض عبارة عن بقايا منازل من الطوب وبعض القباب والحوائط والعديد من المقابر. ونستطيع أن نستنتج من خلال سمك الحوائط ومداميك لبنات الطوب المستوية ومواد البناء بأنها لأبنية مسيحية؛ لأنها تماثل أنماط الكنائس المشيدة فى الجبال، ويرجع زمن تهدم هذه المدينة لأكثر من أربعة أو خمسة قرون؛ فقد أخبرنا الأقباط أنها شيدت بعد تقوض أنتينويه .

والقرية الواقعة بالقرب منها والمعروفة باسم «أبى حنيس» - أو دير القديس جان - ساكنوها مسيحيون فقراء وهم سلالة أهل هذه المدينة القديمة. والقرية شيدت على ربوة من الرمال، وتقع الكنيسة الحالية تجاه الجنوب الغربى ولكى

نصل إليها يجب اجتياز باحة بها حجر كبير مجوف يطلق عليه «حوض» ومدخلها ضيق ومظلم، وتضم الكنيسة عدة قاعات سيئة البناء والتجهيز، وقد قيل لى إن الجزء السفلى كان من الأعمال الإغريقية إذ أنه شيد على مداميك متساوية؛ فى حين أن بقية الأجزاء مبنية من الدبش والجبس. وهناك بعض الدعامات المزينة بتيجان كورنثية مأخوذة من أنتينويه. ولقد رأيت على عتبة أحد الأبواب قطعتين من الجرانيت الأحمر الجميل إحداهما مصقول من جميع الجوانب، وتنظيم القاعات مضطرب وفى نهاية الهيكل توجد لوحة جذبت انتباهى - على الرغم من سوء تنفيذها - بسبب ندرة أعمال الرسم فى مصر، وتبرز هذه اللوحة منظرين أساسيين: الأول يعبر عن القديس الذى أطلق اسمه على الكنيسة «أبى حنيس» واقفًا ومرتديًا غفارة والرسم معيب وألوانه باهتة ولقد وقع الرسام اسمه باللغة العربية وتاريخ اللوحة الذى يرجع إلى القرن الثالث عشر الهجرى، والمنظر الثانى يعبر عن رئيس الملائكة ميخائيل وبجانبه هذا النقش «الملك ميخائيل» والمنظر يوضحه واقفًا ممسكًا بسيف فى يده اليسرى ويضع فى يده اليمنى تمثال نصفى لإنسان لا نرى منه غير الرأس والأكتاف. والقسيس الذى سألته عن هذا الشكل كان يجهل ماهيته؛ ولكن حدثنى بأن ملك أنتينويه كان يسمى أريانوس وأن حسن بك و المماليك قاموا بنهب وتحطيم وحرق هذه الكنيسة منذ عدة أعوام مضت .

إن هذا الرجل _ و هو مصدر غير موثوق به - أكد لى أن اسم المدينة كان أنسوليه على الرغم من أنى كنت أحدثه عن انسنا وفقًا لروايات جميع الرحالة؛ لقد كان مخطئًا بكل تأكيد؛ ولكن لكى يدرك أهل المدينة حديثى كان لزامًا على أن أنطقها أنسوليه [١] مع تشديد المقطع الأول للفظ وزلق المقاطع الأخرى وإلا سأجازف بإمكانية فهم حديثى .

ورغبة منى فى الاطلاع على المقابر المصرية التى قيل لى إنها توجد فى أحد مضايق الجبل خلف دير «أبى حنيس» اصطحبت معى بعض المرشدين من القرية،

---

(١) هو نفس اسم قرية الشيخ عبادة .

و الجبل شاهق الارتفاع فى هذه المنطقة فصعدت إلى القمة بمشقة شديدة عبر طرق وعرة للغاية على ارتفاع أربعمائة قدم تقريبا، وبعد هذا الجهد المضنى لم أجد سوى بعض المغارات إحداها منقوش عليه اسم كنيسة وهى عبارة عن تجويف قديم جدًا استولى عليه المسيحيون فقاموا بطلاء جدرانه غير المصقولة بالجير دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تهذيب واجهته وضبط زوايا أركانه، وفى أعلى الصخور قاموا برسم صور سيئة للعذراء و القديسين بألوان أكثر فظاظة من الرسم نفسه وزخرف السقف بأوراق الشجر والزهور الكئيبة، أما الجدران فعليها نقوش باللون الأحمر والخط القبطى، وللأسف لم يكن لدى الوقت لنقل إحداها .

ولقد شاهدت فى الجبل العديد من التجويفات الأخرى صغيرة المساحة التى حولها المسيحيون إلى كنائس أو أديرة غير أنها خالية تمامًا من النقوش والمناظر المصرية، وعلى الرغم من قاعاتها الفوضوية وذوقها السيئ يزورها المسيحيون بإستمرار لتأملها بعد أن يقوموا بدفن موتاهم فى مقابر دير «أبى حنيس». ولقد أخبرنى مرشدى ـ البالغ من العمر ستين عامًا والمتسلق الجبل بسرعة وخفة كإحدى النعاج ـ بوجود مغارة عميقة جدًا يدوى فيها صدى مثل صوت محركات الطاحونة الدائرة؛ ولم أتمكن من تفسير تلك الرواية التى لم أتحقق منها والتى أعتقد أنها إحدى الأساطير الشعبية .

المبحث الخامس عشر : ملاحظات على أنتينويه وخاتمة

كانت مدينة أنتينويه ـ وفقًا لأميان مارسلان ـ إحدى ثلاث مدن مزدهرة فى الصعيدالذى اشتهر بالعديد منها[١]، وإذا ما سلمنا بصحة أقوال هذا المؤرخ فإن هذه المدينة تم تشيدها تخليدًا لأنطونيوس ـ الأمير المحظى لدى هادريان ـ

---

(١) إن مدينة طيبة من بين مدن أخرى كثيرة وشهيرة مثل الأشمونين وقفط وانتينويه قد حظيت بتبجيل أكثر من مدينة هادريان.

والشئ المؤكد هو أنه أقام له التماثيل والآثار تعبيرًا عن شغفه به؛ فلقد ملأ مصر وإيطاليا بصوره ونقشها بوفرة فى أنتينويه[١] كدليل على أسفه لموت هذا الأمير، ولقد تعددت الروايات حول موت هذا الشاب البيزنطى فى عام ١٣٢ قبل الميلاد[٢]؛ فلقد زعم البعض غرقه فى النيل فى البقعة المواجهة للمدينة التى تم تشييدها على اسمه وادعى البعض الآخر أنه انتحر طواعية من أجل سلامة قائده؛ وإذا ما صحت هذه الرواية فإنها تضرب مثلاً على البطولة النادرة وتفسر سلوك هادريان، ولسنا مضطرين لتصديق تلك الرواية التى تمجد ذكرى ذلك الإمبراطور؛ فجميع المؤرخين أدانوا هادريان على ولعه المشين به حتى أن آباء الكنيسة لاموه على هذا الأمر بكل حدة وعلى الرغم من رعايته للمسيحيين ـ كما أوضح ذلك أوزاب فى كتابه «التاريخ الكنسى»[٣] - بل و ذهب إلى أبعد من ذلك إذ اقترح تشييد معبد للمسيح.

ولقد تم تقديس انطونيوس كإله وأراد الإمبراطور أن تقام له الهياكل لذبح النذور، ولقد كان هادريان مقززًا فى هذا الشأن إذ يحدثنا القديس جيروم قائلاً: «لقد تم تشييد مدينة أطلق عليها اسم أنطونيوس ـ رفيق هادريان فى الملذات ـ وذلك لتعريفنا بالآلهة التى كان المصريون يمجدونها .... و لقد ولع القيصر

---

(١) بالإضافة إلى التماثيل وأنصاف التماثيل التى نعرفها، هناك العديد من النقوش التى تعبر عن أنطونيوس، و رسم لجذع منقوش قام ميلان بشرحه انظر «آثار قديمة غير منشورة».

(٢) يرجع ليفزو هذه الواقعة إلى عام ١٢٢ ولا أعرف سببًا لهذا.

(٣) خطاب هدريان لمينوكوس فوندانوس ـ الوالى الرومانى لآسيا ـ والمنصوص فى «التاريخ الكنسى» المجلد الرابع الفصل التاسع، يثبت أن هذا الأمير كان عادلا و كريما مع المسيحيين . و ينقل نيسيفور كالسيت (التاريخ الكنسى ، الكتاب الثالث ، المقطع ٢٧) هذا الخطاب الذى أرسله إلى الوالى الرومانى يبلغه فيه بمعاقبة الواشين بالمسيحيين بكل قسوة. والاضطهاد الذى تم فى عهده عام ١٢٤ كان ضد العابثين الذين دأبوا على تقليد ولائم المسيحيين والذين كانوا يطفئون الأنوار بعد الطعام لممارسة كل أشكال الفجور ، ولكن تم الخلط بينهم و بين المسيحيين .

هـــادريان بحـــب أنطـــونــيـوس[١]»؛ ويؤكـد أوريجـان وأثانـاس[٢] نفس هذا الأمر.

ووفقًا لابيفان فقد كانت تنظم فى معابد أنطونيوس طقوسًا مماثلة لطقوس صا الحجر وتل الفرما وتل بسطة ـ و العرابة المدفونة، وأخبرنا أن النساء كن يمارسن فيها كل أنواع العربدة والأعمال الفاضحة تثيرهم نشوة أصوات النفير والطبول؛ مثلهم فى ذلك مثل نساء منف وعين شمس وباثيا[٣] و مانوثيتيس[٤] ويؤكد أبيفان أن هادريان قام بدفن أنطونيوس بمدينة أنتينويه ومعه إحدى السفن و وضعه فى مراتب الآلهة، و لقد ذكر هذا المثال ليبرهن على أن بعض الأمراء والطغاة كانوا يقومون ـ بعد انتزاع الموت لرفقائهم فى الملذات ـ بتشييد المقابر لهم لكى تقدسهم الشعوب الخاضعة لإمبراطوريتهم .

و لكشف الحقيقة بأكملها فقد قيل إن روح انطونيوس بعد صعودها للسماء أصبحت إحدى مجموع النجوم وكان هذا هو تبرير تأليه هادريان له بل و أكثر من ذلك؛ فقد قيل إن أمور الوحى الإلهى المنسوبة إلى أنطونيوس كان الأمبراطور نفسه هو الذى يقوم بها؛ غير أننا لا يمكننا التأكيد على هذا النقد الموجه إلى هادريان بتأليه أنطونيوس بغية فرض تقديسه على الشعوب؛ فموته البطولى أو بالأحرى المأساوى هو الذى يبرر التمجيد الذى حظى به، ولقد رحب سبارتيان بهذا العرفان بالجميل من جانب هادريان وشاركه الرأى العديد من الكتاب الآخرين[٥]. ولن أسهب فى موضوع سبق وتناوله كل من وينكلمان وايكل وفيسكونتى والعديد من المؤرخين الآخرين.

---

(١) انظر أعلاه المبحث السابع .

(٢) أثاناس ص٨ ؛ أوريجان ـ الكتاب الثالث ـ ص١٣٦ ؛ الخ ..

(٣) أعتقد أن منطقة باثيا هذه هى التى تفصل النيل عن قناة يوسف التى تضم كثيراً من المنخفضات. و هو نفس المكان الذى يطلق عليه اليوم باثن . انظر دراستى عن بحيرة موريس ودراسات العصور القديمة.

(٥) انظر «الآثار القديمة» غير المنشورة بقلم : ميلان المجلد الثالث ص١٥٣؛ ويرى ليفيزو (مذكرات عن انطونيوس برلين ١٨٠٨) أن موت أنطونيوس كان قدرًا مكتوبا، أما ميلان فيرى أنه ضحى بحياته وهذا هو التبرير الوحيد لكل أنواع التمجيد التى حظى بها. انظر دائرة المعارف السنوية ١٨٠٩ ص٤١٠ .

كما سبق وأوضحت فى بداية هذا البحث فإن هادريان أطلق العنان لميوله العمرانية، وبرهن على ذلك بتشييد الكثير من الأبنية فى آسيا وفى ديفول وفى انجلترا[١] ... إلخ؛ غير أن أكبر هذه الأعمال هو تشييد مدينة هادريان فى تيفولى حيث استوحى نمط وأفكار البناء من البلدان التى زارها مثل أثينا ومصر وآسيا فأطلق على تلك المبانى أسماء مثل الليسية و الأكاديمية ومسكن القضاة والمرسم وخابية الأموات[٢] وأخيرًا وحتى لا ننسى مقر نفوس الأموات، والعديد من هذه الآثار لازال موجودًا حتى اليوم فى مدينة هادريان ليعبر عن كثير من العظمة، فهناك المكان الذى يطلق عليه خابية الأموات وبه معبد نصفه مهدم بالإضافة إلى مسرح و بوابات و متنزهات و أروقة رياضية و دهاليز ومراسم[٣] ... إلخ وتغطى هذه الأنقاض مساحة شاسعة من الأراضى تصل إلى ما يقرب من ألف وأربعمائة قصبة رومانية عرضًا وثلاثمائة وثمانين ارتفاعًا أو ما يوازى ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين مترًا على ثمانمائة وخمسين مترا .

ولقد رسمه لنا أوريليوس فيكتور محاطًا بعدد كبير من المعماريين والفنانين من كل نوع ومستغرقًا بصورة مستمرة فى تشييد وزخرفة المبانى؛ فقد كان هو نفسه رسامًا و نحاتًا ماهرًا وكان يتعامل مع الرخام والبرونز بكل مهارة ولم يضاهيه أحد من الأمراء فى شغفه بالفن وتنمية تذوقه له[٤]. وينسب المؤرخون إلى هادريان تشييد حلبة المصارعة فى نيم وجسر جارد ومقبرة بطليموس ومدينة القدس، وفى روما يشهد جسر القديس ملاك ومقبرة هادريان على ولعه بالعمارة والرقى الفنى، وفى ايطاليا وأسبانيا والبرتغال وانجلترا قام بتمهيد وشق الطرق، والفضل يرجع له فى إعادة رصف طريق كاسيان بطول سبعة وثمانين

---

(١) هو مشيد حائط فى انجلترا يصل امتداده إلى ٢٤ مترا بين بلدتى ايدن و تينك

(٢) لقد شيد مدينة نيبورتينوس الرائعة لكى تنافس فى جمالها المقاطعات و المدن الشهيرة الأخرى مثل ليكوبوليس ـ أكاديميا ـ بريتانيوس ـ كانوبوس ـ بوكيلتين ـ تيمبى ـ ولكى لا يكون لها مثيل لا فى داخل ولا خارج البلاد .

(٣) مرسم أثينا كان له بوابتان و يصل امتداده إلى ثمانمائة قدم مع حائط مرتفع فى الوسط .

(٤) انظر صورة هادريان بريشة أوريلوس فيكتور.

ميلا؛ ما من دليل أكبر من ذلك على أن هادريان عندما قام بتأسيس إحدى المدن فى مصركان يشبع رغبته فى البناء . أى أنها لم تكن أبدًا تمجيدًا لأنطونيوس ولكنه أطلق اسمه عليها لإحياء ذكراه . و لقد أوضحت فى المبحث الأول الأسباب العديدة التى كان من المحتمل أن تدفعه إلى هذا المشروع وأعتقد أنها تلقى بعض الضوء على الدوافع الحقيقية لهذا الأمير فى تشييده للمدينة؛ فالصعيد كان ينقصه مدينة كعاصمة له ومدينة بطلمية لم يكن لها وجود، أما قفط فكانت مدينة تجارية بحتة متأخرة و كذلك الحال بالنسبة لبني حسن أما منف فقد انهارت والأشمونين بدأت فى التقوض والإسكندرية كانت على أطراف القطر المصرى إذ كانت الصحراء تفصلها عن البلاد. والسلطة الرومانية لم يكن لها مركز للإدارة فكيف يتأتى إذن حكم البلاد؟ و لنقرأ رسالة هادريان إلى صهره سرفيان التى أظهر فيها إعجابه بفطنة هذا الشعب؛ ولكنه تذمر من مزاجه الثائر ومراسه الصعب الذى لا يمكنه من جمع الجزية بسهولة[١] .

وسوف أترك للقارئ الفطن استخلاص نتائج هذه الملاحظات وأختم هذا الموضوع - الذى ربما قد أكون أطلت فيه قليلا - بملحوظة عن الجالية الإغريقية التى استقرت فى أنتينويه . على الرغم من النقوش المحفورة على أعمدة سيفيروس والتى تشير إلى الإغريق الجدد والتى لا يمكن أن تكون من عهد سابق لهذا الإمبراطور فإننا لا نستطيع أن نجزم بعدم استقرارهم فى المدينة من قبل. وإننى على اقتناع بأن هادريان أرسل عن عمد جالية إغريقية إلى أنتينويه لإعمارها؛ وأستند فى رأى هذا إلى مسلكه عند إعادة تعمير القدس المسماة آنذاك آليا كابيتولينا بعد الاستيلاء عليها وهجر السكان لها. فقد اعتاد - لتعمير

---

(١) تاريخ الطرق الطويلة للإمبراطورية، بقلم : برجييه . المجلد الأول . ص ٥٧ .
لقد انشغل هادريان بمصر أكثر مما هو شائع و معروف؛ فقد قام هذا الأمير _ وفقًا لرأى لانجليه الذى يستند إلى المقريزى - بشق القناة بين النيل و البحر الأحمر المسماه تراچانوس أمنيس مما عزا هذه القناة إلى تراچان؛ و لكن هادريان كان يحمل نفس هذا الاسم (انظر كتاب آراء على الوصف التاريخى لتقسيمات الأراضى و الأطلال المستمدة من حوليات مصر بقلم المقريزى فى الوصف التاريخى لقناة مصر ، بقلم : لانجليه صفحة ٦٧ .

مثل هذه المستوطنات فى آسيا - اصطحاب الإغريق معه بقوانينهم وقضائهم ونظم حكمهم، فقام بزيارة أثينا عدة مرات للإلمام بأسرار مدينة اليوسيس ، وشيد فيها مقاطعة جديدة شاسعة ومعبدًا رائعًا وكان هادريان يقدر الأدب الإغريقى الذى انغمس فيه تقديرًا كبيرا، وعرف عنه أنه انجرف لفصاحة السفسطائى أرستيد ووضع حدًا لاضطهاد المسيحين، وقد كان الإغريق وأهل أثينا يحبونه حتى أنهم شيدوا له معبدًا يطلق عليه بانهلينيكون ونقشوا على جدرانه العديد من النقوش التى تظهر حبهم له .

الفصل السادس عشر
وصف آثار مصر الوسطى
بقلم السيد: چومار

لمحة عامة عن مصر الوسطى

يندرج تحت هذا العنوان جميع آثارمصرالوسطى التى تمتد من منفلوط إلى ميت رهينة بخلاف آثار مقاطعة «الأشمونين»[١] ومقاطعة «آنتينويه» (الشيخ عبادة) سبق وصفها على حدة فى الفصول السابقة. وتعد مقابر «بنى حسن» بالطبع من أندر الآثارالمصرية الموجودة فى هذه المنطقة وأكثرها اهمية؛ غير أن هناك أماكن أخرى عديدة لم يدوّن الرحالة السابقون أية معلومات بشأنها وإن كانت جديرة باهتمام القارئ.

وسيساعد هذا الوصف على استكمال البيانات التى تتطلبها جغرافية هذه المنطقة من مصر الوسطى. إن إقامتى الطويلة التى امتدت إلى أكثر من أربعة أشهر جبت خلالها هذا البلد مرات عديدة أثناء الحملة الفرنسية أتاحت لى جمع بعض الرسومات وتدوين بعض الملاحظات عن جميع الأماكن التى لا يزال بها بقايا آثار، وبما أننى جبت ضفتى النيل ووسط الوادى وسرت بمحاذاة الجبل العربي وعلى سفح سلسلة الجبال الليبية وتوغلت فى كثير من الأحيان بقلب الصحراء فأستطيع أن أؤكد أننى تعرضت فى وصفى لجميع الآثار القديمة إلا القليل منها وخاصة تلك التى تقع فى المناطق الممتدة من منفلوط إلى سمالوط ومن بنى سويف إلى ميت رهينة.

---

(١) مقاطعات الأشمونين والشيخ عبادة والفيوم وميت رهينة تم وصفها على حدة فى: الفصل الرابع عشر، والخامس عشر، والسابع عشر ، والثامن عشر.

ومن أجل وضع هذا الوصف فى سياق منظم لن أقوم بتشتيت القارئ؛ فأصطحبه دومًا فى اتجاه موحد من الشمال الى الجنوب، كما سأعتمد على تقسيم القطر إلى مقاطعات أو محافظات[١] ، إن هذا التقسيم يتطلب تمهيدًا توضيحيًا بناء على بعض الملاحظات التى قمت ـ شخصيًا ـ بتدوينها والتى تتعلق ـ عمومًا ـ بنوع المقارنات حول جغرافية مصر.

كان إقليم «هبتا نوميد» يتألف ـ كما يشير اسمه ـ من سبع مقاطعات أطلق عليها الأغريق الأسماء التالية:

« هرموبوليت»	(الأشمونين)
و «كينوبوليت»	(أبو صير بنا)
و «أوكسيرنخيت»	(البهنسا)
و «هيراكليوبوليت»	(أهناسيا)
و «كروكوديلوبوليت»	(الفيوم)
و «أفرو ديتو بوليت»	(أطفيح)
و «ممفيس»	(ميت رهينة)

هذا بالاضافة إلى مقاطعة انتينويت التى أقيمت فى عهد الإمبراطور هادريان والتى لا علم لأحد بحدودها[٢] . و يذكر استرابون فى كتابه أن قصر التيه كان يتألف من سبعة وعشرين فناء كانت تجتمع بها كل إدارات الأقاليم من أجل مناقشة القضايا الهامة للدولة[٣] ومن بين هذه الأفنية السبعة والعشرين كانت هناك عشرة أفنية مخصصة للصعيد وعشرة أفنية أخرى لمصر السفلى وسبعة

---

(١) راجع اللوحة رقم ٦ ، شكل ١ ، المجلد الأول من لوحات الدولة الحديثة.

(٢) إن بطليموس هو المؤلف الوحيد الذى أشار إلى مقاطعة انتينويت ولكن بما أن هذه المقاطعة قد ذكرت فى المخطوطات القبطية فوجودها لا جدال فيه ولكن هل تقتصر حدود هذه المقاطعة على أراضى «أنتينويه» أم أنها تشمل الضفة اليمنى بأسرها بداية من مقاطعة «أسيوط» وحتى (أبوصير بنا)؟ إن هذا ما لا نستطيع معرفتة على الإطلاق . وعلى أيه حال ، من المرجح أن هذه المقاطعة كانت موجودة فى زمن مقاطعة الأشمونين .

(٣) راجع وصف مقاطعة الفيوم ، الفصل السابع عشر، القسم الثالث، الجزء الثانى، المبحث الثالث.

لمصر الوسطى، هذا ولن نستطيع أن نؤكد على أن «هبتانوميد» تضم أكثر من سبع مقاطعات حتى ولو استدللنا على ذلك بفقرة لاسترابون نفسه تتناقض مع ما سبق ذكره دون أن يسبب ذلك نوعًا من البلبلة؛ فمن المؤكد أن هذه المنطقة كانت مقسمة - دائمًا - إلى سبع مقاطعات حتى أن علماء الجغرافيا أنفسهم كانوا يطلقون عليها - أيضًا - اسم «هبتابوليس» ويؤكد دينس لوبريجيت فى قصيدته الجغرافية على هذا التقسيم ويعضد هذا التقسيم اوستات [(١)] فى تعليقه على هذه القصيدة؛ فالادعاء أن «هبتانوميد» [(٢)] تتألف من ست عشرة مقاطعة بدلاً من سبع مقاطعات لا يعد تفسيرًا خاطئًا فحسب بل يعنى تقليص مساحات التقسيمات بشكل كبير مما يعنى فى النهاية تعدد الإدارات المختصة والسلطات القضائية بلا ضرورة فى بلاد مساحتها محدودة فى الأصل.

وعلاوة على ذلك، هناك ما يثبت بالدليل القاطع أن إقليم مصر الوسطى لم يكن يضم سوى سبع مقاطعات؛ إذ أنه قد تم العثور على ميداليات صكت خصيصًا لمقاطعات هذا الإقليم فى عهد كل من الامبراطور تراچان

---

(١) وكان لهم - أيضًا - مدينة هبتابوليس أى المدينة السابقة وكانت تتوسط المحيط . (دينس ، البيت ٢٥٤)

(٢) يذكر أوستات فى تعليقه على القصيدة : «إن هبتابوليس المعروفة - أيضًا - بأركاديا نسبة إلى الامبراطور أركاديوس كان يطلق عليها من قبل هبتانوم - وهبتانوميى لأنها كانت تتألف من سبع مقاطعات تقع ست مدن منها على يسار النيل وتقع واحدة على يمينه» هذا غير أنه أدخل بطريقة خاطئة مدن الصعيد ضمن هذة المقاطعات .

ونقرأ فى أجاتارشيد (للكاتب روبرومارى) إن بين إقليم منف وإقليم الصعيد كان يوجد خمس مقاطعات هى :

١ - هيراكليوبوليتاروم — ٢ - ليكوبوليتاروم

٣ - أوكسير نخيتاروم — ٤ - هرموبو ليتارم

وأعتقد أنه يجدر بنا قراءة كينوبوليتا روم بدلاً من ليكوبوليتاروم وقد تم إغفال ذكر ارسينويت بما لأنها بلدة نائية ، كما تم استبدال اسم أفروديتوبوليس - دون سبب واضح باسم سكديا الذى لم يكن يطلق سوى على مركز متوسط كان يقع بين الصعيد وإقليم هبتا نوم،

ووفقًا لما ذكر ابيفان فقد كان المصريون يطلقون اسم مقاطعة "nome" على كل مدينة كبيرة .

والإمبراطور انطونيو، ويبلغ عددها تحديدًا سبع ميداليات منقوش عليها الأسماء نفسها السابق ذكرها. وجدير بالملاحظة أن الاسم الأخير أضيفت إليه كلمة «نوميا» ذاتها - أى مقاطعة[١].

ولا نستطيع بالطبع افتراض أن هذا الإقليم كان يتألف من سبع مقاطعات في العصور القديمة وأن هذا العدد قد ازداد مع مرور الزمن؛ إذ أنه في الواقع - حتى عهد الامبراطور هادريان - لم يكن منقوشًا على الميداليات سوى أسماء سبع مقاطعات، ولم يكن بينها مقاطعة أنتينويت؛ وهو شيء لافت للنظر.

وهناك إثبات آخر لا يقل دلالة وهو أن التقسيم القديم قد استمر حتى عصرنا هذا دون أدنى تغيير في الأسماء أو الإدارات، ويطلق على هذه المنطقة «مصر الوسطى»، وهى تمتد من القاهرة إلى «أسيوط» كما كانت «هبتانوميد» تمتد فيما مضى من بابيلون (مصر القديمة) حتى حدود مقاطعة «أسيوط» التى تضم خمسة أقاليم هى «الأشمونين، والبهنسا، والفيوم، وأطفيح، والجيزة؛ غير أنه تم ضم مقاطعة كينوبوليس (أبوصير بنا) إلى مقاطعة هرموبوليس (الأشمونين) فى إقليم الأشمونين، كما تم ضم مقاطعة هيراكليوبوليس (اهناسيا المدينة) إلى مقاطعة أوكسير نخوس (البهنسا) في إقليم البهنسا؛ وجدير بالذكر أن حدود هذه الأقاليم لاتزال كما كانت عليه في الماضى، ولايبقى سوى أن نجد تفسيرًا - إذا أمكن ذلك - للفقرة التى يذكر فيها استرابون أن مصر العليا ومصر السفلى تتألف كل منهما من عشر مقاطعات، وأن مصر الوسطى تضم ست عشرة مقاطعة؛ وهى معلومة غير صحيحة بكل تأكيد بما أن مساحة مصر الوسطى كانت هى الأصغر؛ ولكن لن أطيل الحديث هنا عن هذا الجدل الذى قد يجعلنى أحيد عن الموضوع الرئيسى؛ فقد تم التعرض لهذا الموضوع في مذكرات الجغرافيا المقارنة.

---

(١) راجع اللوحة رقم ٥٨ التى تمثل مقاطعات مصر، لوحات العصور القديمة ، الجزء الخامس . راجع - أيضاً - مذكرات توشون المتعلقة بالنقود والعملات المدنية والمقاطعات.

وفى عهد الإمبراطور اركاديوس أطلق على إقليم "هبتانوميد" اسم "اركاديا"، وفى عهد والده الإمبراطور ثيودسيوس الأكبر كان يطلق على مدينة - يرجح أن يكون اسمها الحالى "طحا العمودين" - اسم ثيودوسيوبوليس؛ وإن كان يبدو لى أن هذه المدينة تقع خارج هذا النطاق؛ فقد تغيرت إذًا أسماء العديد من الأقاليم المصرية فى ظل الحكم الرومانى، وهو ما يعد بالقطع أحد الأسباب التى تجعل من الصعب علينا أن نحدد في إقليم "هبتانوميد" أسماء بعض الأماكن التى قرأنا عنها في «تاريخ هرقل» وفى «تاريخ الامبراطورية»؛ هذا بخلاف الأسماء التى وجدناها محرفة .

ومما ورد في «تاريخ هرقل»: نيلوبوليس، منف، كوساى.

أما فيما يتعلق بـ «تاريخ الإمبراطورية» فقد ورد به «بركتيوس» ، «ثيراكو»، «بيامو» ، ... ألخ.

القسم الأول
مقاطعة الأشمونين

تعد هذه المقاطعة أكثر مقاطعات مصر الوسطى اتساعًا و أوفرها آثارًا مصرية قديمة؛ فبخلاف المدن التى يطلق عليها «طيباياكا» و«هرموبوليتانا فيلاس» و«تانيس» و«إبيوم» وهرموبوليس العاصمة التى تناولتها بالوصف[١] فيما سبق؛ تضم هذه المقاطعة أيضاً مدينة «قوساى» و«بسلا» و«بسينولا» بالإضافة إلى الآثار الموجودة باصطبل عنتر وملوى واتليدم وزاوية الميتين وسواده ... الخ؛ هذا بالإضافة إلى أن بها جبلين يضمان العديد من المحاجر والمقابر والجدران الأثرية القديمة.

كما نجد - أيضًا - على مشارف الصحراء العديد من الكنائس التى تعود إلى بداية ظهور المسيحية مثل دير أبى فانه ودير الأنبا بشاى ودير أبو حنيس... الخ أما وسط الوادى فنجد به تلالاً عديدة وأطلالاً زاخرة بالآثار القديمة وبقايا منازل قديمة شيدت مكانها القرى الحالية، وسوف أتناول بالوصف هذه الأطلال الأثرية جميعها، وأبدأ بمقابر جبل «أبو فدا» الرائعة كما سأتعرض بالحديث سريعًا عن دير المحرق[٢] الذى كان يتبع مقاطعة أسيوط.

---

(١) راجع الفصل الرابع عشر فى وصف آثار العصور القديمة .

(٢) انظر فيما يلى المبحث الثالث .

المبحث الأول : المحاجر المصرية بـ «جبل أبى فدا»

أينما توجد مقبرة ـ وهى قاعدة عامة فى مصر ـ نجد فى الجوار بلدة قديمة أو قرية يدفن أهلها موتاهم فيها؛ فمن المؤكد إذن أن نعثر بالقرب من المقابر المصرية على بعض الأطلال الأثرية؛ فالجبانات الموجودة فى الجبل الذى يطلق عليه جبل «أبى فدا» تخص فيما يبدو مدينة كوساى القديمة ـ القوصية ـ التى كانت تقع على الضفة اليسرى فى مواجهة الجبل والتى سنتعرض لها فيما بعد، وتتسم هذه الجبانات بسمات خاصة جديدة على الإطلاق ولافتة للأنظار.

وفى جنوب قرية «القصير» الكبيرة الواقعة على ضفة النيل اليمنى بقلب جبل يبلغ ارتفاعه ما يقرب من مائة وخمسين قدمًا وتغمر المياه سفحه؛ أقام المصريون عددًا كبيرًا من المقابر التى لم تكن فى البداية سوى محاجر ثم مالبث أن أصبحت تستخدم بعد ذلك كمقابر، ويتميز الجبل العربى بشدة انحدار طبقاته أفقيًا فى بعض الأماكن؛ بينما تظهر هذه الطبقات فى مناطق أخرى بشكل متعرج وغير منتظم؛ غير أن جميع هذه الطبقات تشكل فيما بينها خطوطًا متوازية كما لو كانت أجزاء الجبل جميعها قد تأثرت ببعض الهزات العنيفة أو بهبوط مفاجئ (١)ـ وعندما تخطو أقدامنا على الأرض بعد الرحلة النيلية نمر بواد صغير به أطلال من قوالب طوب وجدران قائمة وأوانى محطمة؛ لنصعد فى النهاية جبلاً به درج منحوت فى الصخر يقودنا إلى محاجر هائلة، ونجد بهذه المحاجر أحجارًا ضخمة كان قد تم البدء فى تقطيعها ولكن لم ترفع من مكانها أبدًا، ونرى بعيدًا حفرة كبيرة وعميقة ترتكز على دعامات ضخمة متباعدة.

وبإلقاء نظرة متفحصة على هذا المحجر نكتشف أنه لم يتم إعداده بعد ليكون مقبرة؛ إذ أننا لانزال نرى آثار تقطيع ورفع الأحجار التى لم يتم تشكيلها بعد على هيئة كتل مربعة أو تهيئتها لنحت نقوش زخرفية عليها، وفى ركن من أركان المحجر رأيت نقوشًا مصرية بارزة مما يثبت أن المقابر كانت فى الأصل محاجر تم

---

(١) انظر اللوحة ٦٢ ، شكل ١ . ويسترعى هذا المشهد انتباه المسافر بدرجة تجعله يتوقف أمامه للتأمل والبحث عن الأسباب التى أعطت للجبل هذا الشكل المدهش!!

تحويلها تدريجيًا إلى غرف عادية ثم تم تغطية جدرانها بالنقوش والزخارف المصرية؛ تلك الفكرة التى قمت بتناولها من قبل وتعد أكثر ترجيحًا من فكرة أن المقابر كانت فى الأصل مساكن قديمة وأنها تمثل بداية فن العمارة المصرية(١).

وعلى واجهات هذه المقبرة الرئيسية نجد بعض النقوش الإغريقية قليلة الأهمية؛ ولكن ما يلفت النظر هو رسومات كبيرة خطت باللون الأحمر على جدران شيدت مصقولة، ولا نجد مثيلاً لهذه الرسومات فى جميع أنحاء مصر؛ فما نجده فى هذا المكان ليس فى الواقع سوى تصميمات هندسية أرشدت ـ دائمًا ـ القائمين على نحت تيجان الأعمدة المصرية؛ فقد رسمت هذه التصميمات بداخل مربعات تم تحديدها باللون الأحمر طبقًا لطريقة الرسم المعمارى المتبعة حالياً فى أوروبا.

وما إن وقع نظرى على هذه الرسومات الشيقة أدركت للوهلة الأولى ما تمثله من أهمية لتاريخ الفن المعمارى والهندسى، وشرعت على الفور بنقل العديد منهـــا(٢). واثنان من هذه التيجان كانا على شكل رأس حتحور تحمل المقصورة الصغيرة رباعية الشكل بكل تفاصيلها؛ فنرى الأذنين، والحيات الشهيرة، والشعر المستعار والنتوءات الزخرفية... الخ، ونلاحظ أن خطوط هذا الرسم التصميمى جميعها مستقيمة ـ تقريبًا ـ بما فيها قسمات الأنف والفم والذقن، ونلاحظ ـ أيضًا ـ أن جميع الأقواس بوجه عام قد رسمت باستخدام الفرجار؛ أما تلك التى خطت بدون فرجار فقد رسمتها يد بارعة لفنان مبدع متميز؛ فما من شك أن أصحاب هذه التصميمات كانوا مدربين على مثل هذا النمط من الرسومات.

والمربعات المرسومة بجبل «أبو الفدا» تختلف فى أهميتها عن تلك الموجودة بمدينة «كوم أمبو» و«كونترالاتو» و«طيبة» ونلاحظ بداخلها رسومات مكتملة ومحددة بجميع تفاصيلها؛ فى حين نرى الرسومات بـ «جبل أبى فدا» وقد تم التعبير عنها بخطوط أولية تكشف عن أسلوب الفنان وتميزه(٢)، وهذه المربعات التى رسم بداخلها هذان التاجان لها أهمية خاصة نظرًا لعددها وأحجامها.

---

(١) وصف مقابر مدينة طيبة ، الفصل التاسع من وصف آثار العصور القديمة .

(٢) كان سيسيل متواجدًا معى فى هذا المحجر وقد قام هو ـ أيضًا ـ بنقل أحد هذه التصميمات .

فإذا تأملنا التاجين لاحظنا فى كليهما أن كل من المقصورة الصغيرة ورأس حتحور مرسومان داخل أربعة مربعات ، ويبلغ إجمالى عرضهما ستة مربعات؛ ولكن إذا دققنا النظر نجد أن التاجين مختلفين فى الطول، فكل منهما مرسوم وفق مقياس رسم مختلف؛ فالأول يبلغ طوله ٢,٨٠ مترًا فى حين يبلغ طول الثانى ٢,١٦ مترا.

وبالنظر إلى تصميم التاج الأصغر نجد أن طول المربعات يبلغ أفقيًا ٠,٢٧ مترا؛ فى حين يبلغ طولها رأسيًا ٠,٢٦ مترًا و ٠,٢٨ مترًا بالتبادل - أى ما يعادل - تقريبًا ثمانية وعشرين سنتيمترا - أى مايعادل ١٤ إصبعًا من الذراع المصرية(١).

و بالنسبة لتصميم التاج الأكبر فيبلغ حجم المربعات ٠,٣٥ مترًا أو ما يعادل ١٨ إصبعا؛ وهو ما يطلق عليه بيجم - أى مايعادل ثلاثة أرباع ذراع؛ ومما سبق نستطيع أن نستخلص هنا نتائج عديدة ، غيرأننى أحيل القارئ إلى المرجع المشار إليه فى الهوامش، وأفضل أن ألفت انتباهه إلى أمر آخر فى غاية الأهمية ألا وهو أن التصميم الخاص بالتاج الأول هو التصميم ذاته الذى استخدم لتقطيع ونحت تاج أعمدة معبد دندرة نفسه وما من شك فى ذلك؛ إذ أن إجمالى عرض تاج "دندرة" يبلغ حوالى ٢,٧٦٢ مترًا فى الواقع؛ فى حين يبلغ إجمالى العرض فى التصميم ١,٣٨ - أى بمقدار النصف.

ويبلغ طول المقصورة الصغيرة فوق رأس حتحور حتى زاوية الإفريز حوالى ٢,١٦مترًا بينما يبلغ طولها فى التصميم ١,٠٨ مترا - أى ما يعادل النصف أيضا.

ويبلغ ارتفاع هذه المقصورة (أعلى التاج) أكثر من ٢,١٠ مترًا بينما يبلغ الارتفاع فى التصميم ١,٠٨ مترا - أى ما يعادل النصف، أما البروز فيبلغ طوله ٠,٣٥٢ مترا ؛ بينما يبلغ طوله فى التصميم ثلثى المربع الواحد أو ٠,١٧٥ مترا.

---

(١) انظر اللوحة ٦٢ ، الشكلين ٣ ، ٤ .

(٢) كان طول الرأس يبلغ ثلاثة أقدام ونصف (انظر دراستى حول نظم القياس لدى قدماء المصريين ، الفصل الخامس من دراسات العصور القديمة.

أى ما يساوى - أيضًا النصف؛ ولكن نلاحظ أن طول الرأس فى التصميم يزيد قليلاً عن نصف طوله فى التاج المنحوت فى معبد "دندرة" حيث يبلغ ١,٨٠ مترا؛ بينما يبلغ فى التصميم أقل من متر.

ومما سبق نستنتج إذن أن هذه التصميمات قد تم رسمها بمقياس رسم ١ : ٢ وهى نسبة ملائمة - تمامًا - تم اختيارها على الأرجح من أجل إبراز الملامح والتفاصيل بوضوح.

وبما أن هذا الرأس هو رأس لامرأة - أى أن النسبة بين الرأس والقامة لابد وأن تكون ١:٧,٧٥ فبوسعنا إذن معرفة طول القامة التى تتناسب وهذا الرأس، وبما أن رسم الرأس يشغل ثلاثة مربعات ونصف - أى ما يعادل ٠,٩٥ مترا؛ فطول قامة صاحبة هذا الرأس إذن يقدر بحوالى ٧,٣٦ مترا - أى ما يعادل ستة عشر ذراعًا.

وبما أن الطول الطبيعى لقامة المرأة فى الواقع يبلغ حوالى أربعة أذرع فالفنان قد استعان إذن لرسم رأس هذه المرأة بمقياس رسم أربعة أذرع أو أورجى لكل ذراع أو مقياس قدم لكل شبر.

وبوسعنا إجراء مقارنات مماثلة بين التاج الثانى لرأس حتحور الذى يبلغ ارتفاع الرأس فيه أربعة مربعات أو ما يعادل ثلاثة أذرع[1] وطول الرأس فى التاج المنحوت بمعبد دندرة حيث يبلغ إجمالى العرض حوالى أربعة أذرع ونصف؛ ولكن سوف أتعرض لتصميم آخر لتاج ثالث على شكل كأس زهرة اللوتس[2].

وبلغ أقصى عرض هذا التاج حوالى ٢,٢٦ مترا، ويبلغ ارتفاعه الكلى ١,٢١ مترا، وتبلغ أبعاد الطبلية ٠,٣٦ مترًا للارتفاع (أو ما يعادل مربعًا واحدا) و١,٠٦ مترًا للعرض؛ بينما يبلغ عرض الجذع ١,٣ مترا. وجدير بالذكر أن أحجام المربعات مختلفة؛ فهى تنقسم إلى نوعين: المربعات الثلاثة العليا يبلغ طولها ٠,٣٦ مترًا للمربع، أما الباقى فيتراوح طوله بين ٠,٤٧ مترًا و ٠,٤٨ مترًا.

---

(١) انظر اللوحة ٦٢ ، شكل ٣ .

(٢) انظر اللوحة ٦٢ ، شكل ٥ .

وإذا أخذنا ربع طول النوع الثانى من هذه المربعات (٢٥ر × ٤٨ر. مترًا = ١٢ر. مترًا) كوحدة قياس ثابتة سنجد ما يلى :ـ

الطبلية :	وحدة (٠،١٢ مترا)
ارتفاع	٣ وحدات
عرض	٩ //
التاج ـ ارتفاع كلى.......................................	١٠ //
عرض	٩ //
التتويج...	٢ //
ـ نتوء على الطبلية	٥ //
ـ نتوء على الجذع	٤ //
عرض الجذع :	١١ //

وإن المشترك فى الجدول السابق يعادل بالتحديد ربع ذراع مصرية أو ستة أصابع (١).

وإذا بحثنا بين الأعمدة العديدة التى تمثل بتيجانها هذا الشكل وسط الآثار المصرية القديمة لا سيما تلك الموجودة فى معبد الكرنك؛ فما من شك أننا سوف نكتشف الأعمدة المطابقة لهذا التصميم، ومن ناحية أخرى نلاحظ فى هذا التصميم أن تقوس عنق كأس زهرة اللوتس قد حل محله خط مستقيم؛ هذا فضلاً عما يتسم به هذا التصميم ـ على غرار التصميمات السابقة ـ من دقة التفاصيل بالإضافة إلى استخدام اللون الأحمر فى الرسم على واجهة جدار شُيد خصيصًا لهذا الفرض.

ها نحن إذن أمام تصميمات هندسية أو ما يطلق عليه تصميمات تحضيرية لفن تقطيع الأحجار تركها لنا مهندسو فن العمارة المصريون، إنها مجرد خطوط

---

(١) انظر دراسة نظم القياس.

حمراء بسيطة ولكنها قاومت الزمن وصمدت على مر العصور لتكشف لنا اليوم عن أسرار الفن المعمارى المصرى القديم.

ونجد بضواحى محاجر جبل «أبى فدا» بقايا مومياوات مما يثبت أن المحاجر استخدمت فى الأصل كمقابر، ويطلق عليها سكان القرى المجاورة اسم «مغارة» وهو الاسم الذى كان يقصد به ـ دائمًا ـ المقابر.

ووراء هذا الجبل على مرمى البصر نرى صخورًا ملاصقة لمجرى النيل أو تغمرها مياه النهر وقد ظهرت بها هنا وهناك فتحات المقابر التى نحتت بها، ويتكرر هذا المشهد بوجه عام فى السلسلة العربية كلها ـ تقريبًا ـ على امتداد ما يتراوح بين الف متر والف ومائتين مترا.

ومن ناحية أخرى نلاحظ أن صخور الجبل مكشوفة دومًا فى هذه المنطقة على وجه الخصوص وأنها شديدة الانحدار وملاصقة للنهر؛ وهذا ما دعى قاطنى الضفة اليسرى للنيل إلى نحت مقابرهم فى هذا الجبل، والجدير بالذكر أن هذه الضفة يشغلها عدد كبير من المدن الآهلة بالسكان؛ فكان من الممكن أن يفرض عرض السهل على سكان هذه الضفة الذهاب بعيدًا لنحت المقابر ودفن موتاهم فى السلسة الليبية؛ غير أن السلسلة العربية كانت المكان الأنسب والأقرب بالنسبة لهم.

المبحث الثانى : القوصية

كانت القوصية إحدى مدن الضفة اليسرى التى نحتت مقابرها فى جبل «أبى فدا»، وهذه البلدة التى تقع على بعد ألفين وخمسمائة متر غرب النيل توجد بأقصى الأطراف الجنوبية بمقاطعة هرموبوليس قديمًا ومحافظة الأشمونين حاليًا أو المنيا؛ ويبدأ الصعيد من هذا المكان أو بالأحرى عند القناة التى تمر بجنوبه وتسمى ترعة العسل .

ولقد ذكر فى تاريخ الإمبراطورية أن بلدة كوساى (القوصية) تتبع الصعيد أما فى تاريخ هرقل فقد وردت البلدة باسم كاسوس التى أعتقد أنه يقصد بها

المكان نفسه ـ وكانت تتبع كذلك الصعيد السفلى؛ وذلك فى حقبة حديثة حيث كانت الحدود بين المدن قد تغيرت فانفصلت آنذاك مقاطعة هرموبوليس ومقاطعة آنتينويه عن إقليم أركاديا.

وبلدة «القوصية» الحالية أقيمت على أنقاض مدينة «كوساى» القديمة، فتشابه الأسماء يعد دليلاً على موقع البلدة القديمة، وهناك دليل آخر ألا وهو تطابق المسافات بين «كوساى» أو «القوصية» وبعض الأماكن المعلومة. ووفقًا لخريطة انطونيانوس، تبعد مدينة هرموبوليس عن كوساى بحوالى أربعة وعشرين ميلا، كما تبعد كوساى عن ليكوبوليس بحوالى خمسة وثلاثين ميلا.

والمسافة التى تفصل حاليًا بين «الأشمونين» و «القوصية» تبلغ حوالى ستة وأربعين ألفًا وخمسمائة متر أو ما يعادل واحدًا وثلاثين ميلاً ونصف ميل بالمقياس الرومانى؛ أما المسافة التى تفصل بين «أسيوط» و «القوصية» فتقدر بتسعة وثلاثين ألفًا وتسعمائة متر [١] أو ما يعادل سبعة وعشرين ميلا ـ أى أن إجمالى المسافة يبلغ بالتقريب تسعة وخمسين ميلاً تقريباً؛ وهو ما يدعونا إلى افتراض أن مدينة «كوساى» القديمة تقع إلى شمال مدينة القوصية الحالية بقليل ـ أى تبعد عنها بمقدار أربعة آلاف وخمسمائة متر؛ وهذا يعنى أن موقع البلدة القديمة قد يكون بين المكان الحالى وقرية سنابو الكبيرة؛ ولكن لايجب أن نلتفت إلى هذه الفروقات الطفيفة نظرًا للتشابه الكبير بين اسم البلدتين خاصة وأن اسم «القوصية» فى قوائم أسماء القرى باللغة العربية يتطابق ـ تمامًا مع الأسماء اليونانية والقبطية للبلدة القديمة وهي KWC و KWS وهى لا تختلف بالطبع عن الاسم وفقًا للخريطة اللاتينية[٢] وقد ذكر لى شيوخ البلد أن اسم البلدة يكتب بهذا الشكل «مدينة قوس» مما يدل على أنها مدينة قديمة للغاية.

ويذكر إليان أن المدينة يطلق عليها Chusae و Xatai وهى ـ على حد قوله ـ مدينة صغيرة ولكنها فى غاية الروعة و ينسبها إلى مقاطعة الأشمونين، ويضيف أن

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦ ، شكل ١ ، الدولة الحديثة. وتم فى هذا البحث تعديل من المواقع الأثرية التى وردت فى هذه الخريطة وفقاً ل "ڤيل.

(٢) أوضح كاترمير أن هذا المكان كان يطلق عليه ـ أيضًا ـ «قوصية».

فينوس هى الربة التى كان يعبدها أهل هذه البلدة وكان رمزها البقرة [١] واسمها اورانيوس، وجدير بالذكر أن هذه الربة قدستها العديد من المدن المصرية القديمة.

وفقًا لتاريخ الامبراطورية كان «بكوساى» كتيبة من الفرسان يطلق عليها[٢] وفى أقصى الجنوب الغربى للمدينة الحالية نجد جبلاً من الأنقاض وأطلالاً من مبان وجدران عديدة متهدمة بالإضافة الى أوان مختلفة الأشكال وقطع من الزجاج المتناثرة، وكانت هذه الأنقاض تحوى عملات وقطعًا اثرية مختلفة؛ ولكن لا يوجد أى أثر للمعبد المفترض وجوده فى هذه المدينة ولا لأى عمود من أعمدته وذلك وفقًا لما ذكره إليان.

ويبدو أن البلدة قد نشب بها حريق وهو ما يفسر وجود بعض قوالب الطوب الأحمر[٣]، ونرى الفلاحين متجمعين على الأنقاض يعملون فى أغلب الأحيان فى غربلة التربة لاستخلاص سماد عضوى يطلق عليه «سباخ».

وفى الوسط بالقرب من البركة تم استخراج حجر ضخم منشورى الشكل يتراوح طوله بين أربعة وخمسة أمتار. وتمتد بلدة «القوصية» وأطلالها التى لاتزال باقية على مساحة الف متر[٤].

وتقام فى هذه البلدة سوق كبيرة رأيت فيها ما يتراوح بين اثنين إلى ثلاثة آلاف شخص، ويباع فيها مختلف أنواع السلع من تبغ وأقمشة وتمر وإبل وماشية وحلى (خرز وقلادات) .

---

(١) لم تكن المدينة المصرية القديمة خوسا . قوص مدينة كبيرة ولكنها كانت رائمة وتتبع إقليم الأشمونين وكانت تعبد أمزديش وفينوس التى كانت تلقب بالأورانية اى السماوية . وكان يتم تقديم بقرة ذات قرون قربانا لهذه الربة .

(٢) الطبيعة الحيوانية ، اليان ، الكتاب العاشر ، الفصل ٢٧ .

(٣) بعد أن قمت بتدوين ما سبق ، قرأت للكاتب نفسه انه كان يطلق على هذا المكان في «أبى صلاح» اسم «المحرق» مما يؤكد حدسى؛ هذا فضلاً عن وجود دير يطلق عليه " دير المحرق " بجوار هذا المكان كما سنرى فيما يلى .

(٤) انظر اللوحة رقم ٦٧ ، المجلد الرابع ، شكل ١ .

ويأتى الأعراب من قبيلة «ابن وافى» ـ وهم مسلحون دائمًا بالحراب والبنادق ـ لشراء احتياجاتهم من هذه السوق فيتطاولون على الباعة ويملون عليهم بوقاحة شروط البيع والشراء؛ وهو مشهد غريب ومحزن لمسافر يبحث بلا جدوى عن نظام أمنى كان مزدهرًا فى تلك البلاد؛ فقد كان هؤلاء البدو يثيرون سخط الفلاحين بسوء معاملتهم؛ فكانت زياراتهم وبالاً عليهم؛ فويل للفلاح إذا تورع وأظهر استياءه لما يقوم به هؤلاء البدو من نهب وسلب فتكون حياته ثمنًا لهذه الجرأة!!

المبحث الثالث : دير المحرق ـ أديرة صنبو وكوم امبو

يقع على بعد سبعة آلاف متر جنوب شرق بلدة «القوصية» أعظم أديرة القطر على الإطلاق ويطلق عليه اسم «دير المحرق» أو «الحدرا»، ولعظمة هذا الدير يتعين على أن أشمله هنا بالوصف على الرغم من أنه يتبع فى الوقت الحاضر منفلوط.

يقع الدير على مشارف الصحراء ، ويقطنه عشرون راهبًا وما يقرب من مائتى شخص، وقد تم تشييده بأحجار ردئية ولا يوجد به أشجار على الإطلاق، وتقع إلى شماله جبانة المسحيين.

ويوجد جسر سلطانى الذى يحمل اسم الدير نفسه ويفصل بين محافظتين ويحتجز مياه ترعة السواقية القادمة من أسيوط.

ولا يمتلك الرهبان أية أراضى خاصة بهم؛ فهم يعيشون على الصدقات، وعندما قمت بزيارة المكان كان كبير الرهبان آنذاك يدعى عبدالملك ولم أتمكن من الدخول إلى الدير فلم أشاهده إلا من الخارج، ويخضع هذا الدير لسلطة وحماية الشيخ عبدالله؛ شيخ العرب من قبيلة «ابن وافى» الذى يقيم فى قرية «تتالية» الواقعة فى جنوب شرقى الدير.

ومنذ أن بدأت أهمية بلدة «القوصية» تخبو ظهرت فى بلدة صنبو على بعد ستة آلاف متر شمالاً قرية جديدة تفوق أهميتها حاليًا أهمية بلدة « القوصية».

فوجود ثلاثة أديرة فى قلب هذه القرية وفى ضواحيها يدل على أن هذا المكان كان به سكان منذ القدم.

ويقع أول هذه الأديرة فى قلب قرية «صنبو» نفسها ويقوم على خدمته اثنان من القساوسة، ويعرف بدير «جرجس»، وتؤدى بنا سبع أو ثمانى درجات إلى أسفل إلى الكنيسة ، وهى عبارة عن قاعة مستطيلة وضيقة تزين جدرانها تجاليد خشبية وثلاث أيقونات من بينها اثنتان تمثلان القديس چورج ممتطيًا حصانه ويصارع الروح الشريرة، ويتسم محتوى الأيقونة والرسم بالغرابة؛ فنرى امرأة شابة تركب وراء القديس، وإحدى هذه الأيقونات من سوريا، أما الأخرى فقد رسمها فى القاهرة رسام أرمنى حيث نلاحظ على خلفيتها الذهبية هذه الكتابة Teoptwc ونلاحظ أيضًا أن سرج الحصان من الطراز العربى وأن له ركابين صغيرين من الطراز المملوكى، أما القديس فكان يضع سيفه بين الفخذ والسرج وتظهر الروح الشريرة على هيئة تنين ضخم.

ويقع دير القديس تاودرس المشرقى _ الذى لانجد اليوم سوى أطلاله _ فى الجنوب الشرقى، وقد تم تشييد هذا الدير منذ زمن قديم إبان الإمبراطورية الرومانية كما ذكر المسيحيون؛ لذا فجميع جدرانه شبه متهدمة، أما المبانى الداخلية فهى من الطوب المحروق وأساساتها سيئة؛ فلا نجد أية دعامات أو أعمدة ولا أية إنشاءات من الحجر أو الرخام، ويوجد بهذا الدير صهريج للمياه. أما المدخل وهو على شكل قبة فيعتبره المسيحيون مدخلا لقصر كبير، وعندما مررت بهذا المكان كان المعلم أيوب كبير الأقباط « بصنبو» مهتمًا بإعادة بناء هذا الدير.

والدير الثالث هو دير مارمينا الذى يقع فى الشمال الشرقى،وتبلغ مساحته سبعة وثلاثين مترًا فى اثنين وثلاثين، وكنيسة هذا الدير لها ثلاث قباب لا تختلف عن جميع القباب التى شاهدتها، وتتألف من عدة قاعات وبها صهريج للمياه. وقد قام مراد بك عقب معركة الأهرامات لدى مروره بصنبو بنزع التجليدات الخشبية وتحطيم الأيقونات كما قام بقتل اثنين من القساوسة والعديد من المسيحيين.

ونجد شرق هذا الدير بالقرب من «كفر خرفه» على جسر ميسارة تلاً صغيرًا سوف أتعرض له نظرًا لاسمه «كوم امبو» أو «كوم انبوها»، ونجد بجوار هذا التل أطلالاً عديدة وجدير بالذكر أن أصل تسميه هذا التل قديم فهو يشير إلى مدينة كبيرة تقع بالقرب من «أسوان» كان يطلق عليها اسم «امبوس».

وقبل أن أترك الحديث عن هذه المنطقة سأتطرق لذكر قريتين يطلق على الأولى اسم «ببلاو» وعلى الأخرى اسم «بانوب» تقعان شمال «صنبو».

وجدير بالذكر أن اسمى هاتين القريتين لا يزالا يحتفظان ببعض الحروف التى تشير إلى تسميات قديمة، فالاسم الأول «ببلاو» يعود إلى التسمية القديمة لورق البردى «ببلوس»، وقد اشتق من هذا الاسم كلمة «بيبل» وتعنى التوراة وكلمة «ببليوتك» - وتعنى المكتبة... الخ، أما الاسم الثانى «بانوب» فهو يشير إلي «أونوفيس» وهو الاسم الذى كان يطلق على العديد من القرى المصرية القديمة.

ومنذ ما يقرب من أربعين عامًا مضت كان لأولى هاتين القريتين شأن كبير؛ فقد كان يقطنها أكثر من ألف مسيحى؛ غير أن الحروب الداخلية قضت على العديد من الأسر فيها فرحل المسيحيون عنها؛ أما من فضلوا البقاء فقد عملوا فى إدارة أفران الطمى المنتشرة بالقرية؛ وهى مهنة متوارثة تؤكد على قدم هذا المكان الذى لا يوجد ـ كفيره من الأماكن الكثيرة – على الخريطة الجغرافية.

المبحث الرابع
بيسلا الدير أو مدينة القيصر حاليًا
محاجر وأطلال فى الشمال

«الدير» هى قرية كبيرة تقع على الضفة اليمنى للنيل فى مواجهة صنبو تقريبًا، وقد شيدت على أنقاض مدينة قديمة لم يبق منها سوى أطلال معبد ومقابر منقورة فى الصخر، وكانت هذة المدينة مشيدة على سفح السلسلة العربية نفسها وتتسم هنا بارتفاعها الشاهق وشدة انحدارها.[١] وبسؤالى لشيوخ القرية

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٧ ، المجلد الرابع ، شكل ١ .

علمت أن الاسم القديم للمكان هو« مدينة القيصر» . أى مدينة «يوليوس قيصر» كما كان يطلق عليها . أيضًا . اسم «دير القيصر» و«دير بصرة».

واسم «قيصر» ليس بالطبع سوى لقب أطلق على القرية فى العصور الحديثة لبيان أنه كانت توجد بهذا المكان مدينة رومانية وسوف نسعى الآن لمعرفة الاسم الحقيقى لها.

وتتقسم أطلال هذه المدينة إلى جزءين: جزء ملاصق للقرية والجزء الآخر فى الشمال ويحتوى على أكبر كمية من أطلال الآثار القديمة وفيه جدران عديدة لا تزال قائمة حتى الآن تم بناؤها بأحجار صغيرة ومتساوية على هيئة صفوف منتظمة، وهذه الجدران لا تختلف فى شكلها عن أسوار مدينة «القوصية»؛ غير أنها تمتاز ببنائها المتقن والمتماسك، ونلاحظ أنها تظهر على سطح الأنقاض نظرًا لما يقوم به الفلاحون يوميًا من بحث وتنقيب وغربلة للأنقاض لاستخراج السماد العضوى. ولا يزال بالإمكان تتبع تخطيط شوارع المدينة بوضوح؛ فأجزاؤها لا تزال واضحة كما تم تصميمها فى الماضى وتبدو ضيقة للغاية.

وتمتد هذه الأطلال على مسافة خمسمائة متر تقريبًا؛ هذا دون اعتبار للمساحة التى تشغلها القرية حاليًا. ونرى فى المنطقة التى تفصل بين الأطلال والقرية وتمتد على مسافة مائة متر تلاً من الرمال يغطى أطلالاً قليلة الارتفاع، لا يتعدى عرضه مائة متر، ونلحظ وسط هذه الأنقاض كثيرًا من بقايا أونى فخارية بداخلها مادة صمغية مماثلة لما سبق وأشرت إليه فى وصفى للجرارالموجودة فى الأشمونين والشيخ عبادة[١]، ونجد . أيضًا . فى كل مكان أحجار متناثرة لمبانى تهدمت بالكامل.

أما المعبد الذى كان موجودًا بقرية «الدير» فقد انهارت أغلب أجزاؤه بالكامل؛ غير أننا نرى هنا وهناك أطلال أعمدته وأسواره وقاعاته التى لا تزال فى موقعها الأصلى فتحدد بشكل واضح تصميم المعبد، فلا نزال نرى صفوف أحجار جدرانه ، ومن الجدير بالذكر أنه قد تم التنقيب فى تربة هذه المنطقة.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٣ ، الأشكال ٣ ، ٤ ، ٥ .

ويبلغ ارتفاع هذا المعبد حوالى عشرين مترا، كما تبلغ مساحة الواجهة حوالى أربعة عشر مترا تقريبًا، ويتكون من صالة تحوى ستة أعمدة وست قاعات أخرى مقسمة وفقًا لتصميم المعابد المصرية الصغيرة[1]، وتبلغ مساحة الصالة أحد عشر مترًا فى سبعة أمتار ونصف. وقد تم تشييد المعبد بعناية؛ فقد اصطفت أحجاره بشكل منتظم. ونلاحظ أن أحد الجدران الجانبية للغرفة الثانية بنهاية المعبد غير موجود. ومن الصعب تحديد إلى أى من العصور يرجع تشييد هذا المعبد.

فعلى الرغم من أن تصميمه يضاهى تصميمات المعابد المصرية الصغيرة فإننا لا نستطيع أن نجزم بأن بناءه تم فى عهد واحد، وأنا لم أشاهد على الإطلاق وسط الأنقاض أية آثار لنقوش مصرية الطابع .

فالمعبد فى الواقع شبه مهدم تمامًا؛ إذ أن حريقًا كان قد أتى على المدينة بأكملها؛ غير أن الأحجام الصغيرة للأحجار وقوالب الطوب والأعمده (التى لا يتعدى عرضها مترًا واحدًا) تدل على أن هذا المعبد يرجع إلى مرحلة ما بعد العصور القديمة، فهذا الأثر يرجع - على سبيل التخمين - إلى العصر الإغريقى أو الرومانى وقد تم بناؤه على الطراز المصرى.

ونجد خلف هذه الأطلال صخورًا بداخلها محاجر كبيرة للغاية كانت توفر احتياجات المدينة من الأحجار ونرى على ارتفاع شاهق تجويفًا عميقًا يطلق عليه اسم «ديوان» وهناك باب كبير يؤدى إلى هذا التجويف وهو منحوت فى واجهة جدار ضخم تم تشييده خصيصًا لهذا الغرض؛ ولكن لم يكن بوسعى التأكد من وجود أية نقوش مصرية منحوتة عليه.

وقد قمت - بطريقه هندسية - بقياس ارتفاع المعبد من أعلى قمة الجبل فوجدت أنه يبلغ حوالى مائة وستة وأربعين مترًا أو ما يعادل تقريبًا - أربعمائة وخمسين قدمًا.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٣ ، شكل ٢ .

والتعرف على الموقع القديم لأطلال قريه «الدير» أمر يسير فموقعها القديم هو مدينة «بيسلا» ـ التى كانت تبعد عن بلدة الشيخ عبادة بحوالى أربعة وعشرين ميلاً وذلك وفقًا لمسار انظونيانوس، والموقع نفسه معروف باسم بسكلا وفقًا لما جاء فى تاريخ الإمبراطورية وكان يوجد فى هذا الموقع مركز رومانى يحمل اسم «إيلا جرما نوروم» (١).

وفى الواقع، إذا قمنا بقياس المسافة التى تفصل بين بلدة «الشيخ عبادة» وقرية «الدير»، سنجد أنها تبلغ حوالى خمسة وثلاثين ألفًا وخمسمائة متر (٢). أى ما يعادل تمامًا أربعة وعشرين ميلاً وفقًا للمقياس الرومانى وألفًا وأربعمائة وثمانية وسبعين متراً؛ فما من شك إذن أن قرية « الدير» أو «مدينة القيصر» كان يطلق عليها اسم «بيسلا» أو «بسيللا» إبان الحكم الرومانى؛ هذا غير أننى لن أستطيع الجزم بأن أصل المدينة ليس مصريًا.

أما السلسلة العربية المنحدرة التى تغمر أجزاء من سطحها مياه النيل فهى تمتد من قرية الدير حتى مرمى البصر شمالا.

ونستطيع أن نرى العديد من المقابر منحوتة فى الجزء السفلى من الجبل، وبين هذه المقابر توجد مقبرة تقع أعلى بلدة «التل» ـ أى بعيدًا بمعزل عن الجبل. تمامًا ـ مثل المقبرة التى تقع بالقرب من بلدة «الكاب» وهى مقبرة كبيرة للغاية حتى أنها تبدو من بعيد كبناء أثرى.

ونرى بالقرب من واد ـ يطلق علية « وادى رمخ» أو «وادى الرخام» محاجر ومقابر عديدة، وعند «شيخ الأربعين» ـ وهو عبارة عن تمثال صغير لأحد الشيوخ مقام على صخرة وتحيط به أشجار النخيل وأشجار السنط ـ نرى جدران تم بناؤها من الطوب الأثرى، كما نرى ـ أيضًا ـ أطلالاً مغطاة ببقايا أوانى محطمة، وقد قمت بقياس القوالب المستخدمة فى بناء تلك الجدران القديمة فوجدت أن سمكها يبلغ ٠,١٥ مترًا. وقد رأيت العديد من المحاجر عند «الشيخ عبد الحميد»

---

(١) تاريخ الإمبراطورية ص ٩٠ .

(٢) انظر الدولة الحديثة ، اللوحة رقم ٦ ، الشكل ١ .

الذى يقع شمالاً بالقرب من «الحوطة»، كما لاحظت بعيدًا آثار جدار من الطوب وهو جدار قديم للغاية تغطيه الرمال يومًا بعد يوم دون أن يعلم أحد عنه شيئًا.

المبحث الخامس : «بسينولا» «التل» حاليًا

بعد بلدة «الحوطة» ندخل فى سهل رملى كبير تحده من ثلاث جهات السلسلة العربية ويحده نهر النيل من جهة الغرب - تمامًا - كما هو الحال بالنسبة للخليج الذى تقع فيه بلدة «الشيخ عبادة».

وفى هذا المكان كانت توجد مدينة مصرية كبيرة للغاية لم يلحظها أى رحالة حتى الآن. وعندما وقع بصرى لأول مرة على هذه المدينة انتابتنى الدهشة لرؤية هذا الكم الهائل من الأطلال التى لا يقل طولها عن ألفين ومائتين متر ويقدر عرضها بألف متر؛ وعلى الرغم من أن هذا المكان يقع ملاصقًا لمجرى النيل الذى يزداد ضيقًا بالتحديد هنا فإن لا أثر له على أية خريطة جغرافية. وقد قمت برسم خريطة للمكان وخاصة للأجزاء التى لم تتهدم، وانهارت أغلب المبانى ولم يتبق منها للأسف سوى الأساسات؛ غير أن عددًا كبيرًا من المنازل المشيدة بقوالب الطوب لاتزال جدرانها الأساسية قائمة، ووسط هذة الأنقاض يمكننا رؤية باب ضخم والسور المتصل به ومبنيين كبيرين نستطيع تمييز تصميمهما بوضوح وشارع فسيح ممتد يبلغ عرضه ثمانية وأربعين مترًا بالإضافة لآثار العديد من شوارع هذه المدينة(١).

وعندما نسير من بلدة «التل» ونتجه شمالاً نجد سورًا يقطع هذا الشارع الفسيح وذلك على بعد حوالى أربعمائة متر من نهاية منازل القرية، وفى الوسط نجد بابًا. وعندما نتخطى ربع المسافة التى تمتد عليها الأطلال فى اتجاه الشمال نجد مبنى هائلاً مشيدًا بقوالب الطوب وله باب ضخم يبلغ سمكًا كبيرًا لا

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٣ شكل ٦ .

يتناسب وهذا النوع من البناء؛ إذ يبلغ اتساعه أحد عشر مترًا و ربع متر ويقدر سمكه بسبعة أمتار ونصف [١] ونلاحظ أن جدران المبنى مائلة مثلها مثل واجهات الصروح[٢]؛ وعلى الرغم من أن جزءًا كبيرًا من ارتفاع المبنى قد انهار فإن ما تبقى يبلغ ٧,٣٢ مترا. والجدير بالذكر أن أحجام قوالب الطوب نفسها فى غاية الضخامة؛ إذ يتراوح طول القالب من خمسة وثلاثين إلى ثمانية وثلاثين سنتيمترًا ويبلغ العرض ثلاثة عشر سنتيمترًا، بينما يتراوح الإرتفاع من ستة عشر إلى عشرين سنتيمترًا، ومن الملاحظ أن عملية البناء تمت بعناية شديدة فنرى أن القوالب قد رصت الواحد فوق الآخر بدقة متناهية. ويضاهى هذا الباب فى ارتفاعه صرح معبد الأقصر، أما المبنى ذاته فهو يشبه كثيرًا المبانى المصرية القديمة الضخمة إذ يبلغ طوله ١٩٣,٦ مترًا وعرضه ١٠٥ مترا.

كما يصل اتساع الفناء الأول إلى ٧٦,٨ مترًا ويوجد بعد ذلك فناءان آخران بهما آثار تقسيمات قديمة. ونلاحظ على يمين ويسار المبنى شارعين يبلغ عرض كل منهما ثمانية وأربعين مترًا على غرار الشارع الرئيسى وتذكرنا هذه الأحجام جميعها بمبانى طيبة الضخمة.

ومن المستحيل أن نتبين الغرض من تشييد هذا المبنى الذى يختلف قطعًا عن كل المبانى الأخرى فى مصر؛ فالمبنى الوحيد المماثل له - وإن كان مشيدًا بالأحجار - هو المبنى المقابل للهرم الثالث بمنف .

وعلى الجانب الآخر من الشارع وفى مواجهة هذا البناء يقع مبنى آخر مماثل له فى المساحة وفى الطراز المعمارى وإن كان جانب من جوانبه غير موجود وهو الجانب الملاصق لنهر النيل[٣] غير أن تقسيماته تفوق المبنى الآخر عددًا، ويصعب - أيضًا - معرفة الغرض الذى خصص من أجله هذا البناء.

---

(١) انظر اللوحة السابقة ، الأشكال ٧ ، ٨ .

(٢) انظر اللوحة السابقة ، شكل ٩ .

(٣) انظر اللوحة رقم ٦٣ شكل ٦ .

ترى هل شيدت هذه الأبنية لتكون معابد أو قصورًا، أو حصونًا أو مخازن للغلال... الخ؟ أعترف أن جميع هذه المقترحات لاتستند إلى أية أسباب مقنعة، لذا سأترك للقارئ حرية اقتراح افتراض مقبول.

ولكن الأمر المؤكد هو أن هذه المبانى مصرية؛ فطبيعة قوالب الطوب وحجمها ودقة البناء وسمك الجدران وميل واجهات المدخل؛ كل ذلك يثبت أن المبنى مصرى. وعلى الرغم من أن قوالب الطوب رملية وترجع إلى العصور القديمة؛ فإنها لا تزال تحتفظ بصلابتها مما أسهم فى بقاء جوانب الباب الداخلية سليمة حتى الآن؛ هذا غير أن الأجزاء البارزة التى تزين الواجهة قد أصابها التلف فلم يتبق منها سوى ثلاثة أجزاء يبلغ ارتفاعها ٣/١ ٧ تقريبًا؛ وطول أكبر هذه الأجزاء يبلغ تسعة وعشرين مترًا، والجزء الثانى يبلغ طوله أربعة وعشرين مترًا، أما الثالث فيبلغ ما يقرب من عشرة أمتار. ويسهل تسلق هذه الجدران من ناحية الجنوب. ولا يمكن تخيل شكل العتب الذى كان يزين الباب نظرًا لشدة اتساعه؛ ففتحة هذا الباب تفوق فى اتساعها أى باب من أبواب منشآت مصر القديمة.

فإذا ما توفرت الأحجار اللازمة لبناء العتب الذى يزين هذا المبنى فيجب أن تبلغ ثمانية وثلاثين قدمًا، فكيف لجدران مشيدة بقوالب مزدوجة أن تحمل ذلك الوزن الثقيل دون أن تنهار؟! هذا ما يدعو لمزيد من الدهشة ونحن أمام مبنى بمثل هذه الضخامة!! وبين هذه الأطلال نستطيع ملاحظة عدد كبيرمن الشوارع التى تتقاطع بشكل عمودى على الشارع الرئيسى الكبير، وأغلب هذه الشوارع لم يعد يظهر منه سوى آثار لخطوط مستقيمة. والشارع الرئيسى الذى سبق وتحدثنا عنه يستخدم اليوم كطريق يربط بين قرية «التل » وقريتى «الحاج قنديل» و«الحوطة».

وكل هذه المساحة تغطيها طبقات من الرمال ناتجة عن تفتت بعض صخور السلسلة العربية، ومن المرجح أن يكون السهل المقام عليه هذه المدينة قد تمت زراعته من قبل وأن تكون الرمال قد غطته شيئاً فشيئا.

وقد سألت سكان القرى المجاورة عن اسم هذه الأطلال ولم يستطع أحد أن يطلعنى على ذلك؛ فالفلاحون والشيوخ يجهلونه أيضا، وسوف نبحث فيما بعد

إلى أى زمن من الأزمنة القديمة يمكن أن تنتمى هذه الأطلال. وينتمى جميع سكان قرية التل والحاج قنديل والأميرية والحوطة إلى سلالة عربية ؛ ونظرًا لأنهم ليسوا أقل حذرًا من الفلاحين فإن طرح الأسئلة عليهم أكثر صعوبة، وعلى الأقل فإنه لا يمكن الحصول منهم عامة إلا على إجابات ليست ذات معنى. ولم ألق فى أية قرية بمصر استقبالاً بنفس الدرجة من الوحشية التى استقبلت بها فى هذه الأماكن الأربعة؛ فوجوه هؤلاء الأعراب المتكدرة والصامتة كانت تبشرنى بمعاملة أكثر سوءًا؛ لو لم أكن مسلحًا تسليحًا جيدًا ومصحوبًا بحراسة جيدة!!

ويشير كتاب «تاريخ الامبراطورية» إلى مدينة بسينولا التى لم يحدد موقعها بعد؛ حيث كان للرومان حامية مكونة من جنود يركبون الجمال(١)، إنها نفس مدينة بسينابلا فى الصعيد وهى تلك التى يشار إليها فى كتاب س. أثاناس (٢) ولا أعرف أطلالاً أخرى يمكن أن ينطبق عليها هذا الاسم بشكل أفضل سوى تلك التى وصفتها، وعلى كل حال فإنه لا توجد أية أطلال أخرى بين بسلا والشيخ عبادة .

المبحث السادس : ديروط الشريف أو السرابامون
ضواحى طيباياكا فيلاس

بما أنه قد سبق لى وأن تناولت هذا الموقع فى وصف الأشمونين(٣) بقى لى هنا أن أقوم بذكر مجموعة من الآثار ذات أهمية أقل لتجمعات سكنية قديمة تقع فى ضواحى المكان وسنكتفى بالحصر الآتى لها :

---

(١) تاريخ الامبراطورية، ص ٩٠

(٢) (سان اثاناس ، التاريخ الأثرى ، المجلد الأول ، ص ٢٨٧) مدينة بسينيلا التى ذكرت فى المخطوطات القبطية باعتبار أنها تقع جنوب الشيخ عبادة على بعد ساعة تقريبًا ، تنطبق تمامًا على هذه المدينة من حيث الموقع أو الاسم. انظر دراسات جغرافية عن مصر . بقلم: كاترمير ، المجلد الأول ، ص ٤٢.

(٣) انظر هذا الوصف ، الفصل الرابع عشر.

كوم الوزير: وهى عبارة عن تل صغير من الأطلال يقع شمالى ديروط على الضفة اليمنى لقناة يوسف.

كوم بجة: وتقع بالقرب من منفذ قناة صغيرة شرقى ديروط.

كوم ركب: وتقع خلف مخيم للبدو على بعد ألف متر غربى أبوالهدر وقناة يوسف وهو عبارة عن مرتفع مغطى بالطوب وبقايا فخارية ويبلغ طوله من ثلاثمائة إلى أربعمائة متر وينمو فوقه - مثله فى ذلك مثل بقية الأطلال - كميات من نبات الأسل.

كوم الخربة: وتقع على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة متر غربى الموقع السابق، وهو تل من الأطلال مرتفع بعض الشىء، ويعنى اسمها الخراب، ويطلق الفلاحون على هذا المكان اسم «بلد كفرى» - أى «مدينة الوثنيين».

دير الجرداوى أو نزلة أبوخلقة: وهى أطلال ممتدة نسبيًا شمالى كوم ركب تقع على الضفة اليمنى للقناة، وكان الجلاداوية[١] - أى أهل دلجة ، وهى قرية كبيرة فى الغرب - قد دمروا هذا المكان تمامًا قبل مجىء بعثتنا بنحو ثلاثين عامًا وبالقرب من ضريح أو من قبة توجد ستة أعمدة قائمة وتبدو بارزة خارج الأنقاض بارتفاع مترين، خمسة منها من الجرانيت الأحمر وواحدة من الحجر الرملى، ويبلغ قطر هذه الأعمدة ٣٢, ٠مترا وعلى البعد يوجد عمود آخر من الجرانيت الأحمر ملقى على الأرض يبلغ طوله ٤,٥ أمتار وبعرض نصف متر، ويبدو أن المسيحيين القدماء كانوا قد سحبوا هذه الأعمدة من قطع أكبر حجمًا ، كما أن اسم « دير» يوحى بأنه ربما كانت توجد لديهم كنيسة فى هذا المكان. وفى جنوب القبة وبالقرب من القناة توجد كتلة ضخمة من الجرانيت كانت تمثل جزءًا من عمود ذى حجم كبير ؛ سطحها الأعلى لامع، وتظهر حذوذ على الجوانب وهى منحوتة جانبيًا على شكل قوس مما يدل على أنها كانت تستعمل كمشحذ أو كرحى ، ويدل على ذلك - أيضًا - وجود حفرة مربعة فى مركز هذه الكتلة بعرض

---

(١) هذا الاسم يأتى من كلمة «دلجة» وقد قام الفلاحون بتحويرها كما هى عادة الفلاحين دائمًا.

٠,٤ متـرا يبلغ ارتفـاعـهـا ٠,٦ مـتـرًا وقطرها ١,٧٧ مـتـرا، وهـذه الكتلة من الجـرانيت الشـرقى الجـمـيل وواجـهـتـهـا المرئيـة ذات لمعـان رائع ويرتفـع تل هـذه الأطلال قليـلا، ويبـدو أنه قد تمت تسويته بهدف الزراعة؛ مما حـد من امتداد هذه الآثار التى مازالت تشغل من أربعـمائة إلى خمـسـمائة مـتـر، وهـى مـغطاة بالطوب المجفف وبشقفات فخارية.

ومثلما خلفت الكنيسة المسيحية معبد وثنى فإن مسجدًا صغيرًا قد حل محل الكنيسة المسيحية. وقد رسمت جدران الضريح الإسلامى بشكل غير متقن على الطريقة التركية، وعندما مررت به كانت هناك خرق لرايات إسلامية معلقة فى القبة.

زعبرة: وهى أطلال لقرية تكاد تكون فى مواجهة الموقع السابق؛ حيث توجد بعض الجدران المدمرة كما يوجد طوب ملقى على الأرض. ولا أعلم مدى قدمها.

المبحث السابع: ملوى - هيرموبوليتانا فيلاس (الآن: ديروط ـ أشمون) وضواحيها

لقد عرضت فى وصف الأشمونين تلك الأسباب التى تجعلنى أعتقد بأن إقليم هيرموبوليس كان يقع بالأحرى فى يروط _ أشمون وليس فى ملوى ، كما يحدده دانفيل. وبالرغم من أننى انظر إلى هذه الأسباب باعتبارها قاطعة؛ فأعتقد بنفس الدرجة أن ملوى تمثل بقايا موقع قديم، وأن الأثار التى توجد بها هى بمثابة برهان أكيد. وقد حلت ملوى العريش محل مدينة قديمة إغريقية أو رمانية ويطلق عليها المسيحيون اسم «بلد الرومان»، والنصف الغربى من المدينة بنى فوق الأطلال، حيث يمكن أن توجد به ـ ما إن تبدأ الحفائر ـ أعمدة، وأحجار منقوشة، وقطع من الرخام ، والجرانيت ... إلخ.

ونفس الشىء بالنسبة لجزء من السهل يقع باتجاه الغرب، وبالرغم من البعد عن نهر النيل وانخفاض حجم التجارة التى انتقل جانب كبير منها إلى ميناء المنيا؛ فإن هذه المدينة مازالت تعتبر آهلة بالسكان ومزدهرة ، ومحيطها يبلغ ألفين وخمسمائة متر بالإضافة إلى وجود تلال عديدة من الأنقاض يبلغ ارتفاعها

من عشرة إلى اثنى عشر مترًا وبها خمسة مساجد كبرى. والنشاط والصناعة ينقسمان بالتساوى بين العائلات المسلمة والعائلات المسيحية التى تمثل ثلث عدد السكان، والأسواق أكثر ازدهارًا والشوارع أكثر اتساعًا منها فى المنيا.

وفى الماضى كان النيل يجرى عند أسوار المدينة وهذه الحال لا تعود إلى زمن بعيد جدًا .. ووفقًا لما روى لى فى عام ١٧٢٠ كان النهر يمر أسفل جدران المسجد الجديد - الذى كان فى السابق كنيسة - منذ مائة وأربعين سنة ؛ ومن هذا المكان كان يتجه إلى دير النخلة. واليوم يقع النيل على بعد ١٥٠٠ متر من المسجد ويتجه مباشرة إلى الشيخ عبادة؛ حتى أنه فى هذا المكان يقع مجراه تارة شرق المجرى القديم وتارة غربه.

ومن الغريب أن نهر النيل يبدو اليوم أكثر اقترابًا من ملوى ويتحول أكثر فأكثر باتجاه الشرق مثلما نراه عند أراضى الريرمون والبياضية اللتين تآكلتا بشدة، ولن أضيف شيئًا آخر حول هذه المسألة المدهشة المتعلقة بتاريخ مجرى نهر النيل ، فهى أساسًا من اختصاص علم الجغرافيا المقارنة ، وكان غرضى فقط هو أن أوضح أن المدينة التى كانت موجودة قديمًا فى ملوى قد استطاعت أن تحظى بأهمية أكبر باعتبارها محاطة بمياة النهر، ولن أتحدث أكثر من ذلك عن التجارة التى كانت تقوم بين هذه المدينة وبين مكة قبل أن تليها المنيا كعاصمة للإقليم تمامًا كما تلت ملوى نفسها مدينة الأشمونين. وبعض من الأثار التى رأيتها هى التى تستحق - فقط - أن توصف.

وفى غرب المدينة وعلى مقربة من ضريح ومن بئر توجد حفرة كبيرة بها كثير من الحطام، ولا أعتقد أنه ينبغى أن تنسب إلى آثار مصرية قديمة ويبدو أنها كانت تنتمى إلى كنائس المسيحيين، وأن الأبنية التى تخصهم وكذا أعداد عائلاتهم فى تناقص مستمر. وعلى مقربة من منزل حسن كاشف سرقاص يقع هذا المسجد الجديد الذى تحدثت عنه والذى كان فى الماضى يستخدم ككنيسة ؛ وعندما مررت به كانت قد مرت أربع عشرة سنة منذ أن اعتنق القسيس الإسلام ثم قام بتحويل كنسيته، إلى مسجد.

وقد أخبرنى الأهالى بوجود تابوت مصرى قديم مدفون فى الشارع المسمى «غرب البلد». وتم دكه تحت الأرض لتوسعة الطريق؛ نظرًا لأنه كان يعوق حركة الشارع. ورغم العقبات التى وضعها الشيوخ فى طريقى ورغم كونى الفرنسى الوحيد بالمدينة؛ فقد قررت أن أقوم بالحفر حول المكان حتى أتمكن من قياسه ورسمه؛ ولكى أعد العدة لرفعه فى وقت لاحق. ولقد تجمع حولى وحول العاملين معى نفر كبير ، وكان قد تردد القول بأننى إنما جئت لكى أستخرج من هذا التابوت كنوزًا مدفونة ، وأطلق على العامة صفة «الساحر» ، ووسط همسات الجمع ، أنهى العاملون مهمتهم بسهولة؛ إذ أن التابوت كان على بعد قدم واحدة فقط، وقمت بوضع الأثر على واجهته الخلفية وبذلك الوضع استطعت أن ألاحظه كما أشاء، وعندما رآنى الناس أنزل فى الحفرة وأدور بداخلها بينما أنا ممسك بآداة قياس زال الشك حول كونى ساحرًا.

وقد استخدم هذا الأثر كمسقى مثلما يتضح من الفتحتين الموجودتين به ويسميه - أيضًا - الأهالى «الحوض» وهو عبارة عن تجويف أحادى الحجر من البازلت الأسود لامع من كافة الجوانب ويعلوه هرم صغير شديد الانفراج ويشبه كل التوابيت أحادية الحجر المعروفة؛ إلا أنه ذو حجم أصغر.

ويبلغ ارتفاع الواجهات الرأسية ١,٣٨ مترًا وعرضها ٠,٨٠ مترًا ؛ بسمك يبلغ ٠,٩٦٥ مترًا[١]. وبالداخل يوجد تجويف بارتفاع ٠,٩٥ مترا وعمق ٠,٦٩٣ مترًا وعرض ٠,٤٦٥ مترًا ويبدو اللمعان المصرى الرائع على السقف الهرمى وعلى الواجهات على حد سواء. وبصفة عامة يبدو الأثر شديد الاتقان كما أن الأركان منحوتة بعناية. وهناك حروف «هيروغليفية» منقوشة على الواجهة على هيئة عمودين رأسيين لم يعد يظهر منها بوضوح سوى ستة عشر حرفًا فقط.

ولا يزال يوجد فى الزوايا الأربعة الخارجية للفتحة ثقوب نصف دائرية حيث كانت تثبت المفاصل التى كان باب التجويف ينزلق عليها، وقد نحت هذا الباب

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٧ ، الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ .

بشكل مشدوف مثلما يتضح من النحت[1] وربما كان هذا المشدوف مزودًا بغلاف معدنى، وهذا الأثر سليم تمامًا ولا يظهر فيه سوى كسرين صغيرين نراهما من الخارج وكذلك صدعين فى الداخل؛ إنه يستحق أن ينقل إلى أوروبا وقد تمكنت أيضا من معرفة مكانه بالتحديد بعد أن قمت بردم الحفرة[2]، ويصل وزنه إلى أكثر من ألفى رطل ونصف.

وإذا ما افترضنا أن هذا الأثر أحادى الحجر كان مخصصًا لوضع حيوان ما - إذ أن ارتفاع التجويف يقل عن المتر - فيمكن أن نتصور أن عصفورًا كان محبوسًا فيه. فالتراث لا يذكر شيئًا عن أصل أو عن استخدام هذا الأثر، ووفقًا لما يروى المشايخ والأقباط - ظل الأثر دائمًا فى نفس المكان وهناك الآلاف من القصص تنسج حوله ولن أنقل سوى واحدة منها فقط؛ يقال إن أحد البكوات كان قد سحبه من المكان الأصلى الذى كان يرقد فيه ثم نقله على بعد مسافة ما وما إن تركه العمال عاد بنفسه إلى مكانه الأصلى. وأحد الفلاحين الذين كانوا حاضرين وقت الحفر الذى قمت به من أجل استخراج هذه القطعة صاح فرحًا عندما رآه ثم صرخ «والله حوض مليح الشأن للبهايم»!!

وسوف أختتم موضوعى عن هذا الأثر بملاحظة أخيرة تتلخص فى أن أبعاده الرئيسية تتفق مع القياسات المصرية؛ فالارتفاع الذى يبلغ ١,٣٨ مترًا يعادل ثلاثة أذرع ، أما الفتحة الداخلية للتجويف فتبلغ ذراعًا واحدة تقريبًا.

كوم العزب أو شيخ عزب: وهو تل من الأطلال يقع على سد قديم على بعد أربعة آلاف وخمسمائة متر جنوبى ملوى وتوجد به بقايا لمنازل من الطوب المجفف.

كوم منيل: تل مماثل يقع شمالى التل السابق.

نزلة الشيخ حسين: وتقع جنوب غربى ملوى على بعد أربعة آلاف متر، وهذا الاسم حديث ، وكان المكان فى الماضى يسمى « دير». وناحية الجنوب وجدت

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٧ شكلى ٣و٤.

(٢) يوجد فى الشارع الذى يسمى «غرب البلد» على بعد عشرة أقدام من جذع عمود محذذ من الشيخ عبادة وأمام منزل الأمير أيوب . وقد طلبت من المعلم عبدالسيد وهو قبطى كان يرافقنى - أن يقوم باللازم من أجل إرساله لى فى القاهرة.

العديد من القواعد من الحجر الجيرى ذات الحجم الكبير (بطول من ثلاثة إلى أربعة أمتار). ويبدو أنه كان يوجد هنا معبد يسميه الأهالى «بربه»، ويروى عن التراث أن قرية قديمة كانت موجودة فى نفس هذا المكان.

الكوم الأخضر: وهو تل ذو امتداد محدود وكان مصدرًا لسد تنده ، وبه أسوار قديمة وشقفات من الطوب ومن الفخار.

كوم العفريت: شرقى تنده ، ويشتمل على أطلال الطوب.

كوم الصلهل: وهو تل صغير من الأطلال يقع جنوبى تنده .

كوم الوسطانى: تل مماثل جنوبى تنده .

كوم جرفة: يقع جنوبيًا وعلى بعد ثلاثة آلاف متر من تنده.

تنده: وفقًا للتراث . يعتبر هذا المكان منطقة سكنية منذ القدم، وقد حول المسلمون كنيسة قديمة إلى مسجد كان المسيحيون يطلقون عليها اسم «كنيسة رومانى»، وقد رأيت بها بعض الأعمدة من الرخام والجرانيت وهى أعمدة ذات تيجان غير متقنة وبجانبها توجد بئر يقال أنها شديدة القدم. ويحكى . أيضًا . أنه كانت هناك قنطرة فى هذا المكان. وغربيًا هناك تل من الأطلال وبركة حيث توجد منشآت قديمة. وقد عثر فى الحفائر على حجر من بقايا أحد الأفاريز. وأخيرًا فهناك جزء من سور مبنى من الطوب به أبراج صغيرة مربعة يبلغ طول أضلاعها مترًا ونصف.

دير الملاك ميخائيل أو دير العيش: وهى ساحة محاطة بسور الطوب ويوجد بالمنطقة ثلاث كنائس.

دير ريرمون: ويقع شمال شرقى ملوى، وهنا يتجمع المسيحيون من سكان المنطقة. وإحدى الكنائس نذرت للسيدة العذراء والأخرى لمارجرجس والثالثة للملاك ميخائيل وتلك الأخيرة هى الأقدم، وأرضيتها توجد فى طابق سفلى، وفى كل من هذه الكنائس يوجد من ثلاث إلى أربع لوحات استقدمت من سوريا وهى غير متقنة الصنع وقد استشرت هنا أحد القسيسيين فى الثمانين من العمر

حول القناة التى تسمى «الغويطة» أو «ترعة السباخ» وقد حكى لى أنه منذ حوالى خمسين أو ستين عامًا كانت البهائم لا تزال ترعى فى هذا المكان الذى تجرى فيه حاليًا القناة ، ثم اخترقت مياه النيل المكان فى ذلك العصر ، وتبحر فيه القوارب منذ أربعين عامًا. وهذه القناة التى تقع على رأس البواطن هى فى الواقع ليست من صنع الإنسان أو أنها أحد روافد النيل القديمة مثلما أخطأ الظن سيكارد ومن بعده دانفيل، وسوف أتناول هذا الموضوع بشكل أعمق فى دراسة حول قناة يوسف.

دير النصارى : وهو نطاق على الضفة اليسرى للنيل يقع بالقرب من مصب ترعة الصبخ. ولم أر به سوى رجل دين واحد يقيم مع عائلته، وهنا يجب استخدام معبر للمرور فى القناة عندما نتوجه إلى أطلال الأشمونين قدومًا من البياضية.

المبحث الثامن : اسطبل عنتر - دير الأنبا بشاى والضواحى

فى الشيخ سعيد وهى هضبة تقع على إحدى القمم المرتفعة للسلسلة العربية[1] التى يحيط بها نهر النيل ، وعلى بعد أربعة آلاف وثلاثمائة متر شمالى أطلال «التل» توجد محاجر ومقابر شديدة الاتساع فى منطقة انحدار الصخور. وهناك كتل كبيرة من الأحجار معلقة فوق نهر النيل دون أن يستطيع أحد أن يعرف من أين جاءت وكيف أنها تظل ثابتة فى مكانها على منحدر بمثل هذا الميل الشديد!!

وعلى مقربة ناحية الشمال توجد قطعة شديدة البروز فى الصخر ويبدو أنها قد أصبحت على هذا الشكل من جراء استغلال المكان من حولها كمحجر. وهذه الكتلة الكبيرة قد نحتت. أيضًا من داخلها وتظهر بها فتحات من كل جانب،

---

(١) هذا المكان يظهر على بعد خمسة إلى ستة فراسخ فى الشمال ، والرابع الأخير من أعلى ينحدر عموديًا، والباقى ينحدر بزاوية خمس وأربعين درجة.

وتبدو عن بعد وكأنها مبنى كبيرًا به أبواب ونوافذ عديدة[١] والاسم الذى يطلق عليها هو «أسطبل عنتر» و«عنتر» هو الاسم الذى يطلقه العرب على أحد العمالقة الأسطوريين[٢] وهذا المكان يسمى أيضًا «ديوان». ونلاحظ بين تقسيمات هذا المحجر الشاسع قاعة شديدة الاتساع ذات خمسة جوانب بطول ثمانين مترًا تقريبًا وعرض اثنين وأربعين مترًا وتستند على أربعة أعمدة فقط؛ إذ أن بقية الدعائم قد انهارت. والرطوبة الناتجة عن مياه الأمطار التى تسقط من أعلى الجبل قد تسربت حتى سقف المحجر الذى تظهر به شروخ تنبئ بسقوطه الوشيك.

وأثناء الفيضان أو بعد انتهاء العمل فى القرية يلجأ إلى المحجر بعض الفلاحين مع بهائمهم؛ فالأرض تمتلئ بروث البهائم والخراف والماعز، .. إلخ. ونجد هنا إذن استخدامًا لكلمة «اسطبل»، وتسبب مماثل عقدت مقارنة بين «اسطبل عنتر » وبين «هيبونون» ؛ إلا أن هذا الموقع الأخير كان يقع شمالاً على بعد مائة وعشرين ألف متر.

وأسفل هذه النقطة هناك ـ أيضًا ـ محاجر أخرى تدل على أن المصريين قد أقاموا منشآت كبيرة داخل الجبل، ويؤكد هذه الفكرة وجود حائط مصرى قديم طويل مبنى من طوب ذى سمك كبير ويقع بالقرب من النيل وبموازاته؛ فالطوب ضخم ويقول الأهالى: إنه بناء يرجع إلى أقدم الأزمنة. وأعتقد فى إمكانية وجود موقع قديم فى هذا المكان؛ بالرغم من عدم ذكر الجغرافيا لشىء من هذا القبيل، ومن الجائز أن يكون النيل قد قام بتدمير آثار هذه المدينة القديمة عندما تركت مياهه ملوى واتجهت شرقًا.

دير الأنبا بشاى: وهو اسم لسور كبير يحتوى على كنيسة مسيحية تقع بالقرب من دير النخلة وجنوب دير أبو حنيس الذى يلامس أطلال الشيخ عبادة . فى الشرق يوجد عدد كبير جدًا من المقابر، وهنا يدفن مسيحو ملوى والبياضية

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٥ شكل ١.

(٢) كما هو معروف هذا الاسم هو أحد أسماء إله الشر وكان العقرب قد نذر له وقلب العقرب يسمى . فى المجموعة السماوية أنتارس ولكن هذا الربط ربما يكون مجرد مصادفة.

موتاهم. ويبلغ طول هذا السور سبعة وستين مترًا بعرض أربعة وخمسين مترًا. وقد شيد بعناية ويحتوى على العديد من المنازل والشوارع المنظمة. والدير قديم، أما المبانى فتبدو حديثة. والكنيسة هى أجمل ما رأيت من كنائس فى مصر كلها؛ فتصميمها المعمارى يشبه تصميم « دير أبوفانه»، وينقسم إلى عدة قاعات، وفى القاعة اليسرى هناك قبر وهناك ـ أيضًا ـ كنيسة أخرى يمكن الوصول إليها عن طريق سلم.

ورأيت هنا أربع أو خمس لوحات، ليست على نفس المستوى السيئ كاللوحات الموجودة فى كنائس أخرى، وإحدى هذه اللوحات تصور قديس هذا المكان ـ البابا بيشوى ـ بلحية طويلة ومرتديًا زيًا جميلاً؛ الألوان جميلة والرسم أقل خطأ وفى لوحة أخرى نفس القديس الأنبا بيشوى. وبيشوى أو بشاى هو اسم القديس وتعنى كلمة «أنبا» أو «بابا» أسقف أو قسيس، أما اللوحة الثالثة فتصور مارجرجس ممتطيًا جواده وضاربًا الشيطان بحربته.

ورأيت فوق أرفف معلقة فوق الجدران كتبًا كثيرة كتبت بالعربية أو بالقبطية أو باللغتين معًا. وقد دهشت عندما وجدت فى هذا النطاق قسيسًا واحدًا فقط! وزادت دهشتى عندما رأيته رجلاً كثير التحضر بشكل حتى مبالغ فيه؛ بل يبدو متعلمًا بدلاً من أن أرى أحد رجال الدين البلهاء ذوى المظهر شبه المنفر الذين يسكنون أديرة مصر؛ فهو يعطى بالأحرى انطباعًا بأنه أحد كهنة أوروبا وليس أحد زاهدى الصعيد[1]!!

وخلف دير الأنبا بيشوى يوجد ممر ضيق أو خانق به كثير من المقابر المصرية، ومن الناحية الجنوبية الأبواب منحوتة بانتظام إلا أنه يصعب المرور منها ولم أجد الوقت الكافى لزيارة هذه المقابر؛ وربما تكون إحدى هذه المقابر هى التى أطلق عليها فانسلب اسم المقبرة الهيروغليفية بالرغم من أنه يحدد مكانها فى وادى يسمى وادى جاموس رأيته جنوبًا ناحية اسطبل عنتر.

---

(١) إن المسافرين الذين يجوبون هذه المنطقة النائية فى مصر سيجدون إذا ما قاموا بزيارة دير الأنبا بشاى مقابلاً جيدًا لعنائهم؛ إذ سيكون بإمكانهم إحضار مخطوطات كتبت باللغة القبطية.

وبين هذا النطاق الذى يسمى دير والواقع شمالى الشيخ عبادة[١] وقرية شيخ طماى ينحصر النيل داخل السلسلة العربية أو بالأحرى داخل سلسلة أقل انخفاضًا بارتفاع مائة قدم فقط، ويفصل بين هذه السلسلة وبين الجبل ذاته هضبة عريضة تبلغ مساحتها ألفًا ومائتى متر؛ وهذه هى الطريق التى تسلكها القوافل. وفى مكان ما ينفتح الجبل على شكل عروة وقد بنى فيها المصريون جدارًا بسمك ١,٣ مترًا من الطوب النيِّئ وضعت أجزاؤه أفقيًا جنبًا إلى جنب. وهناك صدع عريض تتدفع منه السيول خلال فصل الشتاء ويقع أمامه السور الأثرى ويؤكد الافتراض حول أصل هذا السور. ويبلغ عرض العروة حوالى سبعة وعشرين مترًا تقريبًا، وهى تمتلئ أكثر فأكثر بالطمى. وعلى مقربة توجد حفرة؛ إلا أنها تبدو طبيعية. ولا تظهر أية مساكن من جميع الجهات[٢].

المبحث التاسع : ضواحى الأشمونين ـ دير أبو فانه.. إلخ

إن الوصف الخاص الذى سبق وقدمته لمدينة الأشمونين عاصمة الإقليم الذى أقوم بدراسته يعفينى من أن أتحدث هنا عن الأطلال التى توجد بها، وكذا فيما يخص «تونة» أو «تانيس» القديمة؛ إلا أننى سوف أقوم باستعراض بعض المناطق التى تقع حول ضواحيها؛ حيث توجد أثار قديمة.

• نواى الإبغال: توجد ناحية الغرب أحجار جيرية منحوتة على شكل قواعد منتظمة وقد عرفت من الشيخ أنها توجد هنا منذ قديم الزمن؛ وبالإضافة إلى ذلك رأيت قطعة كبيرة من الجرانيت ذات شكل شديد الغرابة.. إنها دائرية من الخارج، وبالداخل توجد فجوة منشورية الشكل تكاد تكون بنفس اتساع القطر، وقطعة الحجر كانت مغطاة من جانبيها السفلى والعلوى[٣]، ولن أستطيع أن أقدم أى افتراض حول استخدام هذه القطعة الغريبة.

(١) وصفت الشيخ عبادة وضواحيها فى الفصل السابق من وصف آثار العصور القديمة.
(٢) انظر لوحة رقم ٤ ، المجلد الخامس ، شكل ٧ .
(٣) انظر لوحة رقم ٦٧ ، شكلى ٦ و ١٦.

كوم الشرفا: وهو عبارة عن تل أطلال من الطوب يقع على بعد ستة آلاف متر شمالى الأشمونين ، وكانت توجد به منذ زمن قريب القرية التى تسمى اليوم « مهراس».

كوم الأحمر: تل آخر مماثل يقع فى نفس المنطقة.

بني خالد القديم : أطلال قرية قديمة تقع على بعد ثمانية آلاف متر شمال غربى الأشمونين وتبدو كما لو كانت قرية كبيرة، وتغطى الرمال - جزئيًا - هذه الأطلال، وتمتد على مساحة ثلاثمائة وثمانين مترًا طولاً ومائة وثلاثين عرضا، والأسوار المتبقية مبنية من الطوب النيِّئ. وبالإضافة إلى الشقفات الفخارية وكميات الطوب توجد قطع من الأوانى أو من الألبستر .

وهذه القرية مهدمة منذ ثلاثة أجيال وكان يسكنها المسيحيون فقط. ووفقًا للروايات - كان يوجد فى نفس هذا المكان موقع قديم جدًا والأرض تمتلئ بالحفائر التى ينتظم بها العمل يوميًا بغرض استخراج المواد المستخدمة فى صناعة الأسمدة.

دير أبو فانه: وهو دير قديم ومهجور يقع على مسافة قريبة غربى بنى خالد وهو متوغل فى الرمال التى يبدو أنها اجتاحت كل هذه المنطقة. وفى الحقيقة إن الكثبان التى نراها فى الضواحى توجد بعزلة فوق سهل كبير يرتفع بميل خفيف حتى قمة السلسلة الليبية، وجزء كبير من المبنى مدفون من الخارج بالرمال. والكنيسة ذات تصميم معمارى متناسق يبلغ طولها واحدا وثلاثين مترًا وعرضها عشرين مترًا ونصفًا دون أن ندخل فى هذا القياس سلمًا خارجيًا يمتد من السطح حتى أرضية الكنيسة، وهى مكونة من أكناف ومن صحن يحده صفان من ستة أعمدة أحدهما داخلى[١]. وعلى المحور يوجد - أيضًا - عمودان آخران، وفى الطرف توجد حجرة نصف دائرية تزينها ستة أعمدة ، وفى الوسط يوجد مذبح مطلى بالجبس، وهناك قاعات أخرى كثيرة مخصصة للخدمة؛ يمينًا ويسارًا وتعلو قبة قاعة المذبح كما تغطى قباب أصغر أسقف أربع حجرات أخرى.

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٧ الأشكال ١٢/١٢/١١ وكذلك شرح اللوحة.

وبعض الأعمدة مبنية من الطوب والبعض الآخر من الرخام وجميعها غير متقنة الصنع والجدران مغطاة بالجبس. وعلى الجدران بأقصى الكنيسة نرى لوحات سيئة رسمت فيها صلبان بأشكال مختلفة وقلاع وأشجار رسمت بغير دقة. وفى آخر الصحن هناك قاعة يفصل بينها وبين هذا الصحن سور خشبى وتلبيسات خشبية مشغولة باتقان، وفى إحدى الحجرات الجانبية هناك فتحة ضيقة بدت لى وكأنها تؤدى إلى تحت الأرض. وأخيرًا ، فى إحدى زوايا الجدران رأيت صهريجًا وفى أخرى رأيت فرنًا.

ومن ناحية الشرق يغطى المبنى شبه تل مرتفع تكسوه بقايا من الطين والطوب ويستند على المبنى حتى مستوى السطح العلوى، ونجد صعوبة فى اكتشاف السلم الذى تحدثت عنه من ناحية الزاوية الشمالية الشرقية؛ وقد امتلأ هذا السلم بقطع من الجرانيت الرمادى المنحوت بشقفات من الأوانى ومن الطوب . ولقد وجدت أرضية الصحن مغطاة بالحصير وبكميات من العكازات؛ ومن المعروف أن هذه العكازات تستخدم عند حضور الاحتفالات وتقوم بنفس مهمة المقاعد فى كنائسنا حالياً. ويتردد المسيحيون من سكان الضواحى من آن لآخر على دير أبى فانه. وفى الغرب توجد مقابر كثيرة يستخدمونها لدفن الموتى.

هناك قريتان متجاورتان شرقى دير أبى فانه تحملان اسم «القصر وحور» أولاهما تقع على الضفة اليمنى لقناة يوسف والأخرى على مقربة من ناحية الشرق. ونعتقد أن مدينة أبوصير كانت توجد فى هذا المكان ؛ وقد حدد موقعها دانفيل فى «بنى خالد» وسألت الأهالى إذا ما كانوا يعرفون اسم «بوصير» الذى يطلق فى الحقيقة على أماكن كثيرة فى مصر فوجدته مجهولاً تمامًا بالنسبة لهم. و «حور» هو فى النهاية نفس اسم حور أو حورس الذى استخدمه الإغريق والرومان. وكان هناك ناسك يدعى باف[1] يسكن جبل حور الذى يقع فى هذه الأنحاء. وهكذا فإن المكان المسمى «بوصير بانى» ، ربما قد اكتسب من هنا هذا الاسم ؛ ويبدو أن هذا الموقع قد اختفى - تمامًا - بفعل الزمن.

---

(١) «ملاحظات حول بعض النقاط فى جغرافية مصر» تأليف : كاترمير ص ٢٩ .

كوم الرحالة : يقع شرقى حور بجانب النيل ، وهو تل من الأطلال يغطيها الأسل والطوب وشقفات فخارية وتوجد به . أيضًا . أحجار مهدمة ، ويأتى أهالى «ساقية موسى» للتقيب عن خامات للبناء به. وتمتد هذه الأطلال بطول أربعمائة متر. وفى الجنوب هناك تل مماثل به أنقاض منطقة سكنية قديمة جدًا حسب ذكر الأهالى.

اتليدم : وهى قرية كبيرة تقع نحو الشمال وتوجد بها أطلال، وفى شمال القرية رأيت سبعة أعمدة من الجرانيت الأحمر وعمودًا واحدًا من الجرانيت الأسود، وأحد هذه الأعمدة مازال قائمًا وهو ينتمى إما للإغريق أو للمصريين القدماء، أما الأعمدة الأخرى فقد دمرت بفعل عمل فظ. ومن بين الأعمدة الممتدة على الأرض ، نلاحظ عمودًا منحوتًا بشكل سيئ جدًا يمثل سطحًا مغطى بالنجوم المصرية(١) ؛ إنه بالطبع جزء من سقف معبد مصرى لابد وأنه كان شديد العظمة؛ ذلك إذا ما أبدينا رأينا حسب ما هو ظاهر، ولقد نحتت هذه القطعة باستدارة بمستوى أداء متوسط، وكل هذه الأعمدة الجرانيتة تشكل اليوم مسجدًا متهدمًا، سبق وأن كان كنيسة وقت دخول الإسلام. وعلى الجانب الشرقى نرى كثيرًا من قطع الطوب المحروق؛ وظهر بكثرة عندما حفرت قناة صغيرة ، ويستخدمه أهالى اتليدم فى البناء.

المبحث العاشر: سبيوس أرتميدوس -وتسمى حالياً «بنى حسن» دير فى الجنوب- حوائط من الطوب

يوجد شمال غربى الشيخ عبادة دير فى الجنوب وأسوار من الطوب ..إلخ . وعلى بعد ألف وخمسمائة متر فى مواجهة قالندول هناك سور كبير من الطوب يبلغ سمكه مترًا واحدًا ويعرف على وجه العموم على أنه حصن رومانى، وتصل جدرانه بالقرب من النيل وتتبع انحناءات الجبل الذى بنيت فوقه وبالداخل هناك الكثير من الأطلال. ويحكى الرجال الأكبر سنًا بالقرية أن هذا السور كان

---

١) انظر لوحة رقم ٦٧ ، المجلد الرابع شكل ٥ .

يستخدم لعزل الكنيسة التى توجد بالداخل والتى تسمى « دير»، وتبلغ مساحة هذا النطاق مائة وستة وأربعين مترًا طولاً واثنين وتسعين مترًا عرضًا. ولا تزال الكنيسة موجودة بكل جدرانها وبعض البقايا من القباب وهى قديمة جدًا. ويقال فى القرية إنها بنيت منذ ألف وخمسمائة عامًا. وناحية الجنوب هناك ـ أيضًا ـ أطلال لمنازل. والكنيسة تمثل مستطيلاً طوليًا يبلغ عرضه سبعة أمتار وطوله حوالى اثنين وثلاثين مترًا[١]. وهناك قاعة كبيرة بها على الجانبين خمسة أعمدة كانت تقوم برفع أربع قباب بالزوايا التى لم تعد موجودة الآن ولم يبق منها سوى آثار التهدم. وفى النهاية هناك قاعة كانت مخصصة بالتأكيد للمذبح.

وأمام المبنى نرى حوضًا كبيرًا من الحجر له شكل دائرى يبلغ قطره العلوى ١,٤ مترًا وقد حفر بعمق بحافة يبلغ عرضها ديسيمترًا واحدا[٢] ، ويعتقد المسلمون أنه يحتوى على الذهب ، وبه فتحة فى القاع . وبجانب الحوض يوجد عمودان أحدهما ممدد على الأرض يبلغ قطره ٠,٣٥ مترًا وهو قياس يدل على أن العمود ليس شديد القدم؛ ويدل على ذلك ـ أيضًا ـ صغر حجم الطوب المصنوع بعناية؛ والعمل فى النهاية جيد الصنع.

ويمكننا أن نتصور أن هذا السور قديم، وأنه كان ينتمى إلى الرومان وأن المسيحيين قد بنوا داخله بعد ذلك الكنيسة. والنطاق الداخلى يكتظ اليوم بالجرار وشقفات الفخار؛ وبداخل الأوانى نرى رواسب يعتقد البعض أنها بقايا زيوت بينما يعتقد آخرون أنها تحوى رواسب خمور ويرجع ذلك إلى وجود النبيذ بسبب الرائحة التى تفوح من الجرار.

وشمالى هذا الدير بالقرب من الجزيرة التى تسمى « جزيرة كليب» وقبل «الشيخ طماى» يوجد عدد كبير من الأودية العميقة التى تشق جبلاً مرتفعًا مقطوعًا عموديًا وتغطى صخوره مياه نهر النيل، من هنا تنساب السيول ومياه الأمطار التى تندفع من أعلى السلسلة العربية، ويسد أحد هذه السيول بالقرب

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٧ ، المجلد الرابع شكل ٥ .

(٢) نفس اللوحة شكل ١٠ .

من النيل جدار قديم من الطوب يحمل كل صفات الإنشاءات المصرية[١] التى تحدثت عنها أعلاه ، ويبدو أنه كان مستخدمًا كسد لحجز مياه النهر. وقد رمى النهر بكثرة الطمى فى عروة صغيرة تقع بالقرب من المكان.

والهضبة المتوسطة فى الجبل التى تستخدم كطريق للقوافل مغطاة بشظايا من الحجر ترجع إلى استغلال الجبل، وهذه الأودية الكثيرة التى تقطع الجبل تؤكد وجود السيول التى تهطل خلال فصل الشتاء على الضفة اليمنى للنيل مثلما عرضت فى وصف الشيخ عبادة، وتتقطع كثيرًا الطريق التى تقع فى هذا المكان بموازاة النيل بسبب هذه الأودية العميقة التى يصعب عبورها؛ إلا أن مجراها واحد بفضل الرمال الناعمة التى تحملها مياه الأمطار.

وحسب ما هو مذكور فى «رحلة أنطونيانوس» كانت سبيوس أرتميدوس تقع على بعد ثمانية أميال رومانية من الشيخ عبادة وكانت توجد بها حامية رومانية مذكورة فى «تاريخ الإمبراطورية» تحت الاسم المحرف[٢] Pois Artemidos. ويجب أن نتوقف عند الاسم الأول؛ إذ أن تفسيره يتضح جيدًا من خلال المقابر التى نراها اليوم فى بنى حسن، أما بخصوص تحديد الموقع فلا يوجد أى شك فى ذلك. وثمانية الأميال التى تذكرها "الرحلة" تعادل أحد عشر ألفًا وثمانمائة واثنين وعشرين مترًا ، ولذا نجد أكثر بقليل من أحد عشر ألفًا وثمانمائة متر بدءًا من نهاية أطلال الشيخ عبادة حتى بنى حسن القديمة، وهذا المكان هو قرية كبيرة جدًا مهجورة حاليًا[٣]، وتوجد بها منشآت كبيرة من الطوب النيئ تدل على وجود مدينة أو قرية مصرية وكذلك العديد من المقابر[٤].

وإذا ما اتجهنا أكثر ناحية الجنوب توجد القرية التى تسمى اليوم «بنى حسن» وتسكنها عائلات من البدو الذين يعيشون ـ أحياناً ـ فى أكواخ من الخوص تجاور نهر النيل.

---

(١) انظر لوحة رقم ٤ المجلد الخامس شكل ٧ .

(٢) تاريخ الأمبراطورية ص ٩٠ .

(٣) لقد هجر السكان هذه القرية منذ ثلاثين أو أربعين عامًا تقريبًا ليتوجهوا أكثر نحو الجنوب حيث تكون رقعة الأرض الزراعية أكثر اتساعًا والقرية ليست مهدمة فكثير من المنازل لازالت جديدة وكاملة.

(٤) انظر لوحة رقم ٦٤ شكل ١ .

والأعمال الكبرى التى أنجزت فى الجبل انتهت بتأكيد إلى وجود موقع قديم فى هذا المكان بشكل مستقل عن الثلاثين مقبرة - تقريبًا - التى نحتت باتقان فى الجبل شمال بنى حسن القديمة ومعظمها قد نقش أو لون من الداخل، وهناك أيضًا - بالقرب من القرية الحالية الكثير من المقابر المصرية وتل من الأطلال. وأخيرًا هناك مقابر أخرى محصورة بين قريتين صغيرتين مهجورتين تقعان فى الشمال يطلق عليهما اسم «نزلة بنى حسن»، وهذه المقابر أكثر انخفاضًا وتوجد بأعداد كثيرة ، وهى محفورة فى صخرة شديدة الانحدار تقع شمال مضيق بالجبل وقد رأيت الطريق التى تؤدى إليها دون أن أستطيع الذهاب لزيارتها.

ومن أجل التوجه إلى المقابر الرئيسية - قدومًا من الشيخ عبادة - ينبغى بعد المرور بـ «بنى حسن القديمة»، عبور قطع عريض يبلغ عرضه من ستة عشر إلى عشرين مترًا، وهو يمثل مدخل واد كبير تنفذ عبره مياه الأمطار إلى نهر النيل. ويخترق الصخر - أيضًا - صدع بعرض ست أقدام تندفع - أيضًا - منه المياه، ويضيق هذا الوادى بشدة عند قمة الجبل وهو محاط على جانبيه بجدارين من الرمال الجافة ونرى مجراه أسفل جدران هذه القرية، والمياه التى تصب فيه تندفع من على ارتفاع يزيد على المائتى قدم. وهناك سبعة أودية مماثلة كونتها السيول تقع ما بين «بنى حسن» و «نزلة نوير» فى مسافة يبلغ طولها ستة آلاف وخمسمائة متر.

ويتكون الجبل من حجر جيرى مسكوكى به أصداف غالبًا ما تكون وردية اللون، وهذا الحجر له نفس شكل الأحجار الموجودة فى «قاو الكبير»؛ إذ تظهر به أيضًا - أجزاء تحتوى على الحديد. ويبلغ ارتفاع السلسلة من مائتى إلى ثلاثمائة قدم. وأمام السلسلة الكبرى توجد واحدة أقل ارتفاعًا تتكون من بقايا صخرية ومن الأصداف ومن الرمال. ومن الناحية التى تطل على النيل تبدو هذه الصخرة شديدة الانحدار بشكل عمودى مما يعتبر شيئًا فريدًا؛ وكذا بالنسبة للصخرة الخلفية.

ويبدو لى أن أربع قرى قد هجرها سكانها لنفس هذا السبب . وهبوب الرمال التى جلبتها رياح الشرق وكذلك السيول جعلت الأرض الزراعية التى كانت محصورة بين نهر النيل وأسفل الصخرة تختفى؛ إلا أن المصريين القدماء كانوا

بالقطع يزرعون كل هذا المكان مثلما تقوم الزراعة حتى الآن عند سفح صخور سوادة وطهنه... إلخ[١]. واليوم تخفى الرمال الأرض الزراعية بارتفاع يبلغ من خمسة إلى ستة أمتار[٢] وتحكم عليها بالجدب المطلق، وبالكاد يوجد هنا وهناك شريط من الأرض الزراعية بعرض يبلغ من ثمانين إلى مائة متر؛ وكذلك كان التناقض أقل فى الزمن القديم بين الممارسة الحقيقية للزراعة أسفل الجبل وبين اللوحات التى تصور تلك المشاهد داخل المقابر.

وصف المقابر الرئيسية فى «بنى حسن»

يبلغ عدد المقابر الأكثر أهمية حوالى الثلاثين - مثلما سبق أن ذكرت - وتقع بالقرب من بنى حسن القديمة ناحية الشمال، وكلها على نفس الارتفاع وأبوابها توجد على نفس الهضبة. وتغطى الرسوم المصرية من اثنتى عشرة إلى خمس عشرة من هذه المقابر وهى رسوم ذات موضوعات شيقة تحتفظ بألوانها تمامًا، وبعض الرسوم قد محيت للأسف بفعل أيدى جاهلة أو بسبب تعصب أعمى. وفى كثير من المقابر، تم - فقط - نحت الجبل وتسوية الواجهات بهذه العناية التى تتميز بها - دائمًا - الأعمال المصرية؛ إلا أن هذه المقابر ليست مغطاة بالألوان أو بالنقوش .

والفتحات ذات أبعاد مختلفة ، وفى بعض المقابر هدمت الأعمدة ومحيت الألوان. وهناك فتحات أخرى شديدة الصغر. وفى إحداها - وهى تقع أقصى الجنوب - نلاحظ بابًا ذا نسب جميلة يزينه عتب أملس وعادة ما تكون العمارة قليلة التزيين إلا أنها تثير الإعجاب بفضل بساطتها وتصميمها الذى يتسم بالتناظر!

وأهم هذه المقابر سواء من ناحية التصميم أو الزخارف أو الموضوعات التى تظهر فى الرسم هى التى تقع فى أقصى الشمال؛ إلا أن هناك مقبرة أخرى

---

(١) انظر المبحث الثانى.

(٢) من خمسة عشر حتى ثمانية عشر قدما.

صغيرة تمثل ـ أيضًا ـ أهمية كبيرة وتقع أبعد من السابقة شمالا. وسوف أكتفى هنا بوصف أربع مقابر قمت بنقل رسومها وتصميماتها:

تتميز الأولى بسقف على شكل هرمى[١] وقد رأينا فى كثير من المقابر فى طيبة وفى أسيوط أسقف على شكل نصف دائرة وهو شكل يوجد هنا أيضا؛ إلا أننى لم أر سوى فى بنى حسن ـ فقط ـ هذه الأسقف المنحنية التى يمكن أن نعتبرها بشكل ما كزخارف واجهات مجوفة. وتتميز أعمدة نفس هذه المقبرة وكذلك بعض المقابر الأخرى بقاعدة عريضة جدًا وقليلة الارتفاع[٢] وعلى وجه الخصوص بتنظيمها على شكل حزمة. وهناك أربعة سيقان مجتمعة ومربوطة من أعلى بعدة حلقات أو بشريط ملفوف أكثر من مرة كما لو كانت مضمومة بشدة أو مضغوطة وتمر أطراف الأربطة بين السيقان من فوقها أو من تحتها على السواء. وتاج العمود ـ وهو ليس إلا التكملة والانتفاخ الذى حدث لهذه السيقان ـ يبدو أنه قد تكون بفعل ضغط الأربطة.

وكلما تأملنا تاج العمود نمى لدينا الاعتقاد بأنه يحاكى الدعامات المكونة من حزم القصب. وأكواخ الأهالى التى نراها اليوم فى بنى حسن يمكن أن تعتبر صورًا مماثلة لهذه الأعمدة على اعتبار أنها تستند على أحزمة القصب، وإذا كانت هذه الأعمدة تبدو بمثابة محاكاة لخامة طبيعية قد استخدمت منذ القدم فى أزمنة بعيدة؛ فقد استخدمت هى نفسها كنموذج للأعمدة ذات الحزم التى نراها فى المعابد الأكثر فخامة بمدينة طيبة؛ فأعمدتها مثل تلك التى نصفها الآن؛ تتميز بتصغير ملحوظ من أسفل إلى أعلى نتج عن ضغط الرباط الذى يؤدى أيضًا إلى انتفاخ تاج العمود وخرجة التاج وكذلك السقف الذى يرتكز عليها، وأخيرًا قاعدة العمود تدل على تقدم فنى أبعد من أن يكون مجرد محاكاة بدائية[٣].

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٤ شكل ٢ .

(٢) انظر لوحة رقم ٦٤ الأشكال ٨ ، ١٠ ، ١١.

(٣) سوف نقوم بإضافة تفاصيل حول أصل الأعمدة ذات السيقان انظر المجلد الأول «وصف الفنتين».

والمقبرة الثانية التى سأتحدث عنها يزينها فى الداخل صفان من ثلاثة أعمدة. وعلى كل من الجدارين الجانبيين يوجد عمود ضخم مقابل لكل صف[١]. ويبلغ طول القاعة الرئيسية حوالى ستة عشر مترًا وعرضها عشرة أمتار ونصف (ولم أستطع رؤية التقسيمات الأخرى). والأعمدة ذات أحزمة مثل تلك التى وصفتها فى المقبرة الأولى .

ويقع مدخل ثالث هذه المقابر خارج المحور. ونرى اليوم عشرة أعمدة؛ إلا أننى أعتقد أن اثنين آخرين قد سقطا، ويبلغ الطول أربعة عشر مترًا ونصفا والعرض ثمانية أمتار ونصفا[٢]. والأعمدة مماثلة - تمامًا - لسابقتها بمعنى أنها مكونة من سيقان مجتمعة فى شكل حزمة.

وكما سبق وأن قلت: إن أهم هذه المقابر تقع فى أقصى الشمال ، وهى ذات تصميم معمارى متوافق تمامًا[٣]. ويبلغ عرض فتحة المدخل فى واجهة الجبل ٦,٢ مترًا وهى بذلك تعتبر أكثر الفتحات عرضًا. وبعد أن نسير بين جدارين تفصلهما نفس هذه المسافة وبطول ثمانية أمتار نجد أول الأروقة مكونًا من عمودين قائمين مثمنى الأضلاع بعرض ١,١٠ مترًا، ثم نمر بعد ذلك عبر باب بعرض ١,٨٦ مترًا ، لندخل قاعة كبيرة تستند على أربعة أعمدة تتميز بحذوذ مجوفة بقطر متر واحد. ويبلغ عرض الحجرة أكثر من اثنى عشر مترًا ، أما طولها فيبلغ أحد عشر مترًا ونصفا. وفى الداخل هناك تجويف بطول ٢,٧ مترًا وعرض ٢,٢ مترًا حيث توجد مجموعة من التماثيل منحوتة فى الصخر تمثل أشخاصًا جالسين ذوى أحجام كبيرة، والأشكال شديدة التهشم إلا أننا نستطيع أن نتعرف على شكل رجل يجلس بين امرأتين محتضنًا إياهما. وقد كان هناك اتصال بين هذه الحجرة وبين الأروقة الجانبية ، وعبر قناة ضيقة ومنخفضة كان هناك اتصال - أيضًا - بالمقابر المجاورة، وأعتقد أن نفس الشىء كان موجودًا فى

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٤ شكل ٨ .

(٢) انظر لوحة رقم ٦٤ شكل ٩ .

(٣) انظر نفس اللوحة شكل ٢ .

المقابر الأخرى التى قمت بوصفها، وقد كانت هذه الحجرات الجانبية تؤدى إلى آبار المومياوات .

وبين الرواق الأول وباب المدخل يوجد سقف منحوت فى الصخر على شكل قوس نصف دائرى مصمم عرضيًا، وقد نحت القوس باتقان. وفى القاعة الكبرى يوجد فى السقف ثلاثة أقواس مماثلة مصممة باتجاه المحور وتستند على الأعمدة وعلى الجدران الجانبية(١). وباب المدخل شديد الارتفاع؛ إذ يبلغ طوله سبعة أمتار. ويبلغ الارتفاع الكلى للقاعة الكبيرة حتى أعلى السقف ٨,٥ مترا(٢).

وعلى واجهات هذه المقبرة وعلى واجهة الرواق الأول قام الفنانون المصريون بنقوش وبرسم حروف هيروغليفية متعددة؛ وكذا موضوعات مألوفة احتفظت ـ تمامًا ـ بأشكالها. وتتميز الألوان خاصة بنضارة مذهلة فى أماكن عديدة ، وبعد كل هذه القرون لا تزال الألوان الأحمر والأزرق والأصفر على حالها؛ إلا أن اللون الأزرق هو الذى لا يزال أكثر لمعانًا!!

والحروف الهيروغليفية توجد إما منقوشة أو مرسومة أو الاثنتين معًا على هيئة أعمدة رأسية. وتحت الأقواس زينت الأسقف بأفاريز على شكل أسنة رماح ـ أو بالأحرى على شكل حزم من النباتات مثلما نرى كثيرًا فى المقابر الموجودة فى أسيوط. وعلى الجدار الأيمن هناك منظر منقوش ومرسوم فى جزء منه يصور مسيرة أربعة عشر رجل دين يتوجهون نحو الإلهة إيزيس حاملين فى أيديهم القرابين، وأحدهم يحمل أزهار اللوتس ، والآخر يحمل أسماكًا بينما يمسك الثالث بزهور .. إلخ، وقد وزعت الأشكال بنظام وصممت بدقة. وأعلى واجهة المقبرة هناك كتابة هيروغليفية بحجم كبير.

وهذه المقبرة التى احتفظت بكل أجزائها تدهش الرحالة؛ إذا ما تصورنا أنها تقع على الضفة اليمنى للنيل وأنها قد تعرضت لتخريب الأهالى أكثر مما

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٤ شكلى ٤ ، ٥ .

(٢) هنا نتعرف على المقاييس المصرية : يبلغ طول القاعة الكبيرة حوالى خمسة وعشرين ذراعا، أما العرض فيبلغ ستة وعشرين ذراعا والمسافة من الأعمدة وحتى الجدران سبعة أذرع والارتفاع الكلى ثمانية عشر ذراعا.

تعرضت مقابر مدينة طيبة. وكذلك دون الاحتياج للتوجه بعيدًا حتى هذه المدينة القديمة؛ حيث لا تخلو زيارة المقابر من المخاطر يمكننا أن نُكون فى " بنى حسن " فكرة صحيحة عن فن زخرفة ورسم المقابر المصرية؛ إلا أننا نلاحظ هنا موضوعًا آخر جديرًا بالاهتمام يتعلق بتاريخ الفن ويستحق أن نلفت إليه نظر القارئ.

فى هذه المقابر القديمة الأثرية؛ حيث سطر الكهنة المصريون الكثير من الكتابات الهيروغليفية التى محيت أسرارها مع انهيار مدارس طيبة و منف وعين شمس؛ نجد أعمدة مماثلة لتلك التى توجد فى أقدم المعابد الإغريقية ، معابد تيزيه ومينرف وبوزيدونيا وكوريه وأجريجانت؛ وهى أعمدة ذات ستة عشر حذ مجوف [١]، تتميز فى ارتفاعها بسبعة أقطار وخُمّس وتنخفض بمقدار العُشْر فى القمة؛ وأخيرًا ، فهى أعمدة مشابهة للأعمدة ذات الطراز الدورى الإغريقى حتى فى أشكال تيجانها. وها هو - أيضًا - طراز إغريقى آخر مستمد من عمارة ضفاف النيل كما هى الحال بالنسبة للطراز الكورنثى الذى استمد - أيضًا - من أحد أشكال الأعمدة المصرية[٢].

واعتبار التطابق بين هذه الأعمدة وبين الأعمدة الإغريقية ذات الطراز الدورى كإشارة إلى أنها أحد أعمال الإغريق أنفسهم سيكون خطأ فادحًا؛ فهذه الأعمدة تنتمى إلى أثر تكسوه الكتابات الهيروغليفية والرسم وهو ذو طراز يشبه - تمامًا - أطراز المقابر فى طيبة وأسيوط والكاب - بمعنى أنها تظهر نفس عيوب المنظور والرسم التى توجد فى النقوش المصرية فى كل الأماكن وعلى مر كل الأزمنة؛ وذلك لأن أشكال النماذج البشرية كانت متميزة .

لقد قام الإغريق والرومان بالبناء فى مصر؛ ولكنهم فعلوا ذلك وفقًا لطرازهم المعمارية مثلما نرى فى الإسكندرية ، والشيخ عبادة... إلخ. وفى إحدى مناطق أقليم هيبتانوميد قاموا بالحفر فى الصخور نفسها وبنوا معبدًا صغيرًا على

(١) انظر لوحة رقم ٦٤ الأشكال ٤ ،٥ ،٦.

(٢) انظر وصف إدفو الفصل الخامس.

الطراز الدورى حيث لا يوجد أى خلط مع الطراز المصرى. وسوف أقوم بوصف هذا المعبد فيما بعد[١].

ويتحتم على أن أصف هنا أعمدة الرواق الأول؛ إنها ذات تصميم مثمن، وهذا العدد - أى الثمانية أضلاع يدخل فى علاقة مع عدد الحذوذ بالداخل؛ فهو يمثل نصفه[٢]. وتاج العمود ذو تصميم بسيط. وفى محاجر سوادة - التى سأتحدث عنها فيما بعد[٣] - وجدت أيضًا عمودًا ذا ثمانية جوانب إلا أنه أعرض بكثير. وتمثل هذه الأعمدة - بالإضافة للأعمدة الضخمة لمعبد الكرنك - النموذج الوحيد الذى أعرفه فى الآثار المصرية لأعمدة متعددة الزوايا.

وتزين الرسوم الأسقف والجدران فى مقابر «بنى حسن» وتظهر فى شكل زخارف حلزونية أو فى شكل تعرجات ذات رسم شديد الجمال! والخطوط حمراء كما أن الخلفيات أيضًا حمراء بالتماثل وكذلك زرقاء وخضراء، والزهور والشرائط ملونة أيضًا بهذه الألوان بالتناوب؛ بحيث تنفصل جيدًا عن بعضها وبعض. ولقد أبدينا ملاحظة فى الجزء الأول من وصف الآثار أن الإغريق والرومان قد نقلوا عن مصر كل هذه الزخارف[٤]؛ ولكن إذا كانوا قد اقتبسوا عن مصر الرسوم فهم لم يستطيعوا فى نفس الوقت الوصول إلى أسرار ألوانهم غير القابلة للتغيير؛ فاليوم تحتفظ الرسوم المصرية بنضارتها الأولى. ولانجد - تقريبًا - أية آثار للرسوم الإغريقية القديمة!!

وأتناول الآن وصف عدة موضوعات مصورة على واجهات المقابر، وهى تمثل فى غالبيتها مشاهد مألوفة تذكر بمشاهد الكاب المصورة فى شريط من الأشكال تصور أهل الريف، نرى مشهد الحصاد بالمنجل ، يتبعه منظر درس الحبوب بواسطة أربع أبقار تقوم بوطئه بأرجلهم ، وهناك رجل يجمع فى نفس

---

(١) انظر ما يأتى المبحث الثالث عشر .

(٢) انظر لوحة رقم ٦٤ شكلى ٤ ، ٧ .

(٣) انظر المبحث الثالث عشر .

(٤) انظر وصف المقابر الفصل التاسع .

الوقت القش الذى لم يتم درسه، وهناك حارس يقوم بمراقبة العمل[١]. وعن بُعد تم تصوير حرث الأرض بالفأس والحرث بواسطة المحراث وفى الخلف يظهر رجلان منشغلان بدرس نوع من الحبوب بحبال سميكة أو بعيدان غليظة ولينة[٢].

واستخدام المنجل شىء يستحق أن نلاحظه هنا، ولا أستطيع أن أقوم بتخمين نوع الآلة التى يحملها رجل جاء وضعه بين منظرالحصاد ومنظر الدرس، إنها تبدو على شكل نصف دائرة كبيرة وبها تربيعات مرسومة فوقها وربما تكون غربالا، وخلف هذا المنظر يوجد حمار وضعت فوق ظهره بردعة من غطاء بسيط ويبدو منشغلاً بالأكل .

وينبغى أن أذكر هنا لوحتين تصوران قاربين، فى الأولى هناك سبعة رجال دين برفقة مومياء ملقاة على سرير الموتى، وهم يعبرون النيل أو إحدى القنوات، ويقوم بقيادة القارب اثنان من البحارة بواسطة مجدافين كبيرين وللسفينة أكثر من صار، وهم يستخدمون الحبال أثناء القيادة[٣]، أما المركب الآخر فيبدو أكبر بكثير ونلاحظ مركبًا شراعيًا كبيرًا مربع الشكل[٤] . والعارضة توجد أعلى الصارى فى وضع أفقى، أما الصارى نفسه فهو مثبت على حبلين كبيرين بواسطة مجموعة مكونة من عشرة حبال مبرومة ، خمسة منها تمر فوق الصارى وخمسة تمر أسفله ونتيجة لخطأ ما فى المنظور تظهر كل الحبال فى نفس الاتجاه[٥].

وفى الكاب تخلو المراكب الشراعية من هذه الحبال الغليظة أو تكون مكونة من حبلين رفيعين فقط. وتسعة شباب يجلسون ويحملون المجاديف ويبدو اثنان آخران منشغلان بشد الحبال السفلية للشراع أو بتركها، وذلك تحت قيادة البحّار

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٥ شكل ٢.
(٢) انظر لوحة رقم ٦٥ شكل ٢َ.
(٣) نفس اللوحة شكل ٤ .
(٤) نفس اللوحة شكل ٣.
(٥) هناك خطأ فى الصورة ؛ إذ توجد ستة حبال من أعلى وأربعة من أسفل .

بهدف توجيه القلوع فى اتجاه الريح. وفى مؤخرة السفينة هناك ثلاثة أشخاص يقومون بتغطيس مجاديف أكثر طولاً فى المياه تبدو وكأنها تؤدى وظائف الدفة، وفوق كل هؤلاء يحرك الربان بين يديه حبلين مربوطين بطرفى عارضة الصارى ، ويمكن تمييز القيادة التى ينشغل بها، ويوجد - أيضًا - فى هذه الرسوم تصوير للقوارب المصنوعة من البردى أو من نبات الأسل.

وفى المقبرة الرئيسية فوق أحد الأبواب رأيت مشاهد واقعية للرياضة البدنية وهو شىء لم أكن قد رأيت له قط أى أثر داخل المقابر ولا داخل المعابد؛ وذلك بالرغم من أنه - وفقاً لما ذكر هيرودوت فى أحد المقاطع - كانت توجد فى مصر فى مدينة أخميم[١] تدريبات تعرف بالألعاب البدنية. وقد تم تصوير اللاعبين - أو بالأحرى الفريقين اللذين يتصارعان فى كل الأوضاع التى يمكن تخيلها؛ إذ أن أطرافهم تتلاقى فى جميع الاتجاهات، وتنوع هذه الأوضاع بلغ الدرجة التى تجعلنا نعتقد أن المصريين كانوا يألفون جدًا هذه الألعاب أو أن يكون الفنان قد ترك لخياله العنان[٢]. ويتميز المصارعان باللونين الأحمر والأسود؛ إلا أن الأولوية تظل - دائمًا - للون الأحمر. ومن المعروف أن المصريين كانوا يصورون أنفسهم فى رسومهم باللون الأحمر الباهت. ولم أقم بحصر عدد هذه المجموعات؛ ولكنى أتذكر أنه عدد كبير جدًا، ولقد قمت - فقط - برسم ثمانى مجموعات بهدف إعطاء فكرة عنها، والكثير من الأوضاع يمكن أن تعتبر حركات صعبة وخارقة. ونرى هنا محاولة لاستخدام المنظور داخل الرسم ؛ إلا أنه ينبغى ملاحظة أن هذه المشاهد مدنية - تمامًا - وليس لها أية علاقة بالموضوعات الدينية. وظاهريًا ، كان الفنان يتمتع بقدر أكبر من الحرية فى هذا النوع من التشكيل. انظر فيما يلى وصفًا لتمرين بدنى آخر[٣].

---

(١) هيرودوت التاريخ ، الكتاب الثانى ، المقطع ٩١ ينبغى أن نقرأ مايقول هذا الكاتب عن أصل احتفلات الألعاب البدنية في مدينة أخميم..

(٢) انظر لوحة رقم ٦٦ ، شكل ١.

(٣) المبحث الثالث عشر .

وعن بُعد نرى درسًا فى الرقص وفى التوازن يظهر فيه التلميذ والأستاذ فى أوضاع سليمة تمامًا[(١)]، وفى مكان آخر نلاحظ - أيضًا - مجموعات أخرى من الرجال يقومون بحركات صعبة فى التوازن وآخرون يتصارعون بالعصا. وينبغى أن نتذكر - وفقًا لديودور الصقلى - أن هيرمس ابتكر المصارعة والرقص ثم «تصور القوة والرشاقة التى يمكن أن يكتسبها جسم الإنسان من هذه التدريبات»[(٢)] .

وفى مكان آخر داخل المقبرة قمت برسم منظر لصيد الغزلان التى يقوم الصيادون بمطاردتها بالرماح؛ بينما تتبعها كلاب السلوقى المربوطة ؛ وهو منظر مشابه - تمامًا - لمشهد قد رأيته فى الواقع فى الصحراء وفى نفس المكان - تقريبًا - عندما كنت أزور قبائل العربان التى تجوب الجبل الليبى والتى تستعين - أيضًا - بكلب السلوقى[(٣)].

وقد لاحظت فى مكان آخر عازفة تدق على قيثارة مكونة من سبعة أوتار[(٤)].

وهناك مشهد يصور العقاب بضرب العصا حيث يبدو المذنب نائمًا على بطنه؛ بينما يمسك رجل برجليه وآخر بذراعيه ويقوم الثالث بضربه[(٥)]. والمشهد يبدو مشابها لما نراه اليوم فى القاهرة.

ونلاحظ أشكال الحيوانات والنباتات والزهور، وسوف أذكر - فقط - فرس النهر وأبا منجل وطائرًا آخر حط فوق أزهار اللوتس[(٦)].

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٦ شكل ٢ .

(٢) ديودور، تاريخ المكتبة ، الكتاب الأول .

وهو من ترجمة الأسقف تيراسون إلا أن نفس المؤلف - أى ديودور الصقلى - يزعم فى مكان آخر أن فن المصارعة لم يكن يدرس فى مصر نظرًا لأنه يمنح الشباب قوة عابرة وخطيرة، وذلك تناقض يستوجب التفسير. (الكتب الأول، ص ٥) وربما يكون هذا المقطع الأخير يتعلق بفترة معينة من تاريخ مصر..

(٣) انظر لوحة رقم ٦٦ شكلى ٣ و ٤ .

(٤) انظر لوحة رقم ٦٦ شكل ٩.

(٥) نفس اللوحة شكل ١٠ وهذا الموضوع الغريب يوجد فى مقابر طيبة . انظر وصف المقابر ، الفصل التاسع.

(٦) انظر لوحة رقم ٦٦ شكل ١٥.

وهناك القرابين التى يجتمع فيها البصل وأوراق أشجار الموز والأوانى... الخ. وكذا رجال يحملون نباتات مختلفة يصعب تمييزها[١]. وهناك نوع من الطاولات المستديرة ذات القائم الواحد تبدو منها أوراق متشابهة مثل جذع شجرة الأناناس ـ أو على الأقل هناك تشابه بين الثمرة والورقة وهذا النبات[٢] وشجيرات نعتقد أنها من نوع السرو... إلخ. وأخيرًا صيد الطيور والأسماك... إلخ [٣].

وسوف أذكر من بين الأدوات رسمًا لميزان يتميزعن بقية الموازين لبساطته الشديدة وكذلك رسمًا لسندان[٤].

وزخارف الأسقف شديدة التنوع مثلما قلت وهى تتأرجح ما بين شدة الثراء والبساطة؛ إلا أنها ـ دائمًا ـ منتظمة، وتتمثل فى مربعات تشتمل على زهور بداخلها أو على خرزة فى الزوايا[٥] والأفاريز مزينة بأحزمة يمكن مقارنتها بأسنة الرماح؛ إلا أنها تصور بالتأكيد نباتات.

وسيكون من السهل هنا أن نقوم بكم من المقارنات المذهلة، سواء مع ما كتب المؤرخون أو مع العادات المتداولة حالياً فى مصر؛ إلا أن القارئ المستنير يستطيع أن يقوم بذلك بسهولة، كما أن حدود هذا الكتاب لا تسمح لى بأن أتوسع أكثر من ذلك فى هذا الشأن وسوف أختتم هذا الوصف الموجز لمقابر «بنى حسن» بأن أبدى ملاحظة حول وجود بقايا لمومياوات فى المقبرة الرئيسية وقد تم استخراجها من بئر تقع بجوار القاعة الكبرى؛ وهو حدث يثبت أن هذه التقسيمات تحت الأرض قد استخدمت كمقابر .

---

(١) نفس اللوحة شكلى ٥ – ٦ .

(٢) نفس اللوحة شكل ٧ .

(٣) نفس اللوحة شكل ١١ .

(٤) انظر لوحة رقم ٦٦ شكل ١٥.

(٥) انظر لوحة رقم ٦٦ شكل ١٥.

المبحث الحادى عشر: أطلال العنبجا أو مدينة داوود والضواحى - حائط العجوز... الخ

يطلق اسم «العنبجا» على أطلال مجهولة وذات امتداد كبير جدا، وتقع على سهل الضفة اليسرى للنيل بمواجهة المقابر فى بنى حسن بين قرية كوم الزهير وقرية منشأة دعبس ويبلغ طول هذا المكان بدءًا من كوم بنى داود شمالا حتى حده الجنوبى ما لا يقل عن خمسة آلاف مترًا؛ ونلاحظ فى هذا الامتداد ثلاثة تلال مرتفعة وتفصل بينها قطعة أرض - تعلو أيضًا - عن الأرض بالرغم من كونها أقل ارتفاعًا ويغطيها الحطام والأنقاض . ومن آن لآخر تتم تسوية أجزاء من هذه المساحة وتقوم عليها الزراعة. ومن الممكن أن نعتقد أن كل هذه الأطلال كانت متشابكة بعضها مع بعض وأنها كانت فى القدم منطقة سكنية.

و"العنبجا "تحمل - أيضًا - اسم «مدينة داوود» ، كما أن أطلال الشمال تحمل - أيضًا - نفس الاسم «كوم بنى داود» مما يدل على شدة قدم المكان مثل كل الأماكن التى تحمل اسم «يوسف». وقد أطلق - دائمًا - العرب أسماء مشابهة لكل المدن القديمة ولكل الأعمال المصرية القديمة.

واليوم تمر الطريق الكبيرة فى وسط هذه الأطلال التى يستغرق المرور بها أكثر من ساعة دون أن نقابل قرية واحدة، وهنا يختبئ - أحيانًا - العريان من أجل مهاجمة المسافرين وقد كان المرور عبر هذا المكان يعتبر شيئًا خطيرا، وأكثر التلال امتدادًا يقع فى الجنوب ويوجد به كثير من الأحجار المنحوتة والطوب المجفف بأحجام كبيرة. ولقد رأيت جدارًا مدفونًا تحت الأنقاض يبلغ عرضه مترًا ونصفا، وقد بنى بصلابة شديدة من هذا الطوب الكبير، وكلما سقطت ربوة وبلغ الفيضان مستوى الأرض (وهو ما يحدث عندما يرتفع مستوى المياه فى النيل) يستخدم المحراث ويتم بذر الأرض ثم تختفى الأطلال.

وكانت الأرض التى تقع أسفل الأنقاض تروى فى الماضى بواسطة قناة كبيرة لها جوانب شديدة الارتفاع، وهذه القناة ردمت ويعتبر الأهالى اليوم أن هذه

الجوانب تدخل ضمن الأطلال؛ إلا أنه يبدو واضحًا أنها تمثل جوانب قناة قديمة قد استخدمت منذ ذلك الحين فى تشكيل سد « منهارى».

والسد الكبير الذى يحمل اسم «جسر الأزرق» والذى يمر «بجريس» و«منتوت» ويصل حتى قناة يوسف يستمد منشأه من هذا التل الجنوبى، وهناك تل آخر فى الشمال يطلق علية اسم شيخ عتمان العنبجاوى وهو بارتفاع من خمسة إلى ستة أمتار وبه كمية كبيرة من الشقفات الفخارية. وأخيرًا، يطلق على التل فى أقصى الحدود الشمالية اسم «كوم بنى داود» والتى سبق وأن ذكرتها، ويوجد به كثير من الأطلال من الطوب المجفف ومن شقفات الأوانى.

وبالرغم من أنه لم يعد هناك أية أثار سليمة فى هذه المنطقة لا نستطيع تجاهل وجود موقع قديم تشير إليه كل هذه المخلفات. وبالاضافة إلى أن اسم «مدينة» يطلقه الأهالى - دائمًا - على المدن الأثرية، تبدو - أيضًا - هنا أسباب أخرى تجعلنا نفكر فى ذلك وفقًا للملحوظة العامة التى أتيح لى أن أشير إليها عدة مرات؛ فإن بجانب أية مدينة قديمة وفوق الجبل المجاور توجد - دائمًا - بالتأكيد - المحاجر والمقابر، وعلى العكس؛ ما إن نجد فى مكان ما المقابر فإن ذلك يكون بمثابة إشارة إلى وجود مدينة قديمة فى الجوار. ومقابر بنى حسن لابد وأنها كانت تتبع مدينة كبيرة تقع بالجوار باعتبار أن أطلال بنى حسن القديمة ضيقة بالقدر الذى لا يسمح لها بأن تكون بامتداد وبأهمية هذه المقابر، كما إن المنطقة المحصورة بين الجبل وبين النيل ضيقة بالدرجة التى لا تسمح بوجود مدينة واسعة بعض الشيء فوق أراضيها. وأختتم بأن أقول إنه ينبغى البحث عن هذه المدينة بمواجهة الجبل حيث توجد أطلال « مدينة داوود» .

وافترض أن مدينة ثيودسيوبوليس كانت تقع هناك وهى المدينة التى ورد ذكرها مرتين فى «تاريخ هرقل» بين العشر مدن الرئيسية فى الصعيد السفلى وفى أركاديا، وكان يعتقد أن هذه المدينة تقع مكان طحا العمودين؛ إلا أن هناك

مثلما ذكرت فى وصف الأشمونين [١] عددًا قليلاً جدًا من الآثار فى هذا المكان الذى يقع أكثر شمالا، ربما يتطابق مع إبيوم، وعلى اعتبار أن موقع مدينة ثيودسيوبوليس لم يحدد حتى الآن بشكل مناسب وأن أطلال مدينة داوود التى لاتزال مجهولة حتى الآن يمكنها أن تتطابق بشكل ملائم مع الموقع الذى حدده هرقل ، أعتقد أنه بإمكانى أن أفترض ـ واقعيًا ـ وجود مدينة ثيودسيوبوليس فى هذا المكان.

ومن ناحية أخرى ، فإن اسم ثيودسيوبوليس قد أطلق فى فترة متأخرة على المدينة المصرية القديمة؛ وهكذا ، فقد أطلق على مصر الوسطى اسم أركاديا تحت فترة حكم أركاديوس ابن ثيودسيوس الأكبر . ويبقى اكتشاف الاسم القديم للمدينة؛ إلا أنه ليس له أى ذكر جغرافى، مالم يكن هو نفسه المدينة التى تسمى ايسوى فى « تاريخ الامبراطورية» والتى لاتزال مجهولة المكان، ولقد جعل منها الرومان موقعًا لبروتونس[٢]. وفى النهاية، تدل قرية بربه التى تبعد عن هذا الموقع بمسافة ستة آلاف متر غربًا على وجود معبد مصرى فى هذا المكان ومن المعروف أن هذا هو الاسم القديم لهذه الأبنية القديمة.

وجنوب شرقى أطلال العنبجا وبالقرب من منشأة دعبس على ضفة النهر يوجد تل قليل الارتفاع يطلق عليه اسم " بنشها" ، وتوجد به أجزاء لأعمدة من الحجر الجيرى وشقفات فخارية وبقايا جدران من الطوب النيِّئ ويبلغ امتداد التل حوالى أربعمائة أو خمسمائة متر، وقد قال لى المشايخ إنه لم يسبق وأن رأى فيه أحد أى سكان. والطوب المجفف المستخدم فى مساحة ضيقة بتلك المنطقة يدل على وجود مدينة حديثة.

حاجي سليمان : تل من الأطلال قليل الارتفاع يقع غربى «كوم بنى داوود»؛ حيث توجد أطلال من الطوب.

---

(١) انظر الفصل الرابع عشر .

(٢) تاريخ الإمبراطورية ، ص ٩٠ .

«نهالة» : وهى تتكون من عدة أطلال تقع بين «البربه» و«كوم بنى داوود» غربا .

كوم نواجة : تل من الأطلال يقع على بعد ثمانية آلاف متر شمال غربى كوم بنى داوود وغرب بنى موسى.

«كوم مسمار» : تل من الأطلال ، جنوبى «بنى خير» وقناة يوسف ، يبلغ امتداده أربعمائة متر، ويغطيه الطوب المجفف والحجر الجيرى ويمتبره الأهالى بقايا موقع أثرى.

كوم الاحمر: وهى أطلال على الضفة اليسرى لقناة يوسف فى مواجهة «بنى خير» ولايوجد بها سوى الطوب وشقفات الفخار. ويحكى الشيوخ أن أحد البكوات كان قد قام بتقطيع الأحجار الكبيرة التى كانت موجودة فى هذا المكان من أجل تحويلها إلى جير، وأن هذا المكان قديم جدًا وأنه مهجور منذ عدة أجيال ، وهو يجاور جبال السلسلة الليبية.

«حائط العجوز»: عند نهاية الأطلال السابقة ناحية الجنوب الغربى يوجد حائط بنى من الطوب النيِّئ ذى الحجم الكبير من نفس النوع الذى كان يستخدمه المصريون القدماء، ويبلغ سمكه حوالى مترين ، وتغطى الرمال جزءًا منه ويطلق عليه اسم «حائط العجوز» ، بعيدًا بالقرب من حوض أو من مستنقع تصب فيه مياه القناة ويبلغ طوله ألف متر ، يوجد جدار آخر من نفس الطوب يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار وسمكه ١,٣ مترًا ويبلغ طول الطوب من ثلاثة وثلاثين حتى خمسة وثلاثين سنتيمترًا[١] وعرضه من ستة عشر حتى ثمانية عشر سنتيمترًا[٢] وارتفاعه أربعة عشر سنتيمترا[٣]، وقد تم رصه أفقيًا ورأسيًا بالتناوب. ويبدو أنه كان هناك سور أثرى قديم فى هذا المكان ، ويمكن حتى افتراض أنه كان يستخدم كسد لتجميع مياه الفيضان. وقد بقيت ثلاثة جوانب فقط. أحدها يبلغ طوله عشرين مترا ، والآخران يبلغ كلاهما عشرة أمتار ، أما

---

(١) اثنا عشر إلى ثلاثة عشر أصبعاً.

(٢) سبعة إلى ثمانية أصابع.

(٣) خمسة أصابع.

الباقى فقد دفن تحت الرمال. ووفقًا لما يحكى الشيوخ ، هناك - أيضًا - جدران أخرى مماثلة تقع فى أماكن متقدمة داخل الصحراء؛ ويطلق على كل هذه الجدار اسم «حائط العجوز» ، وهذا المكان الذى هو فى الواقع من أبعد المناطق عن نهر النيل[١] فى كل الوادى من منف حتى الشلالات كان ولايزال ذا مستوى منخفض ؛ ولذلك كانت المياه المرتفعة تأتى إليه وتتجمع فيه، وكان يحتفظ بهذه المياة ربما طوال العام بواسطة السد وذلك سواء من أجل الشرب أو بغرض رى بعض الأراضى.

والبدو الذين يعرفون جيدًا مزايا هذا الموقع يأتون اليوم بأعداد كبيرة من أجل سقاية الجمال والخيول والحيوانات الأخرى، وقد حدث أن وجدت نفسى مصادفة فى إحدى خيام العربان بينما كنت أشاهد هذه الجدار الأثرية.

«**كوم الأحمر**»: هو تل أخر جنوبى «أبى يعقوب» وشمال التل السابق حيث يوجد جدران كثيرة من الطوب مازالت قائمة وقد بنيت على شكل قواعد بعناية وبطريقة منتظمة وهناك - أيضًا - أنقاض قباب من الطوب. ويطلق عليه الشيوخ اسم " بلد كفرى" مما يدل على وجود موقع قديم ولا يتذكر أحد من الأهالى أن سبق وأن رأى أحدًا يسكن هذا المكان ، ويبدو أنه قد احترق. ويمكننا هنا أن نلاحظ على ضفاف بحر يوسف - وهى قناة شديدة القدم - وجود مكان قديم يسمى «أبو يعقوب» وبجانبه مكان آخر يسمى «بنى داوود»؛ وهكذا فإن مواقع تحمل أسماء يعقوب ويوسف وداوود توجد مجتمعة فى مساحة اثنى عشر ألف متر، وقد كان العربان يطلقون - دائمًا - هذه الأسماء على الأماكن المصرية القديمة؛ ولذا فمن الجائز أن يكون هذا المكان قد احتوى فى الماضى أثارًا تنتمى لعصر قديم؛ إلا أن هذه الأثار قد اختفت وقامت الزراعة بمحو أية علامات تدل عليها.

---

(١) يفصل بين هذه النقطة وبين نهر النيل خمسة عشر الف متر. وهذه الأحواض كانت تتقع فى الأوقات التى تجف فيها القناة أو يقل فيها منسوب المياه . وفى العام الذى زرت فيه هذا المكان كان الفيضان قد جلب كثيرًا من المياه.

المبحث الثانى عشر: أطلال ومقابر فى «زاوية الميتين» والضواحى

«زاوية الميتين»: هى قرية تقع على بعد ثمانية آلاف متر جنوب شرقى المنيا[١] على الضفة اليمنى للنيل قليلاً نحو الجنوب، ويوجد تل كبير مرتفع مغطى بالأطلال يطلق عيله الاسم الدارج «كوم الاحمر» وهو اسم يستند إلى لون شظايا الطمى الذى يغطى الأنقاض. وهذه الأطلال تقع على حافة السلسلة العربية وتمر بها مياه النهر، ويبلغ طولها سبعمائة متر وعرضها من ثلاثمائة إلى أربعمائة متر. ووسط بقايا الخزف توجد قطع كثيرة من الألبستر اللامعة ترجع إلى أوان قديمة. وعادة ما نجد بين الأطلال كثيرًا من قطع الألبستر المنحوتة. وينبغى أن نلاحظ أن المدينة التى تسمى الأبسترا كانت تقع عند نفس خط العرض تقريبًا داخل الصحراء التى تفصل نهر النيل عن البحر الأحمر[٢]. وبجانب النهر مازالت هناك الكثير من الجدران من الطوب قائمة وبحالة جيدة وهو طوب نيِّئ وذو حجم كبير مثل أى طوب كان المصريون القدماء يستخدمونه. ويمكن التعرف من خلال هذه الأنقاض على بقايا قرية مصرية قديمة، وأنا مقتنع - تمامًا - بهذا الافتراض نظرًا لوجود فجوات ومحاجر كثيرة ومقابر فى الجبل.

شمالى القرية: يوجد تل آخر من الأطلال يسمى «كوم الأخضر» وهو أقل امتدادًا من التل الآخر؛ إلا أننى وجدت به - أيضًا - كميات كبيرة من الألبستر المنحوت وشقفات الأوانى والفخار وكذلك جدران من الطوب مازالت قائمة. ولاينبغى البحث فى هذا الاسم عن أية إشارة إلى الحال الذى كان عليه هذا المكان فى القدم. ولم يطلق الاسم على هذه الأطلال إلا لمغايرة التل السابق.

وينحدر الجبل العربى عموديًا فى مواجهة كوم الأحمر، وعلى هذه الواجهة شديدة الانحدار وعلى كل المستويات حفرت محاجر ومقابر ثم تمت تغطيتها بعد

(١) كلمة «زواية» تطلق أصلاً على المصلى أو المسجد الصغير. انظر ما يأتى، القسم الرابع، المبحث الرابع.

(٢) انظر ما يأتى، القسم الثانى، المبحث الخامس.

ذلك بالنقوش وهذه المناظر ذات أهمية كبيرة لأن غالبيتها تتعلق بالزراعة وبعض منها يصور مناظر تتعلق بالإبحار أو الاحتفالات الدينية.

وأكبر هذه المقابر تتكون من ثلاث قاعات كلها مزينة بالمناظر التى تصور مشاهد من الحياة داخل المنازل: فى القاعة الأولى يوجد أربعة أعمدة وركيزتان وطول هذه القاعة وهو فى نفس الوقت يمثل عرض المقبرة يبلغ ثلاثة عشر مترا، أما العمق الكلى فيبلغ - أيضًا - ثلاثة عشر مترا. وفى القاعة الأخيرة توجد تماثيل لأشخاص جالسين نحتت فى الصخر؛ إلا أن مستواها أدنى بكثير، وقد قال لى أحد الأهالى إن هذه المقبرة تسمى «اسطبل عنتر» وكما رأينا أن هذا الاسم يطلق على محجر يقع بعيدًا فى الجنوب[١].

ونلاحظ فى القاعة الأولى على الجدار الذى يواجه أقصى المقبرة نقوشًا شديدة الغرابة تمثل موضوعات لم توجد فى الكاب ولا فى طيبة ولا فى أسيوط..! وأشكال الحيوانات وكذلك معظم أشكال الأشخاص قد صورت بصرامة فى طراز أكثر دقة مما هو عليه فى أماكن أخرى. وهى تصور شابين يحملان سلالاً كبيرة ربما تحتوى على المحاصيل[٢] وهما يسيران أمام عربات تجرها الأبقار وقطعان من الماعز تذهب إلى المرعى ويقودها رجلان يمسكان بسوط مصنوع من حبل مجدول[٣].

وتحت هذه المناظر نجد منظرًا لجمع محصول الكتان الذى تعرفنا عليه نظرًا لطول العيدان ومقارنة بالمشهد المماثل فى «الكاب»[٤]، وفى الأمام يوجد رجل يجلس على الأرض عيناه مثبتتان على مقرأ مثبت على مائدة منخفضة[٥]، وهذا المقرأ المنزلق يحوى بالتأكيد مخطوطًا، وفوق المشهد الذى نراه مصورًا أسفل هذا

---

(١) انظر ما سبق المبحث الثامن .

(٢) انظر لوحة رقم ٦٨ ، شكل ١٣.

(٣) نفسه .

(٤) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ١٤.

(٥) انظر نفس اللوحة شكل ١٤.

المنظر وعلى حافة المائدة توجد رفوف مدرجة نعتقد ان بعض التماثيل وضعت فوقها، ويبدو أن هذا الرجل يتأمل حسابات المحصول. وأعلاه يوجد منظر آخر لرجل يجلس القرفصاء ويضع يديه على آنية (أو على أحد المقاييس) وضعت فوق قفص مصنوع من أوراق النخيل .

ومظهر الرجل الذى يقف خلف الرجلين الجالسين يوحى بأنه فى حالة تأكيد لشىء ما ، وأفترض أنه هو الذى يقوم بحسابات المحصول وأنه يؤكد هذه الحسابات للكتاب المسؤولين عن تدوينها(١).

ويتولى جنى المحصول سبعة أشخاص وخلفهم هناك رجلان يجلسان القرفصاء ويبدو وكأنهما منشغلان بمحصول الكتان(٢)، وما يحملون فوق رؤوسهم هى بالتأكيد أحزمة الكتان. وبعيدًا ، هناك أشخاص آخرون منشغلون بجمع المحصول؛ إلا أن هذا الجزء أكثر إصابة بالضرر، ولا نستطيع أن نتبين إذا ما كان هؤلاء الأفراد يحملون منجلا، وكل شىء يدل على أنهم يعملون فى حقل كتان يصوره شريط يبلغ ارتفاعه أكثر من نصف طول الرجال؛ إلا أننا نتساءل عن الشريط الذى يبلغ نصف ارتفاع الشريط الأول والذى يبدو خلفه(٣)!؟

ويوجد منظر آخر مماثل تحت ذلك الذى وصفته لتوى يصور كاتبين منشغلين بقيد حسابات الحبوب ، وتبدو فوق المائدة أداة القياس(٤)، وخلفهم هناك هرم مقطوع أو رحى الحبوب أو ربما الباقات المكدسة، وأحد الرجال يبدو فى حالة تقيب داخل الرحى؛ بينما آخران يمسكان الباقات؛ والرجل الذى أتصور أنه المحاسب يتأمل كل هذا المشهد(٥). وبعيدًا، هناك سبعة رجال فى حالة سير بخطوة سريعة وقد صور الفنان المصرى حركة السير ببراعة شديدة! ويحمل الرجال على كتفهم الأيسر خرجًا ذا جيبين وعلى كتفهم الأيمن عصا، وهم يبدون

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ١٤.
(٢) نفسه .
(٣) نفس اللوحة . هذا المكان ليس منفصلاً داخل النقش لأن تصويره بشكل كامل لم يكن ممكنا.
(٤) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ١٥ .
(٥) نفسه .

كأنهم عائدون من السوق ويؤكد ذلك أنهم يقودون حميرًا لاتحمل أثقالاً وعلى ظهورها فقط غطاء مزدوج وهذا الغطاء مصنوع من قماش ذى أقلام وهو يذكر ـ تمامًا ـ بالبرادع الملونة التى تستخدم اليوم فى مصر[١]. وتنتمى قامة الحمير وكذلك أعناقها إلى السلالة الجيدة الموجودة اليوم فى مصر. ومن المعروف أن الحميرالمصرية تشتهر بخفتها وبقوتها وبسرعتها. وشعرها يثير الإعجاب وكذلك ـ أيضًا ـ رشاقة سيقانها وطول أجسامها؛ وهذه الصفات كانت تميز الحمير فى مصر القديمة مثلما تؤكد المناظر الموجودة فى " زاوية الميتين"؛ لقد اهتم الفنان بتصوير أجساد هذه الحيوانات بأسلوب دقيق وشديد التميز؛ وكان يتحتم ـ أيضًا ـ أن ألاحظ براعة النقش فى أشكال الحيوانات الأخرى مثل الماعز والأبقار التى تظهر فى نفس هذه النقوش[٢].

وهناك دليل آخر على أن الرجال الذين تحدثت عنهم منذ قليل كانوا عائدين من السوق؛ ذلك لأنهم كانوا يقابلون فى طريقهم رجالاً آخرين يقودون حميرًا تحمل السلال، ونلاحظ أن هذه الحمير ذات أحجام مختلفة عن الأولى وأن سلالها متوازنة وتبدو كأنها مصنوعة من الجريد ـ أى من أوراق النخيل المتشابكة، وتبدو أحجام هذه السلال محسوبة بغرض حمل أكبر كمية ممكنة من السلع دون خوف أن تسقط الحمولة؛ حيث إن مركز الثقل يوجد فوق ظهر الحيوان بارتفاع بسيط؛ إلا أن هناك رجلين يبدوان منشغلين بحفظ توازن إحدى هاتين السلتين[٣].

وعلى جدار آخر لهذه المقابر تصورت وجوه أشخاص من الريف يحملون عيدان اللوتس تستند على أيديهم اليمنى؛ بينما يعزفون الناى بيدهم اليسرى[٤]. وفى مكان آخر يوجد منظر لرجل يبيع الأوز الذى يوجد داخل قفص صغير مثل

---

(١) انظر لوحة ٦٨ شكل ١٥ .

(٢) نفس اللوحة شكل ١٣ .

(٣) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ١٥.

(٤) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ١٦.

تلك الأقفاص التى نراها فى أسواقنا، وقد سحب لتوه اثنتين من الأوز لبيعهما[١]، وأمامه يوجد منظر لم أستطع بكل أسف إلا أن أنقل جزءًا منه فقط، إنه يبدو مرتبطًا بتمرينات رياضية، ويبدو رجل فى وضع منثنى ممسكًا بيده - بقوة - بحبل يرتفع حتى صدره وأمام هذا الحبل يوجد شاب صغير يفرد ذراعيه ويبدو مستعدًا للقفز من فوق الحبل دون وثب. ويرتدى[٢] الرجل الأول حزامًا مربوطًا حول فخذيه؛ لابد وأن له استخدامًا فى الألعاب. وفى الخلف يظهر الرجل الذى يقود هذه التمارين.

ونود لو تعرفنا بدقة على قطعة الأثاث التى وضعت خلف التلميذ وبها عصا مثبتة فوقها؛ وربما يكون ذلك مقعدًا مخصصًا لقائد الألعاب، أو ربما جهاز رياضى، والثلاث كرات التى تعلوه ربما ترجح الافتراض الأخير[٣]. وهذه المناظر بمقارنتها بتلك التى قمت بوصفها فى «بنى حسن» تؤكد وجود الألعاب العامة لدى المصريين والتى وصفها ديودور وهيرودوت بشكل مبهم بعض الشىء ، وتلك ملحوظة مهمة وسوف نجد الفرصة للإشارة إليها.

ويوجد فى نفس المقبرة مركب من نوع شديد الغرابة له شكل المراكب العادية؛ إلا أنه دائرى - تمامًا - وليس به أى جزء مستقيم؛ مما يدل على أنه ليس مصنوعًا من خشب هياكل السفن، و بطول المركب توجد أربطة عرضية [٤]؛ وهذا الشكل يبدو مصورًا لتلك المراكب المصنوعة من أغصان البردى المتشابكة التى وصفها ثيوفراست وبلينى[٥] أو تشبه - أيضًا - المراكب الحديثة التى تصنع الآن من القصب أو الأسل وتستخدم - فقط - من أجل عبور نهر النيل. وبعض الشروخ تمنع التعرف عما كان يحتويه هذا المركب؛ إلا أننا نجد تحته شيئًا غريبًا فى تاريخ النباتات القديمة بمصر!! ولقد تم تصوير التموجات التى تعبر عن وجود

---

(١) نفس اللوحة شكل ١٧.

(٢) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ١٧.

(٣) نفسه .

(٤) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ١٨.

(٥) ثيوفراست، النباتات ، الكتاب الرابع ، ص ٥٤. بلينى، التاريخ الطبيعى ، الكتاب ١٣ ، المقطع ٢ .

المياه على المركب كما هو معروف ووسط المياه تسبح أوراق زهرة اللوتس ويطلق عليها - أيضًا - اسم اللوتس الأزرق؛ وتتميز هذه الزهرة بوضوح أوراقها زرقاء اللون التى تتخذ شكل مدبب. ولم يعد ممكنا أن نعتقد أن المصريين القدماء لم يكونوا يعرفون - تمامًا - هذا النوع من اللوتس وكذلك طريقة تصويره.

ولقد حفرت مقابر زاوية الميتين فى واجهة عمودية للجبل، وإحداها توجد أعلى قمة الجبل فوق كل الأماكن التى يمكن الوصول إليها، ويصعب استنتاج المكان الذى تم الصعود عبره من أجل حفر هذه المقبرة .

والمقابر ليست الأثر الوحيد الذى قام به المصريون فى هذا الجزء من الجبل. وشمالاً تمتلئ السلسلة الجبلية بالمغارات وكذلك ببقايا محاجر قديمة. واستغلال الجبل وصل إلى القمة؛ حيث توجد صخرة تكاد تكون رأسية تماما، وهنا يوجد جدار من الطوب النيِّئ يكاد يوازى اتجاه السلسلة، وبعد مسافة صغيرة يختفى هذا الجدار فى الصخرة تحت الرمال؛ وربما استخدم كحصن مثل الحائط الحديث الذى بنى فى طرة، أو ربما كان يفصل بين أرضين، وأخيرًا وهو الاحتمال الأكثر ملاءمة للواقع - ربما كان هذا الحائط مخصصًا لإغلاق المحجر.

وأسفل الجبل يتميز بشقوق عديدة أحدثتها مياه الأمطار. وعندما مررت بالمكان خلال شهور يناير وفبراير كانت الرمال لاتزال رطبة بفعل المياه التى جلبتها السيول التى هطلت خلال شهر ديسمبر.

ويقوم سكان المنيا بدفن الموتى قرب «زاوية الميتين» ومن هنا يأتى اسم القرية؛ إلا أننا لانرى سوى مقابر المسلمين، أما مقابر المسيحيين فتوجد بالقرب من «سوّادة» التى سنتحدث عن آثارها فى المبحث القادم .

المبحث الثالث عشر: مقبرة على الطراز المعمارى الدورى ومحاجر قديمة فى سوّادة

توجد ما بين كوم الأخضر - الذى تحدثت عنه فيما سبق - وبين قرية سوّادة التى تقع على الضفة اليمنى للنيل على بعد ألفين وخمسة مترًا جنوب شرقى كوم

الأخضرسلسلة كبيرة من المحاجر تستحق الذكر هنا. وفى الحقيقة، إن المصريين كانوا قد أقاموا فى هذا الجبل عددًا كبيرًا من الإنشاءات لم يصفها الرحالة حتى الآن؛ فبطول ارتفاعها الذى يبلغ ألفى متر لا تحتوى السلسلة العربية إلا على انشقاقات ضخمة وهذه المحاجر ربما الأكثر اتساعا فى مصر كلها، وقد استخرجت منها قطعًا كمية ضخمة من الأحجار؛ إذ أنه يمكننا أن نعرف بسهولة أن أعلى الجبل كان يتقدم كثيرًا نحو نهر النيل؛ وقد تمت إزالة كل الجزء الذى يسبقه والواجهة الحالية تقع إلى الخلف من قاعدة السلسلة الجبلية التى لم يتم المساس بها، وهذا يفسر كيف أن الصخرة تنقسم حاليًا إلى جزءين؛ واحدة رأسية، والأخرى تكون هضبة ترتفع قليلاً عن الوادى، والجبل ككل يتكون من حجر مسكوكى؛ فالهضبة مغطاة برمال ناعمة مكونة من نفس هذا النوع المسكوكى ومن بعض الأنواع الأخرى.

وهناك مكان يبدو فيه هذا الانشقاق من أعلاه كحصن يشبه عن بعد حصن القاهرة ، وتؤدى طريق عريضة من الهضبة وحتى القمة عبر مركز هذه المغارات. ولا نرى سوى كتل منحوتة فى كل مكان وقد أتى بها من أماكن عالية أو ربما تكون قد وقعت من أعلى.

وما يمكن أن نرى فى البداية فوق الهضبة يتكون من ثلاث قطع ضخمة لأعمدة ذات ثمانية أضلاع منحوتة بدقة متقنة، وأكبر هذه الكتل توجد ناحية الغرب ويبلغ قطرها ٢,٥ مترًا وتوجد بين جانبين متقابلين يبلغ طولهما ٩,٥ مترا . والواجهة التى ترقد على الرمال منحوتة مثل الأوجه الأخرى ، وقاعدتها السفلية التى تستدير شرقًا لاتزال سليمة أما الحافة الأخرى فهى مكسورة. ولايمكن أن نستنتج الطول الأصلى لهذا الحجر الضخم [١]؛ إلا أنه ليس من الجائز أن يكون له أقل من خمسة أقطار على اعتبار أن عمود بنى حسن الثُمانىّ الأضلاع كان له حوالى سبعة أقطار وأن كل أعمدة الآثار المصرية لها خمسة أو ستة أقطار

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٨ شكلى ١٩ و ٢٠.

وهكذا ، ربما كان طول هذه القطعة العملاقة يبلغ ١٢,٥ مترا [١] مما يزيد على طول كل الأحجار الأحادية من الحجر الرملى أو الجيرى التى عرفت فى مصر.

وليس من الصعب أن نفترض ما حدث للحافة العليا لبدن العمود ، وفى الواقع لقد استغل حديثًا هو نفسه كما نرى كنوع من المحاجر. وفى هذه الحافة هناك ثلاث حفر كبيرة مستطيلة ولقد كان مقدرًا قطعًا أن يتم إحداث أسافين بها من أجل تدمير هذه الكتلة[٢]؛ وهكذا، لقد قام البدو بتكسير هذه الكتلة الكبيرة وخفضوا ثلاثة أمتار منها طولاً من أجل الحصول على قواعد يبلغ ارتفاعها من خمسة إلى ستة ديسيمترات.

وربما يكون حادث ما قد كسرها ولم تثمر جهود البدو من أجل الحصول على قطع حجرية منها. و يقول سكان المنطقة إن الكتل الأخرى ذات نفس الشكل والأقل طولاً ليست إلا أجزاء من هذه الكتلة الضخمة؛ فهى كتل ذات قطع مائل. ورؤية هذه الكتل توحى بأنها قد تدحرجت من فوق الجبل وهذا ما يرويه - أيضًا - الفلاحون، ويحتمل أن تكون قد قطعت من أماكن عليا فى الجبل ثم حملت بالأيدى فوق الهضبة التى نرى الكتل فوقها. وختامًا، فإن هذه الصخور لم تستخرج بالتأكيد من الصخرة الرملية التى توجد عليها الآن.

والقطع الأخرى التى تم رفعها من المحجر لها أبعاد تثير الدهشة أيضا ، وتظهر أماكنها الخالية المحفورة فى الصخرة ، ولقد ظننت أننى تعرفت على الفراغ الذى تركه العمود الثمانى وكل الواجهة الرأسية تكتظ بفراغات من نفس هذا النوع.

وشمالى المحجر هناك جدار من الطوب يهبط من قمة الجبل حتى قاعدته وهو متهدم فى بعض أجزائه إلا أنه بصفة عامة بحالة جيدة جدًا وقد كان - غالبًا - ممتدًا حتى نهر النيل؛ إلا أنه لاتوجد أية إشارات لذلك، ويبلغ ارتفاعه أربعة أمتار وسمكه ٢,١ مترًا. وقد تم رص الطوب أفقيًا ورأسيًا بالتناوب، وهو مبنى

---

(١) حوالى تسعة وثلاثين قدما.

(٢) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ٢٠.

من طين رملى حيث توجد حبات كبيرة من الرمال وقطع صغيرة من الحصى ومنها ما هو كبير جدا. وبالرغم من أن الطوب ليس مصنوعًا بعناية كبيرة؛ فيبدو وكأنه ينتمى إلى المصريين القدماء، فهل كان يهدف إلى إغلاق الضفة اليمنى للنيل ومنع الاتصالات بين الشمال والجنوب..؟ لوكأن ذلك صحيحًا لوجدنا آثارًا لذلك فى الوادى؛ إلا أن الزراعة ربما تكون قد محت هذه الآثار على اعتبار أن الوادى ضيق جدا، فهل كان يستخدم لإغلاق المحجر؟ إننا قد نصدق هذا الاحتمال إذا ما أخذنا فى الاعتبار وجود جدار مماثل يقع جنوب المحجر؛ إلا أننى لا أقر هذا الافتراض.

وشمالى جدار الطوب الكبير يقطع الصخر واديًا يبدو كأنه مجرى للسيول وعلى حافتى الوادى يبرز حصى كبير الحجم ويبدو كما لوكان مغربلاً ويظهر بلونه الرمادى على الخلفية البيضاء للصخرة؛ ونستنبط من هذا المنظر ما يمكن أن تحدثه مياه الأمطار التى كانت تتدافع من أعلى السلسلة العربية.

ولقد قمت أثناء هذا الوصف بسرد أحداث مماثلة لم تكن موضع الملاحظة من ذى قبل وتبدو غير معروفة؛ ذلك لأنها تتعارض مع الرأى العام السائد.

وعندما نتقدم قليلاً نحو الشمال وعلى نفس الصخرة نجد قرية «نزلة سوّادة» التى ينقسم سكانها ما بين مسلمين ومسيحيين ويعملون جميعهم بصناعة السكر، وهناك دير وكنيسة وكذلك مقابر يستخدمها كل أهالى المنيا لدفن موتاهم مثلما يدفن المسلمون موتاهم فى «زاوية الميتين»، وتمتد الأراضى المزروعة حتى الصخرة التى تحدها كالجدار.

ولقد حفرت فى هذه الصخرة مقبرة من نوع فريد ليس لها بالقطع أى مثيل فى مصر كلها، وتصميمها ينتمى إلى العمارة الرومانية ولا يوجد أى شىء يدل على عدم انتمائها إلى الرومان ومنذ ذلك العهد تحولت إلى كنيسة استخدمها المسيحيون. وهذا العمل تحت الأرض صنع بشكل جميل وهو يذكر بالمقبرة التى توجد قرب الإسكندرية بجوار حمامات كليوباترا والبناء من الطراز الدورى إلا أن بعض الزخارف تختلف عن هذا النمط المعمارى. والمقابر التى بناها المسيحيون بالداخل أو الخارج تتعارض مع بقية أجزاء المكان نظرًا لرداءة مستواها.

ويمكن الدخول عن طريق ممر منخفض بطول خمسة أمتار له باب على هضبة منحوتة فى الجبل فى منتصف المنحدر، ويصل هذا الممر إلى فناء مفتوح محاط بالأعمدة التى يبلغ ارتفاعها حوالى ٤,٥ مترًا حتى قمة الإفريز وحوالى ٨,٥ مترًا حتى الهضبة العليا للصخرة، وهذا الفناء مكشوف بخلاف المقابر المصرية، والفتحة العليا عبارة عن مربع يبلغ طول ضلعه ٥,٥ مترا [١]. ثم ندخل بعد ذلك فى عدة حجرات طويلة وضيقة وأحد جدران هذه الحجرات ينتمى لفترة لاحقة ، وتوجد ـ كما قيل لى ـ فى الداخل تقسيمات أخرى.

وكان ينبغى أن يكون هناك ثمانية عشر عمودًا فى هذا النوع من الدهاليز، ورغم كل ما قمت به من بحث لم أستطع تحديد مكان الأعمدة التى تقع فى الجانب الشمالى. وغالبية الأعمدة قد سقطت وبقيت ـ فقط ـ التيجان مع جزء من طرف البدن الذى يبدو معلقًا فى الهواء[٢]. ومن الجانب الشرقى نجد أن الجدار الصغير الذى يحد الكنيسة قد احتل مكان طابور الأعمدة. وتتميز زخارف الإفريز وكذلك الجدران والجوانب بنقائها وبدقتها[٣]!

وعلى الجانب الجنوبى تخترق الجدار فجوات منخفضة ومستطيلة يبدو وكأنها كانت تستخدم فى دفن الموتى. وإلى الأمام ـ تحت الأروقة ـ وضع المسيحيون قبورًا من الطوب حيث توجد حروف مكتوبة؛ إلا أنها محيت ولذا لم أستطع نقلها، وهذه القبور تتميز عن القبور التركية بالقبة التى تعلوها ، وقد تم رص الطوب بأشكال مختلفة[٤] ، وبنى المسيحيون حوائط كثيرة صغيرة تمنع بداية من التعرف على تخطيط المبنى الذى كان فى الماضى يتمتع بتماثل كبير.

وتزين الحجرة الأخرى المستطيلة ثلاث صور زيتية ذات لون باهت وقد رسمت بغير اتقان، إحدى هذه الصور يظهر فيها قديس يسميه المسيحيون «أباحور»[٥]

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٨ شكلى ١ و ٢.

(٢) نفس اللوحة شكل رقم ٣ .

(٣) انظر لوحة رقم ٦٨ شكل ٤ .

(٤) انظر لوحة رقم ٦٨ شكلى ٥ و ١٠ .

(٥) أباحور ـ أى الأسقف «حور» أو «حورس».

وهو ذو رأس ضخم بالمقارنة بجسده؛ ويصعب تصور شيء أكثر غرابة من ذلك. والأخرى تصور القديس جرجس وهو يضرب بحربته الشيطان الذى يبدو فى شكل تنين أحمر بلون سرطان النهر وقد أحيطت رأسه بهالة ، ويضع قدميه فوق مركب صغيرعلى الطراز التركى، والحصان الأبيض الذى يركبه رسم بعناية أكثر، وخلفية الصورة تمثل قمة جبل يقف فوقها رجل يصلى، والألوان باهتة وغير متقنة مثلها مثل الصورة الأولى؛ إلا أن التشكيل أقل سوءا. وفى القاعة اليسرى الصغرى توجد صور أخرى إحداها تصور السيدة العذراء ممسكة بالمسيح.

وتكمن أهمية هذا الأثر الذى ينتمى إلى عمارة غريبة عن العمارة المصرية فى أنه يبين الطراز الذى استخدمه الإغريق والرومان فى الإنشاءات التى أقاموها على ضفاف النيل، وهو يدل على أنهم استعانوا بالطراز الخاص بأبنيتهم ولم يقوموا بتقليد الآثار المصرية المليئة بالكتابة الهيروغليفية.

المبحث الرابع عشر : المنيا ـ أبيوم
(تسمى اليوم طحا العمودين) والضواحى

إن "منية ابن خصيم" تعتبر اليوم المدينة الرئيسية لكل الإقليم وهى الآن تحتل نفس المكانة التى احتلتها سابقا ملوى، مثلما جاءت هذه الأخيرة بعد الأشمونين وبعد أن حلت ـ أيضًا ـ الأشمونين محل هيرموبوليس، وتنعم بهذه الميزة بفضل موقعها على ضفة النيل. ولا نستطيع أن نؤكد وجود مدينة مصرية قديمة فى نفس هذا المكان؛ إلا أن زاوية الميتين وكذلك محاجر سوّادة التى تقع فى مواجهتها تقريبًا يمكنها الإيحاء بذلك؛ وفقًا للأسباب التى ذكرتها فيما سبق. وسأضيف بأن المدينة تحتوى على آثار قديمة كثيرة وخاصة المساجد التى توجد بها أعمدة رائعة من الجرانيت.

وقد نحت عدد كبير منها بعناية فائقة على الطراز الإغريقى، وهناك ـ أيضًا ـ فى البقايا التى توجد ناحية الغرب أعمدة ذات حجم كبير من الجرانيت الأحمر.

وأخيرًا فإن ضفتي النيل محاطتان بأرصفة من الطوب شديد الضخامة وتهدم جزء منها بفعل الفيضانات.

وإذا كان افتراضي حول المدينة التي كانت تقع في مواجهة بني حسن صحيحًا؛ فإن تصوري الذي أقدمه هنا يبدو - أيضًا - واقعيًا والدليل على ذلك أن بعد المسافة بين المنيا والعنبجا يجعل من الصعب وجود مدينة قديمة في هذا المكان دون أن يكون هناك تقارب كبير بينهما(١).

وعلى ضفتي النهر توجد أرصفة كبيرة من الطوب ذات أصل غير معروف وقد هدمت الفيضانات أجزاءً منها. والمسيحيون يمثلون $\frac{١}{٢٠}$ من مجموع عدد السكان. وتوجد كنيسة تسمى «دير مارجرجس».

والمياه الضحلة التي تعرف باسم «باطن» تقع غربي المنيا وسط السهل، ويعتقد كثير من المحدثين بأنها تمثل مجرى قناة قديمة؛ بينما هي في الواقع ليست سوى منخفض أرضي قد نتج عن تعلية ضفتي النيل وضفتي قناة يوسف. وهذه المياه الضحلة تمتد بشكل غير منتظم بدءًا من أطلال الأشمونين حيث يطلق عليها اسم «ترعة الفويطة» و «ترعة السباخ» وحتى ما بعد المنيا جنوبًا حيث تسمى «الدفع»، وأحيانًا يبلغ ارتفاع المياه فيها قدمًا أو قدمين وأحيانًا أقل من ذلك وفقًا للأماكن المختلفة. وهذه المياه الضحلة تتميز بعرض كبير وليست لها حدود واضحة، وهي تجف خلال الجزء الأكبر من السنة، وليس لها مجرى واحد محدد بل فروع كثيرة وتظهر - فقط - عندما يكون منسوب المياه ملحوظا. وليس هناك إذن أقل واقعية من افتراض ب سيكارد الذي ظن أن هذه المياه ليست سوى بحيرة موريس وقدوقع دانفيل في الخطأ من جراء هذا التصور. ومثلما يبدو هذا المنظر أينما تجري قناة يوسف؛ فإن هذا الرحالة قد رأى - أيضًا - في ضواحي اهناسيا وبالقرب من بني سويف ترعة صغيرة قد بدت له وكأنها منبع هذه البحيرة

---

(١) تبلغ المسافة ألف متر . والمنيا هي اسم نوعي . انظر اللوحات رقم ٤ و ٥ المجلد الأول من الدولة الحديثة وهي تمثل مناظر للمنيا.

القديمة. ويطلق الأهالى هذا الاسم «باطن»[١] على كل المياه الضحلة، وقد تصور سيكارد أنها تمثل كلها قناة واحدة كانت تتبع عند الأشمونين حتى مدخل الفيوم؛ وواضح أن ذلك ليس عملاً بشريًا أو أحد إنجازات المصريين القدماء.

قرية «طالح»: غربى المنيا، تقع بين مجريين لمياه ضحلة من هذا النوع. وفى نهاية فصل الخريف وطوال الشتاء يصعب عبورهما بالرغم من كونهما غير عميقين بسبب عرض المساحة التى تحتلها المياه. وبجانب الفرع الغربى لاحظت مبنى قديمًا من الطوب الصلب لم يبق منه سوى مربع يبلغ طول ضلعه خمسة أمتار. ويعتبره الأهالى أثريًا ويطلقون عليه اسم "الخرفيشة". والمبنى له تصميم دائرى من الداخل على شكل بئر، وقد هدمه أحد البكوات ظنًا منه أنه يحتوى بداخله على ذهب.

«كوم الجيوكس»: وهو تل ممتد غربى المنيا على الضفة اليسرى لقناة يوسف حيث توجد أطلال قديمة وبعض الطوب ويستمد التل اسمه من اسم ملح يشبه النطرون.

«شيخ العسكر»: وهى بقايا لقرية قديمة تقع على بعد ثمانية آلاف وخمسمائة متر شمال المنيا، ويبلغ امتداد الأطلال بها ثلاثمائة متر. والأرض مغطاة بالطوب وشقفات فخارية... إلخ، وقد وجدت بها كتلتين من الحجر الرملى الصلب القديم ذى حجم كبير استخدمه الأهالى من أجل صنع رحى الطاحون.

«طحا العمودين»: قديمًا كانت تسمى إبيوم. وأحيل القارئ إلى وصف الأشمونين الذى ذكر فيه هذا المكان[٢].

«كوم عزب»: وهى تل مرتفع من الأطلال غربى طحا ويقع على الضفة اليسرى لقناة يوسف حيث توجد بقايا أسوار قديمة.

---

(١) باطن: هو اسم نوعى وسكان المكان يقولون «البواطن» . انظر دراسة بحيرة موريس .

(٢) انظر الفصل الرابع عشر.

«كوم الاحمر»: وهى تل كبير وتغطيها الآن الرمال، تقع غرب «كوم عزب» على حافة الصحراء، ويأتى هنا ذكرها بسبب هذا الاسم الذى يطلق على جميع الأطلال القديمة.

«كوم الضبعة» و **«كوم العمودين»**: وهما أطلال شمالى طحا العمودين .

«كوم الحمام» و"**كوم طهما** هما تلان أولهما يمتد شمال طحا العمودين ويحكى البدو أن كل التلال التى تغطى الأرض هى فى الواقع مساكن قديمة جدا .

القسم الثانى
سمالوط[١]

كانت أراضى هذه المقاطعة مثل السابقة تقع على ضفتى النيل.

والمدن الرئيسية هى: أكوريس، وكو، وسينوبوليس، وموزون، وهيبونون، وألى، والأبسترونوبوليس. ويبدو أن هذا الإقليم كان أقل أهمية من إقليم الأشمونين، وعلى الأقل فإن الأطلال التى نجدها فيه لايمكن أن تقارن بتلك التى توجد فى الآخر.

ولقد وجدت فى أولى هذه المدن الأطلال الأكثر استحقاقًا للاهتمام.

المبحث الأول: أكوريس ـ حاليًا طهنة

طهنة: هى قرية كبيرة يسكنها البدو من أبناء قبيلة عطايات، وتقع على الضفة اليمنى للنيل على بعد أحد عشر ألف متر جنوب المنيا، وقد أنشئت فوق أطلال مدينة يبدو أنها كانت كبيرة جدًا وتطابق أكوريس. وهذه المدينة كانت ترتكز على الصخر أعلى سهل جميل يقع فى خانق يتكون فى الجبل العربى وهو الخانق الذى يشكل أودية كثيرة تؤدى عبر الصحراء إلى الشمال وإلى الجنوب.

وأحد هذه الأودية تكون على وادى الطير[٢]. وتتكون الأطلال من تل شديد الارتفاع ولا يرتفع أثر واحد فوق هذه الأنقاض؛ ولكننا نرى أجزاءً كثيرة مدفونة

---

(١) لن أذكر إقليم الشيخ عبادة باعتبار أن هناك وصفًا خاصًا به. انظر الفصل الخامس عشر .

(٢) يبدو أن المصريين يقومون بالبناء في كل خانق داخل الجبل العربي بهدف وقف غزو الرمال داخل السهل أو من أجل إغلاق هذه الأماكن أمام غارات الرعاة، وهذا مايفسر وجود جدران سميكة من الطوب النيئ رأيتها كثيرًا على هذه الضفة من النيل، وقد قمت بوصفها. وقد عرضت أسبابا أخرى أدت إلى بناء هذه الجدران وفقًا لمتطلبات الأماكن المختلفة.

تدل على وجود أبنية مازالت قائمة وموجودة فى مكانها، وإننى واثق من أن عملاً بسيطًا سوف يؤدى إلى اكتشاف أبنية لاتزال محفوظة بشكل جيد. وناحية الجنوب الشرقى نلاحظ واجهة باب مصرى تظهر خارج الأطلال بارتفاع يزيد عن نصف المتر ولايزال فى مكانه وجوانب هذا الباب تظهر تماما. وتوجد ناحية الغرب أحجار كبيرة يصل طولها من خمسة إلى ستة أمتار وبعرض متر واحد وجوانبها الأربعة تلمع ـ تمامًا ـ وهى مكدسة بعضها فوق بعض ويبدو أنها استخدمت كأسقف. وبعيدًا ناحية الشمال توجد كتلة أخرى كبيرة ولامعة حفر مركزها على شكل دائرى وعلى أحد جوانبها يوجد مزراب. وتغطى بقايا الأثار العديد من الأحجار المنقوشة؛ وكل هذه الأطلال تتكون من حجر جيرى مسكوكى شديد الصلابة واللمعان. وعندما نتقدم نحو الشمال فى مواجهة القرية[1] نجد بقايا لمبنيين: أحدهما يتكون من أحجار كثيرة أقل حجمًا يبدو أنها أتت من جدران مهدمة، وبجانبها توجد قاعدة عمود تبدو جانبيًا على الطراز الإغريقى. ونرى ـ أيضًا ـ فى أماكن أخرى أثارًا من العمارة الإغريقية أو الرومانية. وفى أحد الحفائر المكشوفة، التى تبعد أكثر ناحية الشمال رأيت أساسات لجدار مهدم، تمثل أحد زوايا البناء، وكانت الأحجار تتشابك فيما بينها، ولا نجد سوى موقع الأركان التى اختفت ولم يستطع الأهالى إطلاعى إذا ما كانت من الحديد أو من الخشب، ومن المحتمل أنها كانت من الخشب مثل تلك التى وجدت فى كوم أمبو وفى أماكن أخرى. وسمك الجدار لايتعدى ٠,٦ مترا.

وتغطى الأطلال شقفات من الفخار وأبنية من الطوب وهو طوب نيِّئ فى أغلب الأحيان. ويبلغ طول المنطقة التى تغطيها الأطلال ثمانمائة متر وعرضها سبعمائة وخمسين مترا، وهذه المساحة لا تشمل قرية تهنه التى تحتل دون شك جزءًا من الموقع القديم للمدينة. ومن ناحية الجنوب الغربى فقد احتلت الزراعة جزءًا آخر من هذا المكان.

ولقد سألت الكثيرمن الأهالى عن الاسم الذى كانت تحمله هذه المدينة وكانت إجابتهم الوحيدة هى " كوم الأحمر" وهو اسم عادى اعتاد الفلاحون على

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٧ شكل ١٤ .

إطلاقه على تلال الأطلال المصرية، وقال لى بعضهم إن هذه المدينة القديمة قد كانت تحت حكم أمير يدعى شنت أو شينت يقارنونه بخاصم أمير المنيا. وعلى كل حال، إن كل شىء يدل على أن اكوريس كانت تقع فى هذا المكان، وهى مدينة تابعه لإقليم سمالوط على حد قول بطليموس، وفي الواقع إنه يحددها على نفس خط عرضِ سينوبوليس - أى عند خط عرض ٣٠ ـــ ٢٨° بينما تقع طهنة عند عرض ١٢ ـــ ٢٨° ؛ إلا أننا نعرف أن خطوط العرض التى يحددها بطليموس لا تستخدم عادة دون تصحيح. وكما يبدو، إذا كان يجب تحديد موقع سينوبوليس القديمة[١] عند سمالوط ومدينة أكوريس كانت تقع فى مواجهتها؛ فإنه ينبغى - حسب تحديد بطليموس - أن نبحث عنها تقريبًا عند " دير البكرة " إلا أنه لا توجد فى هذا المكان الأخير - مثلما سنرى الآن، سوى صخور تتحدر بشدة رأسيًا على النيل، وشمالاً لا توجد أية أطلال.

وينبغى أن نتوجه نحو الجنوب بمسافة تبلغ نحو عشرة آلاف متر؛ حيث توجد أطلال تهنه الكبرى.

والصخرة التى كانت هذه المدينة قد بنيت أسفلها تتحدر بشدة من أنحاء كثيرة، وتمتد الأرض المزروعة حتى أسفل هذا النوع من الجدران.

وتخترق هذا الجدار محاجر ومقابر وقد تهدمت بشدة؛ إلا أنه توجد فى تلك التى مازالت سليمة مناظر لموضوعات شيقة ذات بروز أكبر من النقوش العادية.

وعند مدخل الجبل - ناحية الشمال - نرى عن بُعد سلمًا عريضًا منحوتًا فى الصخر يزيد عرضه عن الأربعة أمتار[٢] وهو يؤدى إلى مقبرة مكونة من قاعتين. والنيران التى أشعلها البدو قد محت - تقريبًا - الأشكال التى كان المصريون قد نقشوها فى الصخر، ولقد أحدث الدخان سوادًا على الجدار حتى أننى لم أستطع التعرف على أى شىء من الموضوعات التى تزين المكان. وقريبًا من هذا المكان توجد مداخل كثيرة لمقابر.

---

(١) انظر ما يلي المبحث الثاني .

(٢) انظر لوحة رقم ٦٧ شكلي ١٤ و ١٦

وعند الزاوية المقابلة للجبل - جنوبًا - تكون الصخرة قطعًا عموديًا شديد الارتفاع تخترقه المقابر من أعلاه إلى أسفله. وتوجد فى إحدى هذه المقابر قاعة مكونة من عمودين وتُحَلى رأس حتحور تاج العمود[1]. ولقد وقعت الأعمدة إلا أن أحد التيجان بقى فى مكانه وكأنه معلق فى السقف. وعندما نستدير أكثر نحو الجنوب توجد مقبرة أخرى أقل امتدادًا وقد بقيت سليمة، وهذه المقبرة ذات باب مزين بشكل جميل، وقد صعدنا إليها مستخدمين سلمين شبه مهدمين، وقد نقشت فى الداخل احتفالات دينية، ويبلغ ارتفاع الأشكال المنقوشة من ستة إلى سبعة ديسيمترات، كما أنها تبرز بشكل واضح؛ والنحت هنا يشبه - تمامًا - الذى يوجد فى إسنا وفى طيبة.

وتزين الواجهة الخارجية للباب ناحية اليمين باقة من اللوتس وقد التف حولها ثعبان كبير. ويسارًا، توجد صورة رجل يرتدى رداءً ذا ثنيات، ويبدو الرجل وكأنه يقدم قربانا؛ ولكنى لم أستطع تحديد الشىء الذى كان ممسكًا به. وإفريز الباب محلى بقرص مجنح[2]. وعن قرب تبدو أزهار اللوتس ممثلة بأكملها؛ الورقة، البرعم ثم الورقة المفتوحة. ويجب أن نلاحظ أن الورقة شديدة التفتح؛ وهكذا فإن الفنان الذى قدم هذا العمل كان يريد إظهار نوع معين من أزهار اللوتس وهو اللوتس الأزرق؛ ولقد كان المصريون يعرفون جيدًا السمات المميزة لكافة أنواع اللوتس[3].

ويمين هذه المقبرة الصغيرة يزين الصخرَ شكل مصرى آخر يبدو واقفًا وهو بارز - تمامًا - مثل الأشكال التى تزين أحد المقابر فى أسيوط[4]؛ ويوجد هذا الشكل داخل إطار مكون من عمودين ومن تاج نقشوا بخفة سطحيا، وعلى الرغم من الرأس والأرجل المكسورة والصدر المحطم؛ نستطيع أن

---

(١) انظر لوحة رقم ٦٧ شكل ١٥ .

(٢) نفس اللوحة شكل ١٨ .

(٣) انظر لوحة رقم ٦٧ شكل ٢٠ ولوحة ٦٨ شكل ١٨ وما سبق حيث ذكرت زهرة اللوتس الزرقاء. وانظر أيضًا لوحة النباتات رقم ٦٠ شكل ١ التاريخ الطبيعي الجزء الثاني .

(٤) انظر لوحة رقم ٤٦ شكل ٩ .

نتعرف على شكل امرأة. ونقشت على كل جانب كتابة إغريقية تصعب قراءتها وهى تتكون من هذه الحروف القليلة التى مازالت مرئية حتى اليوم: IPAMMMAT AA XPHMATIC TOLECCH[١].

المبحث الثانى : محاجر وأطلال فى وادى الطير، جبل الطير، دير البكرة

وادى الطير: هو اسم قرية كبيرة تقع فى خانق بالجبل مثل تهنه على بعد ثلاثة آلاف متر شمال هذه الأخيرة، ويخترق هذا الوادى أيضًا أودية صغيرة كثيرة تتجه إلى الجوانب كافة شرقًا وجنوبًا حتى طهنة، سوادة، مطاهرة.. الخ، وهناك فرع يتجه كما قيل لى حتى البحر الأحمر.

وتخترق المقابر الجبل ولا نرى بها أية نقوش وتبدو وكأنها مجرد محاجر. ولا توجد أطلال مرئية فى هذه القرية؛ إلا أن الشيخ الكبير الذى صاحبنى فى كل مكان بالجبل أكد لى وجود أطلال كثيرة مدفونة تحت الرمال. والأراضى مزروعة بعناية فائقة من النيل وحتى أسفل الصخرة شديدة الانحدار التى تبدو كجدار شديد الارتفاع يلفت الانتباه. والبدو الذين يمتلكون هذه الأراضى نشيطون ويقومون بإنتاج محاصيل جيدة من السكر والقمح والعلف وهم ينتمون مثل أهالى تهنه إلى قبيله عطايات.

وجنوبى وادى الطير نرى جدارين مصريين كبيرين من الطوب النيئ تحيطهما كهوف أثرية ويسميهما السكان "حائط العجوز" وهو اسم يطلقونه على كل الجدران التى تنتمى إلى نفس الأصل وتبدو هذه الجدار وكأنها استخدمت فى إغلاق عروتين يتكونان فى الجبل، وفى كل الأماكن الأخرى نجد أن الجبل ينحدر بشدة، وكلما تأملنا هذه الجدران القديمة ازداد اعتقادنا بأنها كانت تستخدم إما لاحتجاز السيول داخل العروتين - والتى ربما أتلفت الزراعة - و أما لإيجاد ملاذ ضد الفيضانات الطارئة. وفى الواقع يبدو أن المصريين قد عاشوا وبنوا فى كل خانق داخل الجبل العربى؛ ووفقًا لهذا التفسير يكون هذا الجدار

---

(١) انظر الدراسة حول الكتابات القديمة.

قد استخدم شتاءً لمكافحة أثار السيول وصيفًا لحماية الأرض من فيضان نهر النيل.

جبل الطير: هو الاسم المتعارف عليه للجبل العربى بدءًا من القرية التى تحدثت عنها لتوى حتى ما بعد دير البكرة، وهو جبل شديد الانحدار من كافة جوانبه ويطل على نهر النيل ومن هنا قطعًا تكون القرية قد اكتسبت اسمها؛ فجبل الطير يسمى كذلك بسبب الكمية الكبيرة من طيور الورشان السوداء والحمائم البرية التى تلجأ إليه خلال فصل الصيف وأثناء الفيضان وهو فصل بارد نسبيا، تذهب هذه الطيور إلى الحقول لتأكل الذرة أو المحاصيل الأخرى من الحبوب. وكل الرحالة يتحدثون عن المشهد الفريد الذى تمثله الصخرة شديدة الانحدار التى يبلغ طولها أكثر من نصف فرسخًا وتصل حتى "السرأية"، وعادة ما تكون شبه مغطاة بآلاف الطيور التى تكسو واجهتها وتكسبها لونًا أسود. وقد لاحظت ـ أيضًا عند مرورى ـ الضجيج الشديد الذى تحدثه زقزقة كل هذه الطيور فى آن واحد[١].

والصخرة ملساء والطبقات الأفقية بها تظهر بوضوح؛ باستثناء الجزء السفلى المتصدع ـ تمامًا ـ قرب مستوى مياه النيل. وفوق الهضبة ناحية الشمال بُنِىَ دير البكرة القديم، وقد استمد اسمه كما هو معروف من بكرة وضعت أعلى الصخرة فوق جزء بارز مرتفع عن نهرالنيل من أجل رفع المياه من النهر[٢]، ويستعان بها ـ أيضًا ـ من أجل حمل المؤن للدير. وقد بنى من الطوب، والنطاق واسع من الداخل ويأوى الكثير من الرهبان ومن السكان المسيحيين من الجنسين؛ ويقال إن هؤلاء الرجال يأتون كثيرًا لطلب الصدقة من الرحالة الذين يتجهون إلى منبع النهر ويقومون بتتبع مراكبهم لفترة طويلة وهم يسبحون. ونلاحظ فى الصخرة سلمين ربما يوصلان إلى إحدى المقابر، وعلى اعتبار أن جميع الرحالة قد قاموا بوصف هذه الأماكن فلن أتوقف عندها أكثر من ذلك.

---

(١) وجدت في مذكراتي حول الرحلة نبذة حول الاسم الذي يطلق على هذه الطيور وهو " سجاو الحاد " ووفقًا لما روي لي الأهالي ـ يبدو أن هذا الاسم يطلق ـ أيضا ـ على الصقر .

(٢) انظر لوحة رقم ٧ شكل ٢ .

المبحث الثالث: سينوبليس ـ سمالوط حاليًا

حسب قول بطليموس ـ كانت مدينة سينوبوليس القديمة عاصمة الإقليم تقع داخل جزيرة وبفارق ٢٠° عرضًا عن مدينة البهنسا. ولم يعد ممكنًا ـ مثلما قلت سابقًا، أن نستعين بخط عرض ٣٠ ,٢٨° الذى يحدده هذا الجغرافى؛ إلا أن فارق خطوط العرض بين هذا المكان وبين مدينة البهنسا يجب أن يكون أكثر تاكيدا؛ إذ أننا نجد بالتقريب الشديد حوإلى ٢٠° تفصل بين البهنسا التى هى بالتأكيد أوكسيرنخوس القديمة وبين المكان الذى يطلق عليه سمالوط، وهى قرية كبيرة تقع على بعد ثلاثة وعشرين ألف متر تقريبًا شمالى المنيا وعلى بعد ستة وثلاثين ألف مترا جنوبى البهنسا. وتتميز عن بعد بمئذنة شديدة الارتفاع. ونجد فيها أطلالاً، ويوجد غربًا دير قديم يحمل نفس الاسم يدل على وجود موقع قديم. وهذه القرية تبدو وكأنها قد احتلت مكان إحدى المدن المهمة.

شرقاً وعند نفس خط العرض توجد جزيرة كبيرة تطابق بشكل جيد تلك التى يتحدث عنها بطليموس. وفى الواقع، إن الأطلال التى توجد فى الجزيرة نفسها ليست معروفة مثلما يشير نص بطليموس؛ ولكن هل ينبغى أن نتصور أن يكون المصريون قد بنوا مدينة وسط المياه تكون عرضة للفيضانات الشديدة وحتى التقلبات التى تحدث من جراء هذه الفيضانات السنوية ـ خاصة فى جنوب مصر حيث يكون الفارق كبيرًا جدًا بين منسوبى المياه المنخفض والمرتفع !؟ وجزيرة سمالوط لم تكن تتكون أبدًا مثل جزيرة فيلة من صخرة من الجرانيت أو من أرض صلبة تجعلها فى مأمن من التغيرات التى تطرأ على النهر ، ولن نستطيع أن نأخذ هذه الجزيرة الأخيرة كنموذج لتفسير نص بطليموس. والاحتمال التالى هو الأكثر قربًا للواقع باعتبار أنه كانت توجد جزيرة كبيرة لحد ما تابعة لسينوبوليس وقد أنشئ بها أحد الأبنية لقياس النيل؛ فقد اعتبر بطليموس أن كلتا الجزيرتين تمثلان مكانًا واحدًا.

ولم يبق من هذه المدينة القديمة معبد واحد يمكنه أن يعطينا أية فكرة عن عقيدة أهلها. ويؤكد استرابون أن الإله أنوبيس الذى يأخذ شكل كلب كان يعبد فى هذه المدينة وقد تأسس له فيها نوع من العقيدة وخصص له غذاء

مقدس[١]. والاسم الإغريقى للمدينة يبدو مؤكدًا لهذه العلاقة؛ إلا أن عدم وجود أية آثار تسمح بافتراض أن عقيدة الكلب كانت رمزية تماماً.

وشخصية أنوبيس ـ مثلما يقدمها ديودور الصقلى ـ تشير إلى أحد مرافقى أوزيريس خلال رحلته وقد كان يتميز بزى صنع من جلد الكلب[٢]. ويمكن أن نضيف أن نجم الكلب السماوى سيرس كان على الأرجح ينال حظًا من إجلال أهالى سينوبوليس، ومن المعروف أن بداية ظهور هذا النجم كانت تعتبر نذيرًا لفيضان النيل[٣]. وفى النهاية، فلسنا على ثقة من نوع الحيوان الذى كان يمثل رمز هذه العقيدة. وقد افترضت أن الكلب كان قد اختلط فى أذهان الإغريق مع ابن أوى؛ وهو حيوان ليس له وجود فى بلادهم، وربما أنهم قد ترجموا اسمه على أنه الكلب، ومن هنا جاءت تسمية سينوبوليس[٤].

أما بالنسبة لشكل ابن أوى فيمكن أن نتعرف عليه ـ تمامًا إذا ما قمنا بدراسة لوحات الكتاب حيث تظهر فيها صورة هذا الحيوان كثيرًا خاصة فى لوحات المقابر؛ فالمحنِّط يرتدى ـ دائمًا قناع ابن أوى. وأخيرًا فإن هذا الحيوان يظهر فى الاحتفالات الجنائزية بكافة الأشكال.

ومن الملاحظ أن أسماء كل الشخصيات التى تناولتها أسطورة رحلة أوزيريس قد احتفظ بها فى اسماء كل مدن وأقاليم مصر الوسطى وكذا الأقاليم المجاورة مثل مدينة بان فى إقليم بانوبليس، وأنتى فى أنتيبوليس، وماسيدو فى ليكوبوليس، وهيرمس، وهيرموبوليس، وهرقل فى هيراكليوبوليس، وبوزيريس فى المدينة التى تحمل نفس الاسم، وأخيرًا أنوبيس فى سينوبوليس.

---

(١) استرابون ، الجغرافيا ، الكتاب ١٧ ، ص ٥٥٨ ، ٨١٢ .

(٢) ديودور الصقلي ، " تاريخ المكتبة ، الجزء الأول ص١١ ويقول المؤلف ـ أيضًا ـ إن أنوبيس كان يرتدي قناع كلب لأن ايزيس كانت قد استعانت بكلب ليقودها خلال البحث عن بقايا أوزيريس (الكتاب الأول ، ص ٢٥٥ بلوتارخ ، ايزيس واوزوريس ص ٣٠٨ ، كليمنيس السكندري ، ستورم ، الكتاب الخامس ، ص ٥٦٧ .

(٣) استرابون ، الجغرافيا ، الكتاب ١٧ ص ٨١٢ .

(٤) ومن المحتمل أنهم قاموا بمثل هذا العمل فيما يخص" أسيوط "أو ليكوبوليس، وابن أوي الذي يشبه كل من الكلب والذئب هو الذي سبب هذا الخلط وهناك خطاب مخطوط من ب. سيكارد كان كاترمير قد نشر جزءًا منه يذكر فيه أنه على بعد أربعين فرسخًا من القاهرة وجد مقابر تحتوى على موميات لكلاب م لة بعناية وقد أحضر بعض منها معه، فهل كانت مواميات لابن أوي أو لكلاب من فصيلة الذئب أولكلاب عادية ؟ هذا هو ما لم يخبرنا عنه ب. سيكارد.

ويمكن أن نجد - أيضًا - فى طيبة الجنوبية كل مشاهد أسطورة أوزيريس ، ودون أن أتوقف عند هذه النقطة أكثر من اللازم سوف أحيل القارئ إلى ما سبق أن قلت حول هذا الموضوع الغريب أثناء وصف مدينة أنتى [١].

ولا يمكننى أن أتحدث عن مدينة «كو» إلا بعرض تسميتها؛ فقد كانت - وفقًا لبطليموس - عاصمة الإقليم، فهل ينبغى أن تكون مدينة مختلفة عن سينوبوليس؟ ذلك أمر لا شك فيه. وفى " تاريخ هرقل " فهى تحمل اسم KYNΩ، سينو Cyno ونحن نجد فى رحلة أنطونيانوس مدينة أخرى فى مصر تسمى سينو. وهذا الاســم KYNΩ، ألم يكن ليكتب بشكل مختصر Kw، مثلما افترض من قبل سيلاريوس ؟ وذلك هو ما أوقع بطليموس فى الخطأ؛ وهذا التفسير يمكن أن يستند أولاً إلى أننا لا نرى أبدًا مدينتين بنفس هذه الدرجة من الجوار وثانيًا أن المسافة التى تفصل بين النهر وبين قناة يوسف لا تبلغ هنا سوى ستة آلاف متر، وثالثًا أننا لا نرى فى هذا المكان ولا حتى أبعد من ذلك فى الضواحى أية أطلال تشير إلى وجود مدينتين متجاورتين تتقاسمان الحدود تقريبًا. وسوف أذكر هنا ما سبق وأن قلت وهو: إن الجزيرة التى تقع فى مواجهتها وتسمى اليوم جزيرة بنى حسن كان يمكنها أن تشتمل على مقياس للنيل جعل منها موقعًا ثانيًا؛ وبذلك يكون بطليموس قد أعطى للجزيرة الغربية اسم كو وأطلق على الجزيرة الشرقية اسم سينوبوليس، وهذا التفسير يؤكد أن مدينة كو أو «سينوبوليس» وهى عاصمة إقليم سينوبوليس كانت تقع فى نفس مكان مدينة سمالوط ودير سمالوط [٢].

---

(١) انظر الفصل الثاني عشر ، المبحث السادس .

(٢) وفقاً للمخطوطات القبطية التي ذكرها كاترمير فإن سينوبوليس توجد في نفس مكان كاييس (دراسات تاريخية حول مصر ، المجلد الثاني ص ١٤١).
شامبيلون (مصر أثناء حكم الفراعنة ، المجلد الأول ، ص ٣٠٢).
ويذكر اسم كاييس ويحدد موقعه في " الكيس " أو " الجبس " ومن المحتمل أن تكون كاييس هي نفسها عاصمة إقليم سينوبوليس؛ إلا أن قرية " بنى كبش " شرق البهنسا وهي نفسها " الكيس " لا يمكن أن تطابق بالمرة " سينو " بما أن بطليموس يحدد موقع هذه المدينة عند خط عرض ٢٠ ° جنوبى أوكسيرنخوس . وفي الواقع أن إقليم أوكسيرنخوس كانت له حدود تمتد حتى نهر النيل ، فكيف يمكنه أن يحتوى عاصمة إقليم آخر؟ وكاترمير يذكر فقرة غريبة من المقريزي عن القناة التي اكتشفت تحت الأرض في كاييس أثناء حكم الكامل؛ وربما يوحى بذلك للرحالة أن يقوموا بالبحث في هذا المكان.

والميدالية التى صكت للإقليم تحت حكم هادريان تحمل اسم KYNOII فى الخلف والصورة التى تظهر بها تمثل شخصًا ممسكًا بشىء يصعب تمييزه[1]، ولا نجد فى الميدالية أية إشارة حول عقيدة المدينة؛ وذلك هو للأسف الحال بالنسبة لميداليات العديد من الأقاليم.

المبحث الرابع: موسون أو موساى، هيبونون، آلى

موساى: وفقًا " لبيان رحلة أنطونيانوس" كانت مدينة تقع على بعد أربعة وثلاثين ميلا شمالى سبيوس أرتميدوس، على الضفة اليمنى للنيل. وإذا قمنا بقياس حوالى خمسين ألف متر التى تعادل أربعة وثلاثين ميلاً رومانيا، ونبدأ هذا القياس شمال " بنى حسن "؛ فسوف نصل إلى خليج ما فى الجبل، جنوبى قرية شرهة فى مواجهة " الخلصان "وباعتبار أننا لم نلاحظ فى هذا المكان أية أطلال فليس عندى أى سبب آخر يجعلنى أحدد موقع موساى فى هذا المكان سوى الموقع الذى حددته لها " رحلة أنطونيانيوس " نسبة إلى المسافة التى تفصلها عن سبيوس أرتميدوس. وفى النهاية ربما كانت مجرد محطة حربية أكثر منها مدينة. وفى " تاريخ الأمبراطورية " يحمل هذا المكان اسم موسون ويقع جنوبى هيبونون - تمامًا - مثل موقعه فى "رحلة أنطونيانوس " وقد وضعت بها كتيبة لتراس [2].

هيبونون: كانت تقع على بعد ثلاثين ميلاً شمالى موساى - وفقًا لرحلة أنطونيوس - وهى أيضًا على الضفة اليمنى للنيل، وهذه المسافة تنتهى عند مكان قد غطته الرمال شمالى الهريشنت فى مواجهة فنت تقريبًا. ولقد حدد دانفيل موقع هيبونون فى الشارونة؛ ولكن هذا المكان يقع إلى الجنوب أكثر.

آلى: وفقًا لبيان رحلة أنطونيانوس تقع على بعد ستة عشر ميلاً شمالى هيبنون. إذا ما قمنا بالقياس بدءًا من هذا المكان فسنصل إلى مكان فى مواجهة

---

(١) انظر لوحة رقم ٥٨ المجلد الخامس.

(٢) تاريخ الإمبراطورية ص ٨٦

منقطين به بعض المساكن الصغيرة، يبدو أن الرمال قد غطت كل الأراضى الزراعية؛ وهو بالتأكيد السبب الذى منع اكتشاف أطلال هذه المدينة والمدينة السابقة مما يبرر فى النهاية الموقع الذى حددته لـ" آلى " وبالتالى لكل من موساى وهيبونون؛ إذ أننا إذا ما قمنا بقياس المسافة بين هذه النقطة وبين بياد التى لا تبعد عن تيمونبسىسنجد تحديدًا ستة عشر ميلاً وهو ما يتضح من رحلة انطونيانوس التى تحدد نفس المسافة بين تيمونبسى وآلى مثلما سنرى فيما بعد.

وواضح أننى قد حددت موقع إقليم سينوبوليس بامتداد نحو الشمال؛ وذلك لسبب بسيط أن إقليم أفروديتوبوليس كان يبدأ عند بابليون ، ولم يكن ليمتد أبعد من تيمونبسى. واليوم، فإن إقليم أطفيح الذى احتل مكانه يمتد بعيدًا ناحية الجنوب؛ إلا أن غالبية أراضيه مغطاة بالرمال وبرغم هذا الامتداد فإن مساحته مازالت أقل منها فى الماضى.

المبحث الخامس : الأبسترونوبوليس

قبل أن نترك إقليم سينوبوليس ينبغى أن نذكر مدينة الأبسترا التى كانت تابعة له حسبما يقول بطليموس، وقد يحدد موقع هذه المدينة شرقى النيل داخل الأراضى الصحراوية، وتحديدها ـ حسبما يتصور ـ عند خط عرض ٢٠َ ٢٨ْ يجعلها تتقهقر كثيراً نحو الجنوب، وهذا التحديد يستوجب التصحيح. والأبسترونوبوليس مدينة صحراوية تفصل نهر النيل عن البحر الأحمر، وتقع بالقرب من محاجر الألبستر حيث استخرج المصريون كميات كبيرة من هذه الأحجار المتميزة. وخلال إقامتى بمصر استطعت أن أجمع بعض المعلومات عن هذه المحاجر التى لم أستطع زيارتها، ولقد طلب منى ومن السيد روزيير وكذلك من السيد رينيه أن نقوم بدراسة هذه المحاجر من الناحية الجغرافية والتعدينية؛ إلا أن أحداث الحرب قد حالت دون تنفيذ هذا المشروع، ولن أتحدث هنا إلا عما روى لى عن هذه المحاجر من الأهالى.

ولقد ذكر الرحالة من قبل وجود أطلال لمدينة قديمة بالقرب من " جبل خليل " فى الطريق إلى " دير العربات " أو دير القديس أنطوان [١]. ويصعب ألا نقبل أن هذه الأطلال هى بقايا مدينة الأبسترا وأن يكون هناك فى الماضى مدينتان صحراويتان؛ ذلك شىء لم يذكره أى مؤلف، ثم إن " العربة " هو اسم يطلق على سهل مجاور ويستمد هذا الاسم من كمية العربات الكثيرة التى كانت تحمل عليها قطع الألبستر باتجاه النيل أو ناحية جنوب البلاد.

والطريق المعبدة داخل الصخرة التى تحدثت عنها فى وصفى للشيخ عبادة[٢] يبلغ عرضها خمسة عشر مترًا قد استخدمت حتمًا فى نقل الألبستر نحو طيبة. ويحكى عن جدار يقع بجوار دير سان أنطوان ويبلغ سمكه أربعة وعشرين قدمًا ويطلق عليه اسم " حائط العجوز " - مثل الجدران التى وصفتها فى القسم السابق - وهذا الجدار كان يستخدم بالتأكيد لغلق محجر الألبستر[٣].

ولقد كان يوجد عند خط عرض ٢٠ جنوبًا - وفقًا لبطليموس - جبل يحمل نفس الاسم " جبل الألبستر " وقد ذكر بلينى - مثله مثل بطليموس - مدينة الأبسترونوبوليس.

والأشخاص الذين استعلمت منهم عن محاجر الألبستر القديمة خلال إقامتى فى بنى سويف قد أكدوا لى أنه كان يمكن الذهاب إليها عن طريق واد ضيق يقع شمال مدينة بياض، وأنه بعد حوالى ثلاثين ساعة من السير يمكن الوصول إلى سهل " الحرية " وأن الطريق كانت تمتلئ بالرخام الثمين بجميع ألوانه. أما بالنسبة للجبل ذاته وللمحاجر ذاتها فلم أستطع الاستعلام عن أى شىء ولا حتى عن المدينة القديمة. ومهما كانت هذه المعلومات ناقصة - إذا ما جمعناها كلها - فسنتأكد من أن موقع الأبسترا وكذلك محاجر الألبستر كانت واقعة داخل الصحراء التى تفصل النيل عن البحر الأحمر - تقريبًا - عند مستوى البهنسا أو أوكسيرنخوس القديمة.

---

(١) رحلة فانسلب في مصر ".

(٢) انظر الفصل الخامس عشر ، المبحث الثالث ولوحة رقم ١٠٣ شكل ١ .

(٣) انظر مابيه " وصف مصر " وبوكوك " وصف الشرق ".

واستكمالاً لما يتعلق بإقليم سينوبوليس ينبغى أن أذكر صعوبة ما وجدت عند استرابون؛ فبعد أن يتحدث عن هيراكليوبوليس، يتناول مباشرة إقليم سينوبوليس ولا يذكر إقليم اوكسيرنخوس إلا فيما بعد، كما لو كان يجىء بعده جغرافى. ويبدو أن هذا الإقليم الأخير لم يكن ملاصقًا لهيراكليوبوليس، وعلى الأقل أنه كان يقع غربى إقليم سينوبوليس؛ إلا أنه يكفى أن نلقى النظر على الخريطة من أجل أن نعرف أن هذا الترتيب مستحيل. واكسيرنخوس كانت تقع شمالى سينوبوليس مثلما يؤكد بطليموس؛ وكذلك " تاريخ هرقل " وأراضى الأقاليم التى كانت هذه المدن تمثل عواصمها كانت بالتأكيد تحيط بها ... كيف يمكن - فى الصعيد - أن يوجد إقليمان مقسمان بخط مواز لمجرى النيل ؟ إن هذا التحديد ما كان ليقطع كل قنوات الرى مما كان سيجعل إدارتها مستحيلة. واليوم، فإن أقاليم الجيزة والبهنسا والأشمونين تفصل بينها قنوات وسدود عرضية على الوادى؛ وهذا هو التقسيم الوحيد الجائز. وأعتقد أنه إذا كان استرابون قد تحدث عن أوكسيرنخوس بعد سينوبوليس؛ فذلك يرجع لأن المدينة الأولى كانت شديدة البعد عن النيل وتقع غربى الفرع الذى يسمى اليوم بحر يوسف، وثانيًا لأن المدينة الثانية تأتى كأول عاصمة فى الترتيب ذهابًا من هيراكليوبوليس مباشرة تجاه هيرموبوليس.

القسم الثالث

إقليم البهنسا

نظرًا لأن إقليم اوكسيرنخوس ليست له حدود متميزة ـ تمامًا ـ على الأقل من جانب واحد؛ فقد توقفت عند ترسيم هذه الحدود عند القنوات التى تصب عموديًا من النيل فى قناة يوسف بمصبين أحدهما فى الشمال والآخر جنوبى البهنسه ويقعان على نفس المسافة من هذه العاصمة، والأول ينبع من النهر أمام " موساى " والآخر ينبع شمال " آلى"؛ وهذا التحديد يمنح نفس الامتداد لإقليمى اوكسيرنخوس وهيراكليوبوليس، وقد كانا متجاورين ويقتسمان نفس الحدود. وفى الواقع فإن حدود هذا الأخير قد رسمت فى وصف استرابون لها مثلما سنرى فيما بعد، ولقد كان يقع داخل جزيرة فالقنوات كانت لابد وأن تحدد أطرافه. وقناة زاوى ـ شمالى بنى سويف ـ لا تمثل أى شك، أما تلك التى تنبع من الهريشنت وتمر " بالزاوية " وتتجه نحو بحر يوسف فى «صفت راشين»، فهى الأصلح لتحديد الحد الجنوبى للإقليم، وهذه القناة هى التى تحد إقليم أوكسيرنخوس من ناحية الشمال.

وسوف أعاود الحديث عن هذه النقطة فى القسم المخصص لإقليم هيراكليوبوليس(١) وأهم مدن إقليم اوكسيرنخوس كانت ـ وفقًا لهذا التوزيع ـ تامونتى، اوكسيرنخوس، فنشى وتاكونا.

---

(١) انظر ما يلي القسم الرابع.

المبحث الأول : أبو جرجة ـ تامونتى

حدد دانفيل تامونتى فى نفس موقع أبى جرجة إلا أنه بالإضافة إلى أننا لم نتعرف فى هذا المكان على أية أطلال سوى رصيف قديم فإن مسافة العشرين ميلاً التى يحددها جدول بوتانجيه بين فنشى وتامونتى ينبغى أن تجعل هذه الأخيرة فى موقع جنوبى الموقع الحالى على الأقل بمسافة تسعة آلاف متر، تجاه قرى قمة وبنى مزار، وتقريبًا بموازاة البهنسا وهنا لا نتعرف ـ أيضًا ـ على أية أطلال؛ إلا أن لا شيئًا يجعلنا نقرر أن تامونتى كانت مدينة مهمة. و" بيان رحلة أنطونيانوس " و " تاريخ هرقل " وكذلك " تاريخ الامبراطورية " لا تتحدث قط عنها. كما أنه ليس لها أى ذكر عند بطليموس أو عند المؤلفين الأخرين. ويكفى ـ فقط ـ أن نحدد موقعها حسب الرحلة الوحيدة التى تذكرها. إن أبا جرجة تقع على بعد ستة وعشرين ميلاً رومانيًا من الفشن التى هى بديهياً فنشى القديمة وبينما يتبع الجدول الثيودسي ضفة نهر النيل فإن " رحلة أنطونيانوس " تتبع طريق وسط الوادى أو بطول بحر يوسف ؛ ومن هنا، فإن المدن التى تظهر فى الواحدة تختفى من الأخرى والعكس صحيح(١).

المبحث الثانى : أوكسيرنخوس، البهنسا اليوم

البهنسا هى قرية تقع على قناة يوسف ـ تقريبًا ـ تحت خط هاجرة المنيا، وقد احتلت مكان مدينة قديمة كانت تقع غربى قناة يوسف وغطت الرمال القادمة من ليبيا كل أطلالها تقريبًا ولم يعد من الممكن قياس مداها، وتوجد ـ أيضا تحت الرمال مدينة أخرى كانت قد أنشئت بعدها على مسافة أقرب من

---

(١) فوق أبي جرجة وفي الجبل العربي هناك كتلة ضخمة منفصلة عن بقية السلسلة وتوجد فوق الكثبان وهي غريبة الشكل وتصلح جيدًا لأن تكون مقبرة، وما لم تكن قد تكونت نتيجة استغلال الجبل ينبغى أن نعتبرها قمة صخرة قد أحاطت الرمال بقاعدتها. وعلى بُعد هناك كتلة أخرى تظهر فوق الكثبان ، وهي تكون ناحية الشمال شكلاً أكثر غرابة ويذهب لمشاهدتها الرحالة؛ إنها تصور شكل رجل راكعًا يصلي وهي من فعل الطبيعة، وهذه الصخرة تقع بمواجهة قرية أبي بقرة الصفيرة. انظر لوحة رقم ٧، المجلد الأول شكل ١ الدولة الحديثة .

قناة يوسف، وأخيرًا فإن هذا الوابل من الرمال يجتاح منازل القرية الحالية التى تقع على الضفة اليسرى لبحر يوسف بشكل متزايد، كما أن السكان يتعرضون للنهب من قبل البدو وهذه آفة أخرى تصاحب العواصف الرملية؛ ذلك لأن الصحراء هى أرض البدو وكلما هبت على الأراضى الزراعية فإن البدو يأتون فى ركابها. ويبدو أن كل هذا القطاع من الإقليم قد فقد أراضى زراعية كثيرة لنفس هذا السبب؛ ولولا بحر يوسف لكانت الصحراء قد تقدمت بصورة أكبر داخل السهل، ولكان الجزء الأكبر قد أصبح ضحية جدب رهيب.

ونجد فى الأطلال أجزاء كثيرة من أعمدة حجرية من الجرانيت والرخام، وقد نقل منها المسلمون كميات كبيرة داخل مساجدهم التى كانت فى الأصل كنائس قديمة. وبين البقايا التى مازالت مرئية فى موقع المدينة القديمة، وعلى بعد مسافة ما داخل الصحراء نلاحظ وجود عمود كورنثى قائم ذى حجم كبير وهو يظهر بالكامل فوق الرمال، وقد ظل تاج العمود فى مكانه ويحمل جزءًا من السقف ويبلغ ارتفاع هذا العمود ثمانية أمتار تقريبًا. و يبدو هذا الأثر بالأحرى رومانيًا وليس إغريقيا، ولا توجد أية آثار مصرية فى هذا المكان. ولو كان بالإمكان إجراء حفائر فى هذه الأطلال لوجدنا دون أدنى شك عددًا كبيرًا من الآثار المصرية القديمة والإغريقية والرومانية باعتبار أن مدينة أوكسيرنخوس قد تعرضت أكثر من أية مدينة أخرى لتقلبات هذه الفترات ووقعت تحت سيطرة أحداثها المختلفة؛ إلا أنه ينبغى أولاً أن نثبت أن البهنسا تقع فى نفس الموقع.

وحسب بطليموس، تقع أوكسيرنخوس فى موقع وسيط على خط عرض ٥٠َ ٢٨ْ، وحسب هرقل فهى تقع شمالى سينوبوليس، وتحدد " رحلة أنطونيانوس " موقعها على بعد ثلاثين ميلاً من إيبو. وهكذا يشرح استرابون بعد أن ذكر إقليم هيراكليوبوليس وسينوبوليس: " فى منطقة نائية تقع مدينة أوكسيرنخوس وكذلك المقاطعة التى تحمل نفس الاسم. وسمك القنومة كان يقدس داخل معبد فى هذه المدينة، بالرغم من أن بقية المصريين القدماء كانوا - أيضًا - يقدسون هذه السمكة، وهناك الكثير من الحيوانات التى يقدسها جميع المصريين، ومن بين

الحيوانات البرية هناك البقرة، الكلب، والقطط. ومن بين الطيور هناك الصقر وأبو منجل. ومن بين الأسماك هناك سمكة البلطى والقنومة[١]."

ودرجة خط العرض التى تقع عليها البهنسة تقل عن تلك التى حددها بطليموس؛ إلا أن موقع أوكسيرنخوس - حسب " بيان رحلة أنطونيانوس " - صحيح. وثلاثون ميلاً رومانيًا تعادل تقريبًا أربعة وأربعين ألفًا وخمسمائة متر؛ ونجد منها حوالى ستة وأربعين ميلاً ما بين البهنسا وطحا العمودين التى تقابل إبيوم أو إيبو[٢].

وتنطبق الأطلال الموجودة شمالى هذه القرية الأخيرة بشكل أدق على البهنسا. وهناك دليل إثبات آخر؛ ألا وهو أن اسم البهنسا مازال يطلق على هذا الإقليم، مثلما كان يطلق اسم أوكسيرنخوس على الإقليم القديم. وأخيرًا، فإن هذا الموقع كان - دائمًا - عاصمة للكنيسة المصرية منذ العصر الذى اعتنقت فيه أوكسيرنخوس الديانة المسيحية.

وتصور الأثار المصرية كثيرًا سمكة القنومة، ونستطيع التعرف على هذا النوع من الأسماك من خلال فمها المدبب وهو ما يعبر عنه الاسم المطلق عليها[٣]، ولا نرى - فقط - هذه الأسماك منقوشة ومصورة بين حروف الهيروغليفية فى المعابد وفى المقابر[٤]؛ ولكن نجدها أيضًا على شكل تماثيل برونزية، وقد جمع هواة الأثار بعضًا من هذه التماثيل ذات أحجام كبيرة[٥]، وأخيرًا فإن هذه السمكة تظهر كثيراً فى المخطوطات المصرية[٦]، ولا يثير الشك أن تكون هذه السمكة - وفقًا لشواهد عديدة - قد لعبت دورًا فى الديانة المصرية؛ ولكن ماهو هذا الدور؟ إذا ما افترضنا أن السمكة - أكثر الحيوانات غباء - كانت تعبد كآلهة حارسة

---

(١) استرابون ، الجغرافيا ، الكتاب ١٧ ، ص ٥٥٨ .

(٢) انظر الفصل الرابع عشر ، المبحث الرابع .

(٣) حاد : acutus وفم الحيوان nasus.

(٤) انظر لوحة رقم ٨٧ المجلد الثالث.

(٥) في مكتب السيد ترسان رأيت تمثالاً لإحدى هذه الاسماك من البرونز يبلغ طوله حوالي ستة أصابع.

(٦) انظر اللوحات رقم ٧٢ حتى ٧٥ ، المجلد الثاني.

فسيكون ذلك عبثا، وسأعطى دليلاً غير قابل للنفى وهو مثال مدينة إسنا؛ لقد ثبت اليوم أن سمكة البلطى لم تكن تعبد فى المدينة التى تحمل اسمها، وصالة معبد إسنا الرائع لا تحتوى على صورة هذه السمكة، وعلى العكس، فإن أوزيريس أو الشمس التى ترتدى قناع الكبش موجود فى هذا المعبد بكافة أرجائه ؛ ويحتل المكان الرئيسى أعلى البوابة الكبيرة للمعبد. وقد أطلق الأغريق على هذه المدينة اسم لاتوبوليس لأسباب لا نعرفها، وهو نفس الحال بالنسبة لمدينة أوكسيرنخوس. وسوف اسمح لنفسى - فى إطار من الشك - بتفسير يماثل ذلك الذى قمت به حول التمساح[١].

ووجود هذه المدينة الأخيرة البعيدة جدًا عن النهر[٢]، كان يتطلب لزامًا أن تتم العناية الشديدة بالقناة التى يطلق عليها اليوم اسم يوسف ؛ فإذا ما سُدَّت فإن سمكة القنومة وكذا الأسماك الأخرى لم تكن تستطيع الوصول إلى هذه المدينة، وقد كانت هذه السمكة تظهر مع الفيضان ؛ فقد كانت رمزًا للنيل ولذا ربما كانت تحظى بشكل ما - مثلها مثل النهر - بالتقديس عند الناس.

ومدينة أوكسيرنخوس كانت تتمتع بشهرة كبيرة بأديرتها وبكنائسها حتى أننى لا أستطيع أن أتجنب الحديث عنها؛ وذلك بالرغم من أنه لم يعد يوجد اليوم فى البهنسة أية كنائس أو أديرة. وأجد وصفًا عجيبًا لها وسط آثار الكنيسة الإغريقية فى "تاريخ رهبان مصر" وهو كتاب لمؤلف مجهول يقول : " لقد زرنا أوكسيرنخوس وهى مدينة فى الصعيد بها عجائب لا يمكن إتمام الحديث عنها. فهى تمتلئ بالأديرة حتى أن جدرانها تبدو وكأنها تنطق بشدو الرهبان[٣]، وتحيط بها - أيضا - الأديرة من الخارج حتى وكأنها مدينة أخرى ويمتلئ المعبد وكذلك مقر السلطة - أيضًا - بالأديرة، وكان الرهبان يسكنون فى جميع الأحياء.

---

(١) انظر وصف إقليم الفيوم الفصل السابع عشر.

(٢) حوالي ثلاثة وعشرين ألف متر .

(٣) باليونانية وهي تعنى " يذيع " " ينشر الصوت " أو " يخرج " ؛ وقد اتبعت الترجمة الأولى تمامًا مثل المترجم الذي نقل هذا المقطع إلى اللاتينية على النحو الآتي :

«Utmuriexipsis personent monachis».

وباعتبار أنها مدينة كبيرة فتوجد بها اثنتا عشرة كنيسة يتجمع فيها كل الشعب، بالإضافة إلى الكنائس الصغيرة التى توجد داخل كل الأديرة. عدد الرهبان يفوق عدد العلمانيين ؛ فهم يسكنون كافة المداخل وفى أبراج أبواب المدينة. ويقول هؤلاء الرهبان إن عددهم يبلغ حوالى الخمسة آلاف ومثل هذا العدد خارج المدينة، وليست هناك ساعة من ساعات الليل أو النهار لا يقومون فيها بواجبهم الدينى. وليس من بين سكان المدينة وثنى أو زنديق واحد ؛ فكلهم مؤمنون وراغبون فى الموعظة ويوجد على أبواب المدينة وفى الشوارع رجال مهمتهم تقديم العون للغرباء المساكين الذين يظهرون - حسبما علمنا من أسقف المدينة - فإن لديه عشرة آلاف راهب وعشرون ألف عذراء، ولا يمكننا أن نصف ضيافتهم وإحسانهم؛ فقد كانوا يجذبونا من معاطفنا حتى أنها كانت تتمزق[١]."

وتنسب هذه القطعة إلى بالاديوس وتوجد فى نهاية كتابه الذى كتبه عام ٤٠٧، كما أن روفان الذى كتب عام ٤١٠ قام بترجمة نفس المؤلف. وهكذا، فقد كانت لاتزال توجد فى مدينة أوكسيرنخوس فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس نخبة كبيرة من الرهبان والراهبات، ومن الكنائس والأديرة. ووفقاً لمقدمة نفس القطعة، كانت توجد فى مصر فى هذا العصر أعداد كبيرة من الرهبان من كل الأعمار داخل البلاد وفى الصحراء وفى الكهوف على السواء، ولم يكن من الممكن حصرهم حتى أنه «ليس هناك من أمير على وجه الأرض استطاع أن يمتلك جيشًا بنفس هذا العدد، ولا يوجد داخل مصر ولا فى الصعيد قرية أو مدينة ليست محاطة بالأديرة مثلما هى محاطة بالجدران[٢]».

---

(١) ويعني بالعربية : «لقد ذاعت أصوات الرهبان أنفسهم خارج السور»

(٢) يقدم المؤلف وصفًا عجيبًا للانعزال الذي كان يعيش فيه الرهبان؛ إنهم بعيدون عن كل أشكال العناية الدنيوية، ويدهشون عندما يسمعون الحديث عن أمور معاصرة؛ فهم لا يهتمون إطلاقاً بملبسهم أو بمأكلهم، وينشغلون طوال الوقت بالإنشاد في مدح الرب، أو هم في حالة انتظار لقدوم المسيح. إذا شعر أحدهم بأية حاجة فإنه لا يتوجه إلى المدينة ولا إلى القرية إنه لا يتوسل =

وعند بالاديوس نجد قصص المعجزات التى تنسب إلى هؤلاء القديسين، ونجد - أيضًا - وصفًا مميزًا لدقته فى وصف الآلام والمتاعب والمغامرات التى كانوا يعانونها عند ترحالهم فى الصحراء وفى وادى مصر وهى حوادث مازلنا نصادفها اليوم - أيضًا - وهى موجودة عبر كل الأزمنة(١).

ولقد قمت هنا بسرد التفاصيل حول أديرة أوكسيرنخوس وضواحيها؛ لأننى كنت قد قمت من ذى قبل بحصر شديد الصعوبة للأديرة التى رأيتها فى مصر

= إلى أخ أو صديق أو قريب أو أب أو ابن أو خادم؛ بل يرفع يديه إلى السماء ويتوجه إلى الله بالحمد ثم ينال ما يلزمه. وماذا يمكن القول عن إيمانهم بالمسيح الذي يجعلهم قادرين على تحريك الجبال ؟ لقد استطاع كثير منهم إيقاف تقدم المياه وعبور النيل سيرًا على الأقدام وهزيمة الحيوانات المفترسة وشفاء المرضى أو الإتيان بمعجزات تقارن بتلك التي أتى بها القديسون والأنبياء والحواريون.

وقد عثرت في مدونة ثيودوسيوس على تفاصيل أخرى عجيبة حول كثرة الرهبان المصريين الذي يميشون في مصر تحت حكم الامبراطور فالنس وأولئك الذين يتبعونهم في الصحراء : إن قانون "فالنس " في مواجهة معارضة العزلة وراغبي السرية يأمر بالحرمان من الخدمات التي تقدم للمواطنين منهم ومعهم كذلك المنعزلون المجتمعون ، فهم يحرمون من مشاهدة الاحتفالات الدينية. وكذلك المطاردون في المخابئ ويستدعون إلى المكاتب الحكومية .. لقد كان أمرًا شائعًا في مصر أن يمارس الأفراد الرهبنة طوال حياتهم، وكان عدد كبير منهم - أى من أفراد الشعب - موجودًا في المدن ، وفي الأغلب كان الكثيرون من الرهبان يتواجدون في الأماكن المهجورة (مؤلف سير أبوللونيوس) .. ومما لا شك فيه أنهم كانوا يجتمعون في احتفال لتوزيعهم كل بمفرده وكان لكل منهم زنزانته ..

ويأمر الإمبراطور بأن يدفع الرهبان في الحرب ذلك في عام ٣٧٥ (قائمة ثيودوسيوس المجلد الخامس ، ص ٣٢٣ ليبزج ١٧٣٦).

(١) في جنوب الصعيد ناحية أسوان هناك رجال جديرون بالإعجاب يقومون اليوم بإحياء الموتى ويمشون فوق الماء مثل القديس بطرس. وخوفنا من هجوم اللصوص بعد أسيوط قد منعنا من زيارة هؤلاء الرجال القديسين. ولقد ظننا أننا سنموت جوعًا وعطشًا بعد أن قطعنا خمسة أيام وخمس ليالي في الصحراء. وفي مرة أخرى تقطعت أقدامنا وعانينا من آلام بشعة عندما سرنا فوق أرض مليئة بالتعرجات. والغوص في الطين أو في المستنقعات أو في مياه النيل ، والسير في الأراضي الغارقة ، واللصوص الأعراب ، والبرد في صحاري مصر ، وأخيرًا هجوم التماسيح ؛ تلك هي الحوادث التي كانوا يصادفونها خلال ترحالهم. (بالاديوس ص ١٦٨ إننى أختصر هنا كثيرًا هذه القصة الغريبة حيث وجدت حدثًا جديرًا بالملاحظة وهو أن هؤلاء الرحالة كانوا عندما يعبرون الأراضي المغمورة بالمياه لا ينجون من المخاطر إلا عندما يصلون إلى منابع القنوات هنا فقط لم تكن تغمرهم المياه. عندئذ ومثل اليوم ، كانت ضفاف النيل؛ حيث توجد فتحات القنوات تعلو عن سطح الأراضي. ولقد رأينا في كل مكان أن أطراف أو وسط الوادي دائمًا ما يكونون أقل انخفاضًا من ضفاف النهر.

الوسطى؛ ولكن دون أن أتناول أية تفاصيل، منتظرًا الفرصة لكى أتحدث فى هذا الشأن بخصوص هذه المدينة التى تمثل النموذج الأكثر عجبًا الذى يمكن أن يذكر، وقد وصفت تفاصيلاً أخرى فى الهوامش.

وحتى أختتم ما يتعلق بمدينة أوكسيرنخوس سوف أذكر الاسم الذى يطلقه الأقباط على هذه المدينة[1] وهو بيمدج أو بيمسج. وقد كانت هناك ميداليات تصك لمدينة ومركز أوكسيرنخوس فى ظل حكم أنطونيوس[2] ويقرأ عليها بوضوح كلمة (Prnxi) ولسوء الحظ فإن وجه الميدالية الخلفى لا يحمل أى رمز يرتبط أدنى ارتباط مع عقيدة هذه المدينة، وهذا الرمز هو عبارة عن صورة الإلهة مينرف تتسلح بفأس وتحمل فى يدها اليسرى تمثالاً. ولا نرى فى هذه الميداليات صوراً لأية حيوانات ولا لأى شىء من الطراز المصرى.

المبحث الثالث : فنشى ـ الفشن اليوم تاكونا ـ تسمى اليوم شنرة

جاء ذكر فنشى فى " جدول ثيودسيوس " كمدينة تقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً من هيراكليوبوليس وعلى بعد عشرين ميلاً من تامونتى. ووفقًا لما قلت سابقًا، فالطريق المذكورة فى " جدول ثيودسيوس " تقع على الضفة اليسرى للنيل، وينبغى بهذا الشأن أن يتم البحث عن فنشى على هذه الضفة، وسوف نجد عليها قرية الفشن الكبيرة التى تحمل نفس الاسم، ونرى فيها آثارًا قديمة، وهو مكان أكبر مساحة من أبى جرجة. وبقيت مقارنة المسافات الجغرافية. ولا ينبغى إلى أن أستند إلى موقع تامونتى باعتبار أننى قد قمت بتحديده استنادًا إلى موقع فشن؛ ولكننى سوف أبدأ من هيراكليوبوليس التى كانت ـ دون أدنى شك ـ فى نفس نقطة قرية أهناسيا الحالية بالقرب من بنى سويف كما سنرى فيما

(١) انظر كاترمير ، دراسات تاريخية عن مصر، وفي هذا الكتاب توجد تفاصيل عجيبة عن بهنسا انظر أيضا: البهنسا ، المجلد الأول ص ٢٥٤ .
شامبليون ، مصر أثناء حكم الفراعنة ، المجلد الأول ص ٣٠٥ .
(٢) انظر لوحة رقم ٥٨ ، المجلد الخامس.

بعد. وهناك ثلاثة أماكن متجاورة تحمل كلها نفس الاسم: الأقصى شمالاً يقع على بعد سبعة وثلاثين ألف متر من الفشن - أى أن سبعة وثلاثين آلف متر تمثل بالتحديد خمسة وعشرين ميلاً رومانيًا، ولا يمكن أن يساورنا الشك فى أن مدينة فنشى لم تكن توجد فى نفس موقع الفشن.

و" بيان رحلة أنطونيانوس " لم يقم بذكرها نظرًا لأن الطريق التى سلكها يمر على نفس المستوى بموقع تاكونا.

وحسب " بيان الرحلة " تقع مدينة تاكونا على بعد أربعة وعشرين ميلاً شمالى أوكسيرنخوس وعلى بعد عشرين ميلاً جنوبى كونى. وحتى لا أستند سوى على أوكسيرنخوس سوف أبحث على بعد أربعة وعشرين ميلاً رومانيًا التى تعادل تقريبًا خمسة وثلاثين ألفًا وخمسمائة متر من البهنسا عند نقطة ما يمكنها أن تمثل الموقع المطلوب. والفرجار يشير على وجه الدقة إلى شنره، بين الفشن وبحر يوسف، ويظهر بوضح أن هذا الاسم هو نفسه اسم شنرو، وهى مدينة تم ذكرها عند أتيان البيزنطى؛ وإضافة إلى ذلك فإن شنرو تمثل - وفقاً للأقباط - اسمًا لمدينة قديمة تابعة لإقليم أوكسيرنخوس[1]، وجائز جدًا أن تكون تاكونا وبسينروس متطابقتين وأن هذه المدينة كانت تقع فى نفس المكان حيث توجد شنره.

---

(١) انظر " ملاحظات حول جغرافية مصر " تاليف . كاترمير ص٣٦ و " مصر أثناء حكم الفراعنة " شامبليون، الجزء الأول ص٣٠٦ .

القسم الرابع
هيراكليوبوليس

هيراكليوبوليس هو أحد الأقاليم التى رسم المؤلفون حدوده بدقة، ونجد أن اثنان من الجغرافيين قد تحملا عناء وصف شكله وحدوده. وبعد أن قام بتسمية منف وأكانتوس يقول بطليموس : " بجانب المكان الذى ينقسم فيه النهر ليشكل جزيرة تقع فيها هيراكليوبوليس ـ وداخل الجزيرة نفسها ـ توجد مدينة نيلوبوليس وهى وسيطة. وتقع العاصمة هيراكليوبوليس ماجنا (الكبيرة) غربى النهر ؛ أما إقليم أرسينويت فيقع غربى الجزيرة[١].

ويذكر استرابون : «بعد إقليم أفروديتوبوليس يأتى مركز هيراكليوبوليس داخل جزيرة كبيرة، وبطول هذه الجزيرة تقع على اليمين ـ تجاه مركز ارسينويت ـ قناة ذات فتحتين ؛ مما يقطع فى منطقة ما من امتداد الجزيرة». وكان قد قال سابقا : «ينساب نهر النيل بامتداد أربعة آلاف غلوة فى نفس الاتجاه وفى مجرى واحد هذا إذا لم تكن تقطعه من حين لآخر بعض الجزر وأهمها تلك التى تحوى مركز هيراكليوبوليس... إلخ»[٢].

وإذا كنا لا نعرف البلاد معرفة جيدة فسيكون من الصعب أن نوفق بين هذين المقطعين حتى إن كنا نفهمهما ؛ إلا أنه ليست هناك أدنى صعوبة بالنسبة لمن قام بدراسة المكان. والنيل وكذا قناة يوسف يحيطان الجزيرة بطولها وبالتالى بهيراكليوبوليس. وبعد اللاهون تستمر قناة يوسف ـ أيضًا ـ فى الانسياب عند

---

(١) انظر بطليموس، الجغرافيا ، المجلد الأول ، الكتاب الرابع ص ١٢٠ .

(٢) استرابون ، الجغرافيا ، الكتاب ١٧ ، ص ٥٥٦ . لقد سبق وأن ذكرت هذه الأجزاء وكذا النص الذي يفسرها في دراستي عن بحيرة موريس .

السلسلة الليبية عرضيًا، وهذه الجزيرة تنتهى فى الجنوب عند القناة التى تمتد من هريشنت حتى قناة يوسف، وتنتهى شمالاً عند القناة التى تنبع من زاوى[١]. والقناة التى تقع يمين الجزيرة[٢] لها ـ حسبما يقول استرابون ـ فرعان ثم مصبان، ونستطيع التعرف هنا على بحر يوسف الذى ينقسم إلى فرعين عندما يصل إلى اللاهون مثلما قلت الآن، وأحد هذين الفرعين يمر بالفيوم، أما الآخر فيجرى بطول الجبل الليبى ناحية منف، وهذا التحول يقطع بشكل ما جزيرة هيراكليوبوليس ـ مثلما يقول الجغرافى ـ وهكذا فإن وصف إقليم هيراكليوبوليس لا يتيح أدنى شك حول موقعها الجغرافى أو حول شكل أراضيها؛ ونفس الشىء بالنسبة لامتدادها على الأقل ناحية الشمال، وربما تنتهى الجزيرة جنوبًا بقناة أخرى مجاورة وليس بقناة هريشنت مثل قناة منقطين أو تلك التى تقع جنوب ببا وآلى وترتكز على سد صفت راشين؛ ولكن هذه النقطة لا يمكن أن تحدث اختلافًا ملحوظًا حول الموقع، وقد أنسدت هذه القنوات الصغيرة بفعل الزمن بحيث يصعب التمييز بينها. وموقع قناة هريشنت الذى يمر بين شنره الواقعة فى إقليم أوكسيرنخوس وبين نيلوبوليس فى إقليم هيراكليوبوليس يمكن أن يعتبر صحيحًا بالنسبة للحد الجنوبى؛ إلا أنه يمكننا أن نقف ـ أيضًا ـ عند قناة ببا.

والإقليم الذى يعنينا كان يتكون من خمس مدن كبرى هى: نيلوبوليس، هيراكليوبوليس ماجنا الكبرى أو عاصمة الإقليم، كونى، بوزيريس وإيزيوم.

المبحث الأول : نيلوبوليس.. بالقرب من طرشوب

وفقًا لبطليموس ـ كانت مدينة نيلوبوليس تقع جنوب مدينة هيراكليوبوليس الكبرى على بعد ١٠ ° كانت توجد داخل الأراضى[٣]؛ وباعتبار أن هذه هى المسافة الجغرافية الوحيدة التى يمكن أن نستعين بها من أجل تحديد مكان

---

(١) انظر ما يأتي القسم السادس المبحث الثاني .

(٢) أي غربيًا ، وقد كان ذلك يمثل اليمين عند استرابون الذي كان متجهًا نحو طيبة.

(٣) نيلوبوليس : خط عرض٢٩° ، هيراكليوبوليس الكبري : خط عرض ١٠ َ ٢٩° (بطليموس ، الكتاب الرابع ص١٢٠ ص١٢١).

نيلوبوليس، فسوف أقوم بالبحث عن هذه المدينة جنوب أهناسيا على بعد $\frac{1}{6}$ درجة - أى ثمانية عشر ألف وخمسمائة مترا)، وهذا القياس يقع ما بين قريتى أبى شوريان وطرشوب، وسط المساحة التى تروى بمياه النيل ومياه قناة يوسف، شمال غربى قرية ببا الكبيرة.

واسم طرشوب له شكل مصرى، ويمكننا أن نذكر فى جنوبى مصر اسم طارشيبى و هو كفر يتبع تل الفراعين[١]. وقد حدد دانفيل موقع نيلوبوليس - افتراضيًا - عند ميدوم بعيدًا فى الشمال وحتى أبعد من حدود الإقليم أى على مسافة تزيد على خمسة وستين ألف متر. وبطليموس هو المؤلف الوحيد الذى يذكر هذه المدينة، ولم يكن هناك من سبب لأ لا نستعين به ويضيف هذا المؤلف أن نيلوبوليس كانت تقع قرب النقطة التى ينقسم عندها نهر النيل من أجل أن تتكون جزيرة هيراكليوبوليس، وإذا ما اعتبرنا أن هذه المدينة تقع إلى جوار طرشوب؛ فإننا نفضل أن نتوقف عند القناة التى تقع جنوبى ببا من أجل تحديد الحدود الجنوبية للجزيرة ولإقليم هيراكليوبوليس.

وسوف نبحث دون جدوى فى الاسم الإغريقى - تمامًا - لنيلوبوليس عن أية إيضاحات حول عقيدة هذه المدينة القديمة أو حتى عن موقعها الجغرافى، ومن ناحية أخرى فإن كل مدن مصر كانت تقدس نهر النيل، كما أن بطليموس يقول إيجابيًا بأن هذه المدينة كانت بعيدة عن النهر[٢].

ونجد فى " تاريخ هرقل " مدينة نيكوبوليس من بين مدن أركاديا ولا أفكر فى تصحيح هذا الاسم ليصبح نيلوبوليس.

---

(١) انظر : شامبليون ، مصر أثناء حكم الفراعنة ، المجلد الثاني ، ص ٢٣١ .

(٢) افترض شامبليون أن نيلوبوليس كانت تقع عند بوصير وهو اسم مشتق من أوزيريس ، رمز النيل؛ إلا أن بطليموس يعترض على تحديد مكان نيلوبوليس شمالي هيراكليوبوليس .

المبحث الثانى : هيراكليوبوليس الكبرى
أهناسيا حاليًا

كان هناك فى مصر مدينتان تحملان اسم هيراكليوبوليس، فالنعت المرتبط بكلمة هيراكليو أو هرقل قد أطلق ذاته على قنوات وعلى مصب لنهر النيل، وقد سبق وأن لاحظت أن كل الأماكن التى أطلق عليها هذا الاسم كانت كلها تقع على حدود الأراضى الزراعية، وقمت باستنتاج حول أصل هذا اللقب " هرقل " الذى أطلق على القنوات فى مصر[١].

وبعد أن قمت أولاً بالتعرف على موقع هذه المدينة ـ بشكل لا يتيح مجالاً للشك ـ سوف أقدم أسبابًا أخرى تؤكد رأيى.

يحدد بطليموس موقع مدينة هيراكليوبوليس ماجنا عند خط عرض ١٠َ ٢٩ْ، وفى أقدم المخطوطات القبطية تسمى هذه المدينة هنيس؛ ولذا فإننا نجد غربى مدينة بنى سويف وبالتحديد عند خط عرض ١٠َ ٢٩ْ مجموعة من القرى تحمل اسم أهناسيا حيث توجد أطلال؛ وبالإضافة إلى ذلك، فإن اسم أهناسيا ينطبق ـ دائمًا ـ فى الفهارس على كلمة هنيس.

وتقع هيراكليوبوليس فى " تاريخ هرقل " شمالى أوكسيرنخوس وفى " جدول ثيودسيوس" تقع المدينة على بعد ستة أميال رومانية من مدينة بطلمية وتسمى اليوم اللاهون ؛ وستة أميال تعادل ثمانية آلاف وتسعمائة متر وهى تمامًا المسافة التى تفصل بين اللاهون وأهناسيا الشمالية.

وحسب بلينى ـ فإن إقليم هيراكليوبوليس كان يشترك فى الحدود مع الفيوم، وكان سكان هيراكليوبوليس قد دمروا التيه وهى عمل لم يكن مستحبًا لهم. وأكتفى هنا بأن أذكر هذه الواقعة من حيث ارتباطها بالجغرافيا علمًا بأننى سوف أتحدث عنها من وجهات نظر أخرى فى وصف إقليم الفيوم ووصف التيه[٢]. وبما أن أهناسيا تقع على بعد ثمانية آلاف وخمسمائة متر ـ تقريبًا ـ من

---

(١) انظر وصف أنتيبوليس. الفصل الثانى عشر.

(٢) انظر وصف إقليم الفيوم الفصل السابع عشر القسم الثالث.

مـضيق الفـيوم؛ فـإن كل الشـواهد تتـفق دون اختـلاف على تحـديد مكان مـدينة هـرقل الكبرى عند قرية أهناسيا.

وكان يوجد فى هذه المدينة أسقفية وبجانبها دير كبير. واليوم نرى جنوبًا قرية تحمل اسم الدير مما يؤكد أنه كان هناك فعلاً دير فى هذا المكان.

ومن المثير للدهشة أنه لم يعد هناك وجود بكثرة للآثار القديمة فى هذه العاصمة؛ إلا أنه يمكننا تحديد امتدادها إذا ما قمنا بجمع الثلاث قرى التى تسمى أهناسيا ومنشأة أهناسيا التى ربما تكون قد احتلت مكانها وهذه المنطقة يبلغ عرضها ثلاثة آلاف متر. ومن الجانب الغربى كانت المدينة تجاور الفرع الذى يسمى بحر يوسف.

ويقول استرابون : إن سكان هيراكليوبوليس كانوا يقدسون حيوان النمس على عكس عقيدة أهل الفيوم الذين كانوا يقدسون التسماح. وكان النمس يعتبر من أخطر أعداء التمساح والثعبان؛ ويقال إنه يلتهم بيض التمساح وحتى عندما كان هذا الأخير يفتح فمه فإن النمس كان يسرع إليه ويلتهم أحشاءه[١]، وهـذه الرواية تعتبر اليوم من الأساطير مثل أسطورة طائر أبو منجل آكل الثعابين؛ إلا أنه ينبغى أن نتصور أنها تحمل رمزًا ما سوف نكتشفه يومًا ما عندما نتعرف بشكل أكبر على عادات سكان هذا المكان وبشكل عام عادات الحيوانات التى كان المصريون قد لاحظوها بدقة. وعلى كل حال، لقد تم تصوير النمس فى الكتابة الهيروغليفية التى تظهر فى المعابد وفى المخطوطات، ونراه منحوتاً كتمثال من البرونز كما ظهر - أيضًا - على ميداليات الأقاليم؛ إلا أنه لا يظهر على ميداليات إقليم هيراكليوبوليس مما يعتبر تفردًا ملحوظاً ؛ بل إن رأس هرقل هى التى تظهر على ظهر الميدالية[٢].

ونود أن نكتشف العلاقة التى تربط بين اسم مدينة هرقل وبين التقديس المزعوم لحيوان النمس. والمدينة كانت بالتأكيد تحوى معابد لهرقل - وأعنى هرقل المصرى - أى خونو أحد أقدم الآلهة المصريين مثلما يؤكد هيرودوت وماكروب

---

(١) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ٥٥٨.

(٢) انظر لوحة ميداليات الأقاليم رقم ٥٨، المجلد الخامس.

و- أيضًا - بلوتارخ[١]؛ ولكن هل كانت الصفات الرمزية لحيوان النمس ترتبط بعلاقة مع صفات خونو، وما هى دلالاتها المشتركة فى عقيدة هذه المدينة ؟ وأخيرًا، هل يمكننا أن نصل إلى بعض النتائج من التعارض الذى كان يوجد بين سكان هذه المدينة وسكان الفيوم وهو تعارض قد أدى - وفقًا لما يقول بلينى - إلى تدمير التيه؟ إذا لم يكن ممكنًا أن نجد إجابة تامة على هذه التساؤلات التى بدرت بذهن القارئ الفضولى؛ فإننا لا يمكن أن ننكر أحقيتها فى البحث ؛ وقد تغفر لى محاولتى أن أكشف النقاب الذى يخفى هذه الألغاز الأسطورية، ومعرفتى الخاصة بالمدينة التى هى مسرح هذه الأساطير سوف تكون بمثابة مرشد لى فى هذه المغامرة البحثية. ولدينا فى النهاية بعض الأمثلة للإيضاحات التى يمكن أن تقدمها الجغرافيا فى تفسير الأساطير المصرية.

كان خونسو حسبما قال ديودور الصقلى - أحد وزراء أوزيريس إله النيل، وكان أيضًا قائدًا لجيوشه. ويجب أن يفهم من ذلك - مثلما قلت من قبل[٢] - أن هذا الإله الثانوى كان رمزًا لكل تفريعات النهر ولكل الفروع والقنوات التى قام السكان بشقها من أجل سد النقص فى مياه النيل. وكانت قوة هرقل المصرى تكمن فى قدرته على إيقاف غزو الرمال وعلى محاربة الصحراء وعلى زحزحة حدود الأراضى الزراعية إلى الخلف - أى حدود الإمبراطورية المصرية. لقد كان إلهًا دائم الانشغال بقهر أعداد الدولة وبالتنبؤ بالجدب وبالحفاظ على الرخاء؛ وكيف لم يحظ بالتكريم مثل تحوت أو هيرمس، وهى شخصيات رمزية يعود إليها اكتشاف العلوم والفنون النافعة؟

ولكن لماذا تم تكريمه فى هيراكليوبوليس أكثر من أى مكان آخر بما أن مصر كانت تكتظ بالقنوات ؟ إن كل ما قلت بشأن كل الأماكن التى تحمل فى مصر اسم

(١) انظر وصف أنتيبوليس، الفصل الثاني عشر.
(٢) نفسه.

هرقل أو حتى النعت المتشق منه هركوليان يجيب عن هذا التساؤل. ولم تكن القنوات الداخلية هى التى تبرز قدرة خونسو بل القنوات الملاصقة للصحراء، وهناك كان يحارب طوفان الرمال وهناك كان يستحق المعابد. وإذا كانت هناك مدن تحمل اسمه عند مدخلى مصر من ناحية الشمال بالقرب من بيلوز وكانوب فكيف أمكنهم نسيانه فى هذه المنطقة الغربية حيث كان حوض الفيوم فى العصر الذى كان لا يزال فيه فريسة الصحراء يلقى فى مصر بشلالات من الرمال من فتحة واسعة ؟ فى هذا المكان كانت كل من مصر وليبيا تغطى تباعاً إما بالرمال أو بمياه نهر النيل. وكان السهل الأكثر اتساعًا ـ ليس فقط فى مصر الوسطى بل فى الصعيد بأكمله ـ مسرحًا لهذه المعارك دائمة التجدد حيث كانت الزراعة تخسر من الأراضى أكثر مما تكتسب[1]. وذراع قديمة للنيل ـ الذى ينساب دون انتظام بطول الجبل الليبى وربما يجف فى وقت ما من السنة خاصة خلال الربيع وهو فصل يكون فيه مستوى المياه الأكثر انخفاضًا ورياح ليبيا أشد عنفًا ـ أو فرع ضعيف للنيل لم يكن بإمكانهما إيقاف غزو الرمال القادمة من الفيوم؛ ولذلك أعتقد أنه تم حفر وتوسيع هذا الرافد الكبير سواء عند مصبه أو بطول مجراه؛ ولذلك صارت المياه تنساب فيه بوفرة طوال العام وفى جميع الفصول وأصبح عمق القناة يمثل للرمال عائقًا لا تستطيع أن تجتازه؛ وكان ذلك انتصارًا لخونسو، وعندما اختص المدينة العاصمة بهذا العمل الصالح فقد أقامت له المعابد. أما صفة «كبيرة» الذى تحمله مدينة هيراكليوبوليس مما يميزها عن مدينتين أخريين بنفس الاسم تفيد أهمية التغيرات التى طرأت على الأراضى التى أصبحت منذ ذلك الوقت تأمن هذه الكارثة وتكتسب كل يوم مزيد

---

(١) يبلغ عرض الوادى بين بنى سويف واللاهون أكثر من عشرين ألف متر. وعندما تتجه من بنى سويف إلى الفيوم فإن الأفق يحجب عن النظر كل هذا الاقليم حتى هرم الفيوم مختفى أيضا. والسهل مازال حتى اليوم شديد الخصوبة، ويزرع فيه عادة الفول بعد أن يتم جمع محصول الحبوب أما البهنسة فهى أكثر بعدًا عن النيل.

من الخصوبة، وهذه المدينة الكبيرة بل والإقليم بأكمله لم تكن - من وحى الديانة المصرية - لتقدم عرفانًا إلا لصاحب هذا العمل الصالح.

وكيف لأهالى هذه المدينة أن يكنوا كراهيته للتماسيح التى يقدسها جيرانهم فى مدينة الفيوم ؟ وستضح هذه الكراهية للقارئ إذا ما أراد الوقوف عند العصر الذى تم فيه حفر قناة من أجل رى أراضى إقليم الفيوم؛ فبينما كان أهالى هيراكليوبوليس ينعمون بمزايا القناة الكبيرة التى تحدثت عنها لتوى كان حوض الفيوم نهبًا لرمال الصحراء ومحكومًا عليه بالجدب المطلق. وكانت الصناعة النامية للمصريين تقوم دائماً بغزوات جديدة فى الصحارى، وكان نطاق الرمال يتراجع كلما اتسع نطاق أوزيريس. وقد تخيل ملك ذو شهرة أبدية حفر خانق الفيوم حتى مستوى الفرع الذى يجرى فيه، وبجهد جبار أصبح إدخال المياه فيه ممكنًا وقد انتشرت فى هذه المنطقة الجافة حيث لم تكن تعرف - منذ أزمنة أزلية - سوى المياه المالحة التى تسقط من الجبل فى البحيرة الشمالية. وقد قام سيد مياه النهر - موريس - بتقسيمها بين أجزاء التربة الأكثر صلاحية للزراعة، من خلال فروع لا تزال حتى اليوم تنال إعجاب الرحالة، ثم قام بحمل الفائض فى هذا الملتقى الكبير.

وهنا أجد تفسيرًا للمشاعر التى يكنها أهالى هيراكليوبوليس لسكان الفيوم؛ إن هذا النزيف الضخم الذى حدث فى قناة هرقل التى تخصهم قد قلل كثيرًا من وفرة المياه فى مدينتهم وفقدت الأراضى من ثرائها ومن خصوبتها؛ فالتمساح الذى يقدسه بالتحديد أهالى الفيوم كرمز للمياه الحلوة التى أصبحوا يمتلكونها صار لأهالى هيراكليوبوليس حيوانًا كريهًا، ولم يكن ليدخل فى الإقليم الذى يحمل اسمه[1] دون أن يحضر معه المياه الثمينة التى فَقَدَ جزءً منها سكان مدينة هيراكليوبوليس. وأخيرًا فإن هؤلاء قد قاموا بتحطيم التيه؛ لأن جثث التماسيح المقدسة كانت تعلق به.

---

(١) انظر وصف آثار إقليم الفيوم الفصل السابع عشر، المبحث الثانى.

وهكذا لقد حاولت تفسير كل هذه القصة الطبيعية بنفس درجة كونها أسطورية لعقيدة هيراكليوبوليس وأرسينويه، ويبقى لى أن أقول كلمة بخصوص النمس الذى تقدسه المدينة الأولى وفقًا لما يقول سترابون. وهنا ينبغى الاعتراف بأننا لا نعرف جيدًا عادات النمس؛ ولكن إذا كان يجب أن نرفض من بين الأساطير تلك التى يسردها هذا الجغرافى لِمَ لا نقبل بعض الكراهية التى يكنها هذا الحيوان للتمساح ؟ هل كانت ستصبح أكثر عجبًا من تلك التى نراها بين بعض الحيوانات بين حيوانات تمشى على أربع وبين الطيور... الخ، إننى لا أريد أن أتصور أن الحيوان الذى تكرهه التماسيح كان مقدسًا لدى أهالى هيراكليوبوليس؛ فقط لأن هذه الزواحف كانت تلقى تقديسًا فى الفيوم.

وكان هرقل الرمز القديم والمقدس لديانة هيراكليوبوليس ماجنا والنمس الرمز الخاص للتباعد بين هذه المدينة وبين الفيوم.

وحتمًا، فإن معرفة الاسم المصرى القديم لهيراكليوبوليس الكبرى وكذا دلالته ستكون مجدية ذلك لأن الإغريق متهمون بأنهم قد فرضوا على المدن المصرية أسماء تعسفية ومستمدة من عقيدتهم أو من تاريخهم؛ وعلى الأقل فهم لم يرتكبوا هذا التزوير فى هذا المكان على اعتبار أن هرقل المصرى أكثر قدمًا من كل الآلهة الإغريقية وبخاصة من ابن الكمن[1].

المبحث الثالث: كونى - بنى سويف حاليا

تقود "رحلة أنطونيانوس" من إيسيو إلى أكسيرنخوس مرورًا بكونى، و إذا نظرنا فى الخريطة فمن السهل أن نرى أن الجزء الأول من هذه الطريق لا يبتعد عن النيل. وكانت كونى تقع - حسب رأيى - عند نفس النقطة على الضفة اليسرى للنيل التى توجد فيها اليوم بنى سويف عاصمة الإقليم الذى يحمل نفس الاسم.

---

(١) الاسم القبطى للمدينة لم يتم تفسيره بعد؛ إذ ينبغى معرفة معناه أولاً من أجل استنباط فكرة ما حول طبيعة العقيدة فى هذا الإقليم.

ووفقاً لرحلة أنطونيانوس ـ كانت المسافة بين ايزيو وكونى تبلغ عشرين ميلاً وهى نفسها ذات المسافة بين كونى وتاكونا، وهى مسافة تعادل حوالى تسعة وعشرين ألفًا وخمسمائة متر أو أكثر قليلا؛ بينما لا يفصل حاليًا بين زاوى ـ أى ايزيو القديمة وبين بنى سويف سوى ثمانية وعشرين ألف متر وهذا الفرق الذى يعادل تقريبًا ميلاً رومانيًا لايمثل عائقًا من أجل الاعتراف بالتطابق بين بنى سويف وكونى. والمسافة ستتفق جيدًا مع التحديد السابق إذا ما حددنا موقع كونى عند أهناسيا؛ إلا أن هذا المكان كان فى السابق موقع هيراكليوبوليس.

وكونى تبدو لى كموقعًا أكثر حداثة وقد يكون قد احتل مكان العاصمة بعدما تهدمت لقد كانت هذه المدينة ميناء هيراكليوبوليس واحتل الميناء مكان المدينة وجعلها منسية.

ورأيى يستند إلى مثال العرابة المدفونة التى تطل على النيل والتى حلت ـ أيضًا ـ مكان ابيدوس التى تبعد كثيرًا عن النهر، وقد أصبحت حتى فيما بعد عاصمة الإقليم. ألم تحتل المنيا بنفس الطريقة مكان هيرموبوليس؟ إلا أننى يجب أن أضيف دليلاً آخر مستمدًا من اسم المدينة نفسه؛ إن كونى هى كلمة إغريقية تعنى " الجديدة "، وكانت هناك مدينة أخرى قديمة فى الضواحى وهى بالتأكيد مدينة هرقل الكبرى.

وقد وجدت فى بنى سويف أعمدة من الجرانيت وكذلك أجزاء عديدة من الأثار القديمة تدل على أنه كانت توجد من قديم الزمان فى نفس هذا المكان مدينة مصرية أو إغريقية؛ إلا أن كثرة سكان هذه المدينة لاتسمح باكتشاف الأثار القديمة، والمساجد والمنازل قد بنيت فوق بقايا الأثار واستخدمت هذه الأثار نفسها فى البناء، ولن أخوض فى أية تفاصيل حول الوضع الحالى لمدينة بنى سويف بالرغم من وأننى أقمت فيها لمدة طويلة؛ فهذا الوصف لن يكون له أية علاقة بحالة المدينة القديمة، ولقد اكتفيت بأن أثبت أن هذه المدينة هى دون أدنى شك نفس مدينة كونى التى ذكرت فى رحلة انطونيانوس.

المبحث الرابع : ايزيو ـ زاوى حاليا، بوزيريس ـ أبوصير.. الخ

مثلما نعرف من استرابون ومن بطليموس كانت جزيرة هيراكليوبوليس تنتهى شمالاً عند إحدى القنوات ولقد تعرفنا على هذه القناة؛ إذ أنها تلك التى تتبع من النيل شمالى زاوى على بعد ثمانية وعشرين ألف متر شمالى بنى سويف وتصب فى القناة الغربية التى هى امتداد لبحر يوسف. وينبغى أن نحدد فى قرية زاوى موقع ايزيو التى كانت تبعد ـ وفقا لرحلة أنطونيانوس ـ بمسافة عشرين ميلاً رومانيا عن كونى، وبمسافة أربعين ميلاً عن منف مرورًا ببيمى؛ وهذا هو نفس الموقع الذى كان دانفيل قد حدده. ولقد رأينا لتونا أن زاوى تقع على بعد عشرين ميلاً رومانيًا من بنى سويف؛ ولذا فإننا نجد ـ أيضًا ـ عندما نمر بمكان يسمى المتانيه أربعين ميلاً تفصل بين زاوى وبين الموقع الحالى لمنف. ولقد لاحظت فى زاوى وجود بعض الآثار المصرية القديمة، واليوم فهى ليست سوى ميناء صغير على نهر النيل.

وهناك نوع من التطابق بين الاسم القديم والاسم الحديث، وربما يكون اسم زاوى ليس إلا ايزيو أو ايسيو المحرفة. وفى " تاريخ الامبراطورية " نجد ايزيو التى تقترب أكثر من زاوى خاصة عندما ننطق ايزيو وقد يسمح لى بفرضية فى هذا الموضوع. وكان المسلمون يعطون اسم "زاوية" لكل مصلى صغير أو للمساجد الصغيرة، ولا يطلق لفظ «جامع» إلا على المساجد الكبيرة. ولقد كان هناك بالتأكيد فى الماضى العديد من المقاصر التى كرست إلى لايزيس فمن اسم أيزيو ألم يشتق العرب خلال غزوهم البلاد هذا الاسم ليطلقونة على مساجدهم؟

وربما نتردد فى الجزم بأن مدينة ايزيو كانت تتبع إقليم هيراكليوبوليس، وزاوى تقع فعليًا شمال القناة العرضية؛ إلا أن السد الكبير فى هذه القرية، باعتباره يستخدم لحجز مياه نفس القناة ـ يدل على امتداد الأرض الخاضعة لنفس السلطة القضائية. وبالإضافة إلى ذلك ينبغى أن يمتد إقليم الجيزة ـ الذى احتل مكان إقليم منف ـ جنوبًا حتى زاوى؛ والحدود الجنوبية تقع عند قرية رقة.

وتوجد ما بين زاوى واللاهون قرية تسمى أبوصير الملق حيث نعتقد أنه كانت توجد مدينة قديمة. واسم أبوصير يطلق على أماكن كثيرة فى مصر وخاصة على تابوزيريس القديمة قرب الإسكندرية وهذا الاسم الأخير يعنى قبر اوزيريس ومن المعروف أن كثيرًا من المدن المصرية كانت تتنافس فيما بينها من أجل نيل شرف احتضان هذا القبر ليس - فقط - فيلة وأبيدوس ومدن أخرى كبيرة بل مدن ثانوية كثيرة. ولقد حاولت فى موضع آخر أن أفسر هذه التقاليد المتعددة[١]. وسوف أكتفى هنا بأن أقول: إن هذه العادات المختلفة تفسر جيدًا تعدد الأماكن التى تحمل فى مصر الحديثة اسم أبوصير. إن مثال مدينة تابوزيريس الكبرى التى كانت تقع غربى الاسكندرية والتى احتلت مكانها اليوم أبوصير تثبت أن العرب قد حذفوا بشكل عشوائى حرف التاء فى أول الكلمة اعتقادًا منهم أن لا معنى له ورغبة منهم فى استهلال الاسم بلفظ "أبو" وهو اسم متعارف عليه يوضع على رأس أسماء الرجال والأماكن.

وسوف أذهب لأبعد من ذلك وأضع فى نفس هذا التصنيف القرى التى يطلق عليها اليوم بوصير. ومثلما أضاف العرب بهدف التناغم الصوتى حرف الألف فى بداية الأسماء مثلما يؤكد ذلك أسماء " أسوان"[٢]، " إسنا"، "أخميم" ومدن أخرى؛ فقد قاموا أيضًا على العكس من ذلك بحذف حرف الألف من الأسماء ظنًا منهم أن الإغريق قد أضافوه، وقد فعلوا ذلك أيضًا بهدف اختصار الأسماء الطويلة نسبيا. ولقد تعرفنا خلال الحملة الفرنسية عدة مرات على العادة الموجودة لدى المصرين حاليًا بتحريف أسماء الأعلام الأجنبية بهدف تقريبها من الأسماء المألوفة لديهم.

وأختتم قائلاً بأن أبوصير الملق قد حلت محل موقعًا قديمًا أطلق علية الإغريق اسم تابوزيريس ربما عند المصريين القدماء، وهذه القرية تقع بالقرب

---

(١) انظر وصف ابيدوس. الفصل الحادى عشر. وفى أماكن أخرى.

(٢) انظر وصف أسوان، الفصل الثانى.

من هضبة صغيرة انفصلت عن السلسلة الليبية وحفرت فيها المقابر لقد وجدت هنا موقعًا قديما.

ولن أتحدث عن قرى مجاورة عديدة مثل " بوش" "زيتون" "كيمان العروس" ... إلخ، وقد حددت أماكنها على الخرائط الحديثة بالرغم من أنها تحمل أسماء توحى بإمكانية إيجاد علاقة بينها وبين الوضع القديم للمكان؛ وهذه التفاصيل تخص بشكل أكبر الجغرافيا البحتة.

القسم الخامس

إقليم كروكوديلوبوليس أو أرسينويه

إننى أذكر هنا - فقط - إقليم أرسينويه بغرض استكمال قائمة السبع مقاطعات التى تشملها الهبتانوميد . وسوف أحيل القارئ إلى الفصل القادم على اعتبار إننى قد تناولت آثار هذا الإقليم على حدة[١].

(١) انظر الفصل السابع عشر.

القسم السادس
إقليم أفروديتوبوليس

كان إقليم افروديتوبوليس يقع على الضفة اليمنى لنهر النيل بين بابليون شمالاً وإقليم سينوبوليس فى الجنوب. لقد رأينا فى القسم الثانى أن أقصى مدن هذه المقاطعة الأخيرة تجاه الشمال كانت آلى، وامتداد افروديتوبوليس كان يبلغ أكثر بقليل من درجة واحدة من خطوط العرض وحوالى ثلاثين فرسخًا على أرض الواقع؛ وذلك يرجع إلى شكل المنعطف الذى يرسمه النيل فى مجراه وسط هذا المكان، وهو نفس ترسيم إقليم أطفيح الحديث الذى يقع على الضفة الأكثر ضيقًا لنهر النيل. إقليم افروديوتوبوليس هو الأقل تميزًا من الناحية الطبيعية بين غالبية الأقاليم، والرمال القادمة من شبه الجزيرة العربية كانت تهدده وانتهت بأن غمرته فى مجمله؛ ولم تكن لتصدها أية قناة مثلما هو الحال فى الرمال القادمة من ناحية ليبيا التى أوقفتها القناة الغربية. ولا يبدو لنا أن هذا الإقليم قد لعب دورًا بنفس الأهمية كالذى لعبته الأقاليم الأخرى قديما. واسمه ـ كما نقله لنا الإغريق ـ لايعطى لنا أية ايضاحات فى هذا الشأن. وفى أسماء أخرى ترجمها أو حرفها الإغريق نجد أحيانًا دلائل تؤدى إلى اكتشاف العقيدة القديمة؛ ومن هنا فإن اسم مدينة فينوس لا يمثل لأول وهلة سوى فكرة عقيدة غريبة على مصر، ويقول استرابون إنهم كانوا يربون فى هذه المدينة بقرة مقدسة كما هو الحال فى منف. ما هى العلاقة التى كانت تربط بين هذا الحيوان وبين أسطورة فينوس؟! إن الاسم الحالى للإقليم ـ أطفيح ـ الذى يبدو أنه تبقى من الاسم

المصرى القديم؛ ربما يلقى بعض الضوء على هذه النقطة التاريخية وذلك حين نتعرف على دلالة الاسم المصرى المماثل[١].

المبحث الأول : «تيمونبسى» بالقرب من « بياض»

إننا لا نعرف مدينة تيمونبسى سوى من " بيان رحلة أنطونيانوس " و " تاريخ الامبراطورية" . وفى الرحلة تشمل الطريق الموازية للضفة اليمنى لنهر النيل هذا الموقع الذى يقع بين آلى وأفروديتو على بعد ستة عشر ميلاً من المدينة الأولى وأربعة وعشرين ميلاً من الثانية - أى أن هاتين المسافتين تمثلان نسبة اثنين إلى ثلاثة. والسهل الذى يقع أسفل بياض بمواجهة كونى القديمة أو بنى سويف يقع بالتحديد قبالة أطفيح أو افروديتوبوليس وموقع آلى الذى تم تحديده فيما سبق[٢] وفى التقرير الذى تطلبته الرحلة؛ تبلغ المسافتان خمسة وعشرين ميلاً وسبعة عشر ميلاً بدلاً من أربعة وعشرين ميلاً وستة عشر ميلاً؛ ولكن بما أن الموقع الذى كانت تقع فيه بالتحديد آلى ليس مؤكدا، وعلى بعد ميل تقريبا زيادة أو نقصانًا وأن السهل الذى يقع أسفل بياض يعتبر مهجورًا اليوم؛ فإننا نرى أن المسافات الحالية لا تختلف عما جاء ذكره فى "بيان رحلة أنطونيانوس " . وهكذا يمكننا أن نحدد موقع تيمونبسى على بعد خمسة آلاف متر جنوبى بياد دون أن نخشى خطأ ملحوظا. إن بياض هى قرية مسيحية مما يشير - أيضًا - إلى قربها من مدينة قديمة كانت قد اختفت تحت الرمال فيما بعد.

ومن هنا كانت تنقل إلى القاهرة شحنات الأحجار الجيرية التى كانت تجمع من الجبل المجاور لهذه القرية التى تقع على مدخل واد كبير يؤدى إلى البحر الأحمر؛ حيث تبدأ الرمال فى اجتياح السهل.

وعلى الرغم من أن الجغرافيين لم يذكروا - قط - تيمونبسى وأن رحلتين فقط قد ذكرتها؛ فإنه لاينبغى لنا أن نستخلص أن هذه المدينة ذات أصل رومانى

---

(١) انظر ما يأتى المبحث الثالثة.

(٢) انظر ما سبق القسم الثانى، المبحث الرابع.

وأنه لم تكن توجد فى نفس المكان مدينة مصرية، وأستند إلى أن الاسم اللاتينى نفسه يبدو كاسم مصرى محرف، ويبدو المقطع الأخير بسى كبداية كلمة مصرية غير مكتملة؛ بينما تمثل الثلاثة مقاطع الأخرى تيمون نفس كلمة ثمون أو تمون التى يجب أن تترجم وفقًا لأحد المستشرقين "بالميناء"(١)، وباعتبار أن بياض اليوم هى ميناء هذه المنطقة من الضفة اليمنى للنيل أعتقد أننا سنجد مطابقة أكبر للموقع الذى أحدده لتيمونبسى(٢).

المبحث الثانى : انجيرونبوليس أو أنسيرونبوليس

ذكر إيتان البيزنطى هذه المدينة وذكرها - أيضًا - بطليموس، وهذا الأخير يحددها على نفس خط عرض بطلمية وعلى بعد عشرين دقيقة جنوبى افروديتو. ولن نستطيع تحديد موقعها وفقًا لهذه المعطاة باعتبار أن المسافة من أطفيح حتى اللاهون أو بطلمية القديمة تبلغ اثنتى عشرة دقيقة تقريبا. والخلاصة الوحيدة التى أسمح لنفسى بها هو أن أتصور أن هذه المدينة كانت تقع فى ضواحى المكان المعروف اليوم على الخرائط باسم دير سان أنطوان الذى يقع على الضفة اليمنى أسفل الجبل العربى شمال اللاهون. ولاينبغى أن يختلط فى الذهن هذا المكان مع سان أنطوان الشهير الذى تحدثت عنه فيما يخص الابسترونوبوليس.

ومن ناحية أخرى، تقع بياد على بعد عشرين دقيقة جنوبى أطفيح بمعنى أنها توجد تقريبًا فى نفس النقطة التى حددنا فيها تيمونبسى. وأخيرًا يجب أن

---

(١) كاترمير، ملاحظات جغرافية حول مصر، المجلد الثانى، ص ٢٤٤ . ويرى شامبليون أن ذلك يقابل فى العربية كلمة " منيا " وهى كلمة منتشرة بين أسماء القرى المصرية " مصر أثناء حكم الفراعنة" المجلد الخامس ص ٢٩٨ ومهما يكن التفسير فإن افتراضي حول اسم تيمونبس يبدو صحيحا. وتيمون هى فى جميع الأحوال اسم نوعى وهى بالتأكيد أصل الاسم اللاتينى.

(٢) لقد حدد دانفيل موقعها عند بياد نفسها - ومثلما قلت - ينبغى الذهاب حوالى خمسة آلاف متر إلى الشمال. وفى الحقيقة، إن القرية الحالية تبلغ من الصغر ما لا يجعلها تكون موقعًا للمدينة القديمة التى فقدت أنقاضها بالتأكيد تحت الرمال.

نضيف أن نص بطليموس يضع انجيرونبوليس شرقى جزيرة هيراكليوبوليس على بعد خمس وثلاثين دقيقة شمالى النقطة التى تلتقى فيها القناة التى تكون هذه الجزيرة مع النهر[١]؛ وهذه الخمس والثلاثون دقيقة تصل تماما إلى شمالى أطفيح؛ بما أننا قد حددنا بداية هذه القناة عند الهريشنت.

المبحث الثالث: أفروديتوبوليس ـ أطفيح حالياً

ذكرت مدينة أفروديتو عند استرابون فى "بيان رحلة أنطونيانوس " وعند بطليموس فى تاريخ هرقل.. الخ، وليس من الصعب التعرف على موقعها. وليس هناك شك أن أطفيح ـ عاصمة الإقليم الذى احتل مكان افروديتوبوليس ـ توجد فى نفس موقع العاصمة القديمة. وفى الواقع، تقع أطفيح على بعد خمس عشرة دقيقة جنوبى الموقع الذى حدده لها بطليموس إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون دافعًا لعدم التعرف على موقع أفروديتو. وحقيقة، إذا ما أخذنا من " بيان رحلة أنطونيانوس " الطريق التى تصل من هذه المدينة حتى أنتينو ـ وهى موقع معروف تمامًا ـ فإننا لن نجد سوى خمسة أميال زيادة يمكن المرور بها على الطريق الحالية من الشيخ حتى أطفيح وذلك من بين ١٢٨ ميلاً رومانيًا تم تقسيمها على ست مسافات[٢].

ونفس هذه الرحلة تحدد مسافة اثنين وثلاثين ميلا بين بابليون و أفروديتو مرورًا بسيناس ماندراس ـ أى ٢٠، ١٢؛ إلا انه ربما ينبغى ـ حسب رأيى الشخصى ـ قراءة الرقم الأول باعتباره ٢٢ ْ بدلاً من ١٢ إذ أننا نجد أكثر قليلاً

---

(١) بطليموس، الجغرافيا، الكتاب الرابع، ص ١٢١ .
وانظر أيضا ما سبق ـ القسم الرابع .

(٢) من أنتينو	حتى سبيوس أرتميدوس	ثمانية أميال
	حتى موزى	أربعة وثلاثون ميلا
	حتى هيبونون	ثلاثون ميلا
	حتى آلى	ستة عشر ميلا
	حتى تيمونبسى	ستة عشر ميلا
	حتى افرديتو	اربعة وعشرون ميلا

من اثنين وأربعين ميلا ـ بفتحتى فرجار ـ من أطفيح وحتى البساتين التى تلاصق أطلال بابليون.

ووفقًا لاسترابون[١] ـ كان أهالى هذه المدينة يربون بقرة بيضاء اللون. وقد عرفنا من دراستنا للنقوش الموجودة فى أرمنت أن هذا الحيوان كان أحد رموز الإلهة حتحور. ونرى فى هذه النقوش الطفل الصغير حورس يرضع من أمه، وهو يظهر تارة فى صورة بقرة، وتارة فى شكل جسد إنسانى له رأس بقرة[٢]؛ وبذلك يمكن مقارنة الإلهة فينوس الإغريقية بالإلهة المصرية وفقًا لبعض أوجه الشبه. ومن هنا ربما يأتى اسم افروديتوبوليس الذى أعطى للمدينة القديمة. والميدالية الاساسية للإقليم جديرة لأن تذكر هنا؛ إذ أن بإمكانها إيضاح مسألة يكتنفها بعض الغموض؛ لقد صكت فى عهد تارجان. ويمكن قراءة الكلمة بالكامل خلف الميدالية. وأسفل رواق مكون من عمودين يحملان بعض التشابه مع الأعمدة المصرية نرى شكلاً يحمل فى يده مجموعة تمثل سيدة تحمل طفلا. ولا يخالجنى أى شك فى أن تكون هذه المجموعة إشارة إلى مجموعة إيزيس وحورس التى تظهر كثيرًا فى المعابد المصرية. والشكل الأساسى يمكن رؤيته كصورة فينوس؛ إنها تظهر بين مذبحين تظهر فوقهما أشكال حيوانات لايمكن التعرف عليها بدقة؛ ولكنها بالتأكيد وهبت لها؛ الا نجد هنا إشارة إلى أصل العقيدة التى يمتقها الإغريق ؟

وبذلك يكون الموقع الجغرافى لأفروديتوبوليس الذى حدده سابقًا دانفيل لا يحمل أية صعوبة، والصعوبة الوحيدة تكمن فى الفرق بين هذا الاسم وبين اسم أطفيح، وربما يكون هذا الأخير هو ما تبقى من الاسم القديم[٣]. ويبدو أن المدينة لم تكن قديمًا تطل على نهر النيل ـ وسط سهل منزرع ـ فهى اليوم على

---

(١) الحفرافيا، الكتاب ١٧، ص ٥٥٦ .

(٢) انظر وصف أرمنت، الفصل الثامن.

(٣) لقد أقر شامبيليون الاسم القبطى القديم للمكان وان أطفيح هو الاسم الذى تشكل بعد إضافة حرف الألف أول الكلمة، وهذا السبب يبدو له ـ وهو مصح فى ذلك ـ سابقًا للاسم الإغريقى أفروديتوبوليس وهو أكثر اقترابًا من الاسم المصرى القديم «مصر أثناء حكم الفراعنة»، المجلد الأول، ص ٣٣٢ .

حافة الصحراء، وكانت الرمال قد اجتاحت هذا السهل وهو الأكبر داخل هذا الإقليم الذى يحتوى على أراضى قليلة جدًا بالمقارنة بالأقاليم الأخرى، وقديمًا كان هذا السهل يتميز بنفس عرض السهل المقابل له فى إقليم منف وبقياس المسافة الكبيرة للسلسلة العربية فى الشرق؛ فإنه يمكن القول بأن الرمال قد تقدمت بشكل كبير من هذا الجانب وفقدت مصر أراضى شاسعة.

المبحث الرابع : طروى ـ سيناى مندروروم أو ماندراروم وتسمى الآن طرة

إننا نعرف الموقع المسمى سيناي مندروروم من خلال « بيان رحلة أنطونيانوس » و"تاريخ الامبراطورية". وقد سبق أن لاحظت أنه نظرًا لأن المسافة بين بابليون وأفروديتوبوليس تبلغ أكثر من اثنين وأربعين ميلاً فإن الأعداد الاثنى عشر والعشرين من " بيان رحلة أنطونيانوس " ينبغى أن تقرأ اثنين وعشرين؛ ولذا ووفقًا لذلك فإن سيناى ماندروروم التى تقع فى الوسط كان يجب أن توجد فى ضواحى جميزه، على بعد ثلاثين الف متر من أطفيح. ولاتوجد بها أية أطلال سوى تلك التى تقع فى قرية قريبة من جميزه الكبير، وقد أدت الرمال بالتأكيد إلى اختفاء هذه الآثار. ونجهل فى الواقع ما إذا كان هذا الموقع يمثل أية أهمية؛ وتاريخ الامبراطورية عرف هذا الموقع بوصفة مقر عسكرى.

ولفظ سيناى الذى يعنى "خيام" يوحى بأن قبائل من العرب قد استوطنت فى هذه النواحى، أمام لفظ ماندروروم المنحدر من اليونانية والذى يعنى " كوخ" وأيضًا إسطبل[1] يمثل معنى مماثلا، وربما يتفق هذا الاسم مع سيناى فتيرانوروم، وهذا الأخير يمثل مقرًا رومانيًا فى مصر.

ويؤكد استرابون أن منيلاس كان قد أتى بطروادبين وأسكنهم بمواجهه منف، ومن هنا جاءت تسمية هذا الجبل بالجبل الطروادى كما بنيت فى هذا المكان مدينة تسمى طروى. ولحسن الحظ فإن دانفيل قد افترض بأن كل من جبل

---

(١) كلمة Mavdpai باليونانية تعنى عند هيسكيوس وبولوكس إسطبل للخيول أو للبهائم.

طروى ومدينة طروى يقعان اليوم فى المكان المسمى "طره". ولقد رأيت فى هذا المكان الذى يقع على بعد ستة آلاف متر جنوبى البساتين كمية لا تحصى من المحاجر كان المصريون قد استخدموها بصفة أساسية فى بناء الأهرامات. وهذه الأعمال ذات حجم ضخم ويمكن مقارنتها بتلك التى أنجزت فى "السلسلة" وفى سوّادة[١].

ولن أدخل هنا فى تفاصيل أخرى باعتبار أن هذا الموضوع سيتم تناوله بصورة أعمق فى " وصف منف والأهرامات" .

(١) انظر لوحة رقم ٨ شكل ٥، المجلد الخامس، وما سبق المبحث الثالث عشر، والفصل الثامن عشر سوف يتناول هذه المحاجر.

القسم السابع
إقليم منف

كان هذا الإقليم هو الأول والأهم فى منطقة مصر الوسطى باعتباره كان يحوى عاصمة المملكة؛ إلا أننا نرى فيه مدنًا أقل كثيرًا من إقليم هيروموبوليس. والجغرافيون والرحالة لايذكرون سوى منف، اكانتوس، بوزيريس وبيميه. وفى الحقيقة إن هذا الإقليم يحوى الآثار الأكثر عظمة فى مصر القديمة؛ تلك التى استحقت اسم عجائب الدنيا والتى يتصور المرء أن المواد المستخدمة فيها وربما حجم العمل والتكلفة قد تتساوى مع ما استخدم لإنشاء كبريات المدن الحديثة.

وترسيم حدود إقليم منف ليس صعبا، وقد علمنا أن حدودها الجنوبية كانت تنتهى عند إيسيوم التى تعرف اليوم بـ " زاوى "، ومن جهة الشمال فإن حدود هذا الإقليم ربما كانت تنتهى عند منبع الدلتا باتجاه مدينة ليتوس عند النقطة التى يكون فيها فرع رشيد حاليًا أكثر اقترابًا لليبيا، وإقليم الجيزة الذى احتل مكان هذا الإقليم فيما بعد يمتد أكثر نحو الشمال ليصل إلى رأس قناة البحيرة.

وتوجد على أحد الميداليات التى صكت خصيصًا لإقليم منف كلمة Nomoc ذاتها وهو ما يميز هذه الميدالية عن مثيلاتها فى بقية الأقاليم الأخرى وأسفل الشكل الذى يوجد على ظهر الميدالية نرى العجل أبيس رمز العقيدة فى هذه المدينة، ونقرأ مكتوبا حوله بشكل دائرى Nomoc MenØithc ونلاحظ هنا أن حرف الـN قد حل محل حرف الـ M. وهذه الميدالية احتفظت بالاسم القديم أكثر مما هو الحال فى كلمة MEMΦIC التى استخدمها الإغريق، ونجد أيضًا حرف الـ N فى بعض الأسماء التى توجد اليوم فى مصر كمنوف ومنفلوط... الخ.

المبحث الأول : هرم ميدوم - الهرم الكداب

أبعد الأهرامات جنوبًا عند القدوم من منف وقبل الوصول إلى الفيوم هو هرم ميدوم أو ميدونة الذى يقع على بعد واحد وثلاثين ألفًا ومائتى متر شمال شرقى مدينة بنى سويف؛ ويحمل هذا الاسم نسبة إلى قرية تقع على حدود الأراضى المزروعة، ويسمى أيضًا الهرم الكداب؛ ذلك لأن شكله مختلف اختلافًا كبيرًا عن الآثار المماثلة لهذا النوع[1]. وفى الواقع، يتكون هذا الهرم من جزءين على شكل هرم مكسور يرتكزان على قاعدة شديدة الاتساع والجزء السفلى أكبر كثيرًا من الذى يرتكز فوقه وزاوية الانحدار هى أيضًا أكبر كثيرًا من مثيلاتها فى الأهرامات العادية، وهناك شك فى أن هذا الهرم قد اعتلته قمة حادة مثل الأهرامات الأخرى؛ لأن هذه القمة كانت لتعلو لارتفاع شاهق؛ وعلى الرغم من ذلك يبدو واضحًا أن جزءًا من القمة قد تهدم وأن بقايا هذا الجزء تغطى الآن الجزء السفلى.

وبنى هذا الأثر من الحجر؛ إلا أنه ليس مؤكدًا أن القاعدة السفلية تمثل بناء بطريقة القواعد بالرغم من أن لها مظهر الهرم القديم الذى بنى فوقه فيما بعد وإن لدىّ اعتقاد أن الحجر ذاته هو الذى نحت على شكل هرم منفرج حتى ارتفاع ما ثم تمت بعد ذلك تسوية السطح الذى أقيم فوقه الهرم بشكله المعروف.

وهذا الارتفاع للقاعدة السفلية يجعلنا نرى هذا الأثر عن بعد كبير، ولقد رأيته طوال يوم كامل من السير على الأقدام. وعندما نكون فى قرية رقة الكبير، وهو ميناء على نهر النيل - نكون على نحو بعد فرسخ ونصف من هرم ميدوم، ولم أستطع أن أقوم بأخذ قياسات هذا الهرم ولا الأهرامات التى تليه.

وميدوم فى الواقع هى قرية كبيرة نسبيا؛ حيث يمكن الإعتقاد بأنه قد وجدت بها مدينة قديمة والأماكن المجاورة للهرم تؤكد هذا الرأى.

---

(١) انظر لوحة رقم ٧٢ شكل ٣ .

المبحث الثانى : ريقة الكبير والأهرامات المجاورة

تعتبر "ريقة الكبير" قرية كبيرة نسبيًا على ضفة نهر النيل، تقع على بعد حوالى عشرة آلاف متر شمال شرقى القرية السابقة، وقد وجدت بها بعض الآثار من بينها قطعة مربعة كبيرة من الجرانيت قد تمت تجربة تحويلها إلى رحى وقد نقشت بدقة شديدة على إحدى واجهاتها بعض الكلمات الهيروغليفية. ويمكن أن تكون هذه البقايا قد نقلت من مدينة مجاورة؛ ولكن يمكن الاعتقاد بأن موقعًا قديمًا كان يوجد فى هذا المكان. وفى الحقيقة، يوجد هرمان تم بناؤهما الواحد فى مواجهة الآخر، على حافة السلسلة الليبية. وهذان الهرمان يكادان اليوم أن يكونا أطلالا. ومن المنطقى أنه كانت توجد هنا بعض القرى التى تربطها علاقة ما بهذه الأثار. وقرية " الهرم" الحالية التى تقع فى الجوار تؤكد هذا الاحتمال.

المبحث الثالث: بيمه وحالياً بيمبه الأهرامات المسماة بالمتانية

وفقًا لـ " بيان رحلة أنطونيانوس " كانت مدينة بيمه تقع على بعد عشرين ميلاً من منف وبنفس مسافة ايسو وهى ليست مذكورة فى أى مكان آخر، والاسم الوحيد الذى يقترب من اسم تلك المدينة فى " تاريخ الإمبراطورية هو "بومو" ووفقًا للمكان الذى يحتله فى هذه القائمة فإنه لايمكن الجزم بأنه يتعلق بنفس مكان بيمه.

وإذا ما بحثنا على الضفة اليمنى لنهر النيل على مكان يقع على نفس المسافة من منف ومن زاوى - أى ايسيوم القديمة؛ فإننا سوف نجد أنفسنا فى مكان يعتبر اليوم مهجورًا وهو قريب من هرمى المتانية وبالتحديد على بعد عشرين ميلاً رومانيًا من زاوى، وعلى بعد عشرين ميلاً من أطلال ميت رهينة - منف الآن[1].

---

(١) المسافة تقل قليلاً عن الثلاثين ألف متر. وعشرون ميلاً رومانياً تعادل تسعة وعشرين ألفًا وخمسمائة وستة وخمسين مترا.

ولكن، بالإضافة إلى القرب من الأهرامات توجد فى الضواحى وجنوبى هذه النقطة قرى بيمبه وجزيرة بيمبه التى توجد علاقة بين اسمها وبين بيمه، ومسافة تبلغ أربعة آلاف متر بين هذا المكان وذلك لايمكن أن يكون عائقًا يحول دون اعتبارها موقعًا واحدا.

وهذا الموقع يقع بعيدًا عن النيل على حافة القناة الغربية لأن الطريق التى تبدأ من منف والتى تؤدى مباشرة إلى ايسيوم كان ينبغى فى الواقع أن تترك النهر الذى يتجه بشدة فى هذا المكان نحو الشرق. وهنا سوف أبدى مرة أخرى ملحوظة حول دقة الطريق وحتى حول دقة القياسات. وسوف نلحظ أن هذه القياسات دقيقة باعتبارها قد أخذت على الخريطة بخط مستقيم وليس وفقًا لتعرجات الطرق؛ وهذه الطريقة الأخيرة كانت مبهمة بدرجة تجعلها ليست مجدية وربما كانت الطريق كثيرة التغير بينما لم تكن المسافات المستقيمة، المعروفة دائمًا فى كل الأزمنة بشكل أكيد وذلك بواسطة الطوبوغرافيا القديمة للبلاد لتفسح مجالاً لأى شك. وكل أبحاثى قد قادتنى إلى هذه النتيجة ألا وهى أن المسافات المحددة فوق الطريق القديمة قد تم تحديدها فى غالب الأحيان على خط مستقيم وأنه ما لم تكن هذه المسافات محسوبة وفقًا لحساب المثلثات والحسابات المتصلة به فإنه قد تم قياسها بالفرجار على خريطة طوبوغرافية جيدة[١].

وشمال غربى بيمبه نرى هرمين يحملان اسم المتيانية بالرغم من أن القرية بعيدة بشكل ما نحو الشمال الغربى. وهذان الهرمان هما ما يترك المرء يسارًا عندما يتجه من الفيوم إلى القاهرة عبر الصحراء، ويظهران عن بعد كهضاب من الرمال[٢]؛ وقد بنى أحد الهرمان على مستويين انحداريين ويبلغ أحدهما ضعف الآخر[٣]. ويمكن تفسير هذه الخاصية بشكل منطقى إذا ما اعتبرنا أن البناء كان قد بدأ أولاً بزاوية شديدة الاتساع ثم اتضح فيما بعد صعوبة استكماله على هذا النحو، ورؤئى أن العمل بهذا الشكل سيكون شديد التكلفة وبالتالى تم استكمال

---

(١) انظر دراستى حول النظام المترى للمصريين القدماء دراسات العصور القديمة

(٢) انظر الفصل السابع عشر، القسم الاول، المبحث الأول.

(٣) انظر لوحة رقم ٧٢ شكل ٤.

العمل بانحدار أقل وبزاوية أقل انفراجًا من أجل الوصول بشكل أسرع إلى القمة. أما ثانى هذه الأهرامات فهو أقل احتفاظًا بشكله الأصلى؛ فالزوايا قد انمحت وقد اتخذ الأثر شكلاً شبه مخروطى.

ومن أجل الذهاب إلى الفيوم عبر الصحراء نترك عند بهبيت الطريق التى تطل على نهر النيل ونتجه إلى أطامنة حيث نعبر جسرًا فوق القناة الغربية ومن هنا نبدأ الغوص فى الرمال تاركين يسارنا أهرامات الميتانية التى تصلح تسميتها - بالأحرى أهرامات بيمبه.

المبحث الرابع : أكانتوس - وتسمى الآن دهشور
أهرامات منية - دهشور

يذكر كل من ديودور الصقلى واسترابون وكذلك بطليموس أكانتوس باعتبارها مدينة متاخمة لليبيا تقع جنوبى منف على بعد مائة وخمسين غلوة[1] من هذه العاصمة؛ وبهذه المعلومات ليس هناك أسهل من تحديد موقعها إذا ما قمنا بقياس يقل قليلاً عن خمسة عشر ألف متر وهى مسافة تعادل مائة وعشرين علوة من النوع الذى كان يستخدمه عادة ديودور الصقلى وهيرودوت؛ فإننا سوف نكون قد وصلنا شمال قرية دهشور على الضفة اليسرى للقناة الغربية التى ردمت الرمال جزءًا منها. وهذه المسافة تقل العشر عن فرق العشر دقائق الذى يرجع إلى خطوط العرض التى تفصل بين اكانتوس ومنف التى ذكرها بطليموس؛ ولكننا نفضل أن نقوم باتباع التحديد الذى قام به ديودور الصقلى ويعتبر أكثر دقة. وكان قد سبق لدانفيل أن حدد مكان هذه المدينة فى دهشور وإن افترض لحد ما صحة هذا الموقع الذى لم يستطع رغم ذلك التعرف عليه جيدا.

ويخبرنا استرابون عن وجود معبد لأوزوريس فى اكانتوس، وربما تكون الرمال قد ساعدت على اختفاء هذا الأثر الذى لم أستطع إيجاد أى معالم له.

---

(١) الرواية العادية تحتوى على مائة وعشرين غلوة: إلا أن الرواية الموجودة في هامش طبعة رودمان هى الأفضل (ديودور الصقلى، الكتاب ١، ص ٨٧).

والبدو يقومون بإحضار العديد من القطع الأثرية من أطلال المكان ليقوموا ببيعها للسائحين. ولا أستطيع أن أتعرف على موقع الغابة المقدسة التى كانت توجد قرب هذه المدينة - حسب ما يذكر استرابون - وهذه الغابة كانت مكونة من أشجار شوك الجمل أو مما يعرف فى مصر بأشجار السنط وهى شجرة تختص بها مصر مثلما يذكر ثيوفراست. ومن هنا يجىء الاسم الذى أعطى للمدينة التى كانت تقع هذه الغابة على أطرافها.

لقد تحدثت مرات عديدة عن استخدامات المصريين القدماء لهذه الغابة من السنط - وفقاً لافتراضى الخاص[١]. ولن أدخل هنا فى تفاصيل جديدة لكننى سوف أذكر ثلاثة أسباب تؤكد إحساسى: الأول أن استرابون يطلق هنا اسم "الغابة المقدسة" على غابات السنط، والآخر أن اسم هذه الشجيرات قد أطلق على المدينة مما يؤكد أهميتها، أما السبب الثالث فهو أن هذه المدينة تقع على حافة الصحراء مثلما كانت تقع أبيدوس. إن أشجار السنط كانت تعتبر مقدسة بل وتسمى كذلك لأن - وذلك من وجهة نظرى - المساس بها كان ممنوعا، وكانت وظيفتها تتمثل فى وضع حد لرمال الصحراء وحماية أرض اوزيريس، ونفهم مدى العناية الدينية الذى يتطلبه الحفاظ على هذه الأشجار.

وأكبر الأهرامات التى توجد جنوبى سقارة هى التى تقع فى أطراف منية دهشور وهى قرية تقع على بعد تسعة آلاف متر من شمالى القرية السابقة على نفس مستوى قرية الشيخ عثمان[٢] ؛ وهذا الهرم يشبه هرم ميدوم، كما يشبه - أيضًا أكبر أهرامات المتانية. وفى الواقع مثله مثل هرم المتانية فقد بنى على مستويين انحداريين وقد بنى جزؤه السفلى بزاوية شديدة الاتساع مثلما نرى فى هرم ميدوم، وأبعاد هذا الهرم تقترب من أبعاد الأثار العظيمة التى تقع بمواجهة الجيزة.

وبالقرب من منية دهشور نرى ثلاثة أهرامات أخرى تعرف عادة بأهرامات سقارة، وأحد هذه الأهرامات يشبه أكبر أهرامات المتانية - أى أنه بنى هو أيضًا

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر.

(٢) انظر لوحة رقم ٧٢ شكل ٦ .

بزاويتين مختلفتين؛ إلا أن زاويته العليا أكثر ضيقا، كما أن قمته هى أيضًا أكثر ضيقًا وأكثر ارتفاعا، وبجانب هذا الهرم يوجد هرم آخر شديد الصغر. وأخيرًا، ناحية الشمال يوجد بناء مرتفع شديد التهدم ذو شكل لايمكن أن يوحى بأنه بقايا لبناء هرمى.

وتبلغ المسافة التى تفصل بين الهرم الذى ذكرته فى هذه الفقرة وبين مجموعة أهرامات سقارة حوالى فرسخ، وهذه المجموعة مكونة من عشرة آثار مماثلة متصلة بأهرامات الجيزة؛ وهذه الأهرامات هى موضوع الفصل القادم ولذا فإننى أضع حدًا لوصف الآثار فى إقليم منف ومنطقة مصر الوسطى دون ذكر بوزيريس أو فينوس أوريا. وهذه المواقع القديمة تقع بجوار منف، وسوف نقوم بذكرها فى الوصف المخصص لهذه العاصمة ولأهرامات سقارة والجيزة[١].

---

(١) انظر وصف منف والأهرامات، الفصل الثامن عشر والمجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

ملحق
عن مقارنة المسارات الثلاثة فى المنطقة الواقعة جنوب بابليون

تجدر الإشارة أن الجدول الثيودسى ـ فى هذا الموضع بالذات ـ مشوه للغاية و يصعب إعادة تنظيمه، وحتى أقوم بتوضيحه فقد عكفت على مقارنته بالطريقين الموجودين فى مسار أنطونيانوس على الضفتين اليمنى و اليسرى من النيل. وينبغى مقارنة هذين الصريقين فيما بينهما للتأكد ما إذا كانا متطابقين. وفيما يأتى مقتطفات من الطرق الثلاثة.

مسار أنطونيانوس				الجدول الثيودسي	
الضفة اليسرى		الضفة اليمنى			
منف	>>	بابيلونيا	>>	بابيلونيا	>>
بمبى	٢٠	سيناس	٢٢	فينو	٧٢
إيزاى	٢٠	أفروديتو	٢٠	بتوليمايدون أرسينوتم	٦
كان	٢٠	تيمونسبى	٢٤		
الإجمالى	٦٠		٦٦		٧٨

ونجد أن حيز الستين ميلا الفاصل بين منف وكان علي الضفة اليسري علي خط مستقيم تقريبًا فهو أقصرها على الإطلاق. أما الطريق الثانية الفاصلة

بين بابيلون وتيمونسبى فتبلغ ستة و ستين ميلاً[١] بسبب موقع بابيلون على بعد ستة أميال على الأقل إلى الشمال من منف. و يمكن لطريق الجدول الثيودسى أن يقترب طولها من أطول الطرق الأخرى إذا ما قمنا بإلغاء ١٠من المسافة الأولى البالغة فى فينو ٧٢ . وهكذا، تكون المسافة الفاصلة بين بابيلونيا و بتوليمايدون ثمانية و ستين ميلاً. و عليه، نجد ثمانية و ستين ميلاً بمرورنا من بابيلون إلى جيمازا (أو سيناس ماندراس) باختراقنا للنيل فى طريقنا إلى بامبيه أو بمى. ومن هناك بطول القناة الغربية فى اللاهون (بطوليمايس). ويبقى أن نقول إنه من المستحيل معرفة ما الذى ينطبق عليه اسم فينو.

أما الستة أميال الواردة فى الجدول بين هذه النقطة وبطوليمايس فيعتقد أنها تؤدى إلى أبوصير، أما مدينة بوزيريس التى كانت واقعة فى نفس هذا المكان فهل كانت تحمل اسمين مختلفين؟ هذا ما لا نستطيع أن نقرر فيه شيئا.

---

(١) لقد رأينا سالفاً أنه ينبغى حساب ٢٢ بدلاً من ١٢ فى سيناس ماندراس.

الفصل السابع عشر

وصف أثار[1]

إقليم أرسينويت - المعروف اليوم باسم الفيوم

---

(١) رغم وصفنا للآثار فى العديد من الفصول التى تتفق فى عددها مع عدد البقاع التى تشتمل على آثار؛ فلقد اعتبرنا إقليم أرسينويه هنا بمثابة موقع فريد من نوعه من أجل الحيلولة دون تعدد الفصول والحفاظ على تجانس خطة المؤلف.

القسم الأول
وصف أطلال أرسينويه أو كروكوديلوبوليس
والآثار الواقعة بداخل الإقليم
بقلم السيد: جومار

المبحث الأول: ملاحظات عامة ـ تاريخية وجغرافية

اعتبرت الفيوم ـ دائمًا ـ بمثابة تقسيم إقليمى منفصل بالكامل عن باقى أراضى وادى النيل؛ فالمضيق الضيق الذى نخترقه للوصول إليها وسلسلة الجبال التى تطوقها وشكلها المحصور فى حوض منتظم.. كلها حواجز طبيعية جعلت منها بالضرورة إقليمًا متميزًا. وعليه، فلقد أصبحت الفيوم تمثل ـ فى أيامنا هذه ـ إقليمًا كما كانت فى الماضى تشكل إقليم أرسينويت.

وإقليم الفيوم ينفصل عن مصر من حيث موقعه بدرجة جعلته غير معروف لدى العرب على مدى ما يزيد عن العام بعد غزوهم لضفاف النيل[1] ؛ إلا أن الخصوبة الفريدة لهذا الإقليم والمنتجات الخاصة به التى يتميز بها دونًا عن أية منطقة أخرى فى مصر كانت بمثابة الدوافع التى جعلت الفزاة يدخلوه بعد فتح مصر قبل دخول الصعيد؛ فما إن و صلت الحملة الفرنسية إلى القاهرة حتى توجهت إلى إقليم الفيوم، ولم تلبث أن أدركت مميزاته من وجهة نظر الموقع وثراء الإقليم؛ فهذا الإقليم ـ الذى عانى معاناة شديدة من زحف الرمال و تقلص مساحة الأراضى المنزرعة ـ لم يزل فى الواقع حتى يومنا هذا أكثر الأراضى

---

(١) هربيلو، المكتبة الشرقية، ص٣٥٠ .

إنتاجية فى بلد يعتبر من أخصب بلدان العالم. وبغض النظرعن محاصيل الفيوم من الحنطة والأرز والنفل و الخضروات وغاباته الشاسعة من نخيل البلح فهو يضم ـ أيضًا ـ حقول واسعة من الكتان وزراعات الورود وأشجار الزيتون، كما يزرع فيه ـ أيضًا ـ النيلة والحنة والقرطم و القطن والسكر والتبغ وبه غابات التين والصبار وأشجار الخوخ والبرقوق والمشمش وأشجار الفاكهه فى الحدائق؛ هذا غير محصول لا نجده قط فى أى مكان أخر وهو أشجار الكروم[1]. وقد جذبت دائمًا خصوبة أراضيه اهتمام القائمين على الأمور فى مصر. و فى حديثه عن أقدم التقاليد وفى وصفه للأحوال السائدة يقدم لنا استرابون إقليم أرسينويت كما لو كان لم يتغير قط منذ عهود سحيقة. وللوصول لعهد كانت الحال فيه مختلفة ينبغى علينا الوصول إلى الزمن الذى كان فيه هذا الإقليم محرومًا من نعمة مياه النيل ـ أى إلى زمن ينتمى إلى مجال الچيولوچية أكثر منه إلى مجال التاريخ.

وعليه، فإن أفكار الكتاب العرب _ وأفكار استرابون نفسه _ عن الحالة البدائية لأراضى هذا الإقليم يجب أن نذكرها فى إطار الأفكار والافترضات التى تفتقد بعض الشىء إلى الدراسة المتأنية ولهذا فلن أذكرها البتة فى هذا السياق. إذن فسوف أنحى جانبًا كل ما له علاقة بالجغرافيا الفيزيائية للفيوم ولن أتعرض بالحديث عن هذا الإقليم إلا من الزاوية الجغرافية والتاريخية.

ويرجع تاريخ هذا الإقليم إلى العهد الذى وصلت فيه مياه النيل إليه. فكان ينبغى فى أول الأمر التأكد من أن المياه المتفرعة عن النيل _ فى نقطة مرتفعة من الوادى والتى وصلت حتى فتحة المضيق فيه _ كانت ترتفع بميل كاف وتستطيع من هذا المكان التسلل إلى الداخل والانتشار فى أطراف الحوض. وقد تمكنا من

---

(١) «لا يوجد فى العالم بأسره بلد بمثل خصوبة الفيوم، تخترقه مثل هذه القنوات المتعددة و يتميز بهذه الوفرة من المنتجات القيمة» عن ابن قندى الذى ذكره كاترمير (فى مؤلفه : دراسات جغرافية و تاريخية عن مصر، ص ١٠٩، المجلد الأول) ويذكر المؤلف نفسه العديد من الشهادات الأخرى التى تدلل على ثراء هذا الإقليم مثلاً ما يدل على أن إيرادها فى عام ٣٥٥ قد تجاوز ٦٢٠ ألف دينار وفى عام ٥٨٥ و٧٠٣ و٦٥٢ دينار ومن المعروف _ كما يقول البكرى _ «أن الدخل اليومى للفيوم يصل إلى ٢٠٠مثقال من الذهب».

معرفة هذا عن يقين من أعمال التسوية، ومن المستحيل التشكيك فى هذا الأمر عندما نضع فى اعتبارنا العملية التى نفذت والتى تركت آثارًا واضحة للغاية. فالقناة المعروفة اليوم باسم "بحر يوسف " فى المنطقة الواقعة بين سهل مصر والفيوم، إنما تمثل التفريعة التى تمت إقامتها لهذا الغرض _ فإذا ما تتبعنا ضفافها بدءًا من الكوع الذى يتخذها مجراه للدخول فى الفيوم نجد أنها تجرى بين جبلين وأن مجرى هذه القناة قد رسم على تقعر الأرض الموجود فى نهاية هذا المضيق ويمكننا أن نرى بوضوح أن الأحجار قد تم استخدمها وتهذيبها لهذا الغرض، و يمكن لنا أن نتبين بوضوح أكبر أطلال هذا العمل القديم عندما يكون منسوب المياه منخفضًا من خلال الأجزاء التى تم رفعها و تسطيحها؛ و هذا يؤكد الأفكار التى يجب أن نتمثلها دائمًا بشأن الأعمال التى أنجزها المصريون القدماء لتسهيل رى الأرض والملاحة الداخلية. و من المستبعد لنا بصورة قطعية الاعتقاد أن عملاً شاقاً مثل تخفيض مستوى الأحجار إلى مستوى معين قد تم القيام به أو حتى الشروع فيه دون إجراء تسوية مسبقة. وأيًا كان الحاكم الذى نفذ هذه العملية الضخمة والعهد الذى شهد إتمامها فلا يمكننا اليوم أن نتجاهلها ؛ والحالة الراهنة للأماكن لهى أبلغ أثر يحدثنا عنها فى حالة قصور التاريخ.

ولن أكرر هنا ما سبق وأن ذكرته بشأن الفيوم فى دراسة سابقة عن بحيرة "موريس"[١]. وأسوق فحسب فى هذا الصدد فقرة للكاتب استرابون يمكن اعتبارها تقريبًا بمثابة وصف حديث للبلاد حيث يقول : «يتفوق هذا الإقليم على غيره من الأقاليم الأخرى من حيث المظهر والخصوبة والزراعة ؛ فهو الإقليم الوحيد المنتج للزيتون الجيد، الذى يستخرج منه زيتاً ممتازاً فى حالة العناية بذلك. وهو أيضًا مصدر للبنيذ و الفواكه الجيدة و القمح و الخضروات والحبوب من شتى الأنواع »[٢] . ولن أقدم أيضًا وصفًا للموقع الجغرافى لهذا الإقليم؛ فنحن نعرف أنه يقع على بعد نحو أربعة فراسخ ونصف فى الزاوية الغربية

(١) انظر المجلد السادس من دراسات العصور القديمة.

(٢) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ٨٠٩ .

الشمالية الغربية لبنى سويف و هو بعيد عن القاهرة انطلاقًا من طامية ـ ويمثل أبعد النقاط جهة الشمال ـ نحو خمسة عشر فرسخًا ونصف فى خط مستقيم.

ويقترب هذا الخط من طريق جرت العادة على أن نسلكها عندما نريد تفحص أكثر الطرق المباشرة، وعند منتصف الطريق من الجيزة إلى بنى سويف نأخذ الطريق إلى ليبيا. وعند المكان الذى يدعى أطامنا ندخل فى الصحراء بعد اجتيازنا للقناة الغربية من فوق جسر، ونترك إلى اليسار هرمى المتانية، ثم نأخذ فى السير إلى الجنوب الغربى و بعد خمسة فراسخًا و نصف نصل إلى طاميا عند الطرف الغربى لبحيرة يطلق عليها اسم " بركة قارون ".

وتحتل هذه البحيرة القسم الشمالى للضاحية وتصل إلى سفح السلسلة الليبية وتتجه من الشرق إلى الغرب ثم إلى غرب الجنوب الغربى بطول أحد عشر فرسخًا فى مواجهة " قصر قارون " وهو معبد مصرى يأخذ جهة الغرب أيضا. و فى الجنوب يكون الحد الحالى للبحيرة موازيًا تقريبًا لطرفها الشمالى ويبلغ محيطها اليوم زهاء خمسة و عشرين فرسخًا؛ إلا أنها لم تعد بنفس العمق الذى كانت عليه فى الماضى منذ أن غدت قناة يوسف لا تأتى إلا بالقدر القليل من المياه فى الفيوم مقارنة بما كانت تجلبه فى الماضى، إذن فالقناة قد انخفض منسوب مياهها مما ترتب عليه تضاؤل أكبر فى مساحتها. ففى الماضى كان يمتد إلى ما يزيد عن فرسخين فى الجنوب و منذ عهد ليس ببعيد أصبح شاطئ البحيرة منحسرًا على هذا النحو جهة الشمال. وفى الواقع فى عام ١٦٧٣ أبحر فانسلب فى مياه هذه البحيرة عند قرية سنهور التى أصبحت اليوم مرتفعة كثيرًا عن كل الأراضى المحيطة. والحال كذلك بالنسبة لأراضى قرى ترسة وأبى كيسه وابشواى الرمان. ولما كنت فى سنهور واقفًا على موقع مرتفع وناظرًا إلى الشمال كنت أجول ببصرى فوق مساحة شاسعة بين القرية والحد الحالى للبحيرة. وكانت كل هذه المساحة تبدو ـ بعض الشىء ـ كمن هجرتها المياه منذ وقت غير طويل؛ فهى غير مزروعة و تغطيها الرمال والبحيرات و القشور الأرضية المالحة

أو بعض الشجيرات المتناثرة هنا و هناك لزراعات غير ذات جدوى[١] ولا يوجد سكن واحد و من المرجح استحالة مباشرة زراعة واحدة مربحة. وليس هناك أدنى مجال للشك أن أطراف البحيرة كانت فى الماضى أكثر زحفًا جهة الجنوب، ومسارها واضح من خلال انخفاض التربة بدءًا من طاميه و عبورًا بترسه وسنهور وأبشواى الرمان. وعند طرف البحيرة جهة الغرب، لم تفقد البحيرة من مساحتها العرضية حيث إن قصر قارون الذى تبعد عنه البحيرة اليوم بمقدار نصف فرسخ يمثل حدًا لم نستطيع لا بلوغه ولا حتى تجاوزه.

ومن ناحية الشمال كانت البحيرة لا تتجاوز الخط الذى يمثل نهايتها اليوم إلا بقدر ضئيل، وتمثل الأطلال الموجودة فى هذا الجانب وبخاصة الأحجار الحد الشمالى للبحيرة. وعليه، فإن الحسابات التى يمكن أن يقوم بها عالم الجغرافيا بشأن المساحة القديمة لبحيرة الفيوم تقوم على أسس مؤكدة وهو لا يخاطر البته بالقيام بحسابات خاطئة. وإذا قمنا بقياس محيط البحيرة على الخريطة الجديدة لمصر و اتبعنا الخطوط التى ذكرتها الآن نزولاً جهة الجنوب فى خط أشبه بالقوس أو الهلال سواء إلى الشرق أو إلى الغرب فسوف نقيس ما يزيد عن الأربعين فرسخًا. ويصل أكبر عرض لها إلى أربعة و طولها سبعة عشر فرسخًا [٢]. ومن هذه المساحة الشاسعة يتضح لنا أن هذه البحيرة هى بحيرة موريس، وحقيقة كيف لنا أن نجد فى مكان آخر تطابقًا أفضل لما ذكره استرابون حين يقول :– «إن هذا الإقليم (أرسينويت) يضم بين أرجائه بحيرة ضخمة تحمل اسم موريس ولها لون و مظهر البحر و مساحتها و عمقها يؤهلانها لاستقبال مياه الفيضان وتأمين الحقول و المساكن» ويضيف الكاتب فى هذا الصدد بشأن ما يتعلق بالاستخدام الآخر لبحيرة موريس حيث يقول. «ومع انخفاض منسوب النيل بعد ذلك فهو يعيد ـ عن طريق مصبى قناة ـ المياه اللازمة للرى، وعند كل من مصبى النهر توجد سدود يتحكم المهندسون عن طريقها فى المياه الواردة إلى البحيرة والخارجة منها».

---

(١) غالبيتها لأشجار الأثل.

(٢) انظر اللوحة رقم ٦، الدولة الحديثة، المجلد الأول، والخريطة الطبوغرافية الكبرى لمصر.

المبحث الثانى : كروكوديلوبوليس أو أرسينويه

إن اسم أرسينويه الذى تم إطلاقه على عاصمة الإقليم وعلى الإقليم ذاته لا يرجع إلى العصور القديمة ؛ فهذا الاسم هو اسم زوجة بطليموس ـ فيلادلفوس و شقيقته[1].

وقبل البطالمة كانت المدينة العاصمة تحمل اسم كروكوديلوبوليس أو مدينة التماسيح بسبب عبادة هذه الحيوانات وتقديسها فيها، وقد ذكرها هيرودوت بتسميتها هذه. أما ديودور الصقلى فهو لم يذكرها. و عمومًا، فإن قدامى المؤرخين لا يعطونا إلا معلومات قليلة عن ضاحية أرسينويت هذا رغم أنها تحمل بين أرجائها أضخم أثرين عرفتهما العصور المصرية القديمة وهما قصر التيه وبحيرة موريس؛ ولهذا السبب وجد هذان الأثران طريقهما إلى التعليقات المقتضبة التى قدمها الكتاب. و عليه فنحن لا نجد إلا عددًا قليلاً من الفقرات القديمة بشأن مدينة أو إقليم أرسينويه. و كان استرابون هو أكثر الكتاب تقديمًا للتفاصيل حول هذا الإقليم؛ إلا أنه لا يتحدث عن الإقليم نفسه إلا لتسميته. ويتمثل هدف هذا العالم الجغرافى أساسًا فى تحديد موقع بحيرة موريس وقصر التيه نسبة إلى المدينة العاصمة.

أما بلينى فلقد كان يعرف اسمى الضاحية[2]؛ فبعد أن قام بإحصاء أقاليم مصر والقول بوجود إقليمين يحملان اسم أرسينويت أضاف قائلاً:

ويحدد بطليموس موقع المدينة بدقة ويذكر أيضًا الاسمين، أما الكُتاب اللاحقون فهم لا يوردون فى حديثهم الإقليم أو المدينة إلا تحت مسمى أرسينويه؛ إلا أن اتيان البيزنطى - الذى كتب بعده بوقت طويل ـ يورد أيضًا الاسم القديم لكروكو ديلوبوليس. بيد أنه لا ينبغى أن يفهم من ذلك أنه يقصد أن

---

(١) أقام فيلادلفوس العديد من الآثار تكريمًا لأرسينويه. انظر بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٦، الفصل ٩، والكتاب ٣٧، الفصل ٨، وفيما يلى وصف مسلة أبجيج.

(٢) نفسه، الكتاب الخامس، المقطع التاسع.

المدينة كان موقعها بحيرة موريس كما زُعم ذلك فهو يذكر أن المدينة كانت واقعة على أطراف البحيرة و هذا - أيضاً - ما يصعب شرحه بعض الشيء.

ونمتلك العديد من الميداليات المصكوكة منذ عهد هادريان التى ترمز لإقليم أرسينويه وأثمنها على الإطلاق تحمل على أحد وجهيها شكل تمساح؛ أما الميداليات الأخرى فتحمل رأس أرسينويه[١]. وهذه الميداليات تبرهن - فى آن واحد - أن المدينة قد حملت اسمى كروكوديلوبوليس وأرسينويه وأنها كانت عاصمة إقليم، وأخيرًا فإن هذا الإقليم كان يحمل فى عهد هادريان اسم أرسينويت. وفى المخطوطات القبطية تحمل هذه المدينة دائمًا اسم أرسينويه.

ولن أتناول فى هذا الصدد نصوص العرب بشأن هذه المدينة حيث لم يطلق عليها اسم آخر وقت غزو هذه الشعوب لها خلا اسم المدينة الرئيسية للفيوم "مدينة الفيوم" وهو الاسم الذى لم يزل قائمًا حتى اليوم. وما لا شك فيه أن اسم الفيوم نفسه هو من بقايا التسمية القديمة للإقليم ؛ فأنا لا اعتبر أن اسم " الفيوم " يرجع إلى التقليد الذى ذكره بعض الكتاب العرب بشأن القناة التى تجلب المياه للإقليم حيث يقولون إن يوسف قد شقها فى " ألف يوم"[٢].

---

(١) أنظر اللوحة التى تمثل ميداليات الأقاليم، رقم ٥٨، المجلد الخامس و الدراسات الخاصة بالجغرافيا القديمة و المقارنة. و يضم مكتب السيد توشون العديد من الميداليات من مختلف الأنواع.

(٢) افترض السيد مارسيل فى قول يجنح أكثر إلى الصحة إن اسم فيوم أو فايوم منشق من اللغة القبطية و يعنى البحر أو مساحة شاسعة من المياه (العشارية المصرية، العدد الثالث، ص ١٦٢). ويرى أيضاً السيد كاترمير أن اسم فيوم منشأه الكلمة القبطية التى تعنى بحر باللغة القبطية وذلك بسبب البحيرة الضخمة القائمة فى قلب هذا الاقليم (دراسات جغرافية وتاريخية عن مصر، المجلد الأول، ص ٣٩١) ويقول السيد شامبليون إن اسم الضاحية مشتق مباشرة من اللغة القبطية من الكلمات وتعنى الإقليم أو المكان المائى (مصر أثناء حكم الفراعنة، المجلد الأول، ص ٣٣٦) ويعزى العرب إنشاء المدينة إلى يوسف ويرى بعض المسيحيين أن المسيح نفسه قد أنشأ "باهانا" والتى يرون أن موقعها عند أطراف البحيرة (العشارية المصرية، العدد السابق).

وتجدر الإشارة إلى أن المدينة الحالية التى أعقبت القديمة لا تزال غاية فى الازدهار إلا أنها لا تقع تمامًا فى نفس الموقع. و تبعد أطلال أرسينويه عن هذا المكان ببضعة مئات من الأمتار جهة الشمال. وقد دمرت رأسًا على عقب. ونقلت الأعمدة الجرانيتية والرخامية التى كانت تزين هذه المبانى إلى مدينة الفيوم حيث نجد بعضًا منها فى المساجد والبعض الأخر فى ركام متناثر بالمدينة، وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه الأعمدة غاية فى الضخامة.

ولم يعد يتبقى من مدينة أرسينويه القديمة إلا جبل شاهق من الأطلال و الركام تتراوح مساحته بين ثلاثة وأربعة آلاف متر ممتدًا من الجنوب إلى الشمال علاوة على ألفى متر أو ثلاثة آلاف فى الاتجاه الآخر.

وهناك كسر وشظايا لتماثيل جرانيتية ورخامية وأخيرًا ركام العديد من الأوانى الفخارية والزجاجية. ونرى فى كل مكان مبانى قرميدية متهدمة. ومن المرجح أن مسلة أبجيج كانت من بين أثار هذه المدينة.[١]

ويبدو أن هذا التمثال المصنوع من الفيروز - الاصطناعى بلا شك والذى يشير إليه بلينى بقوله إن ارتفاعه كان يبلغ أربعة أذرع _ قد كان قائمًا فى أرسينويه وقد أقامه بطليموس فيلادلفوس تكريماً لأرسينويه شقيقته وزوجته. وكان قائمًا فى معبد يدعى المعبد الذهبى[٢]. وكانت المدينة فى الماضى تتجه أكثر ناحية الشمال وهذا ما يفسر بالطبع وجود أطلال اليوم على مقربة من بياهمو وهذه القرية التى تخترقها قناة قادمة من مدينة الفيوم؛ حيث إن أبعاد هذه الأطلال تنفى كل اعتقاد فى أنها منقولة من مكان بعيد، كما لا يمكن لنا الافتراض قطعيًا أن أثرًا مثل هذا _ الذى يبدو أنه كان قائمًا فى بياهمو - قد تم بناؤه بصورة منعزلة فى وسط السهل؛ فهو يتألف من قاعدتى تمثالين ضخمين من الحجر الجيرى يبلغ طول ضلعهما ثمانية أمتار وارتفاعهما ما يزيد عن العشرة، ومن المؤكد أنه كان مقامًا عليها تماثيل ضخمة مشابهة لتمثالى طيبة

---

(١) انظر الوصف الخاص لمسلة أبجيج فى هذا الفصل.

(٢) بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٧، المقطع ٨ .

الكبيرين. وتبلغ مسافتهما قرابة المائة متر. ووفقًا للتقرير الذى أورده هيرودوت و ديودور الصقلى و بلينى فقد تمت إقامة التماثيل للعديد من الحكام فى أرباض بحيرة موريس، وأطلق السكان على قواعد التماثيل اسم رجل فرعون. ويوجد من حول القرية العديد من الأطلال والكتل الجيرية. (١)

و يخترق بحر يوسف عاصمة الفيوم الحالية بطولها. و على بعد أربعمائة متر شمالاً تتفرع القناة إلى تسعة أفرع وتقوم برى المناطق الداخلية للإقليم و عند منبع كل من الفروع التسعة نجد بابًا يتم رفعه أو إنزاله طبقًا لاحتياجات القرى التى يخترقها من المياه؛ وكل هذه القرى تقع تحت التبعية المباشرة للعاصمة، إلا أن تقسيم المياه يتم بكثير من العدل والإنصاف ؛ حيث إن لكل بقعة من بقاع الإقليم نصيبها من التوزيع. وأحيانًا ما تثار موجة من السخط والرفض إذا ما انتهكت التقاليد الموروثة.

ويقدر سكان مدينة الفيوم بنحو خمسة آلاف نسمة، وقسم منهم مسيحيون إلا أن القسم الأعظم من المسيحيين يسكن فيدمين " حيث نجد أشجار الكروم التى يقومون باستغلالها والتى يستخلصون منها نبيذًا غير ذى جودة ليس بسبب عدم وجود المزروعات فحسب ولكن أيضًا لانعدام الصناعة.

وأشير فى هذا الصدد إلى أن هذه المدينة التى تضم خمسة جسور والعديد من المساجد المهمة، علاوة على بعض المدارس القديمة وأشجار الفاكهه المتعددة الأصناف لن تستغرقنى أكثر من ذلك حيث يتعين علىّ تقديم وصف لها فى الدراسات عن الدوله الحديثة.(٢)

---

(١) يزعم بول لوكاس أنه رأى تمثالاً ضخمًا من الجرانيت فوق إحدى القاعدتين.(الرحلة الثالثة، المجلد الثانى).

(٢) لنفس ذات السبب لن أتحدث عن بحيرة جاراح الواقعة فى جنوب الضاحية التى نجد أطلالاً فى أرباضها. انظر فى هذا المؤلف، الوصف المائى الجغرافى لأقاليم بنى سويف و الفيوم و التى يقدمها السيد مارتان و كذا دراسة السيد جيرار لضاحية الفيوم. دراسات حول مصر، المجلد الثالث، طبعة باريس ٣٠٣،

المبحث الثالث: ضواحى كروكوديلوبوليس ـ والجزء الداخلى من الإقليم

لما كان هدفى يتمثل فى وصف الأماكن التى تضم أثارًا فحسب فسوف لا أتوقف فى هذا الشأن لوصف الإقليم من الداخل ولن أتناول بالحديث إلا الأماكن الرئيسية التى تحتوى على أثار لأعمال فنية أنجزها المصريون[١]. وإذا ما انتقلنا إلى الجنوب الغربى بمدينة الفيوم فسوف نرى ـ أولاً فى قرية أبجيج ـ مسلة من الجرانيت[٢] وبعد قليل من هذا الموقع وعلى بعد فرسخ ونصف فى الاتجاه ذاته سدًا حجريًا شاهق الارتفاع وعظيم السمك، ونحن نعتبره سدًا أثريًا رغم أنه قد أعيد إنشاؤه على ما يبدو لعدة مرات، ويبلغ طول هذا السد قرابة السبعة آلاف متر، ويتجه فى طريق " دفنو " و" سد مويه " و يهدف إلى الحفاظ على مياه الفيضان عند منسوب محدد ويستخدم أيضًا فى رى القسم الجنوبى من الإقليم ويسقط فائض المياه فى أخدود كبير يطلق عليه اسم بحر الوادى وهو يماثل فى حجمه أخدود الشمال و منبعه على بعد مسافة قصيرة من منبع مياه هذا الأخير فى قرية الحسبة على بحر يوسف ويفوق الأخير عرضًا وعمقًا ومجراه أطول بكثير[٣]. وهذه القناة الكبيرة من إنجاز المصرين القدماء أيضا.

و تقطع القناة نحو ستة فراسخ جهة الغرب ناحية أبوجنديرقبل أن تنحرف نحو الشمال و تكتسب عرضاً لا يستهان به، وعلى بعد فرسخ واحد من هنا وعلى مقربة من نزلة وهى آخر القرى التى نلقاها غرب الفيوم يصل عرضها إلى ٤٠٠ متر[٤] أما عمقها فيتراوح ما بين عشرة وخمسة عشر مترا، وفى عمق القناة يوضح القطع الطولى وجود طبقة جيرية ثم طبقات من الرمال المختلطة بأجزاء حديدية ومن فوقها خمسة أو ستة أمتار من الغرين النقى.

---

(١) حصلت على الكثير من المعلومات اللاحقة من المهندس الجغرافى السيد برتر الذى ندين له بخريطة الإقليم من الداخل، كما زودنى برسم تخطيطى لقصر قارون.

(٢) انظر لاحقًا القسم الثالث

(٣) إجمالى طول نحو ستة آلاف متر، أما مجرى " بحر بلا ماء " فهو ٣٥ ألف متر حتى طاميه.

(٤) ملحوظة السيد برتر.

وقد أعقب هذين الفرعين اللذين كانا يجلبان كميات ضخمة من المياه إلى البحيرة القديمة قناة واحدة أصغر بكثير تمتد من حوارات الحسبة بمدينة الفيوم ثم تتقسم بعد ذلك إلى عدد كبير آخر من القنوات؛ ويرجع سبب هذا التغيير إلى تناقص حجم المياه التى كانت تصل فى الماضى إلى بحر يوسف، وسبب هذا التناقص نفسه تراكم الرمال حاليًا فى مصب قناة يوسف فى النيل. وفى نزلة يتم القيام بكافة الترتيبات لاختراق الصحراء، عندما تكون لدينا الرغبة فى زيارة المعبد المسمى قصر قارون الذى نتحدث عنه فى هذا القسم وعلى بعد أربعة عشر ألف متر فى الشمال الغربى لمدينة الفيوم؛ نلقى قرية أبو كسح حيث يوجد خزان مياه ضخم للغاية مربع الشكل طويل و يبلغ عرضه خمسين متر. وتشكيلة هذا القرميد مماثلة للتى نجدها فى الأبنية المصرية. وتدخل مياه النيل الخزان أثناء فترة الفيضان ثم يقوم بالتزويد بالمياه الضرورية للرى عن طريق فتحات موجودة على ارتفاعات مختلفة، ويقوم هذا الخزان مقام السد لاحتجاز مياه الفيضان التى تصل إلى أبى كسح عن طريق أحد الأفرع التسعة التى تحدثنا عنها فى الفقرة السابقة.

وإن لم يحدث ذلك فإن المياه شديدة الانحدار لن تبقى طويلاً فى الحقول بل وحتى من الممكن أن يؤدى مجراها السريع إلى جرف الأراضى. ويمكن هذا الخزان من توزيع المياه بالمقدار ووفقًا للاحتياجات؛ فهل يعود هذا البناء إلى عهد بالغ فى القدم و معاصر لبحيرة موريس ؟ هذا ما لا أجرؤ على تأكيده؛ بل يبدو حتى _ لأول وهلة _ أنه لا يمكن أن يعود لعهد أقدم من التفريعة التى تحمل المياه إلى قرية أبى كسح؛ ولكن من المحتمل أن تكون العصور القديمة قد عرفت _ كما هى الحال اليوم _ قناة مشقوقة وفقاً لنفس هذا الاتجاه. ويبقى أن نقول بأن الأساس الذى قام عليه هذا العمل الفنى تم اتباعه لتشييد مشروع الملك موريس الذى أمر ببناء العمل الضخم الذى يحمل اسمه.

وطاميه قرية رئيسية تقع فى أقصى شمال الفيوم وهى أول ما يلقاه القادم من القاهرة عبر الصحراء[١] وموقع القرية القريب من الطرف الشرقى لبحيرة موريس يلزمنى هنا بالحديث عن شيء؛ فمن المؤكد أن البحيرة كانت تمتد فى الماضى جهة الشرق إلى مكان أبعد من الموقع الموجودة به طاميه، واليوم تجرى قناة كبيرة عند سفح المرتفع المقام عليه القرية، وتحتجز القناة المياه طوال العام بواسطة سد وتخزن فى خزان لاستخدامها فى رى أراضى القرى المتاخمة.

ومن المرجح ـ تمامًا ـ أن يكون السد والخزان من بقايا الحاجز الذى تمت إقامته ـ وفقًا لمقولة المؤرخين ـ عند مدخل بحيرة موريس.

وفى مكان أبعد من ذلك فى الغرب نجد واديًا كبيرًا يعقب " بحر بلا ماء " حيث تجرى المياه بحرية تامة عندما لا تعد هناك حاجة لاستخدامها فى رى الأراضى، وتصب بعد ذلك فى البحيرة على بعد فرسخ واحد من ذلك المكان. وسلسلة الجبال المرتفعة دائمًا أو المنحصرة شمالى البحيرة تنخفض فى اتجاه طاميه وتتغير لتأخذ شكل ربوات لا يربطها شيء بالجبل الشرقى.

وإلى الشرق من مدينة الفيوم وفى قرية " الهوارة الصغيرة " نجد جسرًا من عشرة عقود متجهة بالتوازى مع بحر يوسف.

وفى مكان قريب منه نجد مدخل الأخدود الكبير الذى يتألف من عشرة أفرع والمسمى " بحر بلا ماء " و هو يتجه جهة الشمال و هو نفسه الذى يصب فى طاميه؛ وهذه النقطة هى بمثابة همزة الوصل بين البحيرة و القناة المتفرعة من النهر.

---

(١) غربى المتانية، نترك وادى النيل للدخول فى الصحراء عن طريق منحدر ومرتفع حتى فرسخ من طاميه و من هناك نبدأ فى النزول فى الفيوم، ونخترق ـ أثناء طريقنا ـ العديد من الوديان المتجهة من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى تشقها مياه الأمطار كما لو كان مجرى سيل يوجد فى قاعه مزروعات شائكة. و يستغرق السير من مكان دخولنا إلى الصحراء و حتى قرية طاميه. يومًا كاملا.

واليوم وقد أصبح الجسر واقعًا فوق منسوب المياه المتوسطة فهو يقوم مقام السد، وفى أعالى النيل تسقط المياه فى الوادى عبر عقود الجسر مما يتولد عنه شلال بارتفاع عدة أمتار.

وهذه النقطة نفسها هى أكثر نقاط الجزء الغربى من الإقليم ارتفاعًا وتنخفض قليلاً عن مستوى " الهوارة الكبيرة " أو اللاهون وهى النقطة التى يتخلل فيها بحر يوسف إلى مضيق الفيوم، ومن المرجح أن بابًا كان مقامًا فى هذه النقطة و يستخدم _ كما يقول الكُتّاب _ فى غلق أو فتح منفذ مياه النيل إلى بحيرة موريس.

وهذا الأخدود الكبير الذى تحدثت عنه لتوى هو أحد الأعمال الفنية العظيمة لقدماء المصرين بفضل عمق القناة ومساحتها [1]. ويبرز الرسم المقطعى وجود طبقة سميكة من الغرين يصل ارتفاعها فى بعض الأماكن إلى سبعة أمتار.

ومن قرية " الهوارة الصغيرة " وعلى بعد مسافة قصيرة جهة الشمال نجد هرمًا على مقربة منه الكثير من الأطلال وكتلاً ضخمة من الجرانيت التى تدلل على وجود أثر كبير. وسوف نتناول هذه الآثار القديمة فى القسم الثالث من هذا الفصل.

وعند عودتنا إلى وادى مصر نرى هرمًا ثانيًا من الطوب مثل الهرم الأول يستمد اسمه من قرية اللاهون الواقعة عند مدخل الإقليم [2] و تستمد هذه القرية أهميتها من موقعها ومن السد الضخم أو الطريق المستخدمة فى رفع مياه النيل. ويتفق الموقع تمامًا مع موقع بطوليمايس الذى كان يستخدم كميناء وفقًا لما ذكر بطليموس و كانت ملكاً لسكان أرسينويت وفقًا للاسم الذى تحمله فى الجدول الثيودسى بطوليميدون ارسينويتوم؛ أما الستة أميال التى يتحدث عنها

(١) انظر الملحوظة السابقة.

(٢) انظر وصف هذا الهرم فى نهاية القسم الثالث.

والتى تفصل بين مـدينتى هيـراقليـو و بطوليـمـايس فـهى مـوجـودة بين أهناس واللاهون(١).

وأعتقد أن فى سد اللاهون الكبير وأيضًا فى دفنو ينبغى البحث عن تطبيق لاسم أجيروس تبلينوس الذى نجده فى أحد أوراق البردى المكتوبة باللغة اليونانية والذى تم اكتشافها فى الجيزة فى عام ١٧٧٨(٢) ونجد فى هذه الورقة :

١ ـ قائمـة بأسماء مـائة وواحد وثمانين شخصـاً عملوا فى هذا السد موزعة على سـتة أعمـدة وفقًا لنفس العـادة المتبـعة بيننـا الآن من ناحية تسـجيل أسـمـاء العمـال.

٢ ـ قـائمـة أخـرى بأسـمـاء تسـعـة وسـتـين عـامـلاً قـامـوا بشق قناة فـوسـا فوجيموس فى الفترة ما بين الحادى عشر والخامس عشر من شهر أمشير.

٣ ـ قائمة بالأشخـاص الذين عملوا فى القناة المسماة فوسـا أرجاليدياس وكذا فى شـهـور أخـرى مـن العـام. وهـذا دليل على أنـه كـان يتم إجـراء إحـصـاء دقـيق للأعمـال الخـاصـة بالرى والتى ـ على أهميتهـا فى كل أرجاء مـصـر ـ كـانت تحـتل مكانة أكبر فى أرسـينويه. وسوف أطلق عشوائيًا اسم فوسـا فوجيموس على القناة الكبيرة " بحر بلا ماء "واسم فوسـا أرجاليدياس على قناة بحر الوالى؛ بل إن اسم فوجيموس قد تم إطلاقه فى المخطوط على أحد العمال وهو بازيس فوجيموس.

و يبدو أن قدماء المصرين كانوا يطلقون أسماء على سـدودهم وقنواتهم كما يطلق عليهـا اليـوم تسـمـيـات مـأخـوذة من أسـمـاء الأفـراد أو القـرى المجـاورة.(٣)

---

(١) انظر وصف إقليم مـصـر الوسطى ، القـسم الرابع، المبـحث الثـانى. ويعطى دانفـيل نفس الموقع لبطوليمايس.

(٢) نشر "شو" ورقـة البـردى هذه وتوجد الآن فى متحف بورجيـانوم تحت عنوان Museum Borgianum وهو جزء من المتحف.

(٣) فى هذا المقتطف يتم الإشارة إلى كل فرد على النحو التالى : فلان ابن فلان وفلانة. وتضم القوائم أسماء المصريين واليونانيين والرومان. ويستمد ورق البردى هذا قيمته من الأسماء التى يشتمل عليها.

أما بازيس فهو يعنى ايزياك، و [illegible] بقول شامبليون.

انظر مصر أثناء حكم الفراعنة المجلد الثانى، ص١٩٦ .

ويحدثنا بلينى عن مدينة كريالون القريبة من أرسينويه وليس من المتاح لى معرفة مكانها ولا حتى الموقعين اللذين يتحدث عنهما بطليموس تحت مسمى باكيس أو ديونيسياس و يقعان عند نفس خط الطول وتقع إحداهما عند خط عرض ٤٠ ٢٩° والثانية عند خط عرض ٢٩° ؛ و هذا الاختلاف فى خط العرض الذى يقدر بـ٤٠ هو اختلاف كبير بمقدار النصف حيث إن طول الفيوم لا يتحمل إلا ثمانية فراسخ أو نحو ٢٠° ؛ إلا أننا نجد فى الفيوم وفقًا لما ذكره السيد مارتان موقعين للأطلال الهائلة يقعان تقريبًا عند نفس خط الزوال المغناطيسى ويطلق الأعراب على الأول اسم مدينة نمرود أو قصر تفشارا وعلى الثانى اسم مدينة مهدى و يفصل بين الموقعين عشرون دقيقة من الدرجة. و يقع الموقع الأول على اليسار تمامًا من بركة قارون أما الثانى فعلى مقربة من بحيرة جاراح إلى الجنوب من الفيوم. وعليه فإننى أضع باكيس فى موقع مدينة نمرود و ديونيسياس فى مكان مدينة مهدى وإنى لأجهل لماذا قام دانفيل بما هو عكس ذلك ـ تمامًا حيث أعطى للمدينتين نفس خط العرض تقريبًا.

ومن بين الأثار القديمة التى لم تزل قائمة فى الإقليم وربما ينبغى لنا أن نذكر الأحجار الضخمة المحملة بالنقوش التى رآها بول لوكاس فى فيدمين والتى لم أتوقف عندها عند زيارتى لتلك القرية. وفى الواقع إن هذه الأطلال تشهد على وجود أبنية مصرية فى تلك القرية فى العصور الماضية ؛ وهذا ما لا يفوق ما قمت به آنفا.

ويتحدث الرحالة نفسه ـ و إن كان بأسلوب مبهم بعض الشىء ـ عن مقابر تحت الأرض على مقربة من سنهور. وأثناء تواجدى فى هذا المكان لم أستمع ـ قط ـ إلى من يتحدث عنها ولكنى آأسف لعدم تزودى بمعلومات حول هذا الموضوع، ويؤكد بول لوكاس على وجود مقابر تحوى مومياوات فيما وراء البحيرة.

أما فيما يخص الأثار القديمة لبياهمو فقد أشرت إليها فى وصف أطلال كروكوديلوبوليس وذلك لأننى أعتقد أن تلك البقعة كانت فى الماضى جزءًا من العاصمة القديمة.

القسم الثانى
وصف المعبد المصرى المعروف باسم قصر قارون
للسيد/چومار

حتى نصل إلى الأطلال التى يعرفها الرحالة تحت اسم قصر قارون يتحتم علينا التوجه ناحية الغرب انطلقًا من مدينة الفيوم بعد أن نترك إلى اليسار قرية أبجيج مرورًا بقرى دسيا والمنشية وجارادو ؛ وتقع هذه القرية الأخيرة فى غابة شاسعة من أشجار النخيل. وبعد ساعة نصل إلى بحر الوادى وهو وادى عريض وعميق تحدثت عنه آنفا، وعبوره شاق بسبب انحدار حوافه وصعوبة وجود حراسة. وبعد عبور هذا البحر نتوقف عند قرية نزلة على بعد أربعة فراسخ ونصف من العاصمة؛ وهنا نتزود بكل احتياجاتنا استعدادًا للرحلة عبر الصحراء[1].

---

(١) لقد قمت بهذه الرحلة أيام ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢ من الشهر الخامس فى التقويم الجمهورى من العام السابع (من ٢٤ حتى ٣١ يناير ١٧٩٩) برفقة السادة برتر و روزيير و دوبوى و كاستكس تحت حماية فرقة من الجنود الفرنسيين والعرب زودنا بها قائد الإقليم الجنرال زايونشيك. و لما كان هذا البلد سوف يصبح بلاشك قبلة أنظار المسافرين علاوة على أنه من الصعب القيام برحلة فيه ليس بسبب العربان المنتشرين فى الصحارى المحيطة فحسب ولكن ايضًا بسبب طبيعة الأرض، فلقد اعتقدت أنه قد يكون من المفيد هنا أن نذكر شيئاً عن هذه النوعية من الصعوبات وبعد كثير من العناء وصلنا إلى نزلة ثم غادرنا فى الساعة الثانية و النصف من بعد الظهر ووصلنا إلى قرية أبى دنكاش الصغيرة فى الساعة الخامسة و النصف. وكان الظلام قد حل فوجدنا أنفسنا فى الساعة السادسة على ضفاف شلال عريض و عميق هو بحر الوادى الذى لم نكن نعرفه، وقد بدا=

وعند مغادرة المرشدين لنزلة يتوجهون إلى الغرب لمسافة طويلة؛ إلا أنه يتعين علينا بعد ذلك الصعود ناحية الشمال حيث يتم أولاً عبور أحد الوديان و فى نهاية ساعة وربع من السير فى أرض قليلة المزروعات يدخلون فى صحراء رملية تنتهى ناحية اليمين ببركة قارون و تمتد إلى اليسار حتى الجبل. و الشىء الجدير بالملاحظة هو أننا نعثر فى هذا السهل الفسيح - الذى بات رمليًا اليوم - على العديد من كسور الجرانيت المشغول و الطوب و الفخار، كما نجد أيضا بقايا بعض الأبنية من الطوب لم تزل قائمة؛ وكل شىء يشير إلى أن هذا الحى من الإقليم كان مأهولاً فى الماضى.

= لنا بمثابة هوة مخيفة. وضل مرشدونا على أرض مليئة بالحفر العميقة فظلت تتعثر و تسقط فيها الجياد و الجمال المحملة و كذا المترجلون فى كل خطوة من خطواتهم. وسرنا على مدى نصف الساعة على ضفاف هذه الهوة السحيقه. و اقترحنا إرسال شيخ من العربان لإضاءة النيران أو ليأتينا بمرشدين؛ إلا أنه حدث انقسام فى الأراء، و أراد كل واحد أن يقوم بدور المرشد. و كان الجنود يسيرون أمام الضباط. و عدنا أدراجنا مع تكبدنا للمعاناة نفسها؛ إلا أننا لم نكن نعلم إلى أين نحن ذاهبون فتوقفنا من جديد، وكانت السماء ملبدة بالغيوم ولم نتمكن من الاهتداء إلى طريقنا حتى عن طريق النجوم، وأخذنا ندور حول أنفسنا بلا توقف حتى فقدنا اتجاه القرية. ولما كان ينقصنا الخشب لإشعال النار أخذنا ندق على الصناديق لتحذير من يبحثون عنا و لتوجيههم. وكانت الجياد و الجمال و الحمير قد استنفدت قواها لسيرها طويلاً فى أراضى باتت غير صالحة للسير من كثرة الحفر فيها، ولما كان العطش و التعب قد بلغا بنا مبلغهما فقد قررنا قضاء الليلة فى المكان نفسه واقفين لنكون على أهبة الاستعداد لمجابهة أى اعتداء من جانب العربان الأعداء. وانتظرنا ساعتين على هذه الحال و فى صمت مطبق. وأخيرًا وصل إلينا بعض الفلاحين، كان شيخ العربان المرافق لنا قد ذهب بعيدًا للإتيان بهم، وسرنا معهم إلى الغرب مباشرة و بعد مرور ثلاثة أرباع الساعة عبرنا الشلال وفى الساعة العاشرة و النصف كنا فى شمال نزلة وقد أصابنا الإعياء لمواصلتنا السير على مدى خمس ساعات فى ظلام دامس مخترقين الوديان و الحفر والهوات السحيقة. أيقظ قرع الطبول الشيوخ و السكان وأخذنا بعض التموين و اثنين من المرشدين و ثلاثة شيوخ للمكان و ثلاثة عربان مسلحين و اثنين من العاملين فى مناجم الملح؛ وقد أحطنا هؤلاء الرجال علمًا بأنه على بعد ثلاثة فراسخ من قصر قارون يوجد مناجم ضخمة لملح المنجم. والأمطار التى تهطل على السلسلة الليبية تقوم بإذابة هذا الملح مما يسهم فى تمليح مياه البحيرة. أما الحفر فهى ناتجة عن تراجع الأراضى بعد الفيضان خاصة فى أعقاب سنوات طويلة. وفى الدراسة التى أجريتها عن بحيرة موريس تحدثت عن الحواجز التى لا يمكن تجاوزها و حتى عن مخاطر الأرض التى يواجهها الرحالة الذين يحاولون السير فى قوافل على الضفة الجنوبية للبحيرة - دراسات العصور القديمة.

وبعد مـا يزيد عن ثلاثة سـاعات من السـيـر فى الصـحـراء نرى إلى اليـمين المعبد المسمى " قصر قـارون " ومنذ اللحظة التى بدأنا نلمحه فيها كان أمـامنا ما يقرب من سـاعة و نـصف قبل أن نصل إليه، و أمـام هذا المبنى و من حوله نجـد العـديد من الأطلال المتناثرة و بقـايا العـديد من المعـابد الصـغيـرة سـيئـة الطراز بعضها أعمدته متداخلة والعديد منها تم ترميمة فى عهد لا يبدو أنه ينتمى إلى العصور القـديمـة، وتشـهـد هذه الأطلال ورديم المبانـى وجوانب الحـوائط التى لم تزل قـائمة على وجود بعض المسـاكن فى هذا الجـزء من إقليم أرسـينويت القـديم. ومن بين الأطلال التى تحـمل اسم " بلد قـارون " نرى مـعـبـدًا صـغيـرًا مكشـوفًـا مماثل للمعبد المربع فـى فيلة وهو يقـع على بعد مـائة خطوة شـرق قصـر قـارون و يبلغ ارتفـاع جذع الأعـمدة التى مـازالت قائمـة نحو أربعـة أمتـار [١] . ويقـع قـصـر قـارون على بعـد نحـو سـتـة فـراسـخ فى عـزب ربع الشـمـال الغـربى من نزلة ونصف فـرسخ من جنوب ضـفـاف البـحـيـرة، وعلى بعـد مـا يزيد عن الفـرسـخ من طرفـه الغـربى. وهو لا يـأخـذ وجـهـة مـعينة حـيث تأخـذ واجهـتـه اتجـاه شـرق الجنوب الشرقى.

وفى المقدمة نجد أنقاض رواق به عمودان يبلغ عرضهما ١,٦ مترا [٢] نصل إليه عن طريق منحدر يقع بين درجتين. و لم يزل ثلث العمود الأيسر قـائمًا و كذا طبلية التاج اليمنى. وهنـاك سور يمكن تتبع حدوده يحيط بالرواق. و على الجـانب الأيسر نجد أبنية ترتفع خارج الأرض، لا نعرف الغرض من تشيدها ؛ ويأخذ هذا المبنـى ـ مثله كغيره من الأثار المصـرية ـ شكل مـتوازى الأضـلاع حيث يبلغ طوله ٢٨,٦٠ متـرًا و عرضـه ١٨,٨٠ متـرًا [٣] باسـتـثناء الرواق[٤] و تبلغ واجـهـته قـرابة سـبـعـة أمـتـار و ثلثاً[٥]. و يتـألف الارتفـاع من ٤٢ مـدمـاكاً مـتسـاوية يبلغ ارتفـاع كل

(١) انظر اللوحة رقم ٧٠، المجلد الرابع، الشكل ١٤ .

(٢) زهاء الخمس أقدام.

(٣) نحو ٨٨ قدمًا على ٥٨ .

(٤) إجمالى الطول ما يزيد عن ٣٦ متر ـ أى نحو ١١٠ أقدم.

(٥) ٢٢ قدما.

منها ٢٢٥ مترًا[١] أما الارتفاع الإجمالى فهو ٩,٤٧ مترا[٢]. وعليه فإن الأبعاد الثلاثة للأثر تتناسب فيما بينها بمقدار ١، ٢، ٣. ويتوج المبنى كورنيش محفور بشكل غائر بارتفاع ثلاثة مداميك أو ٠,٦٧ مترا[٣] و يطوق الأثر شريط بارز قطره ستة عشر سنتمترا[٤] يحيط بواجهاته الأربع. وللحوائط الخارجية ميل ملحوظ ويسهم هذا الميل مع غيره من الوحدات الزخرفية فى إثبات أن هذا المبنى هو أثر مصرى، و سوف يوضح ذلك باقى الوصف المقدم هنا.

كما نلحظ بالخارج أيضًا إلى اليمين و على مقربة من الباب نصف عمود يبلغ قطره زهاء الاقدام الأربعة و هو يرتكز على الواجهة ولا ترتبط مداميكه مع مداميك الحائط، و إلى الجانب الأخر من الباب لا نجد ما يشبه ذلك ولا حتى أثاراً و هذا ما يثبت أن نصف العمود هذا لم يقم إلا لاحقًا بعد إقامة المبنى[٥]. وفى الواقع، فإن كل مداميك هذا المبنى تتوالى بانتظام من الخارج إلى الداخل وكل شىء منتظم تمامًا.

و من فوق الباب، نرى _ كما هى الحال فى كل الأبواب المصرية _ قرصًا بارزًا بأجنحة منبسطة، وهذا القرص خال من الرسومات كما جرت العادة ولا يحمل أى شكل آدمى مثلما رأينا فى الرسم العجيب الذى نشره بول لوكاس[٦]. كما أن القرص لا يحمل أسفله أية رسوم هيروغليفية[٧].

---

(١) ثمانى بوصات و أربعة خطوط.

(٢) نحو ٢٩ قدما.

(٣) ٢٥بوصة.

(٤) ست بوصات.

(٥) انظر اللوحة رقم ٩٦، المجلد الرابع و اللوحة ٧٠، الشكل الثالث.

(٦) بول لوكاس، الرحلة الثالثة، المجلد الثانى.

(٧) افترض بول لوكاس وجود نصف عمود مماثل من الجانب الأخر، ومع وجود الشرائط البارزة التى تزين الزوايا توصل إلى تشكيل رواق كبير يدعمه أربعة أعمدة ضخمة من الرخام. و لم يلحظ هذا الرحالة _ قليل الأمانة _ العمود الذى ينتمى حقاً إلى الرواق. وما يذكره عن إفريز يقع فى أعلى الباب و عن رأس يغطيها غطاء ويحيط بها أربع زوايا رخامية فى شكل شماع لايقل غرابة عما سبق.

و للولوج إلى داخل المبنى يتعين علينا صعود منحدر صغير عبر أجزاء أعمدة يتألف من رديم الرواق والطابق العلوى [١] والباب مسدود جزئيًا بهذا الرديم ويبلغ عرضه ٢,٢٠ مترا [٢] مثله مثل الباب الثانى[٣]. وهذا الرديم يسود الأجزاء بالداخل ويصل إلى أبعد الحجرات وهو يبلغ أقصى ارتفاع له حتى إن الأبواب الجانبية مسدودة بالكامل، وللدخول فى القاعات التى تؤدى إليها هذه الأبواب اضطررنا إلى فتح فتحات إضافية.

وأولى الحجرات هى أطولها على الإطلاق حيث يبلغ طولها ٧,٥٠ [٤] مترًا وعرضها ٥,٣ [٥] مترًا، وتتبعها حجرتان لهما نفس الطول وهو ٧,٥٠ مترا. أما الحجرة الرابعة فهى تختلف عن سابقتها وطولها ممتد بطول المبنى وتبلغ أبعادها ٥,٦٠ مترًا على ٣,٤٠[٦] مترا، وتحمل مزيدًا من الزخارف وبها ما يزيد عن أربع مشكاوات تزينها حليات قالبية ذات زخارف دقيقة علاوة على أن الشكل الجانبى نقى للغاية. ويسهل علينا التعرف بسهولة على هذا المبنى على أنه قدس الأقداس.

أما واجهته الداخلية فهى تحمل الزخرفة الموجودة على الأبواب جميعها ـ أى القرص المجنح الذى يحيط به ثعبانان، وهذه الزخرفة منقوشة بشكل منمق و مزخرفة بدقة بالغة، ومن فوقها نجد إفريزًا يتألف فى مجمله من حيات كوبرا، ومن بين الزخارف نجد صورة العجل ابيس. وعلى نفس واجهة قدس الأقداس نرى فى المنتصف ـ أى فى أبرز النقاط ـ حيزًا فارغًا يمكن أن يسع عرضه مذبحًا صغيرًا، ومن على كل جانب نجد بابًا صغيرًا بلا منفذ يبلغ عرضه قرابة المتر الواحد و يتوجه قرص مجنح تم تنفيذه بدقة تفوق تلك المتبعة فى تنفيذ الأبواب

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٩ .

(٢) ستة أقدام و نصف.

(٣) حفر بول لوكاس وريشارد بوكوك أسماءهما على الباب من الداخل، كما نقش السيد كاستكس إلى جانبهما أسماء الرحالة الفرنسين المذكورين بعاليه.

(٤) نحو ٢٣ قدما.

(٥) سبعة أقدام و ثلث تقريبا.

(٦) سبعة عشر قدمًا على عشرة و نصف.

الأخرى، وتؤدى هذه الأبواب الوهمية ـ بعد تجويف يبلغ ثلاثة أقدام ـ إلى حائط صغير لم يزل على حاله الأولى من جانبه الأيمن ومهدم جزئيًا من جانبه الأيسر. وإذا ما دخلنا فى التجويف الذى يحتل جهة اليمين فسوف نلحظ فتحة صغيرة فى السقف، وقد صعدت من خلال هذه الفتحة فوجدت نفسى فى غرفة خامسة لم يقم بول لوكاس بزيارتها ولا حتى جرانچر أو بوكوك ويبلغ طولها زهاء ٢,٩٠[١] مترا وعرضها ١,١٠[٢] مترا و تشكل ما يشبه الطابق العلوى نسبة إلى أرضية قدس الأقداس، و هذه الغرفة ظلامها دامس حيث إنها مغلقة من كافة الجوانب ولما كانت بنفس الارتفاع تقريبًا لباقى الحجرات علاوة على أنها أصغرها فالصوت يدوى فيها بدرجة كبيرة. ولاحظت فى الأرضية فتحتين تميلان للاستطالة يسمح عرضهما بمرور إنسان وتغلق كل واحدة بحجر تم صقله لهذا الغرض ولم نزل نراه إلى جانب الفتحة ؛ وهاتان الفتحتان موازيتان لقبو صغير مربع الشكل يبلغ طول ضلعه نحو ثلاثة أقدام، وإذا ما حسبنا سمك الأرضية يكون ارتفاعه متر و نصف[٣] وهذا ما يجعله قادرًا على احتواء رجل. وإذا ما ظل الرجل فى وضع الوقوف فسوف تصبح رأسه بالضبط خارج الفتحة و تتخذ مكانها فى الحجرة الغامضة؛ وهذا الوصف يوضح الغرض الذى تم من أجله إقامة الغرفة المدوية للصوت، وكذا الحجارة والقبو، وهى تجعلنا نعتقد أن مثل هذا الترتيب المنفرد كان الهدف من إقامته هو وحى الآلهة. وعندما كان يتم استشارة إلة المعبد، كان كاهن مكلف بهذه المهمة يدخل فى القبو ويرفع الأحجار كما يرفع صوته و يجيب فى مكان محكم الإغلاق ويدوى صوته بقوة فى قدس الأقداس ويعطى لصوت الوحى نبرة مذهلة. إذا لم يكن هذا إلا مجرد افتراض، فربما يكون هو الأسلوب الوحيد لتفسير الترتيب القريب لهذه الغرفة التى ليس لها مخرج ظاهر و لتى لا يتم الدخول إليها إلا عبر أنفاق تحت الأرض[٤] أما فيما

(١) تسع أقدام.

(٢) ثلاث أقدام وأربع بوصات.

(٣) أربع أقدام و نصف.

(٤) هذا الترتيب يتناسب مع ما نعرفه عن الوحى الذى كان موجودًا فى مصر، وكذا مع وصف وحى سيرابيس فى الإسكندرية؛ حيث تحدث روفان فى وصفه للمعبد كما لوكان ممتلئا بالممرات =

يخص ارتفاع الصوت فلقد اقتنعت بذلك نتيجة لتجارب متكررة؛ فلما كنت قد جلست فى هذه القاعة المرتفعة وقت وجود رفقاء سفرى فى المعبد كنت أردد بعض العبارات وقد اعتقدوا أنهم يسمعون العديد من الأصوات المجتمعة والمدوية.

وفى الحيز الفاصل بين القبوين قمنا بأعمال تنقيب تعرفت من خلالها على بعض درجات سلم مؤدى إلى الممرات الأرضية فى الأقبية نفسها، و فى خلفية هذا الحيز توجد فتحة خشنة تؤدى حتى خارج المعبد على الواجهة الغربية وترجع لعصر متأخر.

وعند تفحصنا لقدس الأقداس فى المعبد على الواجهة الخلفية نلاحظ فى الأعلى جهة اليسار أحجارًا ارتفاعها ضعف المداميك الأخرى ؛ وهذه الأحجار طويلة ـ نسبيًا ـ ولامثيل لها فى هذا المبنى حيث إن مجموع المداميك هنا متساويًا ومتتاليا. ويعتقد العربان الذين لاحظوها ـ أيضًا ـ أن هناك ذهب مخبأ تحت هذه الأحجار ؛ كما نلحظ ـ أيضًا ـ عند الوصلات المحطمة بعض الشىء ما يوضح أنها قد تعرضت للاعتداء أكثر من مرة[١].

ويتميز ـ أيضًا ـ جدار خلفية قدس الأقداس بالوصلات المائلة للأحجار وهى نوعية من التشكيلات التى عرف عن المصرين استخدامها[٢].

ويبلغ الارتفاع الحالى للطابق السفلى ـ فى أكثر أجزائه ازدحامًا بالرديم ـ ما يزيد عن أربعة أمتار وكان ينبغى أن يكون ارتفاعه ستة أمتار ونصف[٣] قبل الرديم أما ارتفاع الأبواب فهو أربعة أمتار وربع[٤]. و تتألف الأسقف من أحجار

= الأرضية وفى مقالة " الوحى " نقرأ أن أقبية قدس الأقداس المعابد كانت تزيد من نبرة الصوت وتجعله مدويًا بشكل يثير الفزع!

(١) انظر اللوحة رقم ٥٨، المجلد الثالث الشكل٧ حيث نرى أحجارًا مماثلة فى أحد آثار طيبة.

(٢) انظر اللوحة رقم ٧٠،الشكل الخامس وفى طيبة اللوحة رقم ٥٨، المجلد الثالث، الشكل الرابع. وتظهر بعض الوصلات المائلة فى المعبد المكشوف بفيلة.

(٣) نحو عشرين قدما.

(٤) ثلاث عشرة قدما.

ضخمة كلها من كتلة واحدة ومتساوية العرض، وطول الأحجار فى اتجاه طول الحجرة، وحتى هذا الترتيب قد تغير حيث أنه فى قدس الأقداس ـ الذى يوجد طوله رأسيًا على طول الحجرات الأخرى ـ نجد أن وصلات الأحجار فى نفس الاتجاه ويبلغ طولها ٥,٦٠ مترا[١] فى هذه الغرفة الرابعة ويبلغ طولها ٧,٥٠ مترًا[٢] فى الثلاثة غرف الأولى؛ هذا دون إحصاء الأجزاء المرتكزة على الحوائط الجانبية.

و لم يرضخ أى من هذه الأسقف الضخمة تحت وطأة ثقله فالدور السفلى كما هو فى كل أجزائه علاوة على أن اللون القديم الظاهر فى كل أرجائه لم يصبه أى تغير حتى إنه يبدو حديث العهد، و قمة الباب الثانى هى فقط المتزعزعة بعض الشىء وهذا أيضًا من فعل البشر. وكانت هناك رغبة فى إسقاط الكورنيش والبحث من خلفه؛ إلا إنه يبدو أنه لم يلبث أن تم التغاضى عن هذه الفكرة؛ اضف إلى ذلك أن اختيار المواد وحسن التنفيذ قد أسهم بنفس قدر إسهام المناخ فى الحفاظ على هذا المبنى كما لو كانت لم تمسسه يد وكذا حمايته من اعتداءات الزمن والبشر. أما النقوش فهى اكثر شىء أصابه التلف؛ فلقد شمل التلف كل الزخارف وحظى القرص المجنح بأكبر قدر منه.

وبخلاف الحجرات الخمس التى تحدثت عنها حتى الآن نجد من كل جانب خمس حجرات أخرى عارية و مجردة من أية زخارف. وقد ذكرت أننا ندخل فى الحجرة الموجودة جهة اليمين من القاعة الأولى من قاعات المعبد عن طريق مدخل اضطرارى بسبب انغلاق الباب[٣]. وندخل بصورة أسهل فى القاعات الموجودة جهة اليسار ولكننا نجد الأرض مرتفعة بسبب أعمال التنقيب : ونجد أن منسوب الأرض زاد ارتفاعه فى كل أرجاء الحجرات؛ فلقد قام العربان دائمًا بتقليب أرض هذا المعبد مقتنعين باحتوائه على كنوز؛ وهذا أيضًا هو الدافع وراء

(١) سبع عشرة قدمًا.

(٢) نحو ثلاثة وعشرين قدما.

(٣) نلحظ فى هذه الغرفة تجويفًا بعرض قدم واحدة عميق بعض الشىء تم فتحه على الجدران الأربعة ؛ وربما تم نزع بعض طبقات المعدن عنه.

إقبـال الأوروبيين من كل الأرجاء على اكتشاف الصحراء كما تم التنقيب فى الممرات الموجودة فى باطن الأرض أيضًا وهذا ما يجعل من المستحيل الولوج فيها. وقد تحققت ـ فقط ـ عند إسقاطى للحجارة فيها أن عمقها لا يقل عن أربعة أو خمسة أمتار[١]، كما أننى أشك أنها بعمق طابقين.

ومن بين هذه الحجرات الجانبية الخمسة هناك ثلاث تتميز بصغر حجمها. وهى التى تحيط بقدس الأقداس من الجانبين، و يتم الدخول إليها عبر ممر مشترك يفصل فيما بينها و يوجد مدخله فى القاعة الثالثة من قاعات المعبد؛ إلا أن هذه الحجرات لا تتصل فيما بينها، ويبلغ طولها ٢,٧٦[٢] مترًا وعرضها ٢,٣٠ مترا[٣]. ومن الصعب افتراض الغرض الذى استخدمت من أجله قاعات بمثل هذا الضيق وسوف أتحدث عن ذلك لاحقا.

وفى الماضى كان يتم الصعود إلى الطابق العلوى عن طريق سلم موضوع على جانبى القاعة الثالثة وقد أصبح اليوم مغلقًا بصورة شبة كاملة، كما كان يمكن الوصول إليه عبر بئر محفورة فى كتلة البناء بين السلم الموجود جهة اليمين و بين القاعة الجانبية الثانية و قد تم إحداث خرجات فى البئر لهذا الغرض. واليوم نصعد ـ عادة ـ عن طريق واجهة المعبد المواجهة للجنوب والتى أصابها بعض التلف عند منتصفها مما يجعل من هذا الصعود عملية غير مريحة. ومع وصولنا إلى أعلى نجد أن الطابق العلوى قد تهدم فى جزء كبير منه و أن أحجار السقف العلوى التى وقعت تحت وطأة ثقلها قد جعلت هذا الطابق مكشوفا. أما فيما يختص بأجزاء السطح التى لم تتعرض لأى تلف و بقيت كما هى فهى لم تزل مغطاة بطبقة ملاط؛ أصبحت اليوم غاية فى الرقة.

والرسم التخطيطى مماثل تقريبًا للرسم التخطيطى الخاص بالطابق الأرضى، والقاعة الوحيدة المميزة هى القاعة الخلفية المقابلة لما هو فوق قدس الأقداس، وقد أصبحت اليوم مكشوفة مثل غيرها من القاعات، ونجد فيها بقايا

(١) من اثنتى عشرة إلى خمس عشرة قدما.

(٢) ثمان أقدام و ثلاث بوصات.

(٣) سبع أقدام و أربع بوصات.

شكلين بارزين بالحجم الطبيعى للإنسان ويغطيهما الرديم حتى ركبتهما، وهما الشكلان الوحيدان اللذان يمكن رؤيتهما فى المعبد كله. و الشكل الموجود جهة اليسار يحمل فوق غطاء رأس أحد الآلهة، ويحمل بإحدى يديه علامة الحياة وباليد الأخرى صولجان الواس ويبدو برأسه الذى يميل إلى الاستطالة - وبقدر ما يمكن لنا أن نحكم - ممثلاً لأوزوريس برأس كبش حيث يصعب التعرف على الوجه من كثرة الضربات التى تلقاها. أما الثياب فهى فاخرة و مماثلة للرداء الذى ترتديه أشكال الألهة فى دندرة، أما الشكل الموجود جهة اليمين فقد أصابه تلف أكبر؛ حيث تم تحطيم مداميك الجسم ولم يعد يبق من الجزء العلوى إلا قمة غطاء الرأس.

و يوضح لنا كسر الرأس الذى وجدناه بين الرديم - والذى حددت موضعه بالتقريب - إن الشكل لوجه إنسان تتوج رأسه نباتات. والعين المرسومة بشكل أمامى فى وجه ممثل بشكل جانبى علاوة على ارتفاع الأذن فوق الحاجب إنما يدلان على أنه عمل مصرى. وقد تم رفع منتصف هذا النقش كما لا نجد أية أجزاء للأذرع فى حطام هذا الشكل ؛ إلا أن هناك ما يدعو للاعتقاد أن هذا الشكل ممثل لكاهن يقدم القرابين إلى الإله أوزوريس. و المسافة الفاصلة بين هذين الشكلين قد تعرضت لتلف كامل. والجزء الذى يتخذ مكاناً مركزياً يأخذ شكل مشكاة وكان يضم غالبًا فى الماضى شكلاً هاما . وبالقاعة زخارف أخرى ولكن يصعب وصفها، وبها عمود صغير غير مرتفع يرتكز على كل حائط جانبى ويحمل طرفها العلوى ما يشبه القنوات وما يتبقى منها ما هو إلا كسر.

ونحن نرى - من هذا الوصف - أن هذا المبنى لم يكن يضم إلا نقوش قليلة. ولم ألحظ فيها حرفًا هيروغليفيًا واحدًا رغم أن بول لوكاس يفترض امتلاء كافة الأبواب و الغرف به[1]، ولم يبالغ هذا الرحالة بدرجة أقل بخصوص عدد القاعات و هو عدد كبير بعض الشىء لمبنى بهذا الاتساع وإن كان يفترض وجود

---

(١) بول لوكاس، الرحلة الثالثة، المجلد الثانى.

خمس عشرة حجرة سواء أعلى أو اسفل الطابق الأسفل، فلا يجب أن يتجاوز عددها ٤٥ حتى وإن قمنا بإحصاء الغرف الصغيرة مثلها مثل الكبيرة[١].

وقصر قارون مبنى من أحجار جيرية صلدة إلى حد كبير ومن شأنها أن تكون قد تم صقلها، ونحن نجدها فى رصيف حجرى مكشوف على مستوى الرمال والذى تبدأ رؤيته على بعد ثلاثة فراسخ من نزلة، والأرض المحيطة من نفس ذات الطبيعة ولا يوجد أى رخام معروف فى البلاد.

ويبقى لى أن أشير إلى وجود فتحات تميل إلى الاستطالة ومحاطة بإطار نجدها على الجانب الجنوبى من المبنى، وهى لا تخترق سمك الحائط بأكمله ولم تستخدم فى إنارة المبنى من الداخل، وعليه فقد يصعب تحديد استخدامها. ويفترض بوكوك أنها فراغات ناتجة عن نزع اللوحات الرخامية التى كانت موجودة عليها إلا أنه لا يوجد ما يبرر هذا الافتراض. وقد وجدت على بعد مائتى خطوة فى الاتجاه الشمالى الغربى مذبحاً طوله متر واحد[٢] على ستين سنتيمترا[٣]، أما ارتفاعه فهو ١٨ سنتيمترًا فقط[٤] ومن حوله يوجد شريط بارز وإفريز صغير مزين بأوراق الشجر، وفى الوسط يوجد رأس إنسان مرسوم من

(١) يؤكد بول لوكاس أنه دخل فى ما يزيد عن ١٥٠ قاعة مختلفة الأشكال و الأطوال بعضها مربع و البعض الأخر مثلث و مرتبة بشكل غير منتظم فى وسط الكثير من الانحناءات حتى أنه كان يوشك أن يضل طريقه _ كما يقول _ فى هذا المكان المحفوف بالمخاطر لو لم يكن قد استخدم ما يزيد عن ألفى بكرة خيط و نثر قشاً مقطعًا على طريقه. كذلك فإنه _ كما يضيف _ لم يرى إلا عشر قاعات حيث انغلقت منافذها بسبب الرديم. ونشعر بمدى غرابة مثل هذه التدابير الوقائية عندما يقوم المرء بزيارة مبنى منتظم وغير واسع حيث ما من ضرورة لتأكيدها، والوصف الذى يقدمه لوكاس خاطئ كما هو فى الفقرات التى رأيناها لتونا. كما أن الرسومات محملة بنفس القدر من الأخطاء حيث نجد الرسم الجانبى للتكتة مقلوبًا رأسًا على عقب بالكامل، ويبدو الطابق العلوى فيه متألقًا _ على مرمى البصر _ من مجموعة كبيرة من البوابات و العقود و الممرات فى نسب أصغر من الطابق الأرضى و بفضل هذا الشكل يصبح هائل الحجم. وهو يؤكد بجراءة أن الأعمدة وكل القاعات وكذا الغرف التحت أرضية قد تم بناؤها من رخام أبيض جميل، ولا نلوم على هيرودوت إلا أمرًا واحدًا وهو أنه قال فى وصفة لقصر التيه إنه كان مشيدًا من أحجار بيضاء.

(٢) ثلاث أقدام.

(٣) قرابة قدمين عرضًا.

(٤) سبع بوصات.

الأمـــــام وله قـرنـان (١) ، ومن فـوقـه يوجد تجـويف عـميق بمقـدار ثمـانيـة سنتيمترات(٢) وهو مخصص على ما يبدو لإراقة الخمر تطهيرًا للأضحيات، وهو مكسـور رأسـيًـا إلى جـزءين، عن يمـين الرأس، وتتـفق أبعـاد هذا المذبح مع أبعـاد التجويف الذى يحتل مركز قدس أقداس المعبد؛ إلا أنه من غيـر الممكن التأكيد بأنه كان جزءًا منها.

ولا يمكن لنا أن نشك فى أن هذا المبنى لم يكن مـعـبـدًا مـصـريًا طالما أنه يحمل كل مواصفات المعابد التى نجدها فى أعالى مصر؛ فهو على شاكلتها من حيث إن حوائطه الخارجية مائلة وكرانيشه محفورة فى مضيق وأبوابه محاطة بأشرطة بارزة و مزينة بقرص مجنح و مكسوة بإفريز بأشكال الثعابين و نجد فى هذه التشكيلة وصـلات مـائلة كمـا فى طيبـة و فـيلة ـ عـلاوة على أن الكرانيش المؤلفة من أشكال الكوبرا والأشكال المصرية الموجودة فى الطابق الأول و طريقة انهاء النقوش ورقتها لا تترك مجالاً للشك، والحق أن هذه الأحجار الضخمة التى يبلغ طولها ثمانية امتار والمتراكبة الأسطح إنما تحمل طابع البناء المصرى.

والباب الأول هو الفتحة الوحيدة التى تسمح بدخول الضوء إلى داخل المبنى علاوة على أن الظلام يتزايد دائمًا حتى نهاية المبنى وكل شىء يدلل على الطابع الغامض للعبادة المصرية، ونحن لا نرى عليـه أية نقوش هيـروغليفيـة ولكن هل نراها فوق الأهرمات أو على العديد من المعابد الصغيرة فى طيبة والتى يبدو أنه لم يتم الانتهاء منها؟

وتذكرنـا هذه المعابد الصـغيرة تحديدًا_ من حيث واجهتها و نسبها_ بقـصـر قــارون(٣)؛ وإذن فمن المؤكد أن هذا المعبد هو بناء مصرى إلا أن معرفة العصر

---

(١) انظر المجلد الرابع، اللوحة ٧٠، الأشكال ١٦ : ١٨ ولم يتم رسم القرون بدقة فى الصورة (شكل ١٦) وكان ينبغى تقويسها إلى الداخل عند مستوى العينين، كما تم نسيان تحديد الكسر.

(٢) ثلاث بوصات .

(٣) هناك أحد الظروف الأخرى التى قد تدعونا للاعتقاد أن المعبد ينتمى إلى العصور المصرية القديمة؛ وأعنى بذلك العلاقة المحددة و الدقيقة بين ارتفاع الأثر وواجهته وطوله. وهذه الأبعاد الثلاثة التى تساوى _ كما ذكرت _ ٢٨,٦٠، ١٨,٨٨، ٩,٤٧ تقيم فيما بينها علاقة مثل الأعداد١و٢و٣ تقريبا. ونحن نعرف كيف كان البناءون المصريون يعنون غاية العناية باستخدام هذه النسب المتجانسة. انظر وصف الأثار ودراستى عن نظم القياس لقدماء المصريين.

الذى أنشئ فيه ليست بنفس قدر سهولة التعرف على الطراز المعمارى. ويذكر هيرودوت أن الألوهية لم تكن تنسب فى مصر إلا لبعض الآلهة مثل: خونسو وحورس وآمون وچحوتى ولبعض الإلهات مثل: نيت وحتحور وايزيس[1] ولما كانت جبهة الإله الممثلة فى نقش الطابق الأول مزينة بقرنى كبش والقاعة الغامضة يمكن اعتبارها بمثابة غرفة للوحى الإلهى؛ فإننى أعتقد - إذا ما كان من الممكن صياغة افتراض خاص بالعبادات فى هذا المعبد - أننا لن نحيد كثيرًا عن الحقيقة إذا ما افترضنا أنه كان يتم فيه عبادة آمون أو أوزوريس برأس كبش و أنه كان يتم إصدار الأوامر بإسمه فيه. و الواقع أن موقع المبنى عند مدخل الصحراء المؤدى إلى الواحات و إلى معبد آمون هو بلا شك دافع لترسيخ هذا الافتراض؛ وهذا ما يؤكده أيضًا شكل المذبح الصغير. والحجرات الجانبية التى تحدثت عنها ربما كانت مكانًا لعبادة أخرى كانت تمارس فى إقليم أرسينويه و أعنى عبادة التماسيح. وهناك ثلاث مدن مصرية كانت تحمل اسم كروكوديلوبوليس : الأولى هى نفسها مدينة أرسينويه والثانية إلى الجنوب من أخميم أما الأخيرة فهى شمال أرمنت. ونضيف إليهما مدينتى قفط وكوم امبو. وقد أراد العديد من مفسرى الأساطير شرح هذه العبادة الغريبة حيث افترضوا أن أنصار إله الشر هم الذين قاموا بإرسائها انطلاقًا من اعتقادهم أن روحه قد انتقلت إلى جسد تمساح _ ويذكر إليان فى بحثه أن هذه العبادة قد تم إرساؤها لإصدار أوامر إلهية.[2]

ويعود بنا ديودور وايتان البيزنطى إلى أصل أسطورى لهذه العبادة حيث يذكرون أن الملك مينا قد دفعه شعور بالعرفان بالجميل تجاه تمساح أنقذه من مطاردة كلابه عندما نقله إلى الضفة الأخرى من بحيرة موريس؛ فشيد على مقربة من البحيرة مدينة تحمل اسم هذا التمساح وأصدر أوامره بتقديس التماسيح فيها على اعتبار أنها آلهة وخصص لها بحيرة لحمايتها. و يقدم دوبو افتراضًا عبقريًا فى هذا الشأن[3]؛ حيث يلاحظ أن قفط و الفيوم ومدينة التماسيح الثانية واقعة فى مكان بعيد عن النيل على القنوات ويكفى أن نترك

---

(١) هيرودوت ، التاريخ، الكتاب الثانى،المقطع ١٨٣ .

(٢) إليان، الطبيعة الحيوانية.

(٣) دوبو، المجلد الخامس، ص ١٤٧ .

هذه القنوات مسدودة قليلاً حتى يتوقف وصول التماسيح إليها؛ وعليه فقد كانوا على يقين أنه ما دامت العبادة مستمرة فسوف تستمر صيانة القنوات. و الحق أن مدينة كوم امبو تقع على النيل نفسه و هذا ما كان يجهله دوبو إلا أن ذلك يفند التفسير كما أوضحنا ذلك فى وصف المدينة. "فالتمساح لدى هذه الشعوب _ كما يضيف _ كان رمزا ليس للشر ولكن للمياه التى تجلبها روافد النيل؛ وعليه فكان ينبغى تكريمه فى إقليم أرسينويه بقدر اعتماد وجود هذا الإقليم بالكامل على هذه التفريعات النيلية". والحق أن قناة يوسف لو لم يكن باستطاعتها دخول الفيوم لأصبحت البلاد غير قابلة للسكنى؛ اضف إلى ذلك أن السكان كانوا يبجلون التمساح حيث يقول استرابون(١) فى بحثه إنه كان مقدسًا وإنهم كانوا يتولون تربيته بمفرده فى إحدى البحيرات وإنه بفضل عناية الكهنة أصبح بمثابة حيوان خاص وكانوا يطلقون عليه اسم سوخوس وكانوا يعلقون فى أذنيه أقراطًا من الذهب وفى قدميه الأماميتين ما يشبه السلاسل الصغيرة أو الأساور. وكان أحد الكهان يقدم له أطعمة معدة كقربان لا يلبث أن يقوم بالتهامها، وكان استرابون شاهدًا على ذلك ويضيف هيرودوت لتلك التفاصيل(٢) أنه كان يتم تعطير التماسيح المقدسة ووضعها فى الممرات تحت الأرضية لقصر التيه. ومن المحتمل أن يكون قد تم استخدام الغرف الجانبية لقصر قارون فى استقبال تماسيح صغيرة؛ وما يؤكد هذا الافتراض هو القرب الشديد لبحيرة موريس حيث كان يتم تربية التماسيح؛ وفقًا لما يذكر هيرودوت واسترابون.

ويذكر كيرشر اسما قبطيًا للتمساح وهو "بيزوحنى" وهو يتفق مع الاسم الذى يطلقه عليه استرابون وغيره من الكتاب(٣). والاسم القبطى الصحيح يتفق تمامًا مع الاسم الذى يقدمه هيرودوت، كما يتفق كذلك مع اسمى تاكومسو أو متاكومسو اللذين يطلقهما الكُتّاب على جزيرة واقعة إلى الشمال من أسوان حيث تتوافر التماسيح(٤).

(١) انظر نص استرابون الوارد لاحقا، رقم ٣ .

(٢) هيرودوت، التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ١٤٨ .

(٣) انظر جابلونسكى، المجمع المصرى، المجلد الثالث، ص ٧٠ .

(٤) انظر وصف الفنتين، الفصل الثالث المجلد الأول ص ٢١٢ .

ولا نجد فى أى من الآثار المصرية الأخرى الرواق المرتكز على عمودين وقد تحدثت عنه فى البداية، ويمكن أن نفترض بدرجة تقترب كثيرًا من الصحة أنه قد تمت إضافته على الفور وكذا نصف العمود المتصل عند الواجهة وكذا فإن طبلية التاج التى مازالت قائمة لا تبدو منفذة بنفس أسلوب المعبد؛ ويؤكد هذا الرأى أن مقاطع الأعمدة وكذا كافة الأحجار التى كانت جزءًا من الرواق تحمل علامة مميزة تأخذ شكل طرف سهم لا نراها على أحجار المعبد(١). كما نلحظ أيضًا على واحد من الأحجار الموجودة ضمن رديم الواجهة نقشًا كتابيًا بالغ القصر أو على الأقل لم يزل باقيًا منه إلا ثلاث كلمات أو أربع. وما نستطيع أن نستخلصه من هذه الآثار القليلة هو أن أحد الأفراد كان قد قدم قربانًا لإلهة مصرية تدعى ترموتيس؛ وهذا الاسم هو أيضًا اسم ثعبان قدسته الأساطير المصرية ويمكن لنا أن نقترح قراءته وهو اسم لأحد الشهور المصرية(٢) .

وسوف أنهى وصفى هذا بدراسة الاسم الذى يطلقه العربان على هذا المبنى. والحق أن أسلوب نطقه وكتابته يعطيانه معنيين مختلفين. فالحق أن اسم قصر قارون وهو الذى يبدو الاسم الحقيقى يعنى القصر الذى يتخذ شكل قرون ؛ ومن المرجح أن هذا الاسم مستمد من الأطراف الأربعة البارزة التى يمثلها _ عند الزوايا _ الكورنيش الذى يتوجه.

وفى الواقع إن رواق أطلال أنتينويه قد أطلق عليه العربان اسم "أبو القرون" بسبب الزوايا التى تؤلفها خرجات السطح وتيجان الأعمدة الكورنثية.

وتجدر الإشارة أن غالبية الرحالة والكتاب الذين تحدثوا عن هذا القصر قد تبنوا اسم " قصر قارون " وهذا _ على ما يبدو _ بسبب قصة موروثة عن العربان فى هذا البلد وهى قصة _ على كل حال _ شديدة الغرابة؛ فقد ذكر البعض أن رجلاً يدعى قارون قد استقر على ضفاف البحيرة حيث كان يُصَّر _ دون علم

(١) انظر اللوحة رقم ٧٠، الشكل الحادى عشر و الثانى عشر.

(٢) انظر اللوحة رقم ٥٦، المجلد الخامس ودراستى عن الكتابات القديمة التى تم جمعها فى مصر.

الأمـيـر _ على حصوله على إتاوة من عائلات الموتى الذين يريدون دفن موتاهم على الضفة الأخرى؛ وبناء على ذلك كون ثروة طائلة وقام ببناء هذا المبنى. ووفقًا لمقولة البعض الآخر فإن قارون هو اسم رجل مكلف _ وفقًا لقوانين البلاد _ بنقل الجثث عبر بحيرة موريس لوضعها بعد ذلك فى قبور واقعة فى مكان بعيد.[١] وقد تخيل بول لوكاس وجود مثل هذا الشخص الذى يدعى قارون فى هذا الجزء من مصر حيث كان يوجد العديد من المدن ونحو ثلاثة آلاف قرية قام بتغطيتها بالرمال[٢] وهو يتساءل بعد ذلك عما إذا كان هذا القارون هو قارون اليونانيون والأغريق؟ وأبدًا لم يتحدث الكُتّاب اليونانيين أو الأغريق عن قارون من هذا المنظور.

ويبقى القول بأنه رغم أن قصة النوتى الجهنمى هى على الأرجح مصرية الأصل إلا أننى أعتقد بأنه لا يمكن البحث عن دليل لها مثلما فعل بعض الكتاب الذين زعموا وجود الدليل فى اسم هذا المبنى _ المنطوق بصورة سيئة _ والذى أبدًا لم يكن قصرًا أو قلعة مثلما سماه العربان[٣]. إذن فعلينا التمسك بالاسم الأول وهو قصر قارون الذى يتفق مع عبقرية اللغة العربية.

وبحيرة الفيوم المسماة بركة قارون _ قد أطلق عليه بشكل بديهى _ اسم مبنى كان قريبًا من ضفافها ولربما يرجع السبب فى هذه التسمية إلى طرفيه اللذين يأخذان شكل طرفى هلال.

(١) بول لوكاس، الرحلة الثالثة، المجلد الثانى .

(٢) ويتحدث فانسلب أيضًا عن قارون، سيد البلاد جميعها.

(٣) ما هو الاحتمال الذى يدعو للاعتقاد أن العربان قد حافظوا على تقليد هذه القصة عندما نعرف أنهم لا يملكون _ عمومًا _ أى مفهوم للأزمنة القديمة فى مصر، وأن كتابهم يعزون فى بعض منهم _ تشييد الأهرامات إلى النمرود و البعض الآخر إلى جيان بن جيان وهو سيد العالم قبل آدم وأن العديد قد قاموا ببناء القاهرة قبل عهد الطوفان ؟

ويمكن لنا أن نقدر التقاليد العربانية الخاصة بقارون عبر ما يذكره أحد كتابهم والذى نعتبره قريبًا لموسى. انظر فى: دراسات أكاديمية النقوش والآداب، المجلد الثالث، ص ٦ .

مقتطفات لملاحظات فورمان عن الجهنم الشمرى، وكذا فى: المكتبة الشرقية لهيربلوت، ص ٢٥٩ و٣١١ .

القسم الثالث

وصف للأطلال التى تقع بالقرب من هرم هوارة وهى الآثار المتبقية من قصر التيه، ومقارنة لهذه الأطلال مع روايات المؤرخين القدامى، يتبعها وصف لهرم اللاهون

للسيدين/چومار و كاريستى

الجزء الأول
وصف للأماكن

المبحث الأول: الأطلال الواقعة بالقرب من الهرم

على بعد فرسخين تقريبًا من الجنوب الشرقى لمدينة الفيوم وعلى مسافة ثلاثة أرباع فرسخ شمال قناة يوسف تقع هضبة واسعة وممتدة تطل على كل المقاطعة لتصل إلى الشرق فى مواجهة اللاهون وهى قرية تقع فى مدخل الفيوم، وفى الشمال الشرقى لهذه الهضبة وفى شمال قرية هوارة تقريبًا تم تشييد هرم من الطوب الأحمر يشبه هرم اللاهون ولكنه أكبر من حيث المساحة. وعند انتقالنا من بنى سويف إلى مدينة الفيوم[1] نمر بهذا الهرم الأخير ونصبح على بعد ألف وخمسمائة متر من الهرم الأول.

وقد تم اكتشاف أطلال مماثلة شمال وغرب هرم هوارة وتنتمى هذه الأطلال بلا ريب نظرًا لامتدادها وموقعها وطبيعة الآثار المتبقية إلى قصر التيه الشهير، وهذا ما سوف يثبته الوصف الذى سنلجأ إليه مقارنة بالوصف الذى أعطاه

---

(١) نختصر أحياناً مصطلح مدينة الفيوم بكلمة (المدينة).

الذين سبقونا، وبهذا نأمل حسم المسألة التى طالت مناقشتها حول موقع قصر التيه. وفيما يتعلق ببحيرة موريس والمتصلة بالتيه فقد ظهر بحث عن هذا الموضوع فى الجزء الأول من " دراسات العصور القديمة[١]".

وقد تعرف بعض المهندسين الفرنسيين بالفعل أثناء رحلتهم الأولى إلى الفيوم فى يناير عام ١٧٩٩ على بعض الأطلال الهائلة وكتل من الجرانيت بالقرب من هرم هوارة[٢].

وأوردنا وصفًا مختصرًا لهذه الأطلال وفقًا لبعض التركيبات الجغرافية ورأينا أنها تمثل موقع التيه[٣]؛ وتؤكد الملاحظات اللاحقة هذا الرأى تماما. وفى ٣١ ديسمبر ١٨٠٠ قام أحدنا[٤] بصحبة أحد الزملاء أثناء مهمة له فى الفيوم[٥] بالبحث عن الأطلال، وقد رفض السكان والأعراب فى المنطقة إمدادهما بأية معلومات نظرًا لانعدام الثقة والنوايا السيئة مما أجبرهما على مواصلة الرحلة فى خضم الصحراء دون صحبة أو مرشد و دون توفر أية معلومات. وقد قاما بالبحث طويلاً ولكن هباء، وفى النهاية اكتشفا تلك الأطلال وحققا هدفهما على الرغم من هذه الظروف الصعبة.

و على بعد سبعة آلاف و خمسمائة متر تقريبًا من "المدينة " يقع التجويف الكبير الذى وصفناه فى القسم الأول من هذا الفصل والذى يشبه قناة هائلة العرض، وقد هبط إليه المسافران وقطعاه من الوسط إلى الشمال ثم عبرا بعد ذلك الكثبان الرملية المتحركة متجهين إلى هرم هوارة المواجه لهما، و بعد أن وصلا إلى قمة الهضبة التى يقع عليها هذا الهرم اكتشفا فى الحال الأطلال الكثيفة التى تغطيه؛ وقد كان منظر هذا المبنى وموقعه رائعا. و فى الواقع فإن

---

(١) ارجع إلى الدراسة عن بحيرة موريس،

(٢) إن السيدين برتر وجومار هما اللذان تعرفا على هذه الأطلال.

(٣) فى الدراسة الخاصة عن بحيرة موريس وقد قرأها السيد/ جومار فى مجمع القاهرة فى الثامن من أكتوبر ١٨٠٠ .

(٤) كاريستى مهندس الطرق و الكبارى.

(٥) مارتان مهندس الطرق و الكبارى.

المرء لا يمل من تأمل ريف الفيوم الضاحك الذى ترويه ألف قناة لتضفى عليه النضارة الدائمة والمختلف - تمامًا - عن الصحراء الغربية.

ولم يكن هناك أفضل من هذا الموقع لتشييد قصر التيه أحد الأعمال الرائعة التى أنتجها الفن المصرى.

ولأول وهلة فإن منظر هذه الآثار يبدو وكأنه شكل متوازى الأضلاع تقع على جانبيه الكبيرين وعلى جانبه الشمالى بقايا سور مفتوح من جهة الجنوب، وهناك كميات هائلة من ركام الأحجار المقطوعة والملقاة عشوائيًا والجزء الأكبر منها مدفون غالبًا تحت الرمال[١].

وبالتوغل فى هذه الأطلال نجد بعض الأجزاء من أسوار مهدمة ومن أفضل الأجزاء حفظًا اليوم نجد السور الأوسط للمبنى بجانب الهرم وبعض الأبراج الصغيرة المضافة لهذا السور من الخارج.

وتبلغ مساحة هذه الأبراج حوالى ستة أمتار مربعة والجزء المتبقى منها الذى يقع بالقرب من الهرم لا يتعدى ارتفاعه المترين فوق سطح الأرض، وقد تم بناؤها من الحجر المقطوع ومن الحصى الرفيع، ولم يؤثر الزمن على هذه الأحجار[٢] مما يؤكد أن تشويه الأثار يكون من فعل الإنسان وهذا هو ما أثبته لنا التاريخ.

وقد قام المرحوم السيد/ مالوس _ الذى توجه من بنى سويف إلى هذه الأطلال عدة مرات بالتقيب عن هذه الأحجار، واكتشف على أرضها غرفًا منحوتة فى الصخر وبعض الأبنية المهدمة، والجزء الأكبر من الغرف الأرضية كان مغطى بالرمال ومواد البناء.

---

(١) وفقاً لتقرير السيد/ مارتان.

(٢) فيما يتعلق بدقة الحصى يمكننا مقارنتها بحصى تونار فى مقطاعة بورجونى .

المبحث الثانى : هرم هوارة

يقع الهرم الكبيرالذى تحدثنا عنه على نفس الهضبة فى الناحية الجنوبية الشرقية من الأطلال وعلى أطرافها، وتم تشييده من الطوب النيِّئ المحروق بأشعة الشمس، ويبلغ طول كل جانب منه عشرة أمتار من ناحية القاعدة ويبلغ ارتفاعه العمودى حوالى ستين مترًا، وقد احتفظ هذا الهرم بشكله بصورة جيدة باستثناء قمته الضعيفة بعض الشىء والجزء السفلى من أضلاعه الأربعة تدعمه سلسلة من الأحجار المقطوعة على شكل مربعات أو أحجار معشقة فى الجدار بحيث يذهب طولها فى عرض الجدار ولا يبدو منها إلا الطرف الأصغر ولا ترتفع أكثر من ثلاثة أمتار عن سطح الأرض، ونحن نعتقد أن هذه الأحجار لم يتم وضعها فى هذا الأثر إلا بعد زمن من إنشائه للحفاظ عليه وصيانته[١]. وواجهات الأحجار المستخدمة فى بناء هذا الهرم تأخذ جميعها نفس ميل واجهاته الأربع ويبلغ طول هذه الواجهات ثمانية وأربعين سنتيمترًا وارتفاعها يصل إلى واحد وعشرين، وهذه الأحجار مصنوعة من الطين المخلوط بقليل من القش المضغوط والمضاف إليه الجير حتى يكتمل اندماج كل أجزائه؛ وهذا هو ما تأكدنا منه عندما قمنا بكسر أحد تلك الأحجار[٢].

وقد زار السيد/ مالوس أيضًا هرم هوارة الكبير بل وذكر أنه دخله عن طريق قناة بدت له وكأنها مغطاة بالأحجار أو محفورة فى الصخر، وفى أسفلها وجد مصدرًا لمياه شديدة الملوحة وتجويفًا يأخذ شكل تابوت حجرى[٣].

---

(١) انظر اللوحة ٧٢، شكل ١.

(٢) انظر ملاحظات مارتان حول منطقة الفيوم.

(٣) قارن السيد/ مالوس هذا التجويف بالمغطس، وقد زود هذا المهندس الماهر السيد جومار بهذه المعلومات بعد رجوعه إلى فرنسا بقليل ثم صادفته المنية بعد ذلك وحرمت البشرية من علومه، وقد نشكك من وجود مصدر للمياه فى هذه الأنحاء؛ ولكن السيد مارتان وجد مياه شديدة الملوحة فى أسفل الأنفاق المبنية من الأحجار والمؤدية إلى داخل هذا المبنى.

المبحث الثالث: بقايا معبد فى جنوب هرم هوارة

عندما نهبط من فوق الهضبة تجاه الغرب نجد مسطحًا من الأرض على شكل منحدر طبيعى ينحدر جزؤه الأعلى انحدارًا شديدًا ثم يتلاشى تقريبًا فى أسفله حيث يظهر سور جديد تهبط فيه التربة عن مستوى الهضبة بحوالى خمسة عشر مترًا. ويتكون هذا السور من ستة عشر تكدسًا من الأنقاض مصطفة بتناسق، وفى الوسط ترتفع إحدى البنايات نعتقد أنها لمعبد ولا تزال أعمدته ملقاة فى المكان وتحولت إلى أنقاض.

وتشكل ستة من هذه التكدسات سور الجهة الشرقية وتتراءى ستة تكدسات أخرى فى الجهة الغربية والأربعة الباقية منها فى الوسط، ولقد تفحصنا جيدًا لنرى ما إذا كان هناك بعض أجزاء من جدار أو من بناء لا تزال قائمة؛ ولكننا لم نجد أى شىء مماثل وبقايا صالة الأعمدة لم تسمح لنا بالتكهن بطريقة تنظيمها؛ ولكن يبدو أنها كانت تحوى ثمانية إلى عشرة أعمدة تهدمت جذوعها وترقد حاليًا بجانب قواعدها. وهذه الأعمدة من الجرانيت الصوانى وتشبه الأجزاء المتبقية منها الجذوع المقطوعة، وكانت هذه الأعمدة مزخرفة من الجوانب بطريقة مماثلة لمعبد الجنوب فى الفنتين والجزء السفلى منها على شكل مخروط ناقص، ومن بين هذه الأنقاض نرى أيضًا تيجان الأعمدة، ونحن نأسف لعدم تمكننا من قياس الأجزاء المختلفة من هذه الأعمدة بدقة.

والسور الثانى - مقارنة بالآخر فوق الهضبة - أصغر بكثير وتربته متجانسة تمامًا وفى أعلاه ودائمًا فى اتجاه الغرب تنحدر الأرض حتى تلتقى بالتجويف الكبير.

و هكذا فإننا نرى من خلال الوصف السابق أننا نستطيع أن نصل بسهولة إلى الأنفاق تحت الهرم وتحت الأثر الكبير عن طريق السور المعبد.

وكل الأحجار التى استخدمت فى بناء المبانى مصقولة وحبيباتها كما سبق وقلنا دقيقة ورفيعة جدًا ونعتقد أن هذه الأحجار قد تم استخدامها فيما بعد لعمل الرخام.

وفيما يتعلق بامتداد الأنقاض فإننا نستطيع أن نؤكد أنها تغطى مساحة تصل إلى أكثر من ثلاثمائة متر طولاً وحوالى مائة وخمسين عرضًا، والبيانات الواردة من السيد مالوس تتفق فى أن هذه الأنقاض تغطى مساحة هائلة وأن مجمل الأنقاض يبلغ مساحة أكبر بكثير.

وعندما نجوب هذا المكان لأول مرة فإننا نلاحظ وجود كمية كبيرة جدًا من الجماجم وعظام الإنسان ناصعة البياض ولا ترجع إلى العصور القديمة ولكنها على الأرجح بقايا رفات أعراب القبائل المجاورة.

والمسافة المقطوعة بين الهرم وأنقاض أرسينويه القديمة أو مدينة التمساح وبين أقرب منطقة إليهما وفقًا للقياسات الهندسية تصل إلى سبعة آلاف وأربعمائة وخمسين مترا.

الجزء الثانى
مقارنة بين الأنقاض ووصف قصر التيه

المبحث الأول: ملاحظات أولية حول موقع بحيرة موريس

لقد أوردنا فى الصفحات القليلة السابقة وصفًا مختصرًا لكل الأنقاض المتبقية من المبانى المصرية التى تقع فى هذه المنطقة وسوف نقارن الآن بين السور والمعبد والهرم كما وصفناهم للتو وبين روايات المؤرخين السابقين عن قصر التيه. وبدلاً من ذكر كل أولئك الكُتّاب سوف نقوم بإجراء مقارنة لفقرات كل كاتب على حدة بالموقع الحالى؛ وحيث إن موقع التيه يرتبط بموقع بحيرة موريس ويفصل بينهما هؤلاء الكتاب فإننا سوف نذكر باختصار ما يمكن اعتباره معلومات مؤكدة عن هذه البحيرة الشهيرة فى العصور القديمة.

يتفق جميع المؤلفين على أن مساحة بحيرة موريس كانت شاسعة وأنها كانت توجد فى مقاطعة كروكوديلوبوليت على مقربة من مدينة كروكوديلوبوليس - مدينة التمساح - أو الفيوم. فالبحيرة الكبيرة الموجودة حاليًا فى الفيوم هى من بقايا بحيرة موريس، ولقد أوردنا البراهين على هذا الرأى فيما سبق[1] وأوضحنا أن هاتين البحيرتين متوافقتين من حيث المكان والشكل والامتداد والموقع الجغرافى، وقد اعتنق هذا الرأى كل من : هيرودوت وديودور الصقلى واسترابون

---

(١) انظر الدراسة حول بحيرة موريس بقلم السيد: چومار، الجزء.

بلينى وبطليموس واتيان البيزنطى وبعض الكتاب الآخرين من العصور القديمة واتفقوا عليه بسهولة ويسر ولكننا أوضحنا أيضًا أن «بحر بلا ماء» هى المجرى الضخم الذى يتجه من هوارة إلى الشمال ليصب فى بحيرة طامية كان جزءًا من بحيرة موريس(١) ويجب علينا أن نؤكد على هذه النقطة الأخيرة.

ونرى أننا قد أوردنا بكل وضوح الآراء التى تضمنتها كل المناقشات الجغرافية القديمة والمتعلقة بالتطابق بين بحيرة موريس وبركة قارون التى تتطابق وحدها من حيث الامتداد وطبقات التربة مع البحيرة الأولى. وعند مقارنتنا لمساحة الموقع الحالى مع روايات المؤرخين فالشك الوحيد قد يكمن فى صعوبة تقبل فكرة أن بحيرة بمثل هذا الامتداد تكون من صنع الإنسان إذ كيف يمكن تصور أن الإمكانيات المصرية أو غيرها استطاعت تحمل مثل هذه النفقات أو توافرت لديها الطاقات البشرية التى تمكنها من حفر هذا الامتداد ونقل أكثر من ثلاثمائة وعشرين مليار متر مكعب من الصخور؟(٢).

وعلينا فى هذا الصدد إجراء بحث أكثر تعمقًا حول هذا المكان لإيضاح هذه الصعوبة التى تتلاشى عندما نرى هذه القناة الكبيرة التى تمتد من هوارة إلى طامية والتى يطلق عليها اليوم «بحر بلا ماء»، وتصل هذه القناة بين فرع النيل والبحيرة الكبيرة؛ بل يمكننا القول بأنها كانت تعتبر جزءًا من بحيرة موريس التى تكون بدايتها ونهايتها وهكذا فإن مشاهدة هذه القناة تكفى لاقناعنا بأنها من صنع الإنسان. والوصف الذى أوردناه فيما سبق(٣) يبرهن على أنها قد تم حفرها؛ فعمقها وشكلها واتجاهها ومسارها الذى لا يزال كما هو حتى الآن لا يترك لنا مجالاً للشك.

لذا وجب علينا هنا أن نطابق بين بعض فقرات هيرودوت ومؤرخين آخرين يؤكدون أن هذه البحيرة من صنع الإنسان؛ فقد تم حفر القناة التى تقع بين بحيرة مقاطعة آرسينويت وربما أيضًا القناة التى تقع فى مداخل القنوات التى

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) انظر دراسة جومار حول بحيرة موريس

تصب فيها؛ وهذا العمل الضخم يجعلنا نقول إن البحيرة بأكملها هى من عمل الإنسان، ومن المؤكد أن مياه النيل لم تصل إليها ولم تتكون بحيرة المياه العذبة إلا بعد حفر هذا الفرع الضخم. وهناك فقرة أخرى من هيرودوت توضح أكثر هذا التفسير على الرغم من أنها قد تبدو ظاهريًا أنها تعارض هذا الرأى؛ غير أن هذا التعارض يؤكد رأينا ويبرهن عليه فهو يقول إن بحيرة[١] موريس تتجه من الشمال إلى الوسط وهذا الرأى لا يطابق مسار بركة قارون من الشرق إلى الغرب ثم إلى الجنوب ثم إلى الغرب؛ ولكن هذا الفرع المتجه من هوارة إلى طامية يتجه فى الواقع من الوسط إلى الشمال. فمن الواضح إذن أن المؤرخ يقصد هذا الجزء من البحيرة، ومما يمحو أى مجال للشك أنه أضاف قائلاً فيما بعد أن البحيرة تتجه إلى الغرب من داخل البلاد وبطول الجبل الليبى[٢].

وليس مؤكدًا أن يكون هيرودوت قد زار البحيرة الكبيرة ولكن الجزء الذى شاهده بالقرب من قصر التيه أو المغارة الكبيرة[٣] ؛ كان يتجه فيما مضى ولازال إلى الآن من الوسط إلى الشمال.

وعلينا إذن بطريقة ما تقسيم بحيرة موريس التى شاهدها المؤرخون السابقون إلى جزءين: الأول عبارة عن مستودع المياه الضخم الكائن أسفل السلسلة جبال الليبية فى وسط مقاطعة آرسينويت، والجزء الثانى يتكون من القناة العريضة الواسعة التى تتصل بفرع النيل والتى يطلق عليها اليوم بحر يوسف؛ هذا الفرع الذى تم توصيله إلى هذه المقاطعة بعد شق الجبل الذى كان يمنع وصول المياه إليها.

ويصف ديودور الصقلى القناة الكبيرة وصفًا دقيقًا بقوله " إنها كانت تبلغ ثمانين غلوة وأنها كانت تربط النيل ببحيرة موريس، وفى الواقع وكما رأينا فيما سبق فإن اتساع «بحر بلا ماء» يصل إلى ثلاثمائة قدم أو مائة متر عرضًا وحوالى

---

(١) و يتجه الميناء الصغير من الشمال إلى الجنوب.

(٢) فى الجزء المستدير من الجبل الذى يتجه نحو الوسط من خلال الجبل الأعظم. (هيرودوت، التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ١٤٩).

(٣) القناة العظيمة، بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٦، الفصل ١٦.

خمسة عشر ألف متر طولاً (أو ثمانين غلوة بالقياس المصرى القديم) وذلك إذا ما تم قياسه عموديا فيما بين الحدود القديمة للبحيرة ورأس القناة[١]".

أما استرابون الذى لم يكتب قط أن بحيرة موريس من صنع الإنسان؛ فلم يكن لديه إلا هذه البحيرة للكتابة عنها[٢].

وعلى العكس من ذلك فإن بومبوينوس ميلا لا يتحدث إلا عن هذه القناة[٣] قائلا: " إنها كانت عبارة عن ريف قديم، فالحفرة قد تم حفرها فى أحد السهول الزراعية فى حين أن البحيرة كانت ولا تزال توجد فى أرض قاحلة وجافة؛ غير أن هذه الملاحظات تتطابق مع آراء هيرودوت[٤].

ووفقًا لبومبونيوس فإن محيط البحيرة لا يتعدى عشرين ميلا، وهذا الامتداد يمكن اعتباره جزءًا من «بحر بلا ماء» وهذا التطابق غير مشكوك فيه[٥] والبحيرة نفسها كان يصل محيطها إلى ألف وتسعمائة غلوة أو أكثر من مائة وعشرين ميلا [٦].

وهكذا فقد قام بعض المؤرخين بدراسة البحيرة بينما تناول البعض الآخر التجويف والقسم الثالث منهم تناول الاثنين معًا.

وبعد مقارنة جميع نصوص المؤرخين بالمواقع ومقارنتها ببعضها لم يعد هناك أى تعارض فى الآراء.

---

(١) انظر دراسة المقاييس المترية عند المصريين القدماء.

(٢) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، وانظر فيما يلى النص رقم ٣.

(٣) بمبونيوس ميلا _ عن مواقع المدن _الكتاب الأول، المقطع ٩.

(٤) لأن مدينة أيثوس كانت بالفعل فى هذا المكان.

(٥) عشرون ميلاً رومانيًا توازى تقريبًا تسعًا وعشرين ألفًا وخمسمائة متر.

(٦) ويقترح ميتيان أربعمائة وخمسين ميلاً رومانياً لأنه اختصر حساب ثلاثة آلاف و ستمائة غلوة بالقدم االتى توازى ثمن الميل _ أما بلينى فإنه يحدده بمائتين وخمسين ميلا مما يوازى ضعف الامتداد الحقيقى ويرجع هذا إلى أنه استخلص هذا الرقم من القناة التى يصل محيطها إلى ثلاثة آلاف وستمائة غلوة صغيرة والتى توازى مائتين وثلاثة واربعين ميلاً رومانيًا أو مائتين وخمسين إذا ما أردنا رقمًا صحيحاء وفى البحث الخاص ببحيرة موريس الذى ذكرناه فيما سبق فإن جومار يرى أن الألف وثمانية غلوة وهى الاتساع الحقيقى للبحيرة تقابل أرقام هيرودت وديودور على أساس انه كانت توجد وحدة قياس صغيرة الشون وهى توازى ثلاثين غلوة وأخرى توازى ستين غلوة وقد تم الخلط بين وحدتى القياس الصغيرة والكبيرة.

وهناك مسألة هامة يجب دراستها ومجال البحث هنا لا يسمح لنا بالتعمق فيها ألا وهى المزايا التى تعود على استصلاح الأراضى من بحيرة موريس. وفى البحث المذكور أعلاه أظهرنا أن المؤلفين أجمعوا على الميزتين اللتين تميزان هذا الحوض؛ فهو أولاً يتلقى المياه الزائدة و يخلص البلاد من الفائض منها، وثانيًا يعتبر خزانًا تستطيع مصر من خلاله رى جزء من أراضيها أثناء الفيضانات الضعيفة. والنقطة الأولى لم تواجه أية صعوبة فعند فتح السدود والحواجز كان من السهل أن تصب المياه الفائضة التى كانت تحول دون زراعة الأراضى فى بحيرة مقاطعة أرسينويت، وهكذا فقد كان من السهل على مصر الوسطى أن تتوافر لها المياه على مدار العام إلا فى حالات ضعف الفيضان. ويبق لنا أن نشرح كيف كانت البحيرة ـ كما يقول استرابون ـ تعيد المياه المتجمعة إلى حوضها عن طريق فتحتى القناة. فى الواقع كان هناك شلال من المياه عند موقع "اللاهون" الذى كان يرتفع عن البحيرة؛ غير أن تربة "اللاهون" مثلها مثل بقية أراضى الوادى كانت ترتفع كثيرًا فيما مضى. والأمر الثانى يتعلق بمستوى الفيضان الذى يختلف كثيرًا عن المياه المنخفضة والذى كان يتكاثف فى البحيرة وخاصة فى قناة الربط الواسعة بواسطة السدود والروافع و الحواجز و على مستوى أراضى بطوليمايس تلك النقطة التى تماثل اللاهون والتى كانت هى نفسها أكثر ارتفاعًا من السهل المجاور. وهذه السدود وهذه الأعمال الفنية اختفت اليوم وتم استبدالها بأبنية حديثة لا تعبر قط عن الدولة القديمة؛ ولكن يساورنا الشك _ وفقًا لشهادة هيرودوت ـ أن المياه لم يتم توصيلها أثناء انخفاض النيل إلى الأراضى المنخفضة تلك الأراضى التى لا يمكن أن تكون سوى منطقة منف لأن المياه ـ وفقًا لهذا المؤرخ ـ تجرى ستة أشهر فى البحيرة وستة أشهر أخرى فى النيل.

وفى الدراسة الخاصة عن بحيرة موريس أظهرنا أن هاتين الفترتين ترجعان إلى زمن فيضان النهر وانخفاض منسوبه، وقد استعرضنا فيها ـ أيضًا ـ بتفاصيل أكثر عما هى عليه الحال فى هذا البحث؛ كل ما يتعلق بمسار بحيرة موريس التى أثارت إعجاب العصور الوسطى بأكملها والتى لا نعرف ـ كما يقول ديودور الصقلى ـ كيف نتحدث بكل تقدير عن أولئك الذين قاموا بحفرها وعن خيراتها!!

المبحث الثانى : موقع قصر التيه

نستطيع الآن أن نتناول موضوع موقع قصر التيه الشهير ولكن بعد استعراض روايات المؤرخين، وحتى لا نجزئ الوصف الذى أعطاه لنا الكتاب فسوف نذكره هنا كاملاً بدلاً من أن نكتفى بما يتعلق بالموقع الجغرافى للتيه، وسوف نبدأ بهيرودوت الذى حدثنا قائلا: "لقد كانوا يريدون (الاثنا عشر ملكاً) أن يتركوا للأجيال القادمة أثرًا مشتركًا، وبعد اتخاذ هذا القرار عملوا على بناء متاهة فوق بحيرة موريس بقليل وعلى مقربة من مدينة التماسيح. ولقد رأيت هذا المبنى الذى يفوق أى وصف فكل الأعمال وكل المبانى الإغريقية لا يمكن مقارنتها به لا من حيث العمل ولا من حيث التكاليف فهى أقل منه بكثير. فمعابد إيفاز وساموس جديرة دون شك بالإعجاب ولكن الأهرامات تفوق كل ما يمكن قوله عنها وكل منها على حدة يمكن أن ينافس العديد من الأبنية الإغريقية مجتمعة.

قصر التيه يفوق أيضًا تلك الأهرامات فهو يتكون من اثنى عشر فناء مغطى وأبوابه يقع كل منها فى مواجهة الآخر ستة منها فى الشمال وستة فى الجنوب، وكلها متجاورة، ومحاطة بسور والمساكن مزدوجة ويوجد منها ألف وخمسمائة تحت الأرض ومثلها فوق الأرض ـ أى يصل عددها الإجمالى إلى ثلاثة آلاف ـ ولقد زرت الغرف العلوية وتجولت فيها وأتكلم بكل ثقة كشاهد عيان ـ أما الغرف الواقعة تحت الأرض فلا أعرف عنها سوى ما سمعته عنها. فالمسؤولون المصريون عن التيه لم يسمحوا لى قط برؤيتها لأنها كانت تستخدم ـ كما قيل لى ـ كمقابر للتماسيح المقدسة والملوك الذين قاموا بتشييدها؛ ولهذا فإننى لن أتكلم عن الغرف تحت الأرض إلا وفقًا لما نقلته عن الآخرين، أما العلوية فلقد رأيتها وأعتبرها أعظم ما أنجزه الإنسان من أعمال فلا يمكننا أن نمل من تأمل التنوع فى مخارج الأقسام الرئيسية للغرف وللمنعطفات التى تؤدى إلى الأفنية بعد المرور بعدة غرف تؤدى بدورها إلى البوابات؛ تلك الأبواب التى تؤدى إلى أقسام رئيسية لغرف أخرى والتى يجب العبور من خلالها للوصول إلى أفنية أخرى، وأسقف كل هذه الغرف من الحجر وكذلك الحوائط المزخرفة بنقوش بارزة وكل

فناء محاط بأعمدة بيضاء متصلة بعضها وبعض بصورة تامة. وفى الزاوية التى ينتهى فيها التيه يرتفع هرم يتكون من أربعين مصطبة حفرت عليها أشكال حيوانات ويمكن الوصول إليه عن طريق نفق أرضى[١].

وهكذا فقد تم تحديد موقع التيه فى أول وآخر جملة من وصف هيرودوت فهو ـ كما يقول ـ يوجد فوق البحيرة بقليل وبالقرب من مدينة التماسيح وبالقرب منه تم تشييد هرم. وإذا بحثنا فى مقاطعة أرسينويه عن أطلال كبيرة تكون جميعها على مقربة من هذه المدينة وبالقرب من البحيرة وملتصقة بالهرم فإننا نصل إلى النقطة التى تحدثت عنها من قبل وهى التى تقع ملتصقة بهرم هوارة ويصل امتدادها إلى ألف قدم تقريبًا. وهيرودوت يعنى هنا التجويف الكبير الذى كان يشكل الجزء الأول من بحيرة موريس. ولنذكر القارئ أننا نهبط من أعلى الهضبة حيث توجد الأطلال التى تحدثنا عنها نحو الغرب لكى نجد هذا الفرع الكبير من البحيرة.

أما ديودور الصقلى فهو يتحدث عنها فى أربع فقرات من كتابه الثانى قائلا:
بعد تحرر المصريين من اكتيساناس انتخبوا ملكًا من أمتهم اسمه منديس يطلق عليه البعض اسم ماروس وهذا الملك لم يقم بأية حملات حربية ولكنه شيد مقبرة تعرف باسم التيه، وهذا العمل يكتسب أهميته الكبرى ليس فقط بمساحته الهائلة ولكن بعمارته الفريدة لأن المرء عندما يدخله يستحيل عليه الخروج منه إلا بمساعدة مرشد يعرف تمامًا كل منعطفاته. والبعض يقول إن ديدال عند قدومه إلى مصر وإعجابه بهذا الصرح قام بتشييد مبنى للملك مينوش فى جزيرة كريت على غرار مبنى منديس وقد قال الشعراء إنه كان يستخدمه كمقر للمينوتور غير أن متاهة كريت ليس لها أثر الآن سواء دمرها أحد الملوك أو أتى عليها الدهر فى حين أن متاهة مصر توجد الآن بأكملها[٢].

---

(١) هيرودوت، التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ١٤٨ ترجمة لارشيه. انظر النصوص المذكورة فى نهاية هذا الوصف، رقم ١

(٢) ديودور الصقلى، ترجمة القس تيراسون الكتاب الأول فقرة ٦١ وإذا كانت هذه الترجمة بها بعض الأخطاء فسوف يتم تصحيحها فى النص رقم ٢ الذى ذكرته.

وعلى الرغم من أن الفقرة الثانية لديودور لا تشمل اسم التيه إلا أننا سوف نذكره لأن الأثر الموصوف فيها يوافق ـ سواء من حيث الموقع أو الامتداد ـ هذا المكان ولأن الكاتب ينسبه إلى الاثنى عشر ملكاً الذين قاموا ـ وفقًا لهيرودوت ـ بتشييد واستكمال التيه.

"وبعد أن حكموا البلاد فى وفاق تام لمدة خمسة عشر عامًا شرع الملوك فى بناء مقبرة جماعية ليحظوا بشرف تجمعهم فى القبر كما سبق واتحدوا فى حكم المملكة. ويعتبر هذا الأثر من أكبر الشواهد تمجيدًا لنمط من الاتحاد نادرًا ما نصادفه. وقد بذل أولئك الملوك كل ما فى استطاعتهم حتى يتعدى هذا العمل فى روعته كل الأعمال السابقة ".

وبعد تحديد الموقع الملائم تجاه مدخل بحيرة موريس فى الصحراء الغربية وهو عبارة عن مساحة أرض مربعة يصل طول كل ضلع منها إلى غلوة تقريبًا قاموا بتشييدالمقبرة من الأحجارالمختارة ولم يستطع أحد منذ ذلك الحين أن يتفوق على هذاالأثر من حيث روعة وبراعة النحت، فبعد اجتياز البوابة مباشرة نرى قصرًا يزدان من كل جانب بأربعين عمودًا والسقف عبارة عن حجر واحد يشغل المساحة بأكملها ونجد أسفله عدة مبانى.كما نجد أيضًا عدة رسومات فنية رائعة للمدن التى ولد فيها أولئك الملوك وللقرابين والاحتفالات التى كانت تنظم تمجيدًا للآلهة. وموجزالقول، فقد كان الهدف من هذا العمل رائعًا وبداية تنفيذه كانت فى غاية الكمال ولو استمر هؤلاء الملوك فى اتحادهم حتى إتمام الإنجاز لتعدى فى كماله أى عمل آخر؛ ولكن بعد مرور خمسة عشر عامًا من حكمهم آلت السلطة إلى واحد منهم ـ فقط ـ للسبب الذى سوف أذكره[١].

والفقرة الثالثة لهذا الكتاب ترجع تشييد هذه المتاهة إلى مينا: " لقد قام مينا بتشييد مقبرته فى نفس هذا الموقع[٢] كما قام ببناء هرم له أربع واجهات والمتاهة التى نتأملها حتى الآن" [٣].

---

(١) ديودور الصقلى، الفقرة ٦٦، ص٧٦، انظر النص رقم ٢.

(٢) بالقرب من مدينة التماسيح وبحيرة موريس.

(٣) ديودور الصقلى، الكتاب الأول ،فقرة ٨٩، ص ١٠٠ وربما كان يقصد منديس بدلاً من مينا.

وفى الفقرة الأخيرة كما فى الفقرة الأولى يعزى الكاتب تنفيذ التيه إلى عهد منديس أو ماروس: " لقد قام ديدال فى كريت بتقليد المتاهة المصرية التى لا تزال قائمة حتى اليوم على الرغم من تشييدها فى عهد الملك منديس أو كما اعتقد البعض فى عهد ماروس - أى عدة أعوام قبل مينا "[١].

ولن نتوقف فى هذا الصدد عند الجدل الذى ثار بين العلماء حول عدد المتاهات التى كانت موجودة فى مصر فما من دليل على أن هناك العديد منها، وفى أحد الأبحاث عن بحيرة موريس يبرهن"جيبار بكل وضوح على أنه لم يكن هناك سوى واحدة فقط[٢] كما أثبت ذلك أيضًا مترجم هيرودوت[٣]. وعدد الملوك الذين ذكرهم المؤرخون ليس دليلاً على تعدد ذلك الأثر؛ فقد افترض كل من سيكارد ودانفيل وبعض المؤرخين الإنجليز للتاريخ العالمى وجود عدة أبنية مشابهة لتلك المتاهة فالعجائب التى تميزها تغنى عن تعدد مثل هذا العمل.

وموجز القول بعد مقارنة الفقرات السابقة للمؤرخ ديودور هو أن هذا البناء كان موجودًا فى الصحراء الغربية تجاه مدخل بحيرة موريس - أى فى البقعة التى تصب فيها القناة مياهها فى البحيرة وأن مساحته كانت تصل إلى غلوة وكان هناك أيضًا هرم ذو أربع واجهات؛ ألا يتطابق ذلك الموضع تمامًا مع ما سبق وحددناه؟

ونحن ندين لاسترابون بتقدير أكثر دقة للمسافات بحيث يمكن تحديد موقع المتاهة وها هو وصفه بالكامل:

"فى هذا الموقع[٤] يوجد التيه ونمط هذا العمل يماثل نمط الأهرامات وبالقرب منه توجد مقبرة الملك الذى قام بتشييده. وهذا الموقع يشبه الهضبة الشاسعة؛ فلكى نصل إليها نقطع ما لا يقل عن ثلاثين أو أربعين غلوة أبعد قليلاً من المدخل الأول للقناة[٥].

---

(١) المرجع نفسه، الفقرة ٩٧ ص ١٠٩ .

(٢) مذكرات أكاديمية النقوش، دراسات أكاديمية النصوص، المجلد ٢٨، ص ٢٤١.

(٣) لارشر، ترجمة هيرودوت، المجلد الثانى ص ٤٧٢

(٤) لقد تحدث الكاتب فى هذا الصدد عن مصبين للقناة فى بحيرة موريس.

(٥) انظر فيما بعد .

وتوجد هناك أيضًا ضيعة قصر كبير كان يستخدمه العديد من الأمراء كمقر للولاية، وعدد آخر من صالات الأعمدة كلها متجاورة فى صف واحد وداخل نفس السور(١). والطرق المؤدية إلى الموقع تواجه السور وهناك العديد من الأقبية على مساحة شاسعة وتتخللها الطرق المتعرجة والمتقاطعة حتى أن المرء الأجنبى لا يستطيع اكتشاف مداخل ومخارج القاعات دون مرشد يصطحبه. والشىء العجيب هو أن أسقف كل المساكن أحادية الأحجار والأقبية أيضًا مسقفة بكتلة واحدة من الحجر هائلة الحجم ولم يتم استخدام أى نوع من أنواع الخشب فى البناء. ويمكننا من خلال السطح قليل الارتفاع - إذ أن المبنى لا يتكون إلا من طابق واحد - أن نرى حقلاً من الأحجار هائلة الحجم. ونستطيع أن نحصى عدد صالات الأعمدة بسبع وعشرين صالة مدعمة بأعمدة أحادية الحجر، وفى طرف البناء ـ الذى يمتد إلى أكثر من غلوة ـ هناك مقبرة على شكل هرم رباعى يصل ارتفاعه وواجهاته الأربع إلى حوالى أربع بيلزونات، والملك المدفون هناك اسمه أماندس. ويقال أن صالات الأعمدة بلغت هذا العدد لأن النواب من كل الولايات تعودوا على التجمع فيها فكان كل نائب يتجه إلى الصالة المخصصة له وكانت تنصب فيها الموائد للكهنة والكاهنات وتقدم فيها القرابين وتتم كذلك مناقشة كل الأمور الهامة بداخلها. وأعلى هذا الموقع بحوالى مائة غلوة نجد مدينة ارسينويه التى كانت تسمى فيما مضى " مدينة التماسيح".

وفى هذه الولاية كان يتم تكريم التمساح هذا الحيوان المقدس(٢) المسمى سوخوس بصورة خاصة إذ تم تخصيص بحيرة منفصلة له وكان الكهنة هم القائمين على رعايته وتغذيته.

وإذا ما قارنا بين هذه الفقرة لاسترابون التى يصف فيها الموقع وبين خريطة الفيوم سوف نتمكن من تحديد موقع التيه دون أية مشقة. ولنلجأ إلى فتحتين من

---

(١) والنص اللاتينى فى هذا الصدد غير مفهوم إذ يبدو أن النص الإغريقى تم تحريفه فبدلاً من "السرعة الصغيرة " كان هناك مخطوط مكتوب عليه وفقًا لكازوبون، عن " طريقها أو سرعتها " انظر النص التالى رقم ٣.

(٢) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، وانظر النص التالى رقم ٣

الفرجار الأولى توازى مائة غلوة[١] بدءًا من أنقاض آرسينويه؛ ولكن من أقصى شمال الأنقاض ـ والثانية تعادل خمسًا وثلاثين غلوة بدءًا من بحر بلا ماء[٢] لنتأكد أن التقاطع بين الفتحتين يقع تمامًا فى المكان الذى وصفناه بالقرب من هرم هوارة، ويقع هذا المكان ـ وفقًا لاسترابون ـ جنوب مدينة رسينويه وليس فى شمالها وهو الاتجاه الذى تخيل جيبار أنه المكان الذى يجب البحث فيه عن التيه[٣].

اضف إلى ذلك أن الكاتب يضع هرمًا فى طرف هذا البناء مثله فى ذلك مثل هيرودوت وديودور ولا يزال هذا الهرم قائمًا حتى اليوم. ولنتناول الآن وصف بلينى وها هى ترجمة الفقرات الأربع التى يتحدث فيها عن المنشأة المصرية فيقول: تقع ارسينويه ومنف بعد هيراكليوبوليس، وتقع الأبراج التى نطلق عليها أهرامات بين منف و أرسينويت على حدود الصحراء الغربية، والمتاهة التى شيدت بالقرب من بحيرة موريس[٤] دون استخدام الأخشاب وكذلك مدينة كريالون[٥] ".

(١) وهو نفس المقياس الذى لجأ إليه استرابون لقياس المسافة بين فيلة وأسوان وقد بلغت هى الأخرى مائة غلوة ـ أى ما يوازى عشرة آلاف متر. انظر الخريطة الطوبوغرافية لمصر واللوحة ٦، الدولة الحديثة. والمسافة لا تتعدى سبعة آلاف وأربعمائة وخمسين متراً من نفس هذا الموقع حتى الجزء الجنوبى للأنقاض.

(٢) يقول استرابون إنها ثلاثون أو أربعون غلوة وفيما يتعلق بنقطة الانطلاق لاحظنا أن بداية بحر بلا ماء هى الموقع الذى يصب فيه النيل مياهه فى بحيرة موريس. وفيما يتعلق بالنص الإغريقى فلا نستطيع أن نترجمه حرفيًا ولكن معناه الإجمالى يوحى بأننا نتقدم فى اتجاه التفريعة الأولى التى نبحر من خلالها عبر البحيرة إلى القناة والتى تساوى من ثلاثين إلى أربعين غلوة، وهذه النقطة أو هذه التفريعة هى بحر بلا ماء ".

(٣) ويضعها هذا الأكاديمى بالقرب من سنهور حيث يزعم وجود أنقاض هائلة لا يعرفها أحد؛ غير أن استرابون يؤيد ذلك الرأى فالمصطلح الذى يستخدمه يعنى "الإبحار فيما وراء " وهو ما ينطبق على القناة والنهر على حد سواء فيما يتعلق بتيار الماء. وإذا كان استرابون يريد أن يقول إن أرسنيويه تقع جنوب التيه لكان استخدم مصطلحًا أو لفظًا يعبر عن الإبحار صعودًا كما هو واضح فى الفقرة من نفس هذا الكتاب التى يتناول فيها الطريق من سكادية إلى منف. وفيما يتعلق بالطريق من سركاسوردم إلى بابيلون فإننا لا نستطيع تفسير تعليق لارشيه عند ترجمته لهيرودوت الذى وضع التية، وفقاً لاسترابون على بعد مائة غلوة جنوب أرسينويه.

(٤) فى إحدى المخطوطات نجد أعلى بحيرة موريس بدلاً من أسفل بحيرة موريس.

(٥) انظر بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب الخامس، الفصل ٢ والنص رقم٥. ترجمة بوانسينه دوسيفرى وهى تختلف كثيرًا فى عدة نقاط عن الترجمة التى حاولت القيام بها هنا.

"هناك هرم فى ولاية ارسينويت وهرمان فى منف غير بعيد عن التيه الذى تحدثنا عنه للتو فى موقع بحيرة موريس - أى فى الفجوة الكبيرة".[١]

"ولنتحدث عن المتاهات ذلك العمل الذى يبرز عبقرية الإنسان وهو ليس بالعمل الأسطورى كما يمكن أن نتخيله. ونجد أيضًا فى مصر فى ولاية هيراكليوبوليس أولى هذه المتاهات التى شيدها - منذ أربعة آلاف وستمائة عام كما قيل لنا - الملك بتسوكوس أو تيتوس على الرغم من أن هيرودوت قال إن هذا العمل من إنجاز آخر الملوك[٢] الا وهو ابسماثيل[٣]. وهناك اختلاف على أصل هذه المتاهة فالمؤرخ ديموتليس يقول إنها كانت قصر الملك موثرود فى حين أن ليسياس قال إنها مقبرة الملك موريس والعديد من المؤخين قالوا إنها كانت معبداً للشمس وهو الرأى الأكثر شيوعًا "

"فمن المؤكد أن ديدال اقتبس نمط هذه المغارة لتشييد متاهة أخرى مماثلة فى كريت ولكنه لم يقتبس إلا جزءًا من مائة من هذا العمل ألا وهو الجزء الذى يحتوى على الطرقات المليئة بالمنعطفات والملفات المعقدة، ولا يشبه هذا العمل قط تلك الأجزاء الممهدة من الحجرات[٤] أو تلك الممرات المتعرجة التى يلهو فيها الأطفال بالجرى داخل التشعبات اللانهائية التى تشتمل على عدة آلاف من المساحات الصغيرة؛ ولكنها بناء يحتوى على العديد من الأبواب الكفيلة بتضليل أى رحالة وخداعه حتى يجد نفسه عائدًا من نفس المنعطفات التى أتى منها. وهذه المتاهة تأتى فى المرتبة الثانية بعد متاهة مصر، أما الثالثة فكانت متاهة ليمنوس والرابعة توجد فى إيطاليا؛ وكل هذه المتاهات كانت أسقفها مقبية من الحجر المصقول، أما متاهة مصر (الجديرة بالإعجاب) فإن مدخلها من رخام باروس الأبيض وأعمدتها من حجر الصوان وقد تم تشييد البناء من الكتل الحجرية الهائلة فاحتفظت بكيانها عبر الزمان غير أن أهل هيراكليوبوليت عمدوا إلى إتلاف هذا العمل القبيح من وجهة نظرهم.

---

(١) بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٦، الفصل ١٢.

(٢) أو الاثنا عشر ملكاً، فلفظ اثنا عشر ليس موجودًا عند بلينى ولكن المعنى يتطلب أن نضيفه.

(٣) علينا أن نقرأ مصطلح: الجديد جدًا بدلاً من لفظ الجديد.

(٤) المقصود هنا بالطبع الفسيفاء المرصوفة بتمرج.

وليس فى استطاعتنا وصف كل أجزاء وشكل هذا الأثر المنقسم إلى مناطق وإلى ستة عشر مبنى كبيرًا، بعدد الولايات والمقاطعات الموجودة آنذاك والتى تم إطلاق اسم كل منها على أحد المبانى الستة عشر؛ لكنه كان يضم معابد لكل آلهة مصر، ونمسيس بالإضافة إلى خمسة عشر مقصورة(١) و العديد من الأهرامات التى يبلغ كل منها أربعين أورجى(٢) ستة منها موجودة فى الأساسات(٣) ونصل إلى هذا الأثر بعد مشقة كبيرة وذلك بعد اجتياز المنعطفات المعقدة.

وفى الجزء الأمامى هناك قاعات طعام مرتفعة، و بين كل صالة أعمدة وأخرى تسعون درجة(٤) والأعمدة من الرخام السماقى وكذلك الحال بالنسبة لتماثيل الآلهة والملوك والتماثيل الضخمة، وبعض هذه الأبنية ثم تشييده بحيث نسمع صريرًا يشبه الرعد عند فتح الأبواب، وفى الجزء الأكبر من المبنى يسير الزائر وسط المقابر. وخارج سور المتاهة توجد كتل من الأبنية الأخرى يطلق عليها " بتيرون " وعدد من الإنشاءات الأرضية والقنوات المحفورة فى التربة. والشخص الوحيد الذى قام بترميم المتاهة هو سيركامون خصى الملك نكتانبو وذلك قبل حكم الاسكندر الأكبر بخمسمائة عام؛ غير أن هذا الترميم كان بسيطًا للغاية، والتراث يروى لنا أنه أثناء تشييد القباب من الأحجار المقطوعة تم استخدام كمرات من الخشب الشوكى بعد غليه فى الزيت(٥).

"ويروى لنا آبيون الملقب ببليستونيسس أن المتاهة تحتوى على تمثال هائل لسيرابيس يبلغ ارتفاعه تسع أذرع "(٦)

---

(١) هناك نص آخر مضمونه " اكمل أمازيس تشييد بناء الهرم بدلاً من " نمسيس " وهو افضل إذ يستخدم لفظ بناء. انظر ما سبق واستشهدنا به من نصوص بلينى.

(٢) لقد تم ترجمة المصطلح اللاتينى أريمون مرفقًا بأربعين ذراعًا؛ غير ان هيرودوت تحدث عن أربعين أورجى، ومن جهة أخرى فإن لفظ Senas الذى يلى اللفظ السابق مباشرة ينطبق على السمك الكثيف للجدار.

(٣) النص الأتى: " السادسة إلى أساس السور " بدلا من " ستة فى الأساسات "

(٤) لفظ Coenacula يعنى الأماكن المرتفعة والشرفات، وكانت حجرات الطعام عند الأغنياء موجودة فى الطابق العلوى.

(٥) بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٦، الفصل ١٣.

(٦) نفسه، الكتاب ٣٧ الفصل التاسع _ انظر فيما بعد النص رقم ٥

وهذه المقتطفات من نص الكاتب اللاتينى ـ على الرغم من عدم دقتها الجغرافية ـ إلا أنها تؤكد الموقع الذى سبق وحددناه للمتاهة فهو يقول بصفة عامة أنها موجودة أعلى السلسلة الليبية بالقرب من بحيرة موريس فيما بين منف وولاية ارسينويت.

ومن المؤكد أن الولاية المذكورة لا تضم إلا الأراضى الزراعية. والهضبة أعلى الجبل الليبى ـ حيث توجد الأنقاض المقصودة ـ لم تكن قط صالحة للزراعة.

وعلى الرغم من هذا فإنه يقول إن هناك هرمًا فى ولاية أرسينويت واثنين آخرين فى منف فى مكان غير بعيد عن المتاهة، ولكى نفسر هذا النص يكفينا أن نضع مصطلح " اثنان فى منف " بعد عبارة "غير بعيد عن المتاهة " وهكذا يمكننا تحديد موقع هرم المتاهة. وبعد تحديد موقع البناء - وفقًا للكاتب اللاتينى ـ يمكننا استنتاج الأعمال المدمرة التى قام بها أهل هيراكليوبوليت فى هذا الأثر؛ ذلك لأن ولاية هيراكليوبوليس التى كان يُكن أهلها العداء للتمساح كانت تجاور ولاية أرسينويه التى كان يقدس سكانها هذا الحيوان، وكان سهل الجبل الليبى ـ حيث توجد المتاهة - يفصل بين هاتين الولايتين.

ولا يخبرنا بومبوينوس ميلا ولا أى كاتب آخر بمزيد من التفاصيل عن موقع[1] التيه، وهكذا فإنه يمكننا استخلاص أن هؤلاء المؤرخين اتفقوا جميعهم على أن موقعه هو أعلى سهل الجبل الليبى مع وجود هرم فى طرفه على حدود ولاية ارسنويه وعلى مسافة غير بعيدة من مدينة التماسيح ويكون مجاورًا لبحيرة أو منخفض موريس بالقرب من مصب نهر النيل فى هذه البحيرة. أما استرابون فقد حدد موقعه بدقة بعد تقدير المسافة بينه وبين المواقع المعروفة المجاورة لها؛ ولكى نفسر نص هذا الجغرافى بدقة كان لزامًا علينا أن نتعرف على البقعة التى يصب فيها نهر النيل مياهه فى هذه البحير؛ والأبحاث التى أوردناها فى القسم الأول أتاحت لنا تحديد هذا الموقع تمامًا.

---

(١) انظر فيما بعد، النص رقم ٦.

المبحث الثالث: تصميم قصر التيه

إذا ما أراد أحد القراء إعادة قراءة وصف الأطلال الموجود اليوم فى موقع التية سوف يجد القليل من التفاصيل التى تخلو من الوصف الهائل للمؤرخين السابقين؛ غير أنه سيتعرف على الخطوط العريضة التى يستطيع من خلالها تحديد موقع التيه وعدم البحث عنه فى مكان آخر أو الخلط بينه وبين موقع آخر؛ فوجود الهرم فى طرف هذا الموقع وامتداد الأطلال الذى سبق وذكرناه فى الفقرة السابقة يتطابق ـ تمامًا ـ مع روايات هؤلاء المؤرخين. فديودور يقول إن المتاهة كانت تقع على مسطح مربع يصل كل ضلع فيه إلى غلوة تقريبًا، أما استرابون فقدره بأكثر من غلوة، ووفقًا لهيرودوت يبلغ هذا الهرم أربعين أورجى وبلينى يؤكد وجود العديد منها وعلى نفس هذه المساحة؛ غير أننا سبق وقلنا إن الامتداد العام لهذه الأنقاض يعادل ما يقرب من ثلاثمائة متر شاملة قاعدة الهرم التى تبلغ مائة وعشرة أمتار مما يجعل امتداد التيه يصل إلى مائة وتسعين مترًا أى ما يوازى أكثر من غلوة مصرية[١]. وفيما يتعلق بالهرم فإننى أعتقد أن مقياس القاعدة المقدر بأربعين أورجى هو مقياس ضعيف إذ أنه لا يقل من وجهة نظرى عن ستين؛ لأن الستين أورجى أو الثلاثمائة وستين مترًا المصرية توازى مائة وعشرة أمتار ونصف. وعندما قدر استرابون ضلع الهرم بأربعة بليثرونات أو بأربعمائة قدم أضاف أربعين قدمًا إلى الستين أورجى ـ أى ما يوازى عُشر هذا المقياس[٢]. وفيما يتعلق بالارتفاع فمقياس الأربعين أورحى يتعدى بكثير هذا الارتفاع إذ أن مقياسه الحالى يصل إلى ستين مترًا بدلاً من الأربع والسبعين التى يستلزمها ذلك المقياس، فلا يمكن بالتالى أن يصل ارتفاع الهرم إلى أربعة بليثرونات أو ستين أورجى كما حدده استرابون.

---

(١) المقصود هنا الغلوة المصرية التى توازى مائة وخمسًا وثمانين مترًا تقريبًا، وهكذا فإننا ندرك أن استرابون استخدم مقياسين مختلفين للغلوة فى وصفه للتيه (انظر دراسة المقاييس المصرية القديمة بقلم جومار). وتم تقدير مساحة عرض الأنقاض بمائة وخمسين مترًا تقريبًا، وربما يكون هناك خطأ فى هذا التقدير أو ربما تكون الرمال قد غطت جزء من هذه الأنقاض لكى يصل عرضها إلى غلوة.

(٢) قاعدة هذا الهرم تصل إلى نصف غلوة بطليموس تقريبًا أو ما يوازى مائتى ذراع عبرية.

وعندما نقرأ عند هيرودوت أن الملك اسيحيسى - الذى أراد أن يتفوق على كل من سبقوه _ ترك أثرًا عبارة عن هرم من الطوب فإننا نعتقد أن الكاتب كان يقصد أحد الهرمين الموجدين فى الفيوم، وحيث إن ديودور الصقلى واسترابون أرجعا بناء المتاهة إلى الملك منديس علينا إذن البحث عن هرم أسيكيس من خلال هرم اللاهون[1].

ويحدثنا هيرودوت عن وجود أشكال لحيوانات منقوشة على هرم التيه، ولا نستطيع تصور كيف يمكن القيام بعمل من أعمال الحفر على لبنات طوب محروقة تحت أشعة الشمس؛ وربما تكون هذه الأشكال عبارة عن إضافات حجرية على هذا الأثر وهو ما قد يشكل أحد العوامل التى ساعدت على تهدم هذا الأثر نظرًا لثقل حجم الأحجار الموضوعة على الطوب نترك للقارئ الكريم تقدير هذه الحالة.

وكلما قرأنا عن هذا الأثر العظيم فى كتب المؤرخين كلما زدادت دهشتنا من الأنقاض الضئيلة التى خلفها. والمتاهة ظلت على حالها ـ وفقاً لبلينى ـ لمدة ستة وثلاثين قرنًا وقد تم ترميمها قبل عهده بتسعمائة عام؛ فكيف يمكن تدميرها هكذا رأساً على عقب خلال سبعة عشر قرنًا؟ غير أننا لا نغفل مسألة موقعها الذى يعتبر من أحد الأسباب الرئيسية لاندثارها؛ فالرمال تحيط بها من كل جانب و غطت جزءًا كبيرًا منها، والبناء _ كما يقول استرابون _ كان قليل الارتفاع فلم يكن مستبعدًا إذن أن يندثر تحت الرمال لأن هناك العديد من الأبنية الأحدث منه والأكثر ارتفاعًا عنه قد اختفت تحت الرمال تمامًا. والأطلال الهائلة الموجودة حاليًا عبارة عن أسطح لمبنى وبعض أجزاء من الأسوار والأبراج الصغيرة المربعة التى تتصل بالسور ترتفع الآن عن سطح الأرض بحوالى متر أو مترين وآثار تخريب الإنسان واضحة عليها؛ وربما يكون هذا هو الدمار الذى ألحقه أهل هيراكليوبوليس بها إذ أننا لايمكن أن نعزى هذا التدمير _ وفقًا لنصوص بلينى ـ لأبعد من عهد هيراكليوبوليس.

---

(١) انظر الوصف فى نهاية هذا القسم.

والسبب وراء احتداد أهل هيراكليوبوليس على التيه هو أنهم كانوا يعبدون النمس فى حين أن سكان أرسينويه كانوا يمجدون التمساح - العدو اللدود للنمس - غير أن هذا السبب غير أكيد ومشكوك فى صحته تمامًا مثل أساطير عبادة هذه الحيوانات. ولسوء الحظ فإننا لم نعثر على المعابد ولا الآثار الدينية لتلك الولايتين والتى تمكننا من التعرف على طقوس عبادتهما. وقيل فى وصف ولاية هيراكليوبوليس إن العاصمة قد تقوضت بالكامل كما تم شرح أسباب كره أهلها لسكان ولاية مدينة التمساح[1] وعلينا التسليم بأن الكتل الهائلة التى أسماها بلينى بتيرون هى عبارة عن أجنحة كالتى كانت تميز المعابد المصرية[2] فاسترابون كان يستخدم لفظ "بيتيرا " عندما كان يصف الإنشاءات الجانبية لتلك المعابد، ولم يتبق أى شىء يمكن للعين المجردة أن تراه من أطلال هذا التيه سوى بعض صفات الأعمدة والصالات الأقبية والأبواب وتماثيل الملوك والآلهة.

والغرف المحفورة فى الصخر التى شاهدها مالوس تطابق تمامًا روايات بلينى التى يحدثنا فيها عن المساكن المحفورة تحت الأرض ورواية استرابون فيما يتعلق بالتجويفات الأرضية التى شبهها بالردهات التى تؤدى إلى الهرم وإلى باقى البناء.

وأحجار هذا المبنى كانت تتكون – كما سبق وذكرنا من خلال وصف بلينى- من الحجر الجيرى المضغوط والقابل للصقل؛ ولكن ماذا عن المدخل المبنى من رخام الباروس الأبيض؟

والأمر الصعب تخيله هو عدد الغرف الموجودة فى التيه؛ فقد قال هيرودوت إن عددها يصل إلى ألف وخمسمائة غرفة تحت الأرض ومثلها على سطح الأرض، والمساحة المربعة التى تشغلها المتاهة - مهما يكن اتساعها - لا تستطيع أن تتحمل - فى رأينا - مثل هذا العدد من الغرف إذ أن كل منها لن تقل مساحته عن أربعه أمتار تقريبًا ولقد أيد بومبونيوس ميلا رأى هيرودوت فيما يتعلق بهذا الرقم.

---

(١) انظر وصف إقليم بنى حسن، الفصل ١٦، المبحث الرابع.

(٢) انظر وصف ادفو، الفصل الخامس.

"فهناك فى المتاهة - كما يقول ميلا - ثلاثة آلاف غرفة وأثنا عشر قصرًا محاطة بسور واحد والبناء مشيد من الرخام وليس به سوى مدخل واحد ولكن توجد بداخله طرقات لا حصر لها نستطيع من خلالها أن ندور فى ألف منعطف وتؤدى بنا فى النهاية إلى نفس المكان الذى بدأنا منه.. الخ " .

وربما يقع هذا المدخل الذى يتحدث عنه "بومبونيوس ميلا " فى غرب الأنقاض الحالية على الهضبة السفلية التى سبق ووصفناها والتى ترتفع عن أرض المتاهة بحوالى خمسة عشر مترًا، وهناك نجد الردهة التى تؤدى إلى الهرم من تحت الأرض كما تؤدى إلى باقى البناء.

والأمر الأكثر إثارة والذى يتطلب ايضاحًا مقارنة بروايات المؤرخين يتعلق بعدد ساحات القصور التى كان يجتمع فيه نواب الولايات؛ فقد اختلف الكتاب فيما يتعلق بعدد ولايات مصر لأنها تغيرت مع تغير حكام البلاد ومع مرور الزمن. فقائمة بلينى تختلف عن قائمة استرابون التى تختلف بدورها عن قائمة بطليموس أما ديودور و هيرودوت فلم يذكرا سوى أسماء متفرقة لهذه الولايات؛ غير أن هناك بعض المعطيات الدقيقة التى تسمح لنا بوضع قائمة لهذا العدد.(١) والمقام هنا لا يتيح الإسهاب فى هذا البحث إذ أنه يندرج فى مجال الجغرافية المدنية والمقارنة لمصر وسوف يتناوله أحد المتخصصين غيرنا، وسوف نكتفى ببعض فقرات لاسترابون و بلينى؛ فقد قال الأول إن المتاهة تضم سبعًا وعشرين قصرًا حيث كان يجتمع نواب الولايات لمناقشة الأمور الهامة. أما الثانى فقد حدثنا بوجود ستة عشر بناءً كبيرًا لولايات الإقليم، وفى بعض المواضع يخبرنا أنها خمسة عشر وفى أحيان أخرى يحدثنا عن أحد عشر مبنى صغيرا؛ وربما كان يقصد بالستة عشر بناءً تلك الأبنية التى كانت مخصصة للولايات الرئيسية، وبالأحد عشر الولايات التى تأتى فى المرتبة الثانية وهكذا يصل عددها الإجمالى إلى سبع وعشرين كما يرى استرابون. وفى العهد القديم كان هناك عشر ولايات فى الصعيد ست منها فى إقليم بنى حسن وعشر فى مصر

---

(١) انظر وصف إقليم مصر الوسطى، الفصل ١٦، المبحث الأول

السفلى ـ أى أن العدد الإجمالى يصل إلى سبع وعشرين ولاية. ولم يتم تقسيم البلاد إلى عدد أكبر من المقاطعات إلا فى العهد الأحدث من ذلك[١].

ولن نتوقف كثيراً أمام نص بلينى الذى يخبرنا فيه بأن كل قاعات المتاهة كانت مقبية؛ فمن المحتمل أن تكون تلك القباب مماثلة للأقبية الموجودة بمعبد أبيدوس فقد حدثنا استرابون عن مشاهدته فى أبيدوس لأعمال مشابهة للمتاهة. وهناك كذلك نوع من التطابق بين المبانى فى هاتين الولايتين فقصر ممنون بأبيدوس والمتاهة يقع كل منهما على مشارف الصحراء الغربية، ويؤيد استرابون نفس هذا الموقع إذ أنه ينسبه إلى الملك ايمندس وهذا هو نفس موقف ديودور الصقلى الذى ينسب تشييد التيه إلى الملك منديس. وقد سبق إجراء هذه المقارنة فى وصف ابيدوس[٢]. وخلاصة القول فإن تصميم المتاهة المتميز يثبت جيدًا أنها تنتمى إلى عصور تختلف تمامًا عن عصور الآثار المصرية الأخرى.

وقد يتعين علينا إعادة رسم تصميم المتاهة وفقًا للأطلال الموجودة الآن مقارنة بوصف الكتاب الآخرين غير أننا ـ لنصدقكم القول ـ نرى أنه عمل شاق للغاية وتخمينى أن إعادة رسم المبنى وحدة تبدو شبه مستحيله نظرًا لتعدد الاقتراحات التى ترتكز على أساس قوى حتى لو استعنا بكل المعطيات والبحوث الدقيقة التى أجريت على كل مصر القديمة[٣]؛ ولكن ماذا عن ارتفاع وزخارف المتاهة؟

---

(١) انظر وصف اقليم بنى حسن الفصل ١٦، من جهة أخرى يحدثنا هيرودوت وميلا عن اثنى عشر قصراً متجاورة تقع فى نفس الحرم كما لو أنها كانت تتبع الاثنى عشر أميرًا الذى أرجع إليهم بناء المتاهة.

(٢) انظر وصف ابيدوس، الفصل ١١، المجلد ٣.

(٣) لهذا السبب رفضنا إجراء رسم تشبيهى لهذا الموقع مكتفين فى ذلك بوصف الأماكن التى أوردناها فى الجزء الأول وبالخريطه الطوبوغرافية للفيوم التى يمكن أن تعطينا فكرة واضحة. وفيما يتعلق بتعليقات الكتاب فهناك عدة طرق لترجمتها وفهمها.

المبحث الرابع: أصل التيه والغرض منه

فى الفقرات السابقة رأينا أن تشييد المتاهة تم اسناده للعديد من الملوك ولقد أضاف مانيتون اسمًا آخر لهذه القائمة، فقد أسند بناءها للاكاريس خليفة سيزوستريس لكى يتم دفنه فيها وتشهد على عظمة قوته. ووفقًا لأوزاب فإننا يجب أن نقرأ الاسم كالآتى لاباريس[1]، وكل هذه الأسماء تدلنا على أن العديد من الملوك قد شاركوا فى تشييد هذه المتاهة أو أن ملكاً واحدًا هو الذى كان يحمل هذه الأسماء المتعدده فظن الكتاب الأغريق والرومان أنهم ملوك مختلفون وذلك لجهلهم باللغة المصرية. والشىء المؤكد هو أن الاثنى عشر ملكاً الذين حكموا البلاد طيلة خمسة عشر عامًا. وهى الحقبة التى تميزت فيها مصر بالاضطرابات. كان من الصعب عليهم تشييد مثل هذا البناء وربما قاموا ببناء جزء منه فقط خاصة الملك ابسماتيك وهذا هو الرأى الذى يؤيده بومبونيوس ميلا.

والأهداف التى شيدت من أجلها المتاهة لا تقل غرابة عن تعدد الأمراء الذين أسند إليهم تشييدها؛ غير أنه من السهل علينا ملاحظة توافق روايات المؤرخين فى هذا الصدد، فما هو المانع من أن يكون لدى أولئك الملوك هدفًا واحدًا مشتركًا يحثهم على بنائها؟ فمن الواضح أنها شيدت ليس فقط من أجل حفظ مومياوات التماسيح المقدسة أو رفات الملوك ولكن الهدف الأساسى من وراء تشييدها هو اتخاذها مقرًا لاجتماعات ولاة مصر، وحيث إن أمراء الولايات يجتمعون كلهم فى هذا المكان فقد كان من الطبيعى أن يتم بناء معبد لكل إله حتى تستطيع كل ولاية أن تمارس بداخله طقوسها الدينية؛ فقد كانت المتاهة إذن عبارة عن مدفن عظماء الأمة ومكان يجتمع فيه الرؤساء لمناقشة أسرار الدولة. وقد كان الظلام الذى يخيم على الردهات الموصلة إلى قصور الولاة هو أكبر دليل على هذا الغموض الذى كان يكتنف مداولاتهم.

وذلك هو التصميم المحتمل للمتاهة غير أن هذا لا يمنع من فكرة تشييدها لتقديس الشمس ومن أن الملك منديس قد بناها ليدفن فيها وكذلك الحال

---

(١) مانيتون، الجغرافيا، ص ٥٩، ٦٠.

بالنسبة للملوك الآخرين، وكانت هناك قاعات سفلية لحفظ رفات التماسيح المقدسة. ولم يستطع أحد أن يعطى تفسيرًا معقولاً لاشتقاق لفظ متاهة اوتيه. وقد يتيح لنا هذا البحث بعض الظروف المواتية لتفسير المقصود به.

وصف هرم اللاهون

لم نتناول بالوصف حتى الآن الهرم المشيد بالطوب الذى يقع على بعد فرسخين تقريباً من شرق هرم المتاهة، فى مدخل الفيوم وسوف نوجز هذا الوصف فى الفقرات التالية. والهرم المذكور أكثر تدهورًا من الهرم الثانى ومشيد بالطوب النيئ المحروق تحت أشعة الشمس(١). ولقد زرناه فى ٢٥ يناير سنة ١٧٩٩ وصعدنا إلى قمته(٢). وهو يقع على بعد ألف وخمسمائة متر فى الصحراء وفى شمال قناة يوسف وعلى هضبة ترتفع قليلاً عن سطح الرمال، ويصل طول قاعدته إلى ستين مترًا تقريبًا، أما ارتفاعه فيبلغ فى الوقت الحالى حوالى عشرين مترًا وقمته - التى تأخذ شكلاً مسطحًا بعد انهيارها - يصل عرضها إلى ثمانية عشر مترًا. والهرم يرتكز على هضبة من أنقاضه يصل ارتفاعها إلى سبعة أمتار تقريباً وطولها حوالى ثمانين متراً. أما قوالب الطوب فيبلغ طول الواحد منها أربعة سنتيميترات وعرضه واحدًا وعشرين وسمكه أربعة عشر سنتيمترًا وتجاه أسفل الواجهات نلاحظ. فى خمسة مواقع متفرقة. وجود أحجار مقطوعة يبدو أنها استخدمت لتدعيم البناء.

ولا نعرف أهرامات أخرى مشيدة بالطوب سوى فى الفيوم مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن الملك أسيخيس هو الذى قام بتشييده لينافس الملوك السابقين، ولقد نقشت عليه العبارات التالية: " لا تحتقرنى عندما تقارنى بالأهرامات المشيدة من

---

(١) انظر اللوحة ٧٢، الشكل ٢ .

(٢) روزيير دوبوى، كاستكسى وجومار ولقد تركنا تصميم له.

الأحجار فعظمتى تتعداها مثلى فى ذلك مثل جوبيتر الذى تتعدى عظمته كل الآلهـة، لأننى شيدت من الطوب المصنوع من الطمى المستخرج من قاع البحيره"(١). فهذا الملك هو إذن أول الملوك الذين قاموا بتشييد هرم من هذه المادة. وإذا كان هرم اللاهون من أعمال الملك أسيخيس فهرم هوارة يكون قد تم بناؤه بالتالى فى الفترة اللاحقة لحكم هذا الملك؛ وهذا الاستنتاج يكتسب أهميته من حيث اكتشاف عصر بناء المتاهة لأن الهرم إذا لم يكن قد تم تشييده فى نفس الفترة فهو على الأقل تم بناؤه فى نفس اتجاه المتاهة.

ويخبرنا هيرودوت أن الرجال المكلفين باستخراج الطمى من البحيره لبناء هرم أسيخيس كانوا يجرفون الأرض بمقاذيفهم مما يدفعنا إلى استنتاج أن ارتفاع منسوب المياه فى البحيرة كان ضئيلاً للغاية فى هذة الحقبة. وربما يكون استخراج هذا الطمى قد تم فى الجهة الجنوبية من البحيرة التى ينخفض فيها الحوض ويأخذ انحناءة بسيطة.

ونحن لازلنا نعتقد أن الملك أسيخيس هو الذى قام بتشييد هرم اللاهون لأنه إذا كان هناك هرم ثالث من هذا النوع، لظل قائمًا حتى العصر الحالى؛ فهذه الآثار الهائلة تدمرت قمتها وزواياها وواجهاتها ولكنها لم تندثر بأكملها. وهو أمر يسهل إثباته عن طريق رسومات الأهرامات المشيدة على الهضبة الغربية بدءًا من الجيزة حتى الفيوم. فهدم هرم بكامله - حتى لو كان يحتل المرتبة الثانية أو الثالثة - يستلزم الكثير من الوقت والجهد(٢).

---

(١) انظر فيما بعد النص رقم ١ الذى يتناول هذا الموضوع بتفصيل أكثر من ترجمة لارشر.

(٢) لقد انكب كل من أ. لوبير وكوتل على هدم الهرم الرابع فى الجيزة ولكنهما واجها مشقة كبيرة فى تقويضه حتى ثمن حجمه، وقد اضطرا لوقف هذا العمل الذى لم يكن مستحيلاً لعدم توافر الوقت اللازم لذلك. (انظر ملاحظات حول أهرامات الجيزة) بقلم كوتل، دراسات العصور القديمة .

وصف لمسلة أبجيج
بالقرب من كروكوديلوبوليس القديمة

بقلم: كاريستى

مهندس الطرق والكبارى، عضو اللجنة المصرية للعلوم والفنون،
فارس بالفرقة الملكية وبجوقة الشرف

بالقرب من قرية ابجيج وعلى بعد ربع فرسخ من جنوب مدينة الفيوم وأنقاض كروكوديلوبوليس القديمة ترقد وسط الحقول مسلة ضخمة مشطورة إلى جزءين، وتتميز هذه المسلة بحجمها المستطيل وبزخرفتها الفريدة؛ فلها واجهتان كبيرتان وواجهتان صغيرتان وتأخذ شكل متوازى الأضلاع و يصل أحد أضلاعه إلى ضعف الآخر، وهى ممددة الآن على أحد جوانبها و ترقد كتلتا الجرانيت اللتان تكونا المسلة كل فى مقابل الأخرى وفى نفس الوضع الذى كانت عليه حين سقوطها. يبلغ طول الكتلة الكبيرة ٦,٨٠م[١] بدءًا من القاعدة حتى الجزء المكسور أما الجزء الآخر فيصل طوله إلى ٥,٩٠م[٢] بدءًا من الجزء المكسور حتى القمة وارتفاعها الكلى كان يبلغ ١٢,٧٠م[٣] بافتراض وجود الجذع بكامله، أما عرض الواجهتين الكبيرتين بدءًا من القاعدة فيصل إلى ٢,١٠م[٤] ويقل حتى يصل إلى ١,٤٤م[٥] فى الجزء العلوى.

والواجهتان الكبيرتان (إذا ما حكمنا على الواجهة التى أمامنا) تزينهما خمس لوحات تشغل العرض بأكمله وتصطف الواحدة فوق الأخرى مع وجود مسطرة صغيرة بين كل لوحة[٦] ويتكون كل مشهد من ستة أشخاص يرتدون أغطية فوق رؤوسهم ويمثلون كهنة فى وضع الوقوف، وأسفل هذه المشاهد يوجد

---

(١) عشرون قدم وإحدى عشرة بوصة ونصف.
(٢) ثمانية عشر قدمًا وبوصتان.
(٣) تسع وثلاثون قدمًا وبوصتان.
(٤) ست أقدام وخمس بوصات ونصف.
(٥) أربع أقدام وخمس بوصات.
(٦) انظر اللوحة ٧١، المجلد الرابع، شكل ٢ .

اثنا عشر صفًا من الكتابة الهيروغليفية تفصل بينها بعض الأخاديد الصغيرة حتى القمة وخمسة من هذه الأخاديد تأخذ اتجاها موازيًا لأحد جوانب المسلة الصغرى والخمسة الأخرى الاتجاه المقابل والأخدود الأوسط فقط هو الذى يأخذ شكلاً عمودياً. و هناك تضليعة واحدة تحيط بكل هذه الأخاديد وتأخذ نفس شكل الفواصل بين صفوف الكتابة الهيروغليفية.

وعلى الرغم من أن حفر هذه الكتابة - وفيرة العدد - صغير جدًا إلا أنه فى غاية الدقة. وتتشطر المسلة عند ثلاثة أرباع هذه النقوش، والواجهات الصغرى منها تخلو من أية أشكال أو كتابة هيروغليفية باستثناء إطار الأخاديد الذى يأخذ اتجاهًا موازيًا للواجهات الكبرى، أما الخطوط والمسافات الموجودة على الواجهات الأربع فتتطابق جميعها.

والأمر الذى يميز هذه المسلة هو أن قمتها تأخذ شكلاً أسطوانيًا قاعدته مكافئة وشبه منحنية بدلاً من الشكل الهرمى الذى يميز كل المسلات المصرية سواء فى الوجه القبلى أو البحرى[1] وينتهى الطرف العلوى لكل من الجوانب الصغيرة بهذا الشكل المنحنى، وفى وسط القمة تم حفر فجوة عميقة[2] يصل عرضها إلى أربعين سنتيمترا وعمقها إلى سبعة سنتيمترات؛ وبالرغم من أن استدارة جوانبها نفذت بفن واتقان إلا أننا نعتقد أنها حفرت لإدماج قمة ذهبية تزين المسلة التى تخلو من أى أثر يدل على أنها كانت مزخرفة؛ فلقد أخبرنا بلينى أن أحد حكام مصر كان قد عقد العزم على دمج قمة ذهبية فى المسلة التى كان بطليموس فيلادلفوس قد شيدها فى ارسنوى ـ الحى السكندرى ـ تمجيدًا لزوجته وأخته أرسينويه[3]. ومن أجل هذا تم قطع القمة ولكن المشروع لم يكتمل. وهذا هو الذى دفعنا للاعتقاد بأن مسلة ابجيج تم حفر قمتها بهذه

---

(١) هناك مسله أخرى فى جزيرة تيبرين تتويجها يماثل مسلة ابجيج، ولقد عقد چومار مقارنة بين المسلتين فى بحث له عن مسلات جزيرة تيبرين "

(٢) انظر اللوحه ٧١، المجلد الرابع الشكلين ٢، ٧ .

(٣) تم نقل هذه المسلة إلى ميدان روما (بلينى، التاريخ الطبيعي، الكتاب ٣٦، المقطع ٨) ولقد شيد أيضاً فيلادلفوس تمثالاً من الزبرجد فى أرسينويه بارتفاع أربعة أذرع (نفسه، الكتاب ٣٧، المقطع ٨).

الطريقة إذ أنها تخلو - كما سبق وقلنا - من أى أثر للزخرفة؛ ما الهدف إذن من عمل هذه الحفرة إن لم يكن لهذا الغرض؟ هل كان الغرض منها تثبيت الحبال التى كانت تستخدم أثناء وضع المسلة؟ هل كانت البديل عن البكرة عديدة السنفات التى تستعمل لرفع الأثقال؟ هذا هو ما نجهله. وقد تتعدد الافتراضات ولكن الشىء المؤكد هو أن القمة التى توجد بها هذه الحفرة وتلك الأخاديد غاية فى الإتقان والجمال وكذلك الحال بالنسبة للواجهات وبقايا أجزاء المسلة التى تدل على أنها صنعت بيد واحدة وفى زمان واحد. وإذا ما سلمنا بالروايات التى حدثونا بها فى بلادنا فإن سبب سقوط هذه المسلة يرجع إلى أحد باشوات القاهرة الذى كان يلهو بإطلاق المدفعية عليها فشطرها إلى جزءين؛ غير أننا لا نعتقد فى هذه الرواية لأنه ليس هناك أى أثر لطلقات مدفع على المسلة بالإضافة إلى أن الأخاديد سليمة تمامًا وهناك حفر فى أسفل المسلة يدل على أنه عُمل خصيصًا لطرحها أرضًا بكل سهولة، و توجد المسلة بالقرب من أرسينويه - المكان الأقرب للواقع لتشييدها وذلك فى العهد الذى كان يطلق عليها مدينة التماسيح - ولكن تم ردمها بالكامل كما رأينا فى القسم الأول. ومسلة أبجيج هى الأثر الوحيد المتبقى من هذه العاصمة القديمة.

نصوص الكتاب(*)

-١-

هيرودوت

قرروا جميعًا أن يخلفوا أثرًا مشتركًا ولهذا شيدوا المتاهة التى تقع وراء بحيرة موريس بقليل وعلى مقربة من المدينة المسماة بمدينة التمساح ولقد رأيته بنفسى، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان. و لو قدر لامرئ أن يجمع معرضًا للمبانى والآثار الفنية التى شيدها اليونانيون لبدت عملاً أقل من هذه المتاهة لما يتطلبه من نفقات وعمل شاق ، ولو أن معبدى افسوس و ساموس يستحقان الحديث عنهما. و لقد لاحظنا أننا نعجز عن وصف الأهرام لأنها تفوق كثيرًا من الآثار الإغريقية حتى أعظمها . و المتاهة تفوق الأهرامات أيضًا وبها اثنا عشر بهوًا مسقوفًا ومداخلها متقابلة و متتابعة ؛ ستة منها تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب و يحيط بها سور خارجى واحد . وهناك نوعان من القاعات بعضها تحت الأرض و بعضها فوق سطح الأرض وعددها ثلاثة آلاف قاعة . الف وخمسمائة من كل نوع، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التى فوق سطح الأرض وتجولنا فيها؛ وأنا أتكلم كشاهد عيان .

أما القاعات تحت الأرض فوقفنا على أمرها وفقًا لما قيل لنا؛ لأن المشرفين المصريين لم يقبلوا البتة أن نزورها مدعين أنه توجد بها توابيت الملوك الذين بنوا

(*) النصوص مترجمة عن اللاتينية. (المراجع)

أول الأمر تلك المتاهة، وبها توابيت التماسيح المقدسة أيضًا وهكذا فإن الحديث عن القاعات السفلية عرفناه عن طريق الروايات التى قيلت لنا، أما القاعات العلوية فقد رأيناها بأعيننا و هى تفوق أعمال البشر؛ فالممرات خلال الردهات و المتعرجات فى غاية التعقيد و كانت مصدر إعجاب لنا لا حد له أثناء مرورنا من البهو إلى القاعات. و هذه الأروقة تؤدى إلى ردهات و قاعات أخرى. و أسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران الممتلئة بالأشكال المنقوشة وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الأبيض متداخلة بإتقان فائق. ويلتصق الركن الذى ينتهى عند المتاهة بهرم ارتفاعه أربعين باعًا نقشت عليه أشكال حيوانات كبيرة وقد تم بناء طريق تحت الأرض يوصل إلى المتاهة.

(هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ، المقطع ١٤٨)

" لا تحتقرنى بالقياس إلى الأهرامات الحجرية فأنا أفوقها بقدر ما يفوق زيوس الآلهة الآخرين؛ فقد استخرج طمى البحيرة و صنعت منه لبنات الطوب لبنائى " .

(نفسه، المقطع ١٣٦)

-٢-

ديودور الصقلى

بعد انتهاء حكم الملوك حكمهم الملك منديس الذى كان يدعى ماروم والذى قضى حياته فى الأعمال الحربية و بنى لنفسه مقبرة ضخمة تعرف باسم التيه وطبعًا ليس بنفس حجم الأعمال العظيمة السابقة. و لم يكن الحظ حليفه سوى لمدة خمسة عقود. و يقال أن ديدالوس قد زار مصر و استمتع برؤيته وأعجبته مهارة العمل ولهذا شيد هو الآخر الداليزنتوس فى كريت بمدينة مينوس و كان يشبه إلى حد كبير ذلك الأثر الموجود فى مصر و كان يطلق عليه اسم مينوتاوروس فى كريت ولكن لم يكن له نفس القوة و لا طول العمر مثل التيه المصرى و لم يستطع أحد محاكاته حتى وقتنا هذا.

(تاريخ المكتبة، الكتاب الأول، المقطع ٦١)

وخلال خمسة أو ستة أعوام بدأوا فى تشيد أثر شبيه له و هى مقبرة لا مثيل لهـا من أجل الملك لكى يمجـدونه طوال حـياته و تظل ذكـراه بعـد مماته، وبعـد الانتهاء من أعمال التشييد و البناء حاز هذا العمل على إعجاب الناس و كان يتوافد عليه الزائرون بالمئات، وكان يقع على بحيرة موريس فى الهضبـة الليبية حيث أنشأ أيضًا مقبرة أخرى من أفضل أنواع الحجارة و بتصميم رباعى و كان طولها مائة غلوة من كل جانب و كانت محاطة بأعمال فنية يدوية تشير إلى الوطن و الملوك لتخليد ذكراهم وشيدوا أيضًا بالإضافة إلى ذلك معبدًا مقدسا.

(نفسه)

-٣-

استرابون

بالإضافة إلى الأمور السالف ذكرها فإن هذا الإقليم توجد به المتاهة وهى من الأعمال المماثلة فى عظمتها للأهرامات وبالقرب منها عند المدخل الأول للقناة و على بعد حوالى ثلاثين أو خمسين غلوة نجد المكان الذى يوجد به قصر عظيم يتكون من عدة قصور صغيرة، وهناك عدد كبير من الأقاليم محاطة بمستعمرات ممتدة كحائط واحد، والمبنى كما يبدو طويل و الملاعب تقع أمامه والطرق تسير فى الاتجاه المقابل للحائط، ويوجد فى مقدمة المدخل أبنية تحت الأرض عبارة عن ممرات تتصل ببعضها و لا يستطيع الزائر أن يجد طريقه بسهولة و بدون مساعدة مرشد. والشىء الأكثر روعة هو السطح الخاص بكل حجرة فهو يتألف من حجر أحادي، والشخص الذى يصعد على السطح ـ و هو غير شاهق الارتفاع مثل المتاهة ـ يستطيع أن يرى حدود الحجرات المشتملة على الحجارة الضخمة، وعند الهبوط فإن المرء يرى هؤلاء الذين يرقدون فى صفوف و الذين يتعدى عمرهم سبعة وعشرين قرنًا على الأقل. والأحجار المستعملة فى بناء الأسوار كانت صغيرة الحجم. وفى نهاية هذا المبنى الذى شغل مساحة غلوة واحدة نجد مقبرة هرمية ورباعية الشكل و لها جوانب تصل إلى حوالى أربعة

بليثرونات عرضًا ومثلها طولا. و منديس هو اسم الرجل المدفون هناك. ويقال إن هذا العدد من الحجرات تم بناؤه لأن العادة جرت فى كل الأقاليم باجتماع الكهنة و الكاهنات فى حفلات الاستقبال من أجل التضحية و تقديم القرابين للآلهة و معاونيهم.

(استرابون ، الجغرافيا ، المجلد الثاني ، الكتاب ١٧ ، ص ١١٤٩ و ١١٥٠ ، طبعة فالكونيه ، ١٨٠٧)

-٤-

مانيتون

فى العام الثامن من عصر لاخاريس فإن المتاهة تم اختيارها لتكون رمزًا لهم.

(مانيتون ، الجغرافيا والتاريخ ، ص ٥٩)

-٥-

بلينى

إن مدينة أرسينويت تقع بين مدينة أرسينويه ومدينة منف وفى الهضبة الليبية حيث توجد أهرامات تسمى التيه فى المكان الواقع على بحيرة موريس حيث كانت توجد مدينة كريالون.

(بلينى ، التاريخ الطبعى ، الكتاب الخامس ، المقطع ٩)

هناك واحد فى إقليم أرسينويت واثنان فى منف أما التيه الذى نتحدث عنه و الواقع على بحيرة موريس فلم يكن هناك غير واحد منه فقط ضخم الحجم.

(الكتاب ٣٦)

و لنتحدث عن المتاهة فهو عمل عبقرى و بشرى بارع و بقى خالدًا على مر العصور فى مصر و فى إقليم هراكليوبوليس، وهذا العمل صمد ضد الزمن لمدة أربعمائة و ستين عامًا وبناه الملك بيتسوكوس الذى تحدث عنه هيرودوت و عن مملكته و أسطوله البحرى و كذلك أيضًا الملك أبسماتيك. و يقال أن التيه تم تشييده بأحجار صلبة جدًا فى كريت نظرًا لحركة الاتصال معها؛ وكذلك فى إيطاليا. و أن كل المعابد كانت مخصصة للآلهة المصرية. اضف إلى هذا الأهرامات التى استخدمت كمقابر. و قد تصدى الملك كيركامون المعروف بالملك نيكاو للإسكندر الأكبر بقوة صغيرة هناك.

(الكتاب ٣٦ ، المقطع ١٢)

و كان أبيون معروفًا باسم بليستونيكيس و كان ينتقد الكتابة التى كانت على التيه فى مصر والكولوسيوم و كذلك سيرابيس بشكله الجديد.

(الكتاب ٣٧ ، المقطع ٥)

-٦-

بومبونيوس ميلا

يعد أبسماتيك هو صاحب عمل التيه و هو الملك الثانى عشر و نهض بوطنه و أصلح و أقام حياة طيبة للسكان، وأسس جيشًا قويًا كان قادرًا على أن يواجه أية مدينة أخرى، وكان لديه أسطول قوى .

(الكتاب الأول ، المقطع ٩ ، ص ١٢ ، طبعة كونيتيس ، ١٦٥٨)

-٧-

أوزاب

بعد عصر سيزوستريس وفى العام الثامن من أسرة لاباريس حيث شيد التيه فى مدينة أرسينويت.

(الجغرافيا والتاريخ ، ص ٦٠)

الفهرس

الفصل الخامس عشر

وصف الشيخ عبادة بقلم السيد چومار

مراجعة وتقديم: منى زهير الشايب

ترجمة

د. ناهد الطنانى

د. ناهد عبد الحميد

د. منان طلعت

د. منار رشدى

إشراف

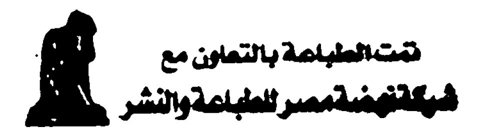
أ.د. فوزية شفيق الصدر

مدير التحرير

حسين البنهاوى

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٩١٥/ ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8741 -0


تمت الطباعة بالتعاون مع
شركة نهضة مصر للطباعة والنشر